

التيارات السياسية

في

الخليج العربي



تأليف

الدكتور صلاح العقاد

١٩٧٤

الناشر

مكتبة الأجلو المصرية

٣٠



محتويات الكتاب

صفحة	مقدمة
٣	الفصل الأول: البرتغاليون
٩	١ - الأوضاع الداخلية
١٤	٢ - الغزو البرتغالي
٢٠	٣ - التدهور
٢٧	الفصل الثاني : التجارة الأوربية
٢٧	١ - شركات الاحتكار
٣٠	٢ - التنافس الإنجليزي الهولندي
٣٥	٣ - بدء التفوق البريطاني
٤٢	الفصل الثالث : تصاعد القوى العربية
٤٤	١ - اليعاربة
٤٩	٢ - قيام أسرة البوسعيد
٥٣	٣ - المغرب
٥٧	٤ - ظهور الدولة السعودية



١٥٠٠
٢٤٧
A13
S24
DS
٢٤٧
٢٤٧
٢٤٧
٢٤٧

عالمنا العربي القديم

٥٧٤١

٥٧٤١

عالمنا العربي القديم

صفحة	
١٦٦	٣ - التنافس الإقتصادي .
١٦٨	٤ - الإتفاقات المأمنة
١٧٣	الفصل التاسع : العثمانيون
١٧٥	١ - النزاع البريطاني العثماني في قطر والبحرين
١٨٠	الفصل العاشر : العرب والنزاع العثماني البريطاني
١٨٠	قبل الحرب الأولى .
١٩٠	١ - مسألة الكويت .
١٩٠	٢ - إحياء الدولة السعودية .
١٩٤	٣ - مشروع الاتفاق العثماني البريطاني
١٩٩	سنة ١٩١٣ .
٢٠٢	٤ - مسألة شط العرب .
٢٠٢	الفصل الحادي عشر : التنافس الدولي
٢٠٢	١ - عمان والتنافس الإنجليزي الفرنسي
٢١١	٢ - الأطماع الروسية .
٢١٥	٣ - ألمانيا وخط حديد بنلاد .
٢٢١	الفصل الثاني عشر : الحرب العالمية الأولى ونتائجها .
٢٢١	١ - الرؤساء العرب في شمال الخليج .
٢٢٦	٢ - الحرب في فارس .
٢٢٨	٣ - بث الإمامة في عمان

صفحة	
٦٠	الفصل الرابع : التنافس الإنجليزي الفرنسي في عهد الثورة و نابليون
٦٤	١ -
٧٥	٢ - صدى حملة مصر .
٨٤	٣ - مستط بين الحياض والأنجياز
٩١	٤ - مغامرة طارئة في فارس
٩٦	الفصل الخامس : العرب والملاحة
٩٩	١ - الحملة ١٨٠٩
١٠٨	٢ - الحملة البريطانية ١٨٢٠ ونتائجها .
١١٦	٣ - اتفاقات الهدنة .
١١٦	الفصل السادس : عهد السيد سعيد ونتائج
١٢٦	١ - مشكلات السلطة
١٣٢	٢ - العلاقات الخارجية
١٣٢	٣ - انفصال زنجبار
١٢٥	الفصل السابع : الوضع الراهن في بلاد العرب
١٣٥	١ - تجدد النشاط المصري ١٨٣٨ و ١٨٤٠ .
١٤٠	٢ - الدولة السعودية الثانية .
١٤٣	٣ - البحرين والادعاءات الفارسية .
١٥٥	٤ - ظهور إمارة قطر .
١٥٨	الفصل الثامن : المظاهر العامة للنفوذ البريطاني
١٥٨	١ - الخليج وطرق المواصلات .
١٦٠	٢ - مسألة تجارة الرقيق

صفحة	الفصل السابع عشر: نظم استغلال النفط	٣١٩
٣١٩	١ - عقود الامتياز الأولى	٣١٩
٣٣١	٢ - تطور العلاقات بين الشركات والدول المنتجة	٣٣١
٣٤٢	الفصل الثامن عشر: نتائج استغلال النفط	٣٤٢
٣٤٢	١ - النتائج السياسية	٣٤٢
٣٤٥	٢ - تدعيم الكيانات المحلية	٣٤٥
٣٥٣	٣ - البترول والصراع ضد إسرائيل	٣٥٣
٣٦٠	٤ - النتائج الاقتصادية والاجتماعية	٣٦٠
٣٧٢	الفصل التاسع عشر: التأثيرات الدولية في الخليج	٣٧٢
٣٧٢	١	٣٧٢
٣٧٦	٢ - الاهتمامات الجديدة للولايات المتحدة	٣٧٦
٣٨٢	٣ - الانسحاب البريطاني	٣٨٢
٣٨٧	٤ - إيران وموارد الخليج العربي	٣٨٧
٣٨٣	خاتمة	٣٨٣
٣٩٧	الراجع العربية	٣٩٧
٤٠١	الراجع الأجنبية	٤٠١

صفحة	الفصل الثالث عشر: الكويت من الحماية إلى الاستقلال	٣٣٦
٣٣٦	١ - أثر الحرب العالمية الأولى	٣٣٦
٣٣٨	٢ - المجتمع التجاري وأثره في الحياة السياسية	٣٣٨
٣٤٢	٣ - الكويت وجيرانه	٣٤٢
٣٤٧	٤ - نمو الدولة الحديثة	٣٤٧
٣٥٣	٥ - التيارات السياسية والاجتماعية	٣٥٣
٣٦٣	الفصل الرابع عشر: البحرين	٣٦٣
٣٦٣	١ - التكوين الاجتماعي والاقتصادي	٣٦٣
٣٦٧	٢ - تطور الحركة الوطنية	٣٦٧
٣٧٤	٣ - خطوات الاستقلال	٣٧٤
٣٧٩	٤ - تقرير الصير وإعلان الاستقلال	٣٧٩
٣٨٣	٥ - الفصل الخامس عشر: قطر ومشيخات ساحل عمان	٣٨٣
٣٨٣	١ - استقلال قطر	٣٨٣
٣٩٢	٢ - ساحل عمان قبل إنشاء الاتحاد	٣٩٢
٣٩٢	٣ - مباحثات الاتحاد	٣٩٢
٣٩٣	الفصل السادس عشر: مسقط وعمان	٣٩٣
٣٩٤	١ - انبثاق الإمامة وسقوطها	٣٩٤
٣٩٣	٢ - علاقات بريطانيا بقطر وتطورها حتى الاستقلال	٣٩٣

مقدمة

صدرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب سنة ١٩٦٥، ومنذ ذلك الوقت شهدت منطقة الخليج تغيرات هامة، كان أبرزها انسحاب بريطانيا العسكرية وظهور أربع دول عربية جديدة سنة ١٩٧١ هي البحرين، وقطر، ودولة الإمارات المتحدة، وعمان. وتحاول هذه الدول أن تحتل مكانتها في العالم العربي، بل ربما تطلعت أيضاً إلى أداء دور عالمي مقتضية في ذلك أثر الكويت والسعودية، ومستعينة بما لدى بعضها من روة بتولية ضخمة.

ويرى كثير من المعلقين العرب أن منطقة الخليج قد تصبح في وقت قريب مجال صراع عالمي في خضم أزمة الطاقة التي تعاني منها الدول الصناعية الكبرى.

وفي هذه الحالة قد تستخدم الولايات المتحدة كلا من إسرائيل وإيران للضغط على الدول العربية الشجة للبترو، وبالتالي ضمان استثمار تنفقه إلى مواقع الاستهلاك في أوروبا وأمريكا.

ومهما يكن من أمر فإن المقصود من هذه الدراسة هو إجراء مسح تاريخي شامل للخليج العربي منذ بداية المصور الحديثة حتى الوقت الحاضر.

وقد سبق لنا أن طبقنا هذا النهج على بعض أقاليم الوطن العربي الأخرى ولا سيما أفطار الغرب الثلاث: تونس، والجزائر، والفرن، والأقصى. ولقيت التجربة نجاحاً كبيراً لدى القراء العرب، إذ أن هذا النهج يجمع بين ميزتين. فهو من جهة يفيد التخصص، إذ يفتح أمامه رؤوس موضوعات يمكن له أن يتعمق فيها مستقبلاً، كما يعرفه بأهم المصادر المتعلقة بالموضوع. ومن جهة

أخرى يندو الكتاب في تناول التنف غير التخصص ، إذ يتأى به عن مرد التفاصيل الملة ويوضح أمامه الخطوط العريضة لتاريخ المنطقة ، ويربطه بمسئلاتها الماصرة ويساعده على فهمها .

ويرجع اتصالنا بتاريخ الخليج العربي إلى أيام إعداد دراساتي العليا في فرنسا وترددى على لندن للاطلاع على الوثائق المتعلقة بهذا الموضوع . وكانت باكورة إنتاجي كتيباً عنوانه « الاستعمار في الخليج الفارسي » صدر سنة ١٩٥٧ وممن أن نشرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب سنة ١٩٦٥ ، جدت دراسات متنوعة بالعربية والإنجليزية تتالج تاريخ الخليج بصفة عامة ، أو أحد أقسامه السياسية بصفة خاصة . وبعض هذه الدراسات يترك في التخصص والتمعن لفترة زمنية محدودة لتطو صغير جداً من أقطار الخليج . وقد أشرنا على بعض هذه الدراسات التي قدمت لتليل دورات جامعية في التاريخ والعلوم السياسية .

ومما ساعد على تنوع هذه الدراسات وكتبتها اهتمام الجيل الجديد من أبناء الخليج بدراسة تاريخ بلاده . ومكتبتهم حكومتهم من الاطلاع على الوثائق والمصادر في مواصلها . بل إن هذه الحكومات الجيدة لم تدخر وسماً في استجلاء الوثائق والمصادر النادرة ، وترجمة بعضها إلى اللغة العربية . وهذا شئ يستحق الإعجاب في حد ذاته ، غير أنه يحشى أن يكون منزى هذا الاهتمام هو التأكيد على الكيانات الإقليمية النائرة على الشاطئ العربي من الخليج .

وقد اتخذنا القرن السادس عشر نقطة بداية لهذه الدراسة ، فهي نواكب مطلع المصور الحديثة بصفة عامة ، كما أنها شهدت أول حركة استثمارية أوروبية تصل إلى منطقة الخليج ، وأعنى بها حركة الاستثمار البرتغالي . ومن حيث الضمون الجغرافي فإن الدراسة تركز أصلاً على الكيانات العربية الساحلية التي ارتبطت حياتها ارتباطاً وثيقاً بالبحر ، إلا أنه يعمد عزل هذه الكيانات عن الأقاليم المحيطة بها ، وخاصة خلال القرون الأربعة السابقة حين

كانت تظهر حول سواحل الخليج دول كبيرة كال الدولة الفارسية أو الدولة الصفوية في فارس . وفي ذلك العهد لم ينظر المسلمون إلى هذه الدول على أساس النظرة القومية التي تبدو الآن من خلال الصراع بين العرب والإيرانيين في الخليج ، بل كانت عوامل الذهب أو القيلة أو الولاء الشخصى للحاكم هي التي تحدد انتماء الناس لهذه الدولة أو تلك .

وكثير من الدول المحلية التي نشأت في المصور الوسطى مثل دولة هرمز التي وصفت بأنها من أغنى الدول الإسلامية التجارية في ذلك العهد ، لم تتخذ طابعاً قومياً واضحاً بمعنى أنها ضمت تحت كنفها عرباً وفرساً وجنسيات أخرى .

وفي القرن السابع عشر أخذت الدول العربية الحديثة تنمو وتؤكد مقنيتها العربية أولاً في عمان على يد أسرة البعلارية ، ثم توالى ظهور الأسر التي كوت إمارات أخرى في الكويرة والبحرين وساحل عمان . وإبتداء من ذلك الوقت فقط يمكن التمييز بين إمارات عربية كالبحرين والكويرة وعمان من جهة وبين الدولة الفارسية على الشاطئ الشرقى للخليج من جهة أخرى .

وكما ذكرنا من قبل فتحن نصادف في هذه الدراسة نوعين من الكيانات السياسية : دولا كبرى تاخت شواطئ الخليج وكانت لها امتدادات بعيدة عن المنطقة كال الدولة الفارسية أو الدول الفارسية في بعض عصورها . ونوعاً آخر ارتبطت حياته ارتباطاً مباشراً بمنطقة الخليج . فخرسنا على أن يدخل هذا النوع الأخير بأكمله في البحث ، في حين قصرنا اهتمامنا بالنسبة للدولة الشمالية على ولاية بغداد التي مارست حكومة استانبول من خلالها بعض أوجه النشاط في الخليج العربي ، وتنطبق تلك الحالة على المملكة العربية السعودية في الوقت الحاضر ، فهي بلا شك من أهم الدول العربية المطلة على الخليج ، ولكنها تمتد أيضاً إلى شاطئ البحر الأحمر ، ولها مجالات متنوعة من الناحية الجغرافية والسياسية ، ولذلك لم نعد إلى استيعاب تاريخها العام في هذا الكتاب .

وتحتل هذه الوثائق مجالات شخنة عديدة وخاصة في مجالات حكومية
عسكرية بحكم الموقع الجغرافي ، ذلك أن الهند قدمت إلى ثلاثة مراكم إدارية في
عهد شركة الهند الشرقية أي حتى سنة ١٨٥٧ وهي بجاي ومدراش وبنغال .
وكانت حكومة بجاي من المختصة بالقسم الغربي من المحيط الهندي بما في ذلك
منطقة الخليج العربي والبحر الأحمر . كما يوجد قسم كبير من هذه الوثائق في
عنوانات وزارة الخارجية سواء ضمن المجلدات الخاصة بدار أم بتوكيا أم
بموضوع مكافحة تجارة الرقيق . كذلك رتب مجلدات خاصة بمسقط ترجع إلى
عهد إنشاء قسطنطينية بالسلطنة سنة ١٨٤٠ ولا تخلو عنونيات وزارى البحرية
والصناعات من الوثائق الخاصة بالخليج ، غدير أنها أقل أهمية بكثير من
الصناعات السابقة من حيث الكم والكيف .

هذا بالإضافة إلى كتب الرحلات والدراسات الميدانية والرسائل العلمية
المختصة بتاريخ الخليج والتي نشرت في بريطانيا .

ونأتى في الرتبة الثانية دور الوثائق الفرنسية فتحتوى على بعض الكتابات
والأبحاث المتعلقة بالخليج ، غير أن هذه الوثائق تنكاد تنكص على بعض المعمور
التي كان فرنسا فيها اهتمام خاص بالنطقة كما كان الحال في عهد الحملة الفرنسية
وإبان الأساطيع النابليونية في الشرق ، أو أثناء احتدام التنافس الاستعماري في
أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

أعد جونا مادة هذا الكتاب من هذه المصادر المتنوعة ، وكان علينا بعد
ذلك أن نقوم بعملية انتقاء واسعة نظراً إلى أنها تركنا جانباً الأحداث البسيطة التي
تتعلق بالتأريخات القليلة مثلاً . وحرصنا على أن يكون أسلوب الكتاب تحليلاً
وأن يقتصر على الأحداث التي كان لها تأثير مستمر في حياة الخليج .

ومن السموات التي تولاه الباحث في تاريخ الخليج ، اختلاف التشكيل
السياسي للمنطقة من عصر إلى آخر . ففي القرن السابع عشر كانت عمان أعظم قوة
سياسية في منطقة الخليج ، ثم تنكصت وظهرت إمارات عربية أخرى . وبعد
الدولة السعودية في بعض الأوقات وكانها أبرز القوى العربية .

وقد لعبت بريطانيا دوراً أساسياً في تحديد الشكل السياسي الأخير للمنطقة ،
وهي التي علت في الماضي على محوّل الزعماء القبليين إلى رؤساء دول
حتى سارت هناك ثلاث عشرة وحدة سياسية منفصلة على الشاطئ العربي منذ
بداية هذا القرن . كأنها هي التي حثت قبيل انسحابها للشرقين في الإمارات
على إقامة دولة اتحادية . وهذا عبط عدد الوحدات إلى ست .

وعطو الياست أطم الشيخ الذي يمكن اتبعه إزاء هذه التغيرات ، وهذا
التحكك في التشكيل السياسي ، مع أنه لا توجد أية وثائق إحصائية أو إحصائية
بين هذه الأجزاء العربية في الخليج . هل قسم الدارس بحثه حسب تلك
التقسيمات الأسطانية ؟ أم يتبع منهجاً زمنياً فيقسم بحثه إلى فترات تاريخية
مراعياً الوحدة القومية القسم العربي ؟

أعد كذا أبل إلى اتباع الشيخ الثاني لولا أن التشكيلات السياسية لم تظهر
في وقت واحد . ولذلك علنا على التوفيق بين النهجين . ولا بأس كان الإنجليزي
م أول من وضع سياسة منسقة لمنطقة الخليج كوحدة ، ولذلك فإن الباحث
منظر إلى التأثير بتطور السياسة الإنجليزية سبياً وأن معظم المصادر المتعلقة بتاريخ
الخليج هي مصادر بريطانية .

وتوجد الوثائق المتعلقة بمنطقة الخليج ابتداء من القرن السابع عشر أولاً
في مكتب الهند India Office التي أصبح يسمى مكتب علاقات دول
الكومنولث Commonwealth Relation Office

كما وضعت نصب أعمدة الأخطاء التي وقع فيها الوثليون الأجانب في تقييدهم
لنشاط العرب في تلك المنطقة. فتجسنا هذه الأخطاء دون أن نخرج عن هذه
النظرة الموضوعية. وزجو أن نكون قد وقتنا.

مصر الجديدة، سبتمبر سنة ١٩٧٣

د : صلاح العقاد

الفصل الأول

البرتغاليون

الأوضاع الداخلية

كان لتطور البرتغاليين في أوائل القرن السادس عشر أثر بعيد في تاريخ الخليج
الشرقي وأقطاره، فهو من جهة يمثل بداية عهد الأطلال الأوروبية الاستعمارية .
ومن جهة أخرى حوّل البرتغاليون طرق التجارة عن بحر العرب إلى خليج فارس ،
منطقة الخليج من مصادر أساسية من مصائد زروعها ، ذلك المصدر الذي صنع مدناً
بحارية مزدهرة كمدينة سيراف ، بل وأقام دولاً عظيمة الثراء كدولة هرمون .
وتعد سيراف من أقدم المراكز التجارية للزدهرة في العمور الوسطى ، وهي تقع
على الشاطئ الشرقي عند مدخل الخليج ، وكانت تلب نفس الدور الذي تقوم به
مسقط في القرن التاسع عشر وهو نقل التجارة بين المدن الكبرى الآهلة بالسكان
في العراق وفي فارس خلال العصور الإسلامية الزاهية ، وبين شرق أفريقيا التي
هي منطقة تصدير هامة لكثير من المواد الخام ، وكذلك الهند التي كان لها شأن
عظيم في نظام التجارة العالمية بين الشرق والغرب .

لقد ظلت سيراف تتمتع بهذه الشهرة أكثر من قرنين ، من القرن العاشر
اليلادي حتى القرن الثاني عشر حينما احتل الفرس التجاري إلى مدينة مجاورة هي
هرمز ، ولم تعمر هذه المدينة طويلاً إذ سرعان ما انقض عليها الفرس المغولي ، فلا
شكاد ضم الآن على أطلال هاتين المدينتين الحاليتين ، ولم يبق في مكانها سوى
قرى يسكنها صيادو السمك .

على أن تجار هرمون لم يستسلموا لتزوات الفرس المدمرة ، فاعتصموا منها
بجزيرة صغيرة تقع في مواجهة المدينة على بعد خمسة أميال منها وأطلقوا عليها
نفس الاسم ، واستطاعوا خلال مدة قصيرة أن يؤسسوا دولة من أعظم الدول التي

ولهذه اللاهظة أهمية خاصة لأنها دليل واضح على عدم تبعية هرمز للدولة الصفوية ، خلافاً لادعاءات بعض الكتاب الإيرانيين المعاصرين ^(١) . وقد تنمى هؤلاء الكتاب في تطبيق النظرة القومية على ذلك العهد إلى حد أنهم ادعوا بأن تنوذ فارس كان يمتد على طول سواحل شبه الجزيرة العربية إلى عسدين . وحقيقة الأمر أن هرمز لم تكن دولة عربية أو فارسية بل كانت تضم مختلف الجنسيات الإسلامية التي تسكن حول شواطئ الخليج . كيف كانت الأوضاع السائدة في أجزاء منطقة الخليج الأخرى عند وصول البرتغاليين ؟ لقد تصادف ذلك الحادث مع ظهور دولتين عظيمتين : الدولة الصفوية في الشمال الشرقي ، والدولة العثمانية في الشمال والغرب ، ولكن أيا من هاتين الدولتين لم تسهم في مقاومة البرتغاليين قبل منتصف القرن السادس عشر ، بل على العكس من ذلك جرت محاولات لإيجاد تحالف بين الفرس والبرتغاليين ضد العثمانيين . وثمت عدة أسباب تضافرت على إخضاع القوى الوطنية إزاء الغزو البرتغالي .

فبالرغم من أن وصول البرتغاليين تصادف مع وجود أعظم حكام الأسرة الصفوية وهو الشاه إسماعيل ١٤٩٩ — ١٥٢٤ فإن ذلك الشاه كان يركز قوته في شمال البلاد بعيداً عن منطقة الخليج ، فاتخذ تبريز عاصمة له ، بخلاف الدول الفارسية الأخرى التي كانت تركز على الجنوب وخاصة في شيراز ، وبالإضافة إلى ذلك شغل الشاه بالحرب مع الدولة العثمانية وتعرضت بلاده للغزو العثماني بعد الكارثة الكبرى التي حلت به في موقعة شالديران سنة ١٥١٤ وسقطت تبريز في أيدي العثمانيين فترة من الزمن .

ومن المعروف أن الخلاف الطائفي كان يؤجج الصراع بين الدولتين العثمانية والصفوية ، لأن الشاه إسماعيل هو الذي جعل المذهب الشيعي مذهباً رسمياً للدولة ، ولابد أن يكون سكان الخليج قد تأثروا بهذا الصراع الطائفي الذي كان له شأن

شاهدتها المنطقة وراء . ومن ينظر الآن إلى هذه الجزيرة الخالية من السكان يدهش حين يعرف أن سكانها في ذلك الحين بلغوا أربعين ألفاً ، وأنهم كانوا يعيشون على مستوى عال من الرفاهية بالرغم من أنهم كان يحضرون جميع حاجتهم الأساسية بما في ذلك مياه الشرب من خارج الجزيرة . ويرجع ذلك الازدهار إلى أن دائرة النشاط التجاري اتسعت في نهاية العصور الوسطى فلم تعد مقصورة على نقل التجارة من الهند وشرق أفريقيا إلى قلب العالم الإسلامي ، بل أصبحت هرمز تمثل حلقة هامة في نقل التجارة العالمية بين الشرق والغرب حينما دخلت البندقية إلى هذا الميدان ، فبعد سقوط بزنطة استولت هذه الجمهورية الإيطالية على اليونان وأصبح تجارها يترددون بانتظام على موانئ الشام ، وازداد الطلب على منتجات الشرق الأقصى فاستغادت من ذلك هرمز كما كانت تستفيد مصر في عهد المماليك ، وأصبحت مثلاً يضرب على الثراء ويعرفها رجل الشارع الأوربي ، يدل على ذلك ورودها في أشعار ملثون الإنجليزي ^(١) .

وبمعنى الوقت استطاعت هذه البيئة التجارية أن تبسط سلطانها السياسي على أجزاء مترامية من شواطئ الخليج وجزره ، فشملت ساحل عمان حتى القطيف شمالاً ودخلت جزر البحرين وجزيرة قشم في تبعيتها كما ضمت قسماً كبيراً من الساحل الشرقي . ومن الطبيعي أن تهتم هذه البيئة التجارية باستغلال مصادب الأؤلئ لتضيف بذلك مصداً جديداً من مصادر ثروتها ، كما أن هذه الدولة التجارية نظمت الرسوم الجركية على الوان التابعة لها ، وقدر دخل الدولة من هذه الرسوم وحدها بستين ألف ريال .

هكذا كان وضع هرمز حينما وصل البرتغاليون إلى الخليج ، فكان على هذه الدولة أن تتكامل بحماية الخليج من ذلك الغزو الخارجي الفاجي . ولا نكاد نلاحظ أن الدولة الصفوية الناشئة في فارس قد تماوت مع هرمز في هذه المهمة .

النسبي ، وجود المذهب الأباضي الذي اشتهر بنظام الإمامة على أساس البيلاية .
لا التوارث ، ولو أن الإمامة في ذلك العصر تحولت إلى ملك أسامه القوة .
ظل الأسرة النهائية . ويذكر المؤرخون المعاصرون^(١) أن نفوذ تلك الأسرة
امتد أحياناً إلى عدن ، ولكن لاحظ أنه في العصر الذي يميننا تعرضت سواحل
عمان لنزوات من الخارج وكان معظمها تابعاً لدولة هرمز في بداية القرن
السابع عشر .

(١) الساملي ج ١ ص ٣٠٣

كبير في تلك المصوّر ، فتطلع الشريعة إلى الدولة الصفوية بينما تطلع أهل السنة
إلى الدولة العثمانية . وأضاف ذلك انقساماً جديداً بجانب الانقسامات السياسية
والقبلية التي أضفت من مقاومة الوطنيين للبرتغال .

أما بالنسبة للعثمانيين فقد تأخر استقرارهم بالعراق رغم الانتصار في شالديران ،
فإن الجنود الانكشارية صادفوا بلادا فقيرة في شمال غرب فارس ، فالحوا على
السلطان سليم في الانسحاب وأجبه التوسع العثماني بعد ذلك إلى الشام ومصر
ثم إلى أوروبا حتى تحول السلطان سايان القانوني من جديد إلى الحرب ضد فارس
سنة ١٥٣٤ وكان من بين أسباب هذا التحول ذبوع الأخبار عن إقامة تحالف
بين فارس وبين الأمبراطور شارل الخامس الخصم اللدود للدولة العثمانية .
وسنصادف الدولة الصفوية في أكثر من مناسبة تبدي استعداداً لتحالف مع دول
أوروبية ضد العثمانيين . أدت هذه الأحداث إلى إقامة ولايتين عثمانيتين في العراق
بصورة نهائية : هما بغداد والوصل في سنة ١٥٣٤ ، ولكن ترك العثمانيون البصرة
وما حولها لشيخ القبائل العربية النازلة هناك ، ومضى نحو خمسة عشر عاماً
قبل أن تؤسس متصرفية البصرة وهي المتصرفية التي كانت نقطة انطلاق للعثمانيين
في الخليج . وإذن فقد بدأ العثمانيون بهتمون بتلك المنطقة بعد أن كان البرتغاليون
قد أكدوا سيطرتهم عليها . وسنرى بعد قليل أسباب الضعف التي عرقلت
محاولات الدولة العثمانية الدفاع عن العالم الإسلامي في هذه الأرجاء رغم وجود
رغبة لدى الباب العالي لتحقيق هذا الدور في وجه النزو البرتغالي للمحيط الهندي
على نسق الدور الذي لبتسه الدولة العثمانية في وجه النزو الأسباني لحوض
البحر المتوسط .

وفي هذه الحقبة يبدو الشاطيء البري للخليج خلواً من أي تنظيم سيمامي
يشبه الدولة ، ويمكن استثناء عمان من هذا الوصف ، فقد كانت منذ عهد بيد
أكثر ازدهاراً بالسكان وأقرب إلى المجمعات الحضرية . وساعد على هذا التنظيم

تحتل جزيرة سومطرة موقعاً نموذجياً بالنسبة لأهداف الخطة البرتغالية . فهي تقع في مواجهة الساحل الجنوبي لشيء جزيرة العرب ، وفي منتصف الطريق تماماً بين الخليج وبين البحر الأحمر ، لهذا قرر البويريك أن يقيم فيها عاصمة ثانية ودوراً للثقافة الفرنسية ، رغم أن الجزيرة جرداء لا تحتوي على شيء من مظاهر الحياة كالماء والنبات . ثم اتجه القائد البرتغالي بأسطوله إلى باب النذب ، والتأخر أن البحر الأحمر كان أكثر إغراء للبرتغاليين من الخليج لأنه يؤدي إلى الأماكن القديمة الإسلامية ، وقد فكر البرتغاليون في الاستيلاء على هذه الأماكن بإستحقاق أهداف صليبية محنة أو لتفويض مهمة المقاومة الإسلامية في الهند . ومن جهة أخرى كان البرتغاليون يريدون أن يقطعوا سبل الاتصال ما بين دولة المالك وبين مسلمي الهند ، سبياً وأن الماليك استعدوا المقاومة البرتغاليين في المحيط الهندي لما لحقهم من أضرار اقتصادية نتيجة اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح . أوقف تمكن البويريك من إخراج جزيرة برهم الصغيرة الواقعة عند مدخل البحر الأحمر ولكنه عجز عن الزول في عدن ، فارتد إلى الشرق حيث أراد أن يحرق خطه أمام النفذ الثاني لتجارة المسلمين ، أي في الخليج العربي .

كانت هرمز والوادي التابعة لها هي أول ما صادف البرتغاليين عند غزوها للخليج سنة ١٥٠٨ ، وقد طاف البويريك بقرات ومستط قدمها ، وشهد أهل عمان السالون فطاعة التزم البرتغالي وقسوته وكيف كان هؤلاء التزلاء يمدون إلى قطع أذان الأمرى للحصول على الكفاية .

ثم شرع البويريك في حروب الحصار على جزيرة هرمز ، وبذكو الكتاب البرتغاليون القدماء^(١) مع شيء من المبالغة أن أربعمائة سفينة ، منها ستون من السفن السكار اشترك في الدفاع عن الجزيرة . وهذا في حد ذاته دليل على عظم

(١) 2 Y. Sousa Faris. عن الترجمة الإنجليزية

شبه الحصار
٢

الغزو البرتغالي

لقد كان الهدف الأساسي من الغزو البرتغالي هو الوصول إلى الهند والشرق الأقصى مباشرة دون الحاجة إلى توسط المسلمين والبنادقة في نقل التجارة ، وقد تمكن البرتغاليون من تثبيت أقدامهم على سواحل الهند سنة ١٥٠٥ حينما أسسوا بها حكومة رأسها نائب الملك . فما الذي حول اهتمام البرتغاليين إلى سواحل شبه الجزيرة العربية الفيرة وهم ما يزالون في دور بناء امبراطوريتهم بالهند أولاً ، لأنه بالرغم من القوة البحرية الهائلة التي تملكها البرتغاليون إلى المحيط الهندي فإنهم لم يستطيعوا أن يوقروا حركة الملاحة العربية في المحيط الشرقي . هذا بالإضافة إلى أن الحكومة البرتغالية سمحت بالتجارة كأفراد بأن يمارسوا أعمال القرصنة ضد الملاحة العربية . ولهذا السبب واصل البرتغاليون تقدمهم لاحتلال مالقا وجزر الهند الشرقية في الشرق الأقصى ، لكي يتسوا التجار العرب من الوصول إلى مناطق إنتاج التوابل ذاتها . ثانياً : كان البرتغاليون مدفوعين في حركة الاكتشاف والتوسع هذه بروح صليبية ، وسيطرت هذه الروح على عدد من ضباط البحرية البرتغالية . وأبرز مثل على ذلك هو ألونسو البويريك ، الذي بدأ حياته في الجيوب البرتغالية على سواحل العرب ثم دخل إلى ميدان الصراع الصيني للتحديد في الشرق حينما اشترك في حملة بحرية إلى المحيط الهندي في سنة ١٥٠٦ . كان يقود هذه الحملة ترستان وكانت خطتها هي أن يتقدم القائد العام إلى الهند لتعزير حاميةها فيما يختلف البويريك « لسد منافذ التجارة التي يستعملها المسلمون » : البحر الأحمر والخليج العربي ، وكان البرتغاليون يتوقعون أن تتعد كل من مصر وفارس والدولة العثمانية والإمارات الإسلامية في شرق أفريقيا لإفساد هذه الخطة ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث .

النسي ، وجود للذهب الأباضي الذي اشتهر بنظام الإمامة على أساس الديعة لا التوارث ، ولو أن الإمامة في ذلك العصر تحولت إلى ملك أساسه القوة في ظل الأسرة النهائية . ويذكر المؤرخون العمانيون^(١) أن نفوذ تلك الأسرة امتد أحياناً إلى عدن ، ولكن يلاحظ أنه في العصر الذي يعيننا تفرست سواحل عمان لنزوات من الخارج وكان معظمها تابعاً لدولة هرمز في بداية القرن السادس عشر .

(١) السالحي ج ١ ص ٣٠٣

كبير في تلك العصور ، فتطلع الشيعة إلى الدولة العنقوية بينما تطلع أهل السنة إلى الدولة العثمانية . وأضاف ذلك انقساماً جديداً بجانب الانقسامات السياسية والقبلية التي أضعفت من مقاومة الوطنيين للبرقعات .

أما بالنسبة للعثمانيين فقد تأخر استقرارهم بالعراق رغم الانقسام في شالديران ، فإن الجنود الانكشارية سادفوا بلاداً فقيرة في شمال غرب فارس ، فالحوا على السلطان سليم في الانهحاب وأتجه التوسع العثماني بعد ذلك إلى الشام ومصر ثم إلى أوروبا حتى تحول السلطان سليمان القانوني من جديد إلى الحرب ضد فارس سنة ١٥٣٤ وكان من بين أسباب هذا التحول ذبوع الأخبار عن إقامة تحالف بين فارس وبين الأباطور شارل الخامس الخصم اللدود للدولة العثمانية . وسند صاف الدولة الصفوية في أكثر من مناسبة تبدي استعداداً للتخالف مع دول أوربية ضد العثمانيين . أدت هذه الأحداث إلى إقامة ولايتين عثمانيين في العراق بصورة نهائية : هما بغداد والوسل في سنة ١٥٣٤ ، ولكن ترك العثمانيون البصرة وما حولها لشيخ القبائل العربية النازلة هناك ، ومضى نحو خمسة عشر عاماً قبل أن تؤسس متصرفية البصرة وهي للتصرفية التي كانت نقطة انطلاق للعثمانيين في الخليج . وإذن فقد بدأ العثمانيون يهيئون بتلك المنطقة بعد أن كان البرتغاليون قد أكدوا سيطرتهم عليها . وسنرى بعد قليل أسباب الضعف التي عرفت محاولات الدولة العثمانية الدفاع عن العالم الإسلامي في هذه الأرجاء رغم وجود رغبة لدى الباب العالي لتحقيق هذا الدور في وجه النزو البرقعاتي للمحيط الهندي على نسق الدور الذي لعبته الدولة العثمانية في وجه النزو الأسباني لحوض البحر المتوسط .

وفي هذه الحقبة يبدو الشاطيء العربي للخليج خلواً من أي تنظيم سياسي يشبه الدولة ، ويمكن استثناء عمان من هذا الوصف ، فقد كانت منذ عهد بيد أكثر ازدهاراً بالسكان وأقرب إلى المجتمعات الحضرية . وساعد على هذا التنظيم

تمثل جزيرة سومطرة موقفاً نموذجياً بالنسبة لأهداف الخطة البرتغالية. فهي تقع في مواجهة الساحل الجنوبي لشبه جزيرة العرب. وفي منتصف الطريق تماماً بين الخليج وبين البحر الأحمر، ولهذا قرر البويرك أن يقيم فيها حامية ثابتة وديراً لطائفة الفرنسيسكان، رغم أن الجزيرة جرداء لا تحتوي على شئ من مظاهر الحياة كالماء والنبات. ثم اتجه القائد البرتغالي بأسطوله إلى باب النذب، والظاهر أن البحر الأحمر كان أكثر إغراء للبرتغاليين من الخليج لأنه يؤدي إلى الأماكن المقدسة الإسلامية، وقد فكر البرتغاليون في الاستيلاء على هذه الأماكن إباحة تحقيق أهداف صليبية محضة أو لتنشيط همه المقاومة الإسلامية في الهند. ومن جهة أخرى كان البرتغاليون يريدون أن يقطعوا سبل الاتصال ما بين دولة الماليك وبين مسلمي الهند، سيما وأن الماليك استمدوا لمقاومة البرتغاليين في المحيط الهندي لما لحقهم من أضرار اقتصادية نتيجة اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح. أوقد تمكن البويرك من إحراق جزيرة بريم الصغيرة الواقعة عند مدخل البحر الأحمر ولكنه عجز عن النزول في عدن فارتد إلى الشرق حيث أراد أن يجرب حظله أمام المنفذ الثاني لتجارة المسلمين، أي في الخليج العربي.

كانت هرمز والوأي التابعة لها هي أول ما صادف البرتغاليين عند غزوهم للخليج سنة ١٥٠٨، وقد طاف البويرك بموانئ قربات ومستط قدموها، وشهد أهل عمان المسالون فظاعة النزوة البرتغالية وقسوته وكيف كان هؤلاء الغزاة يعمدون إلى قطع أذان الأمور للحصول على المكافأة.

ثم شرع البويرك في ضرب الحصار على جزيرة هرمز، وبذكر الكتاب البرتغاليون القدامى^(١) مع شئ من البهانة أن أربعمائة سفينة، منها ستون من السفن السكبار اشتركت في الدفاع عن الجزيرة. وهذا في حد ذاته دليل على عظم

(١) 2 - Xb Faria. Y. Sousa vol 2 عن الترجمة الانجليزية

سبح الأحرار
٢
س

الغزو البرتغالي

لقد كان الهدف الأساسي من التوسع البرتغالي هو الوصول إلى الهند والشرق الأقصى مباشرة دون الحاجة إلى توسط المسلمين والبنادقة في نقل التجارة، وقد تمكن البرتغاليون من تثبيت أقدامهم على سواحل الهند سنة ١٥٠٥ حينما أسسوا بها حكومة رأسها نائب للملك. فالتفت حول اهتمام البرتغاليين إلى شواطئ شبه الجزيرة العربية الفقيرة وهم ما يزالون في دور بناء امبراطوريتهم بالهند أولاً. لأنه بالرغم من القوة البحرية الهائلة التي نقلها البرتغاليون إلى المحيط الهندي فإنهم لم يستطيعوا أن يوقفوا حركة للراحة العربية في المحيط الشاسع. هذا بالإضافة إلى أن الحكومة البرتغالية صحت للبحارة كأفراد بأن يمارسوا أعمال القرصنة ضد الملاحة العربية. ولهذا السبب واصل البرتغاليون تقدمهم لاحتلال مالقا وجزر الهند الشرقية في الشرق الأقصى، لكي يتمكنوا لتجارة العرب من الوصول إلى مناطق إنتاج التوابل ذاتها. ثانياً: كان البرتغاليون مدفوعين في حركة الاكتشاف والتوسع هذه بروح صليبية، وسيطرت هذه الروح على عدد من ضباط البحرية البرتغالية. وأبرز مثل على ذلك هو الفونسو البويرك، الذي بدأ حياته في الجيوب البرتغالية على سواحل المغرب ثم دخل إلى ميدان الصراع الصليبي التجدد في الشرق حينما اشترك في حملة بحرية إلى المحيط الهندي في سنة ١٥٠٦. كان يقود هذه الحملة ترستان وكانت خطتها هي أن يتقدم القائد العام إلى الهند لتعزيز حالياتها بينما يخلف البويرك « لسد منافذ التجارة التي يستخدمها المسلمون » : البحر الأحمر والخليج العربي، وكان البرتغاليون يتوقعون أن تتحد كل من مصر وفارس والدولة العثمانية والإمارات الإسلامية في شرق أفريقيا لإفساد هذه الخطة ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث.

حول شبه جزيرة العرب . وفي سنة ١٥١٣ عاود البرتغاليون الكرة بأذن بالبحر الأحمر ولكنهم كانوا يصطدمون دائماً بالبحر المصرية التي تمكنت من الدفاع عن هذا البحر ، لذلك تركت جهودهم من سنة ١٥١٤ في الخليج ، ونذكر البوكريك القسم الذي نطلق به منذ سبع سنوات ولم يتردد في انتهاك أبسط المبادئ الإنسانية حينما كان يحاصر هرمز فأرسل إليسه حاكمها يتعرف على شروط النزاع ، وفي أثناء المحادثات فاجأ القائد البرتغالي الشيخ عطار مستشار الحاكم بطعنة أوردته قتيلاً ، ولم يجد الحاكم سيف الدين وهو صغير السن مفرأ من الاستسلام لشروط البرتغاليين وهي تقضي بدفع جزية سنوية وقبول حماية ملك البرتغال وإقامة حصن على الجزيرة مع ترك الحكم للوطنيين .

ومما يسترعى الانتباه أن الشاه إسماعيل لم يقف من هذا الحادث موقفاً سليماً فحسب ، بل إنه ارتبط بمحالفته مع البرتغال على أثر استيلائهم على هرمز ، مما يقدم لنا دليلاً آخر على عدم تيمية هذه الدولة التجارية للصقويين . ومن الجائر أن نفسر موقف الشاه إسماعيل بأن إخضاع البرتغاليين لهرمز قد جاء في أعقاب هزيمة شالديران . ونظراً إلى افتقار فارس لقوة البحرية فقد كان أول شرط للمحالفته هو أن تقدم البرتغال أسطولاً لمساعدة الشاه على بسط سلطته في البحرين والخليج (١) وفي مقابل ذلك يسلم الشاه بالحماية البرتغالية لهرمز ، بل ويتنازل عن ميناء جوار على ساحل بوشستراف . وجاء في المحلفة أن الدولتين ستبادلان المساعدة ضد الثمانيين كما نص على فتح جوا للتجار الفرس .

لم يفتقر أحد من الطرفين إلى ذلك الاتفاق نظراً جديده ، ومصرعان ما أرسل البرتغاليون حملة لغزو البحرين لحسابهم وحدهم ، ولعلمهم أصبحوا ينظرون إلى أنفسهم كقوة لدولة هرمز التي كانت البحرين من قوابها . وفي سنة ١٥١٥ نزحوا في مكافئ قرب النامة بالجزيرة الرئيسية وأقاموا هناك حصناً مازال آثاره

(١) كان الشاه حتى ذلك الوقت يستخدم كلمة قطرب للدلالة على إقليم الأحساء بأكله

ظاهرة حتى الآن ، ولقب قائد الحملة أنطونيودي كورديابل البحرين . وانتهى عمل البرتغاليين عند هذا الحد ، فلم يفكروا في استغلال مصائد اللؤلؤ ، بل اكتفوا بتحصين الجزيرة من الوطنيين تحت تهديد تلك الحصون المبنية هنا وهناك في شواطئ الخليج وجزره .

ودغم ذلك فقد تألفت شعوب الخليج لوجود هؤلاء النزاة الذين انتصروا بالقوة وبالتصميم في جميع الأموال دون حنايط . وما كادت أيام موت البوكريك تشيع بين سكان الخليج حتى رسمت خطة للثورة عامة تحت قيادة حكام هرمز . ومن الأمور التي نبعث على الدهشة حقاً أن يتوصل أهل الخليج في هذا العهد إلى خطة محكمة على هذا النحو ، فقد اتفقوا على أن تهاجم جميع الحصون البرتغالية في المنطقة ليلية ٣٠ نوفمبر من عام ١٥٢١ . وأوشكت الخطة على النجاح لولا أن شذ حاكم مسقط الذي كان على خلاف مع هرمز ، واستطاع البرتغاليون أن يرسلوا التجديدات في آخر لحظة إلى تلك الجزيرة التي تزعمت الحركة ، وبدا قضى عليها في المناطق الأخرى . والنتيجة الطبيعية لهذا الحادث هو إسقاط الإدارة الوطنية من الجزيرة . وعلى أثر ذلك أخذ سكانها ينادونها إلى جزيرة قشم المجاورة ، ثم تفرقوا في موانئ الخليج الأخرى ، ولم يستطع البرتغاليون أن يديروا الحركة التجارية في الخليج ، وفي ظل حكمهم العسكري انتهى ذلك العمران المدهش الذي عاشته هرمز أكثر من مائتي عام .

الذين كانوا يتمتعون بحماية الدولة ، وقد ظهر الأول في مياه الخليج بين عامي ١٥٥١ ، ١٥٥٣ واستولى على القطيف ومسقط ولكنه لم يحتفظ بهما ، وفي سنة ١٥٨١ اشتهر مغامر عشائ آخر يدعى علي بك وأصاب اللوحة البرتغالية بأضرار جسيمة في المحيط الهندي ، ونزل بمسقط وغيرها من موانئ الخليج . ولكن مثل هؤلاء البحارة لا يسلكون أنفسهم عناء الحكم المستقر . وهكذا قبض الدول والشعوب التي هي أكثر التصاقاً بنظام الخليج أن تقوم بمهمة تحرير بلادها من الغزاة البرتغالي . وقد بدأت بذلك الدولة الصفوية ثم تبعها عرب عمان مع ملاحظة أن الفرس استمروا بالإنجليز وبالقبائل العربية النازلة على الشاطئ الشرقي ، بينما اعتمد العرب على أنفسهم في الفصل ضد الغزاة . وقبل أن تستعرض الأحداث التي أدت إلى تحرير الخليج من البرتغاليين نشير إلى الأسباب العامة التي تفسر تدهور القوة البرتغالية في نهاية القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر . من ذلك أن البرتغال فقد استقلاله ونضم إلى إسبانيا سنة ١٥٨٠ ولو أن ملوك إسبانيا ظلوا يدعون مصالح الامبراطورية البرتغالية كذلك اتصف البرتغاليون بروح التعصب والقسوة في معاملة الشعوب الآسيوية الإفريقية ، ولم يكثر ثروتها بتنظيم التجارة مع تلك الشعوب . وكأثرنا من قبل كانت سياستهم زمرى إلى التهرؤ العسكري ثم استقلال الشعوب القهورة في استخراج المواد الخام . وبالإضافة إلى ذلك اعتمد البرتغاليون اعتماداً كبيراً على العبيد أو الرقعة من الهند . وكان اللابريون مثلاً يشكلون نصف حامية هونزو .

وما أضف النظام الاستعماري البرتغالي أن الملك كان يحسب تجارة السلع الرخيصة فلم يترك مجالاً للرجوزية التي كانت أكثر نشاطاً في النظام الهولندي أو البريطاني كما سنرى ، فإن تأسيس الرجوزية للشركات الاحتكارية كان يربط مصالح كثير من الأفراد بحركة الاستثمار . يضاف إلى ذلك كله ما رأيناه من عدم وجود نظام دقيق في البحرية ، وتكرار حوادث التمرد والاضرابات بين كبار الضباط . وأخيراً ظهرت قوات بحريتان في المحيط الهندي في أوائل القرن السابع

التدهور

بلغ البرتغاليون ذروة قوتهم في منتصف القرن السادس عشر ، وكانت أهمهم فرصة للتوغل شمالاً حتى البصرة ، ذلك لأن شيخ القبيلة الرئيسية هناك كان يتبع باستقلال تام في حكم شط العرب ، فلما قور البرتغاليون تحويل البصرة إلى متسليمة سنة ١٥٤٩ استنجد ذلك الزعيم القبلي بالغزاة البرتغاليين ، وفي نفس الوقت استنجد عرب الأحساء والبحرين بالدولة العثمانية^(١) وتميز النصف الثاني من القرن السادس عشر بالصراع بين هاتين القوتين في الخليج العربي ، غير أن العثمانيين لم يستطعوا أن يقوموا بعمل حاسم في الخليج كما فعلوا في البحر الأحمر . فقد حذوا عمل الهاليك في مصر للذود من هذا البحر . وفي سنة ١٥٣٨ احتلوا عدن وفعلوا باب الندب في وجه الغزاة وأرادوا الاتصال بدولة المنول في الهند ولكنهم عجزوا عن ذلك وبقي أسطولهم ضعيفاً في المحيط الهندي وفي الخليج العربي ، ورجع ذلك إلى سببين

أولاً : بل قواعد الأسطول العثماني كانت مقصورة على حوض المتوسط حيث توجد إمكانيات لبناء السفن .

ولما يكن يوسع الأسطول العثماني أن يصل إلى المحيط الهندي عن طريق رأس الرجاء الصالح فقد كان لابد من بناء سفن في السويس أو البصرة . ويبدو أن العثمانيين وجدوا من الصعوبة يمكن نقل الأخشاب إلى هذا الميناء الأخير .

ثانياً : ترك العثمانيون معظم النشاط البحري في منطقة المحيط الهندي لروح الغامرة عند بعض الأفراد من البحارة المشهورين مثل بيريك والريس مراد

عشر ، ما الأسطولان الهولندي والإنجليزي . وتتميز هذان اللذان الاستعماريا
بأنهما كانا أكثر ادراكا للصالح التجاري . وقد استطاعا أن يحظيا بمكانة أفضل
عند الدول الآسيوية كما حدث بالنسبة لفارس .

ذلك أنه ورغم وقوع محاولات للتصالح بين البرتغاليين والفارس في أوائل
القرن السادس عشر ، فإنه كان من المستحيل على الحكام الصفويين أن يتجاهلوا
مبدأ التضامن الإسلامي . وقد فتح الشاه الصفوي طه ماسب بلاده لرئيس دولة
القبول الإسلامية في الهند ويدعى هميون وقدم له المساعدات لمحاربة البرتغاليين .

وفي سنة ١٥٨٧ ارتقى عرش فارس حاكم من طراز جديد يدعى الشاه
عباس ، وقد تصادف عهده مع تدهور قوة البرتغاليين في الشرق ، فاستفاد من
تلك الظروف لكي يسطر نفوذه على بعض ممتلكاتهم في الخليج ، مع أن الشاه
صرف سنوات عديدة من حكمه في تدعيم مركزه بالشمال علما كما فعل الشاه
إسماعيل ، مما يدل على أن مركز مثل الدولة الصفوية كان في آسيا الوسطى ، بينما
أن شواطئ الخليج النهرية كانت تخضع لتبائل عربية خالصة أو عربية مختلطة
بالفرس . ولتصالح الشاه في أي عمل ضد البرتغاليين كان عليه أولاً أن يتمتع بتأييد
تلك القبائل .

اتجه الشاه عباس نحو الخليج في أوائل القرن السابع عشر ، ووقف عاجزاً
عن الحصون البرتغالية الترابية على الشاطئ الشرقي ، لذا يجدد بناء أن تشمل :
كيف تمكن الشاه من الاستيلاء على البحرين سنة ١٦٠٢ بالرغم من أن ذلك
يحتاج إلى قوة بحرية هائلة ؟ ومن المعروف أن فارس كانت تفتقد مثل هذه القوة ؟
الراجح أن البرتغاليين كانوا يريدون تخفيف أعبائهم العسكرية فانسحبوا من تلك
الجزر مكتفين بالسيطرة على مدخل الخليج ، يدل على ذلك أيضاً أن إسبانيا التي
التي كانت مستولمة عن الإمبراطورية البرتغالية كانت ترى في الدولة العثمانية الخصم
الرئيسي لها في حوض المتوسط ، فربما اعتقدت أنه من الممكن الاستفادة من

الصراع العثماني الفارسي في الشرق والتقارب مع الفرس في نظير تنازلات لا تمنح
إسبانيا مباشرة مثل التنازل عن جزر البحرين .

وما حملنا على هذا الاعتقاد الخطاب الذي أرسله فيليب الثاني إلى نائب الملك
بالهند سنة ١٦٠٧ والذي يأمره فيه بمحاولة استرداد البحرين لمنع وقوعها في يد
المسلمين . تقل هذا الخطاب آميات المبر عن وجهة النظر الإيرانية^(١) ولم تنقطع
المحاولات بعد ذلك للتوفيق بين البرتغاليين والشاه عباس . ومن الغريب أن التامر
الإنجليزي روبرت شارلي هو الذي كان يقوم بدور الوسيط لهذا الغرض . وكانت
آخر المحاولات هي وصول مبعوث من ملك إسبانيا إلى فارس سنة ١٦١٨ وقد
رحب الشاه بالمعرض التجارية التي تشمل إستيراد كييات كبيرة من حور فارس ،
ولكنه استظم بطلب قدمه الإسبان مؤداه أن يعتمد الشاه بأحس ترام الراكز
البرتغالية في الخليج .

ولا شك أن اللابسات الجديدة التي أحاطت بفارس سنة ١٦١٨ هي التي
أنفرت الشاه عباس بهذا الشدد ، فمن جهة انتهت مرحلة من مراحل الصراع
بينه وبين الدولة العثمانية ، فاستطاع أن يتفوق للجنوب وأن يحصل على تعاون
العرب النازلين في إقليم لار . ومن جهة أخرى كان الإنجليز قد بدأوا يوثقون
صلاتهم التجارية مع فارس ، ووجد الشاه فيهم عملاء أفضل من البرتغاليين وشرع
في منحهم امتيازات تجارية . وتوسع في منح هذه الامتيازات كما سنرى في نظير
اكتساب تناوهم معه ضد البرتغاليين . وكان من بين هذه الامتيازات إقامة
وكالة تجارية في جسد الواقعة على خليج عمان ، وذلك تلافياً لروهم بمركز
همز وتعرضهم لاعتداءات البرتغاليين من حصونهم اللينة في تلك الجزيرة . ورغم
ذلك فإن البرتغاليين صمموا على قطع سبل الملاحة على التجارة البريطانية مع فارس
منذ البداية . وهكذا حينما خرجت أول قافلة بريطانية من سوريات في الهند متجهة

٦ - يقدم الإنجليز مساعدات بحرية لفارس (١)

لم تصادف القوات التحالفية مقاومة عنيدة من جانب البرتغاليين ، فقد بدأت تلك القوات بهجمة الحصن البرتغالي في قسم والذي كان مقاماً لتأمين موارد المياه في تلك الجزيرة . وعلى أثر ذلك سلمت حامية هرمز في يناير سنة ١٦٢٢ وعمل الشاه الاتفاق بحيث صار للفارس حق إقامة حاميات في الجزيرة دون قيد . وتطلع بعد ذلك إلى العبور نحو الشاطئ العربي للاستيلاء على مسقط وغيرها من موانئ عمان ، ولكنه لم يوفق إلا للنزول في خورفكان وصحار مدة قصيرة ، ولم يلبث البرتغاليون أن استردوا مواقعهم واستمرت الحرب البحرية عنيفة بين البرتغاليين من جهة والإنجليز والفارس من جهة أخرى ، وتعرض ساحل فارس لهجمات عديدة ، ولكن سقوط هرمز كان ضربة قاضية على هيبة البرتغاليين في الخليج .

وفي ذلك العهد كانت عظمة الدول ترتبط بحياة الأشخاص ، وهكذا انتهى دور فارس في الخليج بمجرد وفاة الشاه سنة ١٦٢٩ . على أنه في السنوات الأخيرة من حكمه تمكن من الاستيلاء على بندا سنة ١٦٢٣ وتجددت الحرب بينه وبين الهابانيين ، غير أن هؤلاء عادوا إلى حكم العراق في الثلاثينات . كذلك استغل الشاه سقوط هرمز فبنى في موانئها ميناء جديداً يحمل القرية الصغيرة التي كانت تعرف بمحمرون ، وأطلق عليه اسمه « بندر عباس » وفتح هذا الميناء للتجارة الأوربية ، وسنراه في مناسبات عدة وقد اكتسب أهمية خاصة في تاريخ الخليج الحديث .

وما يسترعى الانتباه أن الشاه عباس لم يجوز هذه الانحسارات على البرتغاليين إلا بعد أن دفع ثمنها غالباً لطلب الامتيازات الأوروبية : الهولندية والإنجليزية إلى بلادته وبالتالي إلى بقية أرواح الخليج .

إلى فارس اعترض البرتغاليون سبيلها . وقد أدى ذلك إلى وقوع اشتباك قرب حبسك سنة ١٦٢٠ انتهى لصالح الأسطول البريطاني . وقد جعلت هذه الأحداث من الإنجليز حلفاء طبيعيين للشاه في نضاله ضد البرتغال . غير أن الإنجليز رفضوا في بداية الأمر تقديم أي معونة بحرية للشاه ، ويرجع ذلك إلى عاملين رئيسيين ، الأول : أن شركة الهند الشرقية المسؤولة عن العلاقات مع فارس شركة تجارية مهمتها تخفيض النفقات الحربية إلى أقل حد ممكن ، وكان اعتقاد المسؤولين في الخليج أن هرمز محصنة تحصيناً قوياً وتحتاج إلى قوات ونفقات هائلة للتغلب عليها . والعامل الثاني : أنه كانت توجد حالة سلم بين بريطانيا وإسبانيا في ذلك الوقت ، ولذلك مستظفر الشركة إلى دفع رشوة للحكومة حينما تنقض هذا السلم وتقرر التعاون مع الفرس للاستيلاء على هرمز . فما الذي حول رأى المسؤولين البريطانيين في الهند للقيام بهذه الشامة العسكرية ؟

لقد هدد الشاه بسحب الامتيازات التي حصلت عليها الشركة في فارس ، وفي نفس الوقت وعد التجار الفرس بتوزيع مكافآت سخية على البعارة الإنجليز الذين سيساهمون في العمليات . وبناء عليه جرت المفاوضات بين مينكس السفير البريطاني وممثل الشركة في نفس الوقت ، وبين حكومة الشاه بشأن التعاون في هرمز ، وتم الاتفاق على الأسس الآتية :

- ١ - تقسم الفنائم بالتساوي بين فارس وبين شركة الهند الشرقية .
- ٢ - تسلم القلعة الحالية للإنجليز ويسمح للفرس بإقامة قلعة خاصة بهم .
- ٣ - يسلم الأمرى المسيحيون للإنجليز والسلمون للفرس .
- ٤ - تقسيم رسوم هرمز بالتساوي بين الشركة وحكومة الشاه .
- ٥ - تعفى التجارة البريطانية من الضرائب في هرمز والوانى الفارسية القريبة منها .

لقد كان سقوط هرمز ضربة قاضية على النفوذ البرتغالي في الخليج العربي ولكنه لم يضع حداً نهائياً له، وقد ظل الفرس عاجزين عن تخليص الشاطئ الشرقي من جميع الحصون البرتغالية، وبقي أحدها قائماً في جلفار حتى نهاية القرن السابع عشر تقريباً. أما الهنود فقد تبدلت سياستهم تماماً إزاء البرتغاليين نتيجة الحرب مع فارس، فحين استولى الشاه على بغداد استعان حاكم البصرة الثاني بالبرتغاليين وظهرت خمس سفن برتغالية في شط العرب لتساهم في الدفاع عن البصرة، وفي مقابل ذلك حصل البرتغال على امتيازات اقتصادية وسياسية في جنوب العراق، ووقيت سفنهم تتوحد على شط العرب حتى سنة ١٦٤٠ أما الإدارة التي أقاموها في هذه الحفبة فقد استعمرت بعد ذلك مدة طويلة. وهكذا يمكن القول بأن الدولة العثمانية خرجت عن سياستها التقليدية السابقة والتي كانت تجعل منها حامية للعالم الإسلامي من الغزو الأجنبي سواء في الغرب أو في الشرق، وقيض لرب عمان أن يتموا الرحلة النهائية الهامة في تحرير الخليج من فلول البرتغاليين.

الفصل الثاني

التجارة الأوروبية

شركات الاحتكار

كان هدف البرتغاليين من التوسع الاستعماري هو التفرغ العسكري واستغلال هذه القوة للحصول على موارد اقتصادية، وحينما ظهر الهولنديون والإنجليز في أوائل القرن السابع عشر بالبحر الهندي اتبعوا سياسة جديدة، فهم يقصدون التجارة أولاً، ثم تأتي بعد ذلك القوة الحربية لحماية تلك التجارة. وقد تكاثرت شركات تجارية مساهمة بحركة الاستعمار الهولندي والبريطاني في آسيا وأنشئت الشركتان الهولندية والانجليزية تقريباً في نفس الوقت (١٥٩٤ - ١٦٠٠ على التوالي) وبمرور الوقت حصلت هذه الشركات على (حقوق ملكية) فكانت الحكومات تتنازل لها عن حق إعلان الحرب وعقد المعاهدات مع الدول الآسيوية أو الأفريقية التي تقع في مناطق احتكارها.

وبينما تركزت جهود شركة الهند الهولندية في جزر الهند الشرقية، انصرفت الشركة البريطانية إلى شبه جزيرة الهند ذاتها ولكن ذلك لم يمنع الشركتين من أن توسعا أعمالهما في جميع السواحل الواقعة على الطريق إلى مناطق امتيازاتهما.

لاعتداءات البرتغاليين ، وبالتالي فإن الشركة ستحصل أعباء هائلة لحماية تجارتها . ومن المعروف أن وجه الاعتراض الأول قد انتهى في سنة ١٦١٨ بفشل وسيلة شيرلي بين إسبانيا وفارس .

وحتى من قبل أن يحدث ذلك تناقضت الشركة عن اعتراضات رو ، وأرسلت مندوباً عنها يدعى كانوك إلى أصفهان حيث حصل من الشاه على امتيازات أكثر تفصيلاً في سنة ١٦١٧ ، ومن بين هذه الامتيازات تعهد الشاه بحماية التجارة الإنجليزية ، وإعفاء نسبة كبيرة منها من الرسوم . وحصل الرعايا الإنجليز على حق حمل السلاح في فارس وحماية إقامة السفائر الدبلوماسية ، وعدم التبعية للقضاء الوطني (١) . وبعد هذا الشرط الأخير مقدمة لنظام الامتيازات القضائية الذي كان سائداً في الدولة العثمانية ، والذي لم يستقر في فارس إلا في القرن الثامن عشر . وما يسترعى الانتباه بهذا الصدد أن هذه الامتيازات أودحت إلى الدولة العثمانية وإلى فارس كذلك في عهد حكم أقوياء مثل سليمان القانوني والشاه عباس ، وبالظاهر أنهم لم يقدروا النتائج الوخيمة التي ستؤدي إليها هذه الامتيازات حينئذ بضعف إلى بلادهم .

أنهى الإنجليز خلافاتهم بأن جعلوا العلاقات مع فارس من اختصاص شركة الهند الشرقية ، وذلك منذ سنة ١٦٣٠ وابتداء من هذا العام سيقم سفراء إنجليز ولو بصورة مقطعة في أصفهان وهي العاصمة الجديدة التي نقل إليها الشاه عباس مقراً حكمه ، فسمارت أقرب إلى الخليج من العاصمة القديمة تبريز . وفي نفس هذا العام جرت المحادثات الخاصة بالتعاون العسكري ضد البرتغاليين فانتصرت الشركة هذه الفرصة وحصلت على امتياز جديد هو احتكار تجارة الحمر والصدور من فارس على أن يتم نقلهم من وإلى الخليج مباشرة دون المرور بالأراضي العثمانية . وخلاصة القول إن سياسة الشاه عباس تعد مسئولية إلى حد كبير عن فتح منطقة الخليج لشركات الاستثمار الاحتكارية

(١) أنظر الوثائق التي نشرها Saldanha ومى مختارات من أوراق حكومة بنجالي.

ومن الواضح أن الإنجليز يحكم الموقع الجغرافي كانوا أقرب إلى منطقة الخليج . والحق إن اتصالهم بفارس يرجع إلى عهد سابق على تأسيس شركة الهند الشرقية بكثير ، ففي سنة ١٥٥٩ نزل جنكسن مندوب الشركة المسكونية شهر الفولجا ووصل إلى فارس عن طريق بحر قزوين ، وفي سنة ١٥٨٣ وصل إلى تبريز أربعة من الناموسين الإنجليز واشتهر من بينهم الأخوان أنطوني ودورث شيرلي اللذان احتلّا مكاناً مرموقاً في بلاط الشاه عباس . وإذن فقد جرت الاتصالات الأولى بين بريطانيا وفارس عن طريق بعيد عن الخليج العرب ، وحتى بعد تأسيس شركة الهند الشرقية وضعت المراقيل أمام الشركة لكي يحال دون بلغت النظر إلى طريق الخليج . وكان لا بد من انتظار نشاط شركة الهند الشرقية التي أرسلت في سنة ١٦١٥ أول مبعوث لدراسة الإمكانيات التجارية في المنطقة .

استطاع ستيل مندوب الشركة أن يطوف بموافي الخليج الشرقية ، وأن يقابل الشاه ويحصل منه على فرمان يأمر به رعاياه بحسن استقبال الإنجليز في أي مكان يختارونه . وقرح ستيل أن تقتض الشركة ميناء جسك كمركز للتعامل مع فارس ، ويجمع هذا الاختيار إلى أن البناء يقع على خليج عمان فلا يحتاج الأمر إلى المرور بهذين مهمز الذي يسيطر عليه البرتغاليون .

كان توماس روثيل حكومته لدى الدولة النورية الحاكمة في الهند ، وكثيراً ما كان يتدخل في أعمال الشركة ، وهكذا اغترض على مقترحات ستيل مستنداً إلى الأسباب الآتية : وجود مفاوضات بين فارس وإسبانيا على أساس أن تتمتع الأخيرة بشراء جميع صادرات فارس ، وبأن تزودها بجميع حاجياتها من منتجات الشرق الأقصى ، وفي مقابل ذلك تمنح ميناء على شاطئ الخليج ، فإذا نجحت هذه المفاوضات فلن يكون هناك مجال للتجارة البريطانية . ومن جهة أخرى يقع ميناء جسك بعيداً عن مراكز العمران في فارس ، ويمكن ترض الملاحه على أي حال

التنافس الإنجليزي الهولندي

في أثناء التحالف الإنجليزي الهولندي ضد البرتغاليين قدم الهولنديون مساعدات حربية لخطاه في مناسبات عدة، وقد دفعهم إلى ذلك الاتحاد مع الإنجليزي في القنبلة البروتستنتية خلافا للبرتغال الكاثوليك، وعلى أثر طرد البرتغاليين من هرمز شرع الإنجليزي في إقامة وكالة لشركة الهند الشرقية بالبناء الجديد - بنقل عباس سنة ١٦٢٣ ولما أن الشام يسمح لهم بإقامة حصن لحماية الوكالة خلافاً لما كانوا يربون.

وسرعان ما لحق التجار الهولنديون بالإنجليز، وتغلقت المصالح التجارية على الإخوة البروتستنتية، وتمتعت التجارة الإنجليزية في تلك السنوات الأولى منذ إقامة الوكالة في بندر عباس، فلم تزد في المتوسط عن ألف وستمائة جنيه سنوياً. وبحلت الشركة أمثال تسمية أعمالها وجرت المناقشات حول ذلك الأمر بين الجهات المشغولة في لندن وفي سوربات، مقر الشركة حينذاك بالهند. واحتج أعضاؤهم الصغرى بأن الإنجليزي قد قدموا تفصيلات عمالة لمساعدة الروس ضد البرتغاليين، وأن يتمتع الهولنديون وحدهم بإعطاءات ثامة من الرسوم. نعم إن الإنجليزي يدفعون رسوماً ضخمة ولكن تفصيل الهولنديين أدى إلى سيطرتهم على تجارة الحرير. وتساؤل المختصون: هل يجب استخدام القوة لإجبار فارس على تغيير سياستها؟ وهل يمكن في هذه الحالة إرسال حملة برية، أم يكفي بحصار بحري. وكان الرأي السائد هو أن تجارة فارس لا تسارى شيئاً من تلك الأرباح. وأخيراً لم وكيل الشركة في

بندر عباس على ضرورة الغناء خوفاً من تحول الهولنديين من التفوق التجاري إلى السيطرة السياسية على منطقة الخليج^(١).

وفي أثناء تنازل الرأي حول تلك المشكلة وقع نزاع شخصي بين روبرت شيرلي وبين سموت الشام في لندن، فرأى ذلك شارل الأول أن يبحث بمندوب خاص إلى الشام عباس سنة ١٦٢٧ ووقع اختياره على السير ديمور كن لهذه المهمة ولم تسفر هذه البعثة للسكينة عن نتيجة تذكر، واستمرت التجارة الهولندية في فارس في نحو مطرد.

وقد يكون ذلك راجعاً إلى ما يشتهر به الهولنديون من تخفيض أسعار البيع ولكن يجب ألا ننسى أنهم استخدموا القوة العسكرية أيضاً لانتزاع الامتيازات المتوقعة من الدول الآسيوية والإفريقية التي تسالوا معها. وبالنسبة لفارس أرسل الهولنديون حملة بحرية إلى الخليج سنة ١٦٤٥ بقيادة الكومودور بلاك، وقد هددت الحملة بضرب ميناء بندر عباس بحجة أن الحكومة الفارسية حصلت على رسوم بحرية لا حق لها فيها، كما حارب بلاك الأسطول على جزيرة قشم دون جدوى، ودفع ذلك الفعل قد أذعن الشام لتهديد الهولنديين وقابل القائد الهولندي في أصفهان ومنع الهولنديين إعطاء ثاماً من الرسوم على استيراد الحرير.

بلغت التجارة الهولندية ذروة ازدهارها في الخمسينيات من القرن السابع عشر أي في عهد حكومة كرمويل بالجنرال، تلك الحكومة التي دحلت في شبه حرب مستديرة مع هولندا وتعمت البحرية البريطانية أثناءها هزائم عدة، وقد زودت صدق تلك الأحداث في الخليج فهاذرت الوكالة البريطانية ببندر عباس وعمات شركة الهند الشرقية على إقامة وكالة بالخليج واختارت ميناء البصرة التابع للدولة الصغرى. ولم يمنع ذلك الهولنديين من أن يقتصوا خصوصهم إلى شط العرب، وفي تلك الأثناء كان متوسط سفن الهولنديين التي تزود على بندر عباس عشرين سنوياً.

(١) أنظر هذه المناقشات في تاريخ بروس لفرحة الهند الشرقية Bruce I, p. 4/6

إخلائها في سنة ١٧٦٥ وعادت إلى حكمها العرب . وقد سبق ذلك كما رأينا إخلاء البصرة وبوشهر وأخيراً بندر عباس في سنة ١٧٥٩ .

٣

بدء التفوق البريطاني

يلاحظ مما سبق أن المولنديين تقلوا نشاطهم في أواسط القرن الثامن عشر إلى القسم الشمالي من الخليج ، ويبدو أن ذلك كان اتجاهها عاما للدول الأوروبية التي كان لها نشاط في الخليج العربي في النصف الأخير من هذا القرن .

وربما يكون السبب في ذلك هو الرغبة في تحقيق مصلحة جديدة بخلاف التجارة مع أفطار الخليج ، وأعني بها نقل بريد الهند وربما البضائع الخفيفة أيضاً من الخليج إلى حوض المتوسط عبر العراق والشام ، أمى العودة إلى أحد الطرق المشهورة قبل اكتشاف رأس الرجاء الصالح . فقد كشفت حرب السنوات السبع عن الأضرار التي تترتب بسبب تأخر نقل الأخبار عن طريق الرأس ، إذ كانت أسرع رحلة عن هذا الطريق بين أوروبا والهند تستغرق أحد عشر شهراً ، بينما أن نقل الأخبار عبر الخليج فصحراء الشام تخوض المتوسط قد يتم في خمسة أشهر . وقد ظلت السلطات البريطانية والفرنسية تجهل أخبار الحرب في أوروبا بعد قيامها بسنة كاملة . وما كادت الحرب تضع أوزارها حتى أسست بريطانيا وكتاه في البصرة . ومن المعروف أن تلك الحرب التي نشبت بين إنجلترا وفرنسا من سنة ١٧٥٦ إلى سنة ١٧٦٣ لم تقتصر على القارة الأوروبية ، بل كان النزاع على المستعمرات من أهم صوراها . وأسفرت عن نتائج بعيدة الأثر في هذا الميدان . فقد تنازلت فرنسا لإنجلترا بقتضى معاهدة الصلح الوقعة في باريس في فبراير سنة ١٧٦٣ عن جميع ممتلكاتها في شبه الجزيرة الهندية ، وبذلك خلا الميدان لبريطانيا وحدها لبسط نفوذها حول المناطق الناحقة للمحيط الهندي .

ويبدو أن علاقة فارس بالمولنديين ازدادت سوءاً فيما بعد بدليل أن وكالة بندر عباس أقلت في سنة ١٧٣٠ أي في بداية ظهور سلطة نادر شاه الأفشاري ، ونقل المولنديون وكالتهم إلى البصرة ولم يودوا إلى فارس إلا بعد نهاية حكم هذا الشاه النامو ، ولكنهم لم يستقروا فأقاموا فترة في بوشهر ولم تعش وكالتهم الثانية في بندر عباس إلا فترة قصيرة بين عامي ١٧٥٢ ، ١٧٥٩ والظاهر أن ممثلي الشركة في منطقة الخليج هم الذين ألجوا على التثبيت بالنفوذ للتداعي . ومن بين هؤلاء البارون نيهاوزن الذي تولى وكالة البصرة ما بين عامي ١٧٣٠ ، ١٧٥٣ فجننا ضيق عليه الخناق سواء من السلطات المحلية أم من الدول الأوروبية التي حسدت المولنديين ، قرر نقل الوكالات من اللوائى الخاضعة لفارس أو الدولة العثمانية والانتقال إلى جزر محصنة حيث يستطيع المولنديون أن يستغلوا بالعمل ، وهكذا أخذوا وكالتهم بوشهر والبصرة وانتقل إلى جزيرة صغيرة قرب بوشهر تسمى جزيرة خراج .

كانت هذه الجزيرة مثل معظم جزر الخليج تابعة لحكام من العرب الذين تشهر أمرهم بامتلاك السفن والبرابرة في شئون الملاحة ، وكان حاكم خراج يدعى الشيخ نصر ، وقد قبل التنازل عنها للمولنديين مقابل إتاوة سنوية . غير أن المولنديين ارتكبوا عدة أعمال كان من شأنها إثارة بغض العرب وكراهيتهم ، فقد حاولوا أن يمارسوا النوص على اللؤلؤ مرراً ، فاكشف العرب أمرهم ، ثم عمدوا إلى جلب المستوطنين نذكر وود الوكيل البريطاني في بندر عباس الذي زار الجزيرة في ذلك الحين أن المولنديين جلبوا ثمانين عائلة وأخذوا يطردون سكانها العرب (١) لذلك أخذ الشيخ مهنا بن نصر يوجه ضراباته إلى المولنديين من جزيرة أخرى تابعة له تدعى ريج وكان نيهاوزن قد غادرها في سنة ١٧٦٠ ونحرج مركز المولنديين بذلك ، وولات الشركة أنه من العيب الاتفاق على هذه الجزيرة النائية ، لذلك قرر

(١) نشرت المجلة الآسيوية بحثاً قهمن هذه الجزيرة تناسبة احتلال الإنجليز لها ١٨٣٨
Aistic Journal, september 1838

كانت أول خطوة اتخذتها حكومة بباي تهيئدا لاستخدام الخليج طريقا للمواصلات ، هي إنشاء قنصلية في البصرة الواقعة في نهاية خط الملاحة في الخليج ، وصدر بذلك فرمان عثماني سنة ١٧٦٤ . وكانت الخطة الرسومة لسير البريد هي أن تكون البصرة محطة لنقل الرسائل من الطريق البحري إلى طريق القوافل الذي يسير غرب الفرات ، ثم عبر بادية الشام ، وينتهي إلى حلب . وهناك تنقل الوكالة الإنجليزية التابعة لشركة شرق للتوسط نقله بسفنها إلى الجزر البريطانية . فقد كانت حلب من أهم المراكز التجارية لهذه الشركة وأقدمها وعلى صلة منتظمة بأوروبا .

وهناك سؤال لا بد أن يتبادر إلى الذهن وهو : لماذا اتجه تفكير الإنجليز إلى الخليج دون البحر الأحمر مع أن المسافة التي يجب عبورها على الأرض بين السويس والإسكندرية أقصر بكثير من المسافة بين البصرة والإسكندرية مينا حلب ، أي أن طريق البحر الأحمر أقصر من الخليج ؟

الجواب هو أنه فضلا عن عدم وجود أي تشييل تجارى أو سياسى لبريطانيا في المدن المصرية كما هو الحال في حلب في ذلك الوقت ، فقد كانت الدولة العثمانية تمنع الملاحة الأوربية في البحر الأحمر ما بين الحما والسويس بقصد المحافظة على الأماكن الإسلامية القدسة بالحجاز من الدول المسيحية .

نعم تقص هذا المبدأ أكثر من مرة في منتصف القرن الثامن عشر ، ولكن الدولة العثمانية عادت فأكدته في ١٧٧٩ ولم يفتح البحر الأحمر للملاحة الأوربية إلا بعد مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر ، وبقي الخليج هو السبيل الوحيد الذي يمكن اتباعه لنقل البريد . وقد تقص مبدأ حظر الملاحة على الأوربيين في البحر الأحمر بمناستين :

الأولى : حينما لاحظ أشراف مكة اللوائد المادية التي ستعود عليهم بفتح ميناء جدة للملاحة الأوربية ، وما سيؤدي إليه ذلك من تشييط التجارة وتحصيل الرسوم الجركية عنها .

والناتبة الثانية : حينما ترع على بك الكبير إلى الاستقلال عن الدولة العثمانية ، فمقد مع بروس مندوب شركة الهند الشرقية اتفاقا في سنة ١٧٧١ يقضى بحماية التجارة الإنجليزية عبر مصر وتحديد الرسوم الجركية بـ ٨٪ . وقد أكد محمد أبو الذهب هذا الاتفاق فيما بعد ، غير أن الدولة العثمانية ألغت الاتفاق بعد استرداد شتى من سلطتها في مصر (١) .

وكان استخدام البحر الأحمر كان يفترض إقامة علاقات طيبة مع مصر فقد تطلبت الملاحة في الخليج إقامة علاقات ودية بين الهند وولاية بندا العثمانيين . ورغم أن هذه الولاية كانت تحكمها منذ سنة ١٧٠٤ أسرة شبه مستقلة من الهالك الكرج ، فإنها كانت تلتزم في علاقاتها الخارجية مظاهر السيادة العثمانية . وعلى ذلك كان ولاية بندا يتفنون نظام الامتيازات الأوربية المعمول به في بقية أنحاء الدولة ، مما ساعد على نشاط التجارة بين الهند والعراق ، كما أن ولاية بندا كانوا يستوردون الأسلحة من الهند . وحينما هاجم الفرس البصرة في عهد كريم خان الزندى اضطرت السلطات البريطانية في الهند إلى تقديم بعض المساعدة إلى ولاية بندا . ولم يكن الإنجليز بحاجة إلى كسب ود الولاية فحسب ، بل كان لابد من الاتصال برؤساء العشائر المسيطرين على جنوب العراق وبادية الشام مثل عشائر كعب والنتفق . وفي أثناء حصار البصرة اتصل الإنجليز بالطرف الشمالي لشبه الجزيرة العربية حينما نقلوا الوكالة إلى الكويت وسعودون إليها في مناسبة أخرى حينما تسوء العلاقات بينهم وبين داود باشا والى بندا سنة ١٨٢١ .

أيسرنا إلى أن الإنجليز كانوا يبعون هدفين من وراء نشاطهم في الخليج خلال هذه الحقبة : استخدام الطريق البري لنقل البريد ، وتوسيع النشاط التجاري بعد أن ثبتوا أقدامهم في الهند . وفيما يتعلق بهذا الهدف الأخير لاحظ أن شركة الهند الشرقية مارست نشاطها في العراق وفارس . وكانت تجد في العراق أمنا

ويسمح الاتفاق بإقامة حرس خاص لحماية الوكالة في بوشهر .

ولهذا الاتفاق أهمية خاصة لسببين :

أولاً : إنه إذا كان قد عقد في بداية الأمر مع حاكم محلي ، فإن كريم خان الزندي الذي استولى على السلطة في فارس عام ١٧٥٧ ، ١٧٨٠ ، عمم الامتيازات الإنجليزية بالنسبة لجميع الرعايا الأخرى . وما جاء في فرمان الشاه الجديد « إن ولیم أندرو برابرس حاكم الأمة الإنجليزية في الخليج ، بعد أن أقام وكالة لشركة الهند الشرقية في بوشهر ، أرسل إليها توماس دوتفورد وفردينا منحه جميع الامتيازات المنصوص عليها في الاتفاق مع شيخ بوشهر ، وجعله سارياً على جميع السواحل التابعة لنا » .

ثانياً : إنه ابتداء من عقد هذا الاتفاق أصبحت بوشهر أهم مركز للتفود البريطاني في منطقة الخليج العربي وأخذت بعد ذلك موقراً للقيم العام الذي أداو السياسة البريطانية في الخليج إلى أن اعتزل البحرين في سنة ١٩٤٦ ،

سند هذا فرمان حينما كانت العلاقات طيبة بين كريم خان والإنجليز ، يدل على ذلك أنهم عاونوا الحاكم الفارسي على انتزاع جزيرة خراج من مهابا بن نصر الحاكم العربي الذي رأبناه من قبل بجزر الجزيرة من الهولنديين ، غير أن تلك العلاقات أخذت تسوء في السبعينات ، ويبدو أن كريم خان نفسه أسف على الامتيازات التي منحها للبريطانيين ، لذلك توقفت أعمال وكالة بوشهر فترة من الزمن بين ١٧٧٤ ، ١٧٨٠ سياً وأن الفرس شرعوا خلال تلك السنة في حصار البصرة ، ولم تكن بريطانيا تؤيد هذا العمل الفارسي . أما الأضرار الاقتصادية التي لحقت بفارس فردها إلى أن الليزان التجاري في منطقة الخليج كان دائماً لصالح شركة الهند الشرقية ، فهي تتبع من البضائع أكثر مما تشتري ، وأدى هذا النظام إلى خروج كميات كبيرة من العملات المعدنية من البلاد . ولنفس السبب تسرب أولئك البحرين إلى يد المستعمرين في الهند . فأسمر كريم خان

نسيباً إذا ما نقيس بالاضطرابات والتمزقات التي تعرضت لها التجارة الأوربية في مصر . والأشئ لم تكن الحكومات الشرقية تلتفت إلى خطورة الامتيازات الممنوحة للرعايا الأوربيين ، ففي العراق كان الإنجليز يدفعون ثلاثة في المائة على الواردات ويعطون إعفاء تاماً من الرسم على الصادرات . بينما كان الرعايا الشبانون يدفعون ٧ ٪ مما جعل التجار الوطنيين يقفون عاجزين أمام المنافسة الأجنبية .

وقد كتب فستل فرنا في البصرة بيودرو يوجه نظر حكومته إلى أهمية التجارة الإنجليزية وحضها على مسايرة إنجلترا في هذا الميدان فيقول « نرسل حكومة الهند في كل سنة إلى البصرة خمس سفن أو ستا محملة بالنسوجات الصوفية والتعليقية والنبالية والسكر والتوابل ، وتوزع بعد ذلك في العراق وفارس والبلاد الأخرى المحيطة بالخليج » .

وفي فارس تسادف نهاية حرب السنوات السبع مع كسب عام حققته شركة الهند الشرقية حينما عقدت مع حاكم بوشهر سمندون بن آل نصر في ١٢ أبريل سنة ١٧٦٣ اتفاقاً هاماً وضع للامتيازات البريطانية في فارس شكلها النهائي فقد جاء فيه :

١ - إعفاء البضائع الإنجليزية المستدة أو المستوردة من الضرائب الجركية مع الاقتصار على ٣ ٪ / محصل من التجار الفرس الذين يتعاملون مع الإنجليز .

٢ - يكون للتجار الإنجليز حق احتكار تجارة الصوف ويجوز لهم الاستيلاء عليه إن ثبت مجيئه من مصدر آخر .

٣ - لا يجوز لأي دولة أوربية أخرى إقامة وكالة في بوشهر طالما بقيت الوكالة البريطانية .

٤ - يتمتع الوطنيون المتعاملون بخدمة البريطانيين بنفس الحماية التي يتمتع بها البريطانيون أنفسهم .

فوماناً في سنة ١٧٦٩ يقضى بتحرير خروج العملة الذهبية من فارس والتعامل بها في التجارة مع الأجانب. كذلك كان الوضع بالنسبة لولاية بغداد فهي تصدر كميات محدودة من التريدينما كانت تستورد سلماً متقدمة من شركة الهند الشرقية وخاصة المنسوجات والأدوات الكحالية والأصْلحة والأرز. وفي سنة ١٨٠٠ قدر أحد المختصين الإنجليز في شئون الخليج نسبة مبيعات الشركة بـ ٩٠٪ من مجموع التبادل التجاري مع أقطار الخليج، وبعبارة أخرى كان الميزان التجاري دائماً لصالح الشركة.

وحينما لاحظ المختصون عجز التجار الوطنيين عن تحمل أعباء التجارة على هذا النحو؛ اقترح مانسقي وكيل الشركة في العراق سنة ١٧٩٧ عدة تسهيلات لتشجيع التجار الوطنيين على الاستمرار في التعامل. مثل: منح ائتمانات للتجار المحليين، وقبول مبدئاً للمناصفة، وإقامة وكالة جديدة في مسقط.

هكذا أصبحت بريطانيا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر بدون منافس أوروبي على الأقل من الناحية الاقتصادية. أما في ميدان السياسة فقد ظهر نشاط للفرنسيين في نفس الوقت تقريباً الذي اختفى فيه الهولنديون. والواقع إن بحارة فرنسا في الشرق ارتكزت على الشام، ولذلك كانت مشروعاتها لفتح ميدان جديد للتجارة مع فارس ترسم على أساس استخدام الطريق البري عبر العراق. وقد جرت في نهاية عهد لويس الرابع عشر اتصالات مباشرة بين فارس وفارسا، وأرسل الشاه أحد مبعوثيه إلى باريس سنة ١٧٠٨ وفي العودة صحبه تاجر فرنسي من مرسيليا يدعى بادري، ومع أن هذا الشخص كان يمثل غرفة مارسيليا التجارية إلا أنه تجاوز الأهداف الاقتصادية الحفنة حينما اقترح التعاون مع فارس ضد قوة عمان الثامية. وعندما تأسست شركة فرنسية للهند سنة ١٧١٧ ظهر اهتمام طاريء بمنطقة الخليج وتقرر إنشاء فندسية في شيراز، وجدد بادري اقتراحه السابق داعياً في هذه المرة إلى إقامة وكالة عمسنة في مسقط^(١).

(١) Masson Paul, histoire du Commerce Français au Levant, au XVIII Siècle Marseilles 1896.

وربما دفعته إلى ذلك ذكرى الاحتلال البرتغالي، ولم يقيض للفنصل الفرنسي أن يتسلم أعماله في شيراز، إذ أنه وصل في نفس الوقت الذي شرع فيه الأفغان في الاستيلاء على فارس. وانتهت تلك الشرعات الفرنسية الخيلية بسقوط دولة الصفويين عملياً سنة ١٧٢٣.

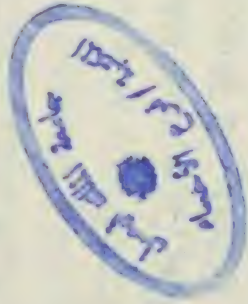
وفي القرن الثامن عشر تدعم مركز فرنسا في المحيط الهندي بإقامة مستعمرة مزدهرة في جزيرة موريشيس والجزيرة الصغيرة المجاورة لها والتي تسمى الآن ريونيون^(١)، ومع أن هاتين الجزيرتين تقعان بعيداً عن منطقة الخليج في الركن الجنوبي الغربي من المحيط الهندي قرب سواحل موزمبيق، فقد نشأت بينهما وبين عمان علاقات تجارية هامة في نهاية القرن الثامن عشر، وفيما عدا ذلك كان نشاط الفرنسيين في الخليج مقصوراً على تتبع الخطوم البريطانية بين مناسبات الحروب التي تكررت بين الدولتين في القرن الثامن عشر، فبمناسبة حرب السنوات السبع ظهر أسطول فرنسي أمام بندر عباس ودمر الكالكتين الإنجليزية والهندية في تلك المدينة، وقد أخرج الفرنسيون بعد تلك الحرب من الهند، ومع ذلك حاولوا أن يستغيضوا عن خسارتهم بإنشاء شركة احتكارية للتجارة مع الشرق. واتصل مندوب هذه الشركة بكريم خان الرندي سنة ١٧٦٦ وتفاوض معه على أساس التنازل عن جزيرة حراج، إلا أن هذه الشركة لم تكن أطول عمراً من سابقتها.

وحينما تجددت الحرب بين فرنسا وبريطانيا ١٧٧٨ - ١٧٨٣ بمناسبة الثورة الأمريكية تردد مدى تلك الحرب أيضاً في المحيط الهندي. وفيما يخص أقطار الخليج أثرت قضية هامة للمرة الأولى وهي تتعلق بجياد سفن عمان التي كانت تتردد على مستعمرات الدولتين المتحاربتين. فقد كتب الفنصل الانجليزي لاثوش سنة ١٧٨٢ يستنكر لدى حكومة بجاي انتهاك فرنسا لجياد

(١) كان الفرنسيون يطلقون على موريشيس أثناء حكمهم لها حتى سنة ١٨١٠ اسم France ile أما جزيرة ريونيون فكانت تسمى في ذلك العهد ريونيون.

وطلت فرنسا أميل إلى استخدام طريق البحر الأحمر لأنه أقرب بالنسبة لجزيرة موريشيس من جهة، ولأنها أكثر معرفة بثئون مصر وسياساتها بخلاف ولاية بندا. وحينما تجد الحرب مع إنجلترا تناسبة وقوع الثورة الفرنسية سيكتسب الاهتمام بالخليج العربي شكلا آخر غير التنافس التجاري وسيصبح خطا من خطوط الدفاع عن الهند عند مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر.

أقد كان هدف البرتغاليين في الخليج العربي هو القهر العسكري، ولذا تطلت أعمالهم كلا الشاطئين. أما الانجليز والهولنديون فكانوا يبنون أسلا التوسع في الأعمال التجارية، ولذا اقتصر نشاطهم على الأنظار التي ينشر فيها العموان : العراق وفارس، أما الشاطئ الممتد بمحاذاة شبه جزيرة العرب فكان يخضع غالبا لحماية قبلية ولا يحقق شيئا من مصالح الشركات الاحتكارية، إلا أنه خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر نشأت فيه قوى وطنية هامة، تجعل محور تاريخ الخليج ينتقل بالضرورة من الجانب الفارسي إلى الشواطئ العربية.



عمان، وذلك باعتبارها سواء على السفن العربية أم الانجليزية الراسية في مسقط^(١) فإذا استثنينا هذه الحوادث التي تطرأ أثناء الحروب العامة فإن علاقات عمان مع مستعمرة موريشيس الفرنسية أخذت تزداد بعد نهاية الحرب، خاصة وأن الفرنسيين استردوا أيضا خمس محطات بحرية كانوا يمتلكونها على سواحل الهند، وذلك طبقا لاتفاق فرساي الموقود سنة ١٧٨٣ وعلى خلاف ما كان يحدث بين شركة الهند الشرقية وأقطار الخليج الأخرى، كانت التجارة الهامية مع المستعمرات الفرنسية تحقق مصالح أكبر للمانيين، إما لأنهم كانوا يتولون بأنفسهم نقل التجارة إلى تلك المستعمرات، أو لأن الفرنسيين كانوا يستوردون حاجياتهم من المؤن بواسطة السفن العربية. وهذا ماقد يفسر لنا تفاخي سلطان مسقط عن اعتداءات القراصنة الفرنسيين واستمدهه لإقامة وكالة فرنسية، بينما رفض في نفس الوقت عرضاً بريطانيا بهذا المعنى^(٢).

لم يكن لفرنسا في ذلك الوقت تثيل في الأقطار المحيطة بالخليج باستثناء قنصلية بغداد، وكانت الحكومة تعهد بها في الغالب إلى أحد رجال الدين الذي كان يدعى أمقف بابل، ويصرف معظم وقته في الاهتمام بمصالح الجالية الكاثوليكية الصغيرة. ولكن في نهاية القرن الثامن عشر تولي قنصل مدني نشط يدعى جان باتست روسو تثيل بلاده في بغداد، وأظهر تحمسا لزيادة النشاط التجاري في منطقة الخليج. فدعا إلى إقامة وكالتين إحداهما في مسقط والأخرى في البصرة، وقال إنها أكثر تقعا من بغداد لوقوعها على نهاية خط ملاحية الخليج. والظاهر أن الحكومة الفرنسية لم تستجب لتلك الأفكار، واكتفت بتحسين علاقاتها مع عمان، وذلك برء جزء من السلوولت التي استولى عليها القراصنة الفرنسيون.

(١) I.O. Home Miscellaneous Vol. 160 Mars 1782.

(٢) يدل على ذلك الخطابات المتبادلة بين سلطان مسقط في ذلك العهد حمد البوسعيدى وبين القنصل روسو. وهذه الرسائل مخطوطة في أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية بمجلة خام لمقط، وقد ذكر مايلز القنصل البريطاني بمسقط في نهاية القرن التاسع عشر أن فرنسا طلبت إقامة وكالة هناك سنة ١٧٨٠ ولكن الإمام هو الذي رفض. 286 p. 2 Miles, vol.

وفي الفترة التي تدرسها اقتصر اختيار الأئمة على أسرة واحدة، هي أسرة اليعاربة. وهذا لا ينفي حقيقة هامة وهي أن تلك الأسرة كتبت صفحة ناصعة في تاريخ العرب الحديث. وفي عهدها تحولت عمان إلى أكبر قوة بحرية وطنية لا في الخليج العربي فحسب، بل في منطقة المحيط الهندي بأسرها. وللأسف^(١) لم تلق العناية الكافية من مؤرخي ذلك العهد أو من المؤرخين المعاصرين، ربما لوقوع عمان في أطراف العالم العربي^(٢).

وقبل أن يشرع العرب في تحرير عمان من الحمايات البرتغالية، كانوا قد ساهموا مع الشاه عباس في الحملة التي استولت على هرمز سنة ١٦٢٢ وقد أشرنا إلى أن الشاه حاول أن يقتنع البرتغاليين على الساحل العماني ولكنه عجز عن ذلك. وكانت الحمايات البرتغالية منتشرة على ساحل عمان ابتداء من صور في الجنوب حتى جلفار التي تقابل تقريباً رأس الخيمة على الساحل الهادي. واتخذ البرتغاليون من هذه الحمايات أداة لإذلال القبائل القريبة وإجبارها على دفع الجزية. وحينما سقطت هرمز بنيت المخطط الجديدة على أساس الارتكاز على مسقط. وكانت الظروف الدولية قد تحسنت بالنسبة للبرتغاليين، فالبحرين الذين ساعدوا الشاه عباس في هرمز عقدوا هدنة مع البرتغال سنة ١٦٣٤ اقتضرت في بداية الأمر على إعادة العلاقات بين مستعمرات الدولتين. ولم تلبث أن تحولت إلى صداقة متينة بين الطرفين حينما استرد البرتغال استقلاله سنة ١٦٤٠.

ناضل العرب إذن في ظروف أشد قسوة من تلك التي واجهها الشاه عباس، ولكنهم كانوا قد تنلبوا على المشكلة التي مكنت البرتغاليين من الاحتفاظ بحمايتهم ألا وهي مشكلة التفكك السيامي. وفي ذلك الحين كان الحافظ الديني يلعب نفس الدور الذي تؤديه الشاعر الوطنية في عصرنا الحديث، ومن ثم لم

(١) استوك منا في هذه الملاحظة المؤرخ الهادي وهو يفسر ذلك بأن أهل عمان

انتقلوا إلى الهند والبرق وانصرفوا عن الخليج، وقد تم في نفس الوقت انتهاء فترة الأباية إلى

المؤرخين لأنهم لا يصفون بالتصويب خلافاً للمؤرخ.

(٢) تحت الطاهر رسالة عنوانها دولة اليعاربة في عمان وشرق أفريقيا. أعدتها تحت إشرافنا عائشة على السيار.

الفصل الثالث

تصاعد القوى العربية

ظل النظام القبلي سائداً في شبه جزيرة العرب، ولذا بعد قيام دول أو حتى إمارات صغيرة حدثاً هاماً في تاريخ الخليج الحديث. ومن المعروف أن القبيلة كوحدة اجتماعية لم تختف في ظل هذه الدول أو الإمارات. والفرق الهام هو أن الوحدات الجديدة تستند إلى مفهوم إقليمي وتصبح لها حدود جنرافية وإن كانت هذه الحدود غير دقيقة في معظم الأحيان، إذ أن مفهوم الإقليمي لا يتشكل حسب حواجز طبيعية أو قومية، بل هو عبارة عن تجمع عدد من المراكز والديارات التي اعتادت هذه القبائل التجوال فيها، وذلك نتيجة خضوع هذه القبائل لرعاية سياسية واحدة. وقد بدأ هذا التكوين السيامي في عمان في القرن السابع عشر واستمرت العملية خلال القرنين التاليين، إذ أن مولد بعض الإمارات الحالية تأخر حتى منتصف القرن التاسع عشر. ويرجع سبق عمان في هذا الميدان إلى التقليل الدينية التي سادت فيها منذ عهد بيده، وإلى أنها بدأت في القرن السابع عشر حركة الجهاد ضد البرتغاليين.

اليعاربة

اشتهرت عمان منذ العهد الأموي بأنها معقل الذهب الأباي، ويعتبر بعض المؤرخين هذا الذهب فرقة من فرق الطولرج، غير أن الأباية ينهون عن أنفسهم ذلك. وربما كان وجه الشبه هو أن الإمام يختار بواسطة أهل الحل والعقد دون أن يكون لوراثة تأثير في ذلك، وهو مبدأ تمايزت به الإمامة أثناء صراعها مع السلطنة في مسقط حتى إنها ذهبت إلى حد التشبه بالنظام الجمهوري. ولا شك أن الفرق شاسع بين النظامين، وليس هناك تحديد ثابت لأهل الحل والعقد، وعم على كل حال كانوا يمثلون فئة محدودة جداً. وبالتالي فلا صلة بين هذا الفهم وبين مبدأ الاقتراع العام أو الاستفتاء الشعبي الذي نعرفه في عصرنا.

المحصون . وقد السالى اسطول عمان في عهده بـ ٢٨ سفينة كبيرة يحمل بعضها ثمانين مدفعاً وهذا دليل على مدى تقدم عمان ، لا في فن اللوحة فحسب بل وفي طرق تسليح السفن . هذا ويجب أن نلاحظ أنه لا يدخل في التقدير الراكب التجارية التي كانت تمتد بالثلاث والتي يمتلكها الأفراد في الغالب من سكان الموالي^(١) ويلاحظ أن اليمارية رغم نشاطهم البحري كانوا يتخذون مقرهم في المدن الداخلية ، فانخذ سلطان بن سيف تروى مقراً له ، أما سيف بن سلطان فقد اختار وستاق وكانت العاصمة تتغير غالباً بتغير الأئمة .

ويمكن القول بأن سيف بن سلطان كان آخر شخصية قوية في تاريخ اليمارية فإن سلطان بن سيف الثاني الذي خلفه سنة ١٧١١ لم يعمر طويلاً وانقسمت البلاد بعده بين شخصيات متنافسة من الأسرة ومن خارجها على الحكم . وبهذه المناسبة نذكر أن البيعة وإن كانت محصورة في أسرة اليمارية إلا أنها لم تأخذ جميعاً اختيار الابن ليخلف الأب ، بل كانت تنصرف إلى أي فرد من أفراد الأسرة الكبيرة . وسنلاحظ انتشار هذا النظام لدى كثير من الأمر الحاكمة في الخليج .

وفي أثناء هذا الصراع على الحكم وقع انقسام أشد خطورة بين اليمانيين أنفسهم ، إذا ظهر تكتلان قبليان ، أحدهما يسمى نفسه بالنافرية ، وينسب إلى العرب الشاليين أو العدنانيين الذين أتوا من نجد . والآخر يسمى نفسه بالهناوية وينسب إلى العرب الجوبيين أو القحطانية . وهذا الانقسام قديم يرجع إلى العهد السابق على الإسلام . ومن المستحيل أن تكون القبائل العربية قد حافظت على هذا التفرع دون أن تتداخل على مر العصور ، ولذلك فإننا نفتقد بأن أساس الانقسام في العصر الحديث إنما هو التعزب إلى فئات سياسية متصارعة تتخذ كل منها شعاراً في الحروب الأهلية . فكان النافريون يتخذون العلم الأبيض ، والهناويون

(١) السالى من ٩٨ وما بعد ما ٢٠

يمكن بوسع زعيم أن يحقق الوحدة إلا على أساس دعوة دينية ، وهكذا ارتبط قيام أسرة اليمارية بأحياء نظام الإمامة ، كما نسبت إلى ناصر بن مرشد مؤسس الدولة الجديدة المكرامات والأمر المارقة^(٢) التي كانت في ذلك الحين هي التي تحفز الناس إلى الانشقاق حوله .

تمت البيعة لناصر بن مرشد العربي سنة ١٦٢٤ وقد أمضى السنوات الأولى في توحيد البلاد ، ولم يركز جهوده ضد الحاميات البرتغالية إلا في الأربعينات . وتمكن من الاستيلاء على عدة موانئ هي : جلفار ، وصور ، ومحمار . أما الحماية الرئيسية في مسقط فقد قاومت حصاراً طويلاً فانضط الإمام إلى عقد اتفاق يحقق له بعض الأهداف ، وهو ضمان حرية الملاحة للعرب وإخضاع البرتغاليين لنظام الجزية . واعتبر البرتغاليون هذا الشرط مدلاً لهم ، ولذلك جاءت التعليلات من جوا باستئناف الحرب ، وأرسلت التفرزات وتصادف ذلك مع وفاة ابن مرشد وتولى أحد أبناء عمومته ويدعى سلطان بن سيف منصب الإمامة .

وقد افتتح هذا الأخير حكمه بنصر حاتم على البرتغال إذ استولى على حصن مسقط حوالي سنة ١٦٥٠ وشرع في تتبع البرتغاليين في الهند وفي شرق أفريقيا مستجيباً في ذلك لاستجداد المسلمين الذين تربطهم باليمنيين وشائج متينة منذ القدم^(٣) .

إن أهم شخصية أتت بعد ذلك في تاريخ اليمارية هي شخصية سيف بن سلطان (١٦٩٢ — ١٧١١) ففي عهده استولى اليمانيون على ممبسة وكانت شبه عاصمة لشرق أفريقيا البرتغالية . وبالنسبة لعمان ذاتها اهتم بتنمية الزراعة وشنق الثروات ولو أنه كان يمتلك تلك الدخيل ملكية خاصة ، ويبدو أنه كان يحتجز نسبة كبيرة من غنائم الحروب ، وهذا هو ما مكنته من امتلاك الأراضي وبناء

(١) السالى من ١٥ ، ١٦ ، ٢٠

(٢) أنظر الفصل الثالث من كتابنا « زنجبار » :

العمل الأحمر . وبلا حظ أن هذا الانقسام إلى قيسية ويمزية كان شاملاً بين القبائل العربية في الشام في نفس ذلك العهد ، وسيزداد هذا الانقسام حدة في عمان حيناً بطعم بالنزاع الطائفي ، فتصبح النافرية في الغالب من أهل السنة ومن أتباع المذهب السلفي بعد ظهور الحركة الوهابية ، بينما يسود المذهب الألفي طائفة الهناوية .

أدى هذا الانقسام إلى حروب أهلية عنيفة ومقتل عدد كبير من زعماء الطائفتين ، فقتل أهل عمان الانثالف من جديد حول سيف بن سلطان الثالث وباموهر بالإمامة سنة ١٧٢٨ ولم يلبث أن ظهر له منافس في إقليم الظاهرة ، هو بلعرب بن حجر فتجددت الحرب الأهلية وأجه سيف بن سلطان إلى نادر شاه في سنة ١٧٣٧ يطلب معونته . وكان ذلك خطأ فاحشاً لأن نادر شاه الذي انضبط الحكم في فارس سنة ١٧٣٠ أعلن نفسه حاكماً شرعياً في سنة ١٧٣٦ وأظهر طموحاً لا حد له للتوسع والسيطرة على الشعوب المجاورة .

تلقت الشاه هذه الفرصة لكي يسطر سيطرته على عمان ولكنه كان يفقد مثل حكام الفرس السابقين القوة البحرية ، فطلب من شركتي هولندا وإنجلترا الشريقتين أن تدعمه بالسفن ، ورفض الطلب ، فبعث إلى سورات بأمر يدين بعض السفن لحسابه كما اشترى البعض الآخر وبدأ تكون له أسطول من نحو ثلاثين سفينة .

تمكن نادر شاه من نقل قوات كبيرة إلى عمان سنة ١٧٣٩ وتوغلت تلك القوات في المدن الداخلية واركتكت فطائع شديدة خاصة في مدينة نزوى ، وعظم استياء الناس . ومن جهة أخرى أدرك سيف بن سلطان الثاني أن الفرس لا يعملون لحسابه بل لتحقيق أطماع الشاه فندم على تصرفه السابق وعمل على التناغم مع منافسه بلعرب بن حجر ، وتم الاتفاق على أن يتنازل الأخير ، وبدأت الوحدة قربية من جديد وتمكن العرب فعلاً من تحرير معظم عمان باستثناء صحار

التي كان يديرها شخص طموح هو أحمد بن سعيد الذي سنود إلى ذكره بعد قليل . وفي تلك الأثناء ظهر منافس جديد يدعى سلطان بن مرشد وادعى الإمامة لنفسه ، فلما نجح في الاستيلاء على معظم عمان استنجد سيف بن سلطان مرة ثانية بالفرس على أساس أن يضموا صحار التي امتنعت عليه مقابل أن يضمنوا له الإمامة والسلطة في عمان . ومرة ثانية نكثت الفرس بوعودهم لسيف بن سلطان على أثر استيلائهم على مسقط إلا أن سيفاً لم يعمر طويلاً بعد هذا الحادث ، كما قتل منافسه سلطان بن مرشد في الحرب ضد الفرس ، وخلا الميدان لأحمد بن سعيد حاكماً صحاراً (١)

٢

قيام أسرة البوسعيد

اكتشف سلطان بن سيف الثاني شخصية أحمد بن سعيد اللامعة ، ورغم أنه كان يشتغل بالتجارة فقد عينه آخر حكام عمان من البارية مستشاراً له ، ثم عهد إليه بإدارة ميناء صحار الهام ، ومنذ ذلك الوقت صمم أحمد بن سعيد على أن يعمل لحسابه الخاص ، فتعاون مع الفرس ضد الفئات المتنازعة في عمان ولما شعر بضغف هذه الفئات تحول إلى محاربة الفرس ، ونجح في قيادة مقاومة عنيفة ضد حتى ينشئ النزاع من الحروب ، فنصح القواد الشاه بضرورة إخلاء عمان واقترحوا عليه أن يسلم السلطة عند الانسحاب لأحد أفراد الأسرة السابقة ، وهو ماجد بن سلطان . وبدأ يتوكلون البلاد عوزة لفوضى الحرب الأهلية .

تجامل أحمد بن سعيد فأرسل مبعوثيه إلى مسقط ووظفوا أنهم أتوا من طرف ماجد بن سلطان وتسلموا المدينة وسارعوا إلى إنقراق المراكب الفارسية

(١) انظر جمال زكريا : دولة البوسعيد في عمان وشرق أفريقيا.

فاضطر القوس إلى الاستسلام ، وهكذا استطاع أحمد بن سعيد أن ينسب فضل تحرير عمان لنفسه ، وبناء عليه أخذ البيعة بالإمامة في سنة ١٧٤١ وبذا وضع الأساس لأسرة حاكمة جديدة ، هي أسرة البوسعيد التي ما زالت حتى الوقت الحاضر تحكم في مسقط .

وكما استخدم أحمد بن سعيد الحيلة في الاستيلاء على السلطة ، فكذلك استخدمها خلال حكمه الطويل الذي امتد إلى سنة ١٧٨٣ فكان يعالج بواسطتها شئون القبائل المتناحرة ، وكذلك حركات العصيان المتعددة التي قام بها أبناءه في حياته . ويفضل بحرية عمان القوية وأصل أحمد بن سعيد سياسة أسلافه اليمانية في تنمية العلاقات بالدول الإسلامية ، وإذا كان قد فقد ولاء الإمارات الواقعة على ساحل أفريقيا الشرقي فإنه قد وثق علاقاته مع الدولة العثمانية بصفة خاصة ، وأتيحت له فرصة طيبة حينما حاصر القوس البصرة فأرسل الطراد الرعالي الذي تمكن من كسر سلسلة وضمها للقوس لعرقلة الملاحة في شط العرب . ومنذ ذلك الوقت خصصت الدولة العثمانية مكافأة سنوية لحكام عمان نظير قيامهم بحماية الشواطئ الجنوبية والشرقية لولاية بغداد في وقت كان الأسطول العثماني يكاد يكون منعدما من مياه الخليج .

لويحكم موقعها الجغرافي كانت عمان حلقة اتصال بين الوطن العربي وبين الهند بصفة عامة والإمارات الإسلامية هناك بصفة خاصة . وقد عاصر أحمد بن سعيد حاكم حيدر آباد الشهور الدعوة لنظام الملك . ومن المعروف أن هذه الدولة الإسلامية الهندية قامت بدور فعال في مقاومة الاستعمار البريطاني ، وكانت السفن العمانية تتردد على موانئ الهند لكي تحمل الأرز اللازم لحاجات سكان الخليج العربي بأسرهم بما في ذلك أهل العراق . وقد أشرنا إلى أن السفن العمانية نقلت حاجيات التموين أيضاً إلى المستعمرات الفرنسية بالبحر الهندي ، وقد استندعت هذه الحركة الراحية الدشطة تطهير ساحل ملبار من القراصنة الذين

يفتخرون إلى مختلف الجلسيات الآسيوية والأوربية . وهكذا سبق المانيون الإنجليز إلى تلك السياسة التي تهدف إلى تأمين الملاحة التجارية في المحيط الهندي .
تمرضت عمان بعد وفاة مؤسس الأسرة إلى خطر الحرب الأهلية من جديد ، وذلك نتيجة المنازعات بين أفراد الأسرة الحاكمة ، وقد آذرت الأغلبية سعيداً أحد أبناء الإمام السابق فبوقع بالإمامة وأخذ مقوه في الرستاق بالداخل ، وكان ذلك خطأ سياسياً ، إذ أن مركز الثقل في دولة عمان البحرية كان يستند إلى المواني عامة وإلى مسقط بصفة خاصة . يضاق إلى ذلك أن الحاكم الجديد أراد أن يحتكر شئون التجارة والملاحة للدولة .

فلم يتقبل المجتمع التجاري ذو النفوذ في المواني هذه السياسة^(١) ومن ثم كان من السهل على أحد أبناء سعيد ويدعى حمد أن يستقل بالساحل ، وهذا الاستقلال هو أصل ازدواج السلطة في عمان . فهناك سلطنة مسقط الساحلية وإمامة عمان السائدة في الداخل . ولو أن هذا الازدواج لم يؤد في بداية الأمر إلى صراع بين السلطين ، خلافاً لما سيحدث في القرون العشرين . ويبدو أنه طوال حياة الإمام سعيد كان هناك شبه تسليم ضمنى بأن حاكم مسقط يدبر المنطقة الساحلية بينما تستقل القبائل الداخلية بشئونها الخاصة تحت الزعامة الروحية للإمام . ولم يكثر أحد لتجديد انتخاب إمام بعد وفاة سعيد ، وأصبح هذا اللقب يطلق أحياناً على حكام مسقط وإن كانت المصادر الأجنبية هي التي تفعل ذلك في معظم الأحيان بخلاف المصادر العربية . فهذه الأخيرة استخدمت لقب السلطان أحياناً والسيد في معظم الأحيان للدلالة على حكام مسقط ، وهذا اللقب الأخير لا يخلو من صفة دينية في بعض أقطار شبه الجزيرة وخاصة في حضرموت .

(١) قد يشاغل القارىء عن الفرق بين الاحتكار والتاميم الذي نمره في عصرنا . والفرق واضح وهو أن التاميم الحالي يهدف إلى توسيع الخدمات العامة ولم تكن الدول تقوم بهذه الخدمات في العصر الذي نمرسه .

ويقال بأن جزر البحرين خضعت له عدة سنوات^(١) ومن الواضح أن هذا التكوين الجغرافي للدولة العمانية يتطلب أسطولاً قوياً ، ويستدو أن السفن التجارية كانت تستعمل أيضاً لأغراض الدفاع . وعلى هذا النحو قدر أسطول مسقط في عهد سلطان بن أحمد بـ ٥٠٠ سفينة تتراوح حمولتها بين ١٠٠ و ١٠٠٠ طن عدا ١٠٠ سفينة أخرى يمتلكها أهل صور . أما السفن الكبيرة المخصصة للحرب فلم تزيد عن ثلاث ، ومن الطبيعي أيضاً في مثل هذه الظروف أن تقوم العلاقات بين مسقط وبين العالم الخارجي أكثر من غيرها من الإمارات العربية الناشئة .

٣

العُتُوب

كان القسم الشمالي الغربي من الخليج يخضع اسمياً للدولة العمانية ، ومن حين إلى آخر ترسل بعثتين للتصريف على أحوال القبائل في الأحساء . وقد ورد اسم هذا الإقليم في قانون نامه الذي يحدد ولايات الدولة ، ولكن السياسة التقليدية للدولة العمانية في شبه جزيرة العرب هي عدم التدخل في شئون القبائل ، وهكذا سيطرت قبيلة بني خالد القوية على إقليم الأحساء منذ القرن السابع عشر . وفي نفس هذا القرن كانت السلطة العمانية ضعيفة في البصرة ذاتها حتى تولت حكمها أسرة فارسية هي أسرة الافراسياب — وبرزى إلى أحد زعماء بني خالد ويدعى محمد بن عروج تأسيس حصن في الكويت في منتصف القرن السابع عشر . ومن أوائل القرن الثامن عشر أخذت قبيلة العُتُوب تحمل بالتدريج علل بني خالد في السيطرة على سواحل الأحساء .

(١) العهد بهذا القول مؤرخ بحرف من أخبار آل خليفة هو عهد اليماني ، وهذا يدعو إلى اعتناء لأن أحداً من المؤرخين لم يتفق معه على ذلك — انظر اليهاني ص ٨٣ .

حاول الإمام سعيد أن يسترجع سلطته في الساحل بعد وفاة ابنه محمد سنة ١٧٨٢ غير أنه استطاع بمقاومة عنيدة وتمكن أحد إخوته — سلطان بن محمد بن سعيد من الاستيلاء على السلطة في مسقط والتعمر تنوذه على ساحل الباطنة .

ذلك أنه منذ قيام حكم اليمسعيد انفصل القسم الشمالي من ساحل عمان عن التسمية لمسط وأخذت قوة قبيلة جديدة تظهر هناك مثل بني ياس والفراس . أما في عهد العيارة فكان من العتوب عليه أن عمان تمتد من إقليم ظفار للناظم لخصرموت حتى قطر في وسط الخليج العربي .

غير أن اليمسعيد إذا كانوا قد رأوا ممتلكاتهم تنحصر داخل شبه الجزيرة فلمهم قد عوضوا عن ذلك بالتوسع فيما وراء البحار ، وبدأ محمد بن سعيد هذه السياسة بالاستيلاء على جزيرة زنجبار سنة ١٧٨٤ ولو أن هذا الحدث قد تم صدقة دون عمد ، وذلك بسبب قنص محمد لأحد أعمامه الذين ثاروا على حكمه .

أما سلطان بن أحمد (١٧٩٢ - ١٨٠٤) فقد جعل من التوسع الخارجي سياسة ثابتة له ، وبدأ بالجزر الواقعة لساحل عمان : قشم وهرمز ، ثم بسط سلطته على الموانئ الهامة في ساحل مكران . واستولى على ميناء شهيد وجوادور . وبواسطة هذين اللينيين توغلت العلاقات بين بلوختستان وبين عمان . وأخذ البوش هاجرون إليها بأعداد كبيرة . ومع أن سلطاناً عامراً قدام الأسرة الفارسية سنة ١٧٩٤ وهي أعظم الأسر الفارسية في العصر الحديث فإن ذلك لم يبق عائلاً دون استيلاء عمان على ميناء بندر عباس بفعل مجريتها القوية ، وهكذا سارت دولة عمان في عهد سلطان بن أحمد تتكون من شريط ساحلي ضيق في شبه جزيرة العرب يضاف إليه عدة جزر وموانئ حتى حدود باكستان الحالية علاوة على جزيرة زنجبار .

وبماح لسو السفن الكبيرة وقد ذكر فيبور الرحالة الدانماركي (١) الذي زار تلك البلاد سنة ١٧٦٥ أن أهل الكويت يمتلكون ٨٠٠ قارب وأنهم مهرة في بناء السفن ويستوردون الأخشاب لذلك من الهند

ولا يعرف بالضبط تاريخ تأسيس إمارة آل الصباح ، وإنما العرف هو أن مؤسسها صباح الأول مات سنة ١٧٦٦ وخلفه ابنه عبد الله الصباح الأول الذي امتد حكمه إلى سنة ١٨١٣ وقد اتخذت الكويت في عهده شكل إمارة واضحة المعالم ، لها أسرة حاكمة . كما تطور سكان المدينة إلى مجتمع حضري يشتمل بالتجارة والنوص على اللؤلؤ وصناعة بناء السفن . وعند نفوذ الأسرة الحاكمة أحياناً على بعض القبائل القريبة من المدينة . ويتعاضد رسول النزوات السعودية إلى منطقة الخليج بين عبد الله الصباح سوراً من الطائن حول البناء . وبما ساعد على تطور المجتمع الاستقرار .

إذا كانت مدينة الزبارة قد اختفت من الوجود فلماذا كانت في نهاية القرن الثامن عشر أكثر موائل قطر ازدهاراً وذلك بعد أن استقر فيها آل خليفة فترة من الزمن واشتغلوا بصناعة النوص على اللؤلؤ بحكم وقوع هذا البناء في مواجهة البحرين . ذلك أن الثامات تمتد من الكويت حتى ساحل عمان ولكن أقصاها هو الوجود حول جزر البحرين . ويفسر البعض ذلك بوجود منابع مياه عذبة تحت سطح البحر . ويمثل هذه الصناعة تحول آل خليفة من مجتمع بدوي إلى مجتمع وأعمال دفعه واحدة حتى إنهم أصبحوا يقرضون أصحاب السفن التي تشتمل بالنوص نظير احتجاز نسبة من اللؤلؤ ، وتوفوا في هذا الميدان على عملي حكم الفرس في البحرين وهم آل مذكور ، فكان ذلك من أسباب النزاع التي انتهت باستيلاء آل خليفة على تلك الجزر . ويصنف البهائي (٢) الذي يعتبر كتابه

(١) Niebuhr vol. 2, p. 140 S. Q (١)
على الكويت بما يدل على أن زعامة أسرة الصباح لم تكن قد ظهرت بعد سنة ١٧٦٥ .
(٢) البهائي ص ٧٠

وقد جاء الثوب من الأتلاخ في جنوب نجد ، ويلاحظ أن نجداً كانت مصدراً لمجرات قليلة عديدة أثرت على تاريخ العراق والخليج العربي مما فيها خرجت قبيلة ثمر التي كان لها تأثير في حياة العراق ، بل وكذلك قبيلة كعب التي سادت إقليم عرستان في القرن التاسع عشر وهو إقليم يقع الآن داخل الثوب إلى الإيرانية . ويرجع أن تكون الثوب أو عنبة اتحاد قبلياً وهي تنتمي إلى مجموعة كبيرة من القبائل تسمى نفسها قبائل عنزة ، وسجل ظهور الثوب على سواحل الخليج للمرة الأولى سنة ١٧١٦ (١) ويبدو أن القبيلة نزلت أولاً في سينية وأم القصب قرب البصرة ، غير أن السلطات العثمانية أجبرتها عن تلك المناطق فأخذت تهيئ فترة من الوقت بين قطر والأحساء . وفي مثل هذه الظروف تحدث أعنف الحروب القبلية والتي تنتهي عادة باستقرار أقوى القبائل في أفضل المراتب والرواحات والذلل التجارية . وعلى هذا النحو استقر فرع من الثوب في ميناء الكويت تحت زعامة أسرة الصباح ، ووقع آخر في الزبارة الواقعة بالبحرين تحت زعامة آل خليفة ، بينما كان الفرع الثالث المسمى بالجماعة أسوأ حظاً إذ سكن قطر الجديدة .

والظاهر أن الكويت كان ميناء مزدهراً بعض الشيء حتى من قبل استقرار الثوب فيه ، فقد أشرنا إلى بناء حصن هناك ويقال إن كلغة كوت التي نعتيها هي أصل الاسم الذي اشتهر به البناء وإن كنا نرجح أنها نعتي مجموعة بيوت متلاصقة تستخدم لخزن البضائع ، إذ أن هذا هو المعنى الشائع لكلمة كوت عند أهل المنطقة .

وتساعد العوامل الطبيعية على ازدهار البناء فهو يقع في جوف خليج عمن

(١) أنظر الدراسة القبلية التي نشرها وارتد ، خير برهاني لخليج في أوائل SB R. p. 361 - 425

إشادة بأسرة آل خليفة سيما آخره هو تعصب الحكام الفرس للشيعة واستنجد أهل السنة في البحرين بحكام الزبارة . أما السكاتب الإيراني آدميات فيصور الظروف التي أدت إلى استيلاء آل خليفة على البحرين على النحو التالي : وهي أن محمد بن خليفة اتفق مع حاكم بوشهر الفارسي على أن يدير باسمه البلاد ولكنه اختلف معه حول مسائل مالية فنادوها سنة ١٧٧٧ وحينما تسلم السلطة أحمد بن خليفة في سنة ١٧٨٣ أتمناه غياب أبيه في الحجة التي مات فيها ، كانت فارس قد تعرضت لفترة جديدة من الفوضى ، فانهز هذه الفرصة وهاجم البحرين وانزعها من آل مذكور . وهو يريد أن يخلص من ذلك إلى آل خليفة منذ البداية قبلوا التبعية لفارس ، وهي حجة تاريخية من الحجج التي كانت تقدمها إيران لهم ادعائها حق السيادة في تلك الجزر العربية .

والحق إن حكم الصنويين منذ أن امتد إلى البحرين سنة ١٦٠٣ لم يستقرها ، فيذكر أن زعما من زعماء الأحساء يدعى الجبري استولى عليها وظلت بحوزة العرب حتى جاء نادرشاه إلى الحكم . فشملت أطاعه التوسعية جزر البحرين ، ولم يكذب برسل قواته إليها حتى تتمكن سيف بن سلطان من انزاعها منه ، فقيل إن ذلك كان من أسباب غزو الفرس لمان سنة ١٧٣٩ ونادرشاه هو الذي عين أول حاكم للبحرين من آل مذكور . ومن الواضح أن توارث هذه الأسرة لحكم البحرين إنما كان تغييراً عن عصبيتهم لحكام فارس . ويستنتج من رواية آدميات كيف أن السواحل نفسها كانت كثيراً ما ترفض الولاء للحكومات الفارسية المركزية .

لا شك أن جزر البحرين كانت أعظم من الوطن الأصلي لآل خليفة وهي مدينة الزبارة ، سواء من حيث امتداد الموانئ أم من حيث الثروة الاقتصادية . فبالإضافة إلى مصائد اللؤلؤ توجد مساحات كبيرة سالحة للزراعة في تلك الجزر ، ومن ثم لقب أحمد آل خليفة بأحمد الفاتح . ورغم ذلك فإن الأسرة لم تنقل مقرها

نهائياً إلى البحرين إلا في سنة ١٧٩٤ في عهد سلمان بن خليفة ، ولم يتخذ هذا القرار إلا نتيجة وصول الأطماع السعودية إلى ساحل الخليج . ومنذ ذلك الوقت تعرض آل خليفة في البحرين لأطماع جميع القوى السياسية التي ظهرت حول شواطئ الخليج ، وبعضها قوى قبلية مثل رحمة بن جابر زعيم الجلاهمة الذي ساهم في فتح البحرين مع آل خليفة ، وظل يحقد عليهم أنهم حرموه من نصيبه من التنمية . وقد قاد قبيلاته الفقيرة بعد ذلك في أعمال القرصنة . وبعضها الآخر كانت قوى سياسية كبيرة نسبياً مثل فارس تحت الأسرة الفاجرية . يضاف إلى ذلك سلاطين مسقط والدول السعودية المتعاقبة . ووسط هذه الأخطار المحيطة من كل جانب تمكن آل خليفة من المحافظة على ملكهم متخذين سبيل الدهاء أحياناً أو إعلان التبعية لهذه الدولة أو تلك مقابل مبلغ من المال أحياناً أخرى . ولكنهم كانوا عاجزين في معظم الأحيان عن استخدام القوة المسلحة .



ظهور الدولة السعودية

نشأت الحركة الوهابية السعودية أصلاً في نجد ، أي في وسط شبه الجزيرة ، غير أنها أخذت تؤثر على أوضاع الخليج منذ أن امتد نفوذها إلى الأحساء سنة ١٧٨٧ وقد استفزت عملية توحيد نجد نحو أربعمائة عاماً من ١٧٤٧ — ١٧٨٦ وأمضى مؤسس الدولة محمد بن سعود سني حكمه دون أن يتمكن من تحقيق هذه الوحدة . وما أن تمكن خلفه عبد العزيز بن محمد بن سعود من القضاء على جميع عناصر المقاومة في نجد حتى تطالع إلى الأحساء وإلى غيرها من أقطار الخليج .

وإذا أردنا أن نحكم على الحركة الوهابية السعودية بتقياس عصرها فلا شك أنها أسدت خيراً إلى إقليم نجد فأقذته من حالة الفوضى التي كان يرزح تحتها . ويمكن القول بأن هذه الحركة أصبحت تعبيراً عن شعور وطني نجدى غامض .

أما في أقطار الخليج فإن تقديرها يختلف باختلاف البيئات ، ففي المدن والإمارات التجارية مثل الزبارة والكويت والبحرين ساد روح الاستياء من هذه الدولة العسكرية التي رهيق السكان بالضرائب والكوس المختلفة باسم الجهاد .

وإذا قرأنا المؤرخين الوهابيين أنفسهم نلاحظ أنهم يتحدثون عن الغارات السعودية على المدن النفية في الخليج أو في العراق وعن الغنائم الوفيرة التي كانت تعود بها تلك الغارات بروح من التفاخر قد لا يوافق عليها المؤرخ المعاصر . كذلك كون الشيعة المنتشرون في ساحل الخليج وبعض مدنه مثل القطيف بيئة ثانية من بيئات المعارضة للحكم السعودي الوهابي . فالحركة السلفية من حيث العقيدة على طرف تقيض مع المبادئ الشيعية ، وكانت غالبية قبيلة بني خالد في الأحساء تعتنق المذهب الشيعي ولو أن البدو لا يكثرنون عادة بالمبادئ الدينية وهكذا سيكون موقفهم من الحركة السلفية^(١) .

وحسب المؤرخ النجدى عثمان بن بشر ظهر الدعوة السلفية أنصاراً في أقطار الخليج حتى من قبل أن تخضع للحكم السعودي . فأهل قطر م الذين استعدوا ممثلين عن حكومة الدرعية عاصمة الدولة السعودية الأولى وذلك منذ سنة ١٧٩٢ كما أن قبائل البري في عمان رحبت لنفس السبب بإبراهيم بن سليمان بن عفيصان الذي تقدم إلى تلك الواحات في سنة ١٧٩٥ . ويلاحظ أن الدولة السعودية قد عهدت إلى هذا الشخص بقيادة معظم الحملات التي خرجت إلى منطقة الخليج وضراعه بعد ذلك بواسطة مناصراته حتى البحرين .

لقد تدعمت السلطة السعودية في الأحساء بعد أن نجحت في صد هجوم عثماني

(١) يوجد مخطوط بالتحف البريطاني بعنوان « مع الشباب في سيرة محمد بن عبد الوهاب » وخلافاً لما يدل عليه العنوان يتحدث المؤلف وهو مجهول عن أعمال الدولة السعودية في الخليج ويسو أنه يعبر عن وجهة نظر البيئات الشيعية بالمنطقة ويمكن مقارنته بكتاب « عنوان الجديف تاريخ نجد لابن بشر المؤيد للدعوة الوهابية وخاتمة الصفحات من ١٠٧ - ١٠٥ » .

قام به وكيل والي بندا على كيتخدا سنة ١٧٩٦ كما حرصت الدولة السعودية على إنشاء حصن ثابت في البري سنة ١٨٠٠ ليكون قاعدة تنطلق منه القوات السعودية إلى عمان وما يسمى الآن بالساحل الهادي ، ولكن الدولة السعودية الأولى لم تهتم بتقديم سلطاتها في الأطراف في معظم الأحوال الأخرى فكانت تكتفي بإعلان التبعية بواسطة الحكام المحليين أو بواسطة زعماء القبائل ومظهر هذه التبعية الوحيد هو تقديم الزكاة أو نسبة من غنائم الحروب مع ترك جميع الشؤون الأخرى بيد الحكام السابقين . وعلى هذا النحو دخلت قبيلة القواسم القوية في تبعية الدولة السعودية سنة ١٨٠٢ وأحدث هذا الارتباط بين القواسم وبين حكومة الدرعية أثراً بعيداً في تاريخ الخليج كما سنرى ذلك في الفصل الخاص باللاحقة .

مسقط نقطة التجسس على الإنجليز في الهند، سيما أنه يقيم بها وكيل لجيدر على حاكم حيدر آباد، الشهير بدهاءه للإنجليز. وفي حالة وقوع الحرب مستندة مستعمرة موريشس في تموزها على ما يحمله إليها البحارة العرب. وليس صحيحاً أن هؤلاء البحارة لا يستطعمون إلا في البحر، الشواطئ كما يشاع، وعلى الأهل فإن العرب عمان بنوا من الهارة في اللامعة بحيث لا ينطبق عليهم هذا الوصف. لذلك نصحت هذه التقارير بأقامة قنصليتين إحداهما في البصرة التي قد تكون أكثر تلقاً من بنگاد، والأخرى في مسقط وبازالة أسياح الاستياء التي ترتبت على تمدد القرامنة الفرنسيين على السفن العربية وذلك بدفع ترميض عنها.

ولم تكن حكومة باريس متعصبة لهذه الفكرة غير أن موارد تلك الراسائل جعلها تقرر في مارس سنة ١٧٨٨ إنشاء القنصليتين واختيار موظفين تأوين لهما، وما جاء في خطاب دوزر الخارجية إلى دوسو القنصل الفرنسي في بنگاد إن تليف أمير مسقط على إغناء وكيل لديه وملاحقته عن التوائد التي مستود على رعيا صاحب الخلافة في اللامعة والتجارة وعن تسهيل الاتصال بالهند، كل ذلك جعلنا نقرر إقامة وكالة في مسقط^(١).

ولعل هذا الخطاب يشير إلى الرحلة التي قام بها شاربط فرنسي يدعى روزيلي في المايح سنة ١٧٨٥ والتي مر خلالها بمسقط حيث اتصل بحاكمها فطلب إليه تعيين وكيل فرنسي. وهي تقطع على كل حال التشكك الذي يثيره الكتاب الإنجليز حول موقف سلطان مسقط من هذه القضية.

وفي هذه الأنباء وقعت الثورة الفرنسية وفي غمرة الأحداث اسل على موضوع وكالة مسقط ستار من التسيان، ولم تكن الحكومة الفرنسية قد سوت بعد موضوع الترميضات، ويبدو أنها لم تنق بالتقديرات التي ذكرها الملاحون العرب بحجة أن السفن العربية ليست سوى قوارب صغيرة، أو لأن هذا السفن لأتحمل

A. A. E. Muoode vol. II.

(١) خطاب من وزير الخارجية لده دوسو بتاريخ ١٩ / ٣ / ١٧٨٨.

الفصل الرابع

التنافس الإنجليزي الفرنسي في عهد الثورة و نابليون

نبينا كيف أن النشاط الأوربي هدف أسلا إلى فتح أسواق تجارية في أقطار الخليج خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، ولكن ما أن ثبتت الحرب الطويلة بين بريطانيا وفرنسا سنة ١٧٩٣ بتناحية قيام الثورة الفرنسية حتى تسابق الثريقال التجاريان إلى اكتساب نفوذ سياسي وعسكري في بعض هذه الأقطار، واتضح هذا الاتجاه بصفة خاصة عند غزو الفرنسيين لمصر. وبهذا الوقت انصرفت بريطانيا الخليج العربي أحد الخطوط الأمامية للدفاع عن مستعمراتها بالهند، وحتى بعد أن زال الخطر الفرنسي بسقوط جزيرة موريشس بد أن الإنجليز سنة ١٨١٠ استمرت الاستراتيجة البريطانية متمسكة بهذا الباب لم تتحول عنه حتى بعد استقلال الهند لظهور مصالح جديدة في منطقة الخليج كاسترى ذلك فيما بعد، ومع ذلك فإن عهد الصراع الإنجليزي الفرنسي من سنة ١٨٠٩ - ١٧٨٣ بعد فترة هامة في تاريخ الخليج العربي.

وقد ارتكز هذا الصراع الدبلوماسي على ثلاث مناطق: مسقط، وطرش، وولاية بنگاد. وكانت أهم فرنسا فرض أنظم لتوثيق سلاتها بحكومة مسقط نظراً لللاقات التجارية بين ملاحى عمان وبين مستعمرة موريشس. وقد حاكم هذه المستعمرة مثل القنصل الفرنسي في بنگاد على ضرورة الاستعانة من موقع مسقط حتى من قبل وقوع الحرب مع إنجلترا. وبيئت التقارير الراسلة من هذين الازطين التوائد التي مستود على بلادها على التصور التالي: إنه يمكن إنقاذ

هذه البلاد ، وكذلك دراسة الطرق التي يمكن أن يستخدمها غزو فرنسا للشرق « ولم يقدر لبوشان أن يصل إلى مقر عمله الجديد .

فقد كانت التعليمات تقضي بأن يطوف أولاً بالبحر الأسود والشام ومصر لدراسة الطرق المؤدية للهند . وكان عليه أن يتصل بالسفير الفرنسي بالآستانة ليحمل توصيات من الباب العالي إلى حاكم مسقط ، ربما لأن الحكومة الفرنسية تصورت وجود تبعية ما ، تربط حكومة مسقط بالدولة العثمانية^(١) . وحينما وصلت الحلة الفرنسية إلى مصر كان بوشان لازال بالقاهرة ينتظر الفرصة الوائبة للذهاب إلى مسقط . والظاهر أنه لم يكن واثقاً من نجاح مهمته لأن لجنة الشؤون الخارجية لم تأخذ بالتقراحه عقد مهادنة سياسية مع حاكم مسقط قبل إنشاء الوكالة . وهذا ما سيفعله الإنجليز في سنة ١٧٩٨ ، ومن جهة أخرى لم تكن الحكومة الفرنسية مستعدة لصرف التبعيات المناسبة عن أعمال القرصنة . لذلك ما إن وقع الغزو الفرنسي لمصر ، حتى وجد بوشان مبرراً قوياً للاعتقاد عن عدم أداء مهمته ، وهو أن تلك الحملة قد أثمرت شعوراً قوياً معادياً لفرنسا في جميع الأقطار الإسلامية . وقد ساد شعور لدى العرب « بأننا نريد غزو بلادهم أيضاً » ، أما البعثة للرسالة إلى فارس فقد تمكنت من الوصول إلى هدفها قبل مجيئ الحملة الفرنسية بمدّة طويلة ، وكانت تتألف من عالين نباتيين هما أوليفية وبروجير . وهذا لا يعني أنها كانت مجردة عن الأهداف السياسية ، والظاهر أن اختيار عالين إنما كان المقصود به تنطية أهداف البعثة الحقيقية وذلك بإعطائها صورة مهمة علمية . غير أن التعليمات كانت ضريحة بأن يعمل البعثتان على اجتذاب كل من الدولة العثمانية وفارس إلى محاللة فرنسا على أساس اتفاق المصالح ، فإن روسيا في ذلك الحين كانت تعتبر الحزم التقليدي لماتين الدولتين الإسلاميتين ، وهي في نفس الوقت عضو في الحلف الأول الذي تكون ضد الثورة الفرنسية .

(١) انظر هذه التعليمات في المصدر السابق بتاريخ ٣٠ بربريال سنة ٢ وكذلك .
Caseyrendence de herne fol. 8

الوثائق التي تدل على جنسيتها كما ذكرت عكسة التنام في مرسيها . وتجددت أعمال القرصنة بمسيرة أعظم بعد نشوب الحرب الثانية ١٧٩٣ وكما حدث من قبل ، لم يحترم الفرنسيون حياد مسقط . وكانت أعمال القرصنة في المحيط الهندي تكاد تكون شبه رسمية بل إن الفرنسيين تفاخروا بتفوق قراصنتهم على الإنجليز والبحر تالين . وتكشف لنا هذه الرسالة عن الأضرار التي لحقت بمسقط من جراء القرصنة الأوروبية . فقد أبلغ وكيل الإمام في بغداد التفصيل روسو بأن القراصنة الفرنسيين قد أخذوا السفينة المسماة الفتحة وقتلوا بحارها واستولوا على حواليها من البضائع وهي تقدر بـ ١٤ ألف روبية ، بل حدث ما هو أكثر من ذلك « ففي العام الماضي (سنة ١٢٠٨ هـ) وصل مركبان تجاريان من بندر موريس (جزيرة موريشس) وبانت بهما المرأة أن تمديا على إحدى السفن الهابية الآتية من بنغال محملة بالبضائع ، مع أننا كنا قد زدونا هذين المركبين بمحاجياتهما من المون^(٢) . . . وخلاصة القول إن الأوروبيين سبقوا العرب إلى ممارسة القرصنة في الخليج العربي ، ولا يستبعد أن يكون هؤلاء حيناً شرعوا في ممارسة القرصنة فلما ذلك تقليداً للأوروبيين .

تجددت الحاجة إلى إنشاء مواكز اتصال بالشرق عند نشوب الحرب العامة ولذلك بادرت حكومة الإدارة إلى اتخاذ خطوات مخصوصة بمنطقة الخليج .

الأولى : تعيين قنصل في مسقط ، واختير لهذا المنصب أحد الجنراليين الذين سبق لهم الاتصال بالعالم العربي ، ويدعى بوشان . والخطوة الثانية : إرسال بعثة إلى فارس لمراقبة الطرق المؤدية إلى الهند . وقد صدرت التعليمات إلى بوشان بالتوجه إلى مسقط في أوائل سنة ١٧٩٦ ومما جاء في هذه التعليمات « إن قنصلية مسقط إنما أنشئت للتجسس على حركة الإنجليز في الهند بدراسة الأحوال الداخلية في

(١) من المصدر السابق ، خطاب من روسو إلى وزارة الخارجية بتاريخ .

وبالإضافة إلى البعثات الفرنسية للشار إليها ، كان مالارنيك حاكم جزيرة موريشس يريد أن يرسم خطة لهاجة الإنجليز في الهند بالتعاون مع تيو صاحب أمير ميسور ، وأحد أبطال المقاومة الموريشيين للاستعمار البريطاني ، وكان من التوقع أن يتم الاتصال بين تيو والفرنسيين في موريشس عن طريق عرب عمان ، وقد كتب ميميت وكيل شركة الهند في بوشهر « إن مسقط متصحيح مما قريب وكرا للجاسوسية الفرنسية على الهند ، لأن خساً أو ست سفن عربية تقوم بنقل التجارة بين موريشس ومسقط وساحل ملبار ، ولا شك أن نقل الأنباء سيكون مورد ربح البحارة العرب » (١) ، لذلك اتخذت إدارة الشركة في لندن تدابير منذ شهر يوليو سنة ١٧٩٨ لتأمين الناقل المؤدية إلى المشورة الكبرى . فنها إرسال حملة بحرية إلى البحر الأحمر بقيادة الأميرال بلا نيكيت ، وتعيين ممثل سياسي في بغداد ، أي عدم الاكتفاء بوكيل الشركة التجاري في البصرة ، ومهمة هذا الوكيل هي الإشراف على حركة سيرة البريد عبر العراق الذي قد يصبح بعد نجاح الفرنسيين للمر الوحيد للبريد بين أوروبا والهند . وأخيراً عقد اتفاق مع سلطان مسقط لمنع الفرنسيين من التسرب إلى الخليج .

وعندما عرف في يومها في شهر سبتمبر سنة ١٧٩٨ أن الحملة الفرنسية استقرت في مصر ، أضيف إلى هذه الإجراءات إرسال بعثة إلى جدة لتكون حلقة بين بريطانيا وشرق مكة .

والذي يعنيها هو أن بريطانيا تثير سياستها تجاه تحول الثلاث المحطة بالخليج : مسقط ، ولاية بندا ، وفارس . وما يذكر أنه قبيل خروج الحملة الفرنسية من طونز كان مانسفي ممثل الشركة بالبصرة ، قد اقترح الصلح مع مسقط في اتفاق عسكري للتعاون ضد قرصنة العرب في الخليج ، وذلك على أثر ظهور نشاط البحارة العرب ضد اللوحة البريطانية ، وهو أمر يختلف تماماً عن فكرة التدخل في الخليج لواجهة الخطر الفرنسي . وعلى كل فقد كانت السياسة

(١) P.O. رسالة من سبيت إلى حكومة يمان بتاريخ ٢٤ - ٤ - ١٧٩٨ .

لم تسفر البعثة عن نتيجة تذكر من الناحية السياسية ، غير أن الموريشيين أنهزوا هذه الفرصة لتقديم اقتراحاتهم في المسائل التجارية والعسكرية . فقد كتب أوليفييه يوصي حكومته باستخدام السفن الفرنسية لنقل مصنوعاتهما إلى بلدان الخليج ، وبضرورة نقل عملياتها من بغداد إلى البصرة للإشراف على هذه العمليات التجارية . وهو يتوقع أن تلقى الأسواف الفرنسية سوقاً رابحة تبارس لا اعتدال منها بالنسبة للأسواف الإنجليزية التي تحتكر السوق . ومن الناحية الحربية نصح أوليفييه بعدم اتخاذ أية خطوة لإقامة حامية فرنسية في جزيرة طراح وهي الجزيرة التي كان كريم خان قد منحها للفرنسيين سنة ١٧٦٩ وقال إن مثل هذه الحامية لا تعيد شيئاً لبركتها وإنما تصبح ضرورة فقط إذا قد مشروع غزو مصر .

لقد تقيمت بريطانيا باهتمام نشاط هذه البعثات الفرنسية ، وطلبت إلى سلطان مسقط تسليم الموريشيين الفرنسيين الثلاثة ، ولعلها اعتقدت بأن بعثة فارس كان ترافق يوشان في مهمته ، وعرضت على سلطان بن أحمد ٨٠٠ جندي مقابل ذلك كإن السجلات البريطانية في الهند طلبت أيضاً إلى والي بغداد تسليم أوليفييه وروجير عندما عرف هدفهما الحقيقي ، غير أن هذه السلطات لم تنطلق ليراهن بخسمة إلا بعد أن عرف أمر حملة مصر .

٢

صدى حملة مصر

لمل أن يتحقق التزو الفرنسي لمصر كانت جميع الشؤون تشترط البريطاني . خصومهم يتحولون إلى خطه المجهوم عليهم في الشرق ، لذلك شرعت السلطات البريطانية في الهند في اتخاذ الإجراءات الوقائية قبل أن تعرف أنها حالة بد بعضه أشهر .

مادة ١ :

من وقت وصول كتاب مبرز مهدي على خان بهادر جونغ ، لاجبور
الاعتراف عن هذه القاطنة « الماعدة » .

مادة ٢ :

من وقت قراءة الكتاب المذكور أخذ علي بن علي إلى تونس صداقة مع تلك
الولة ، ومنذ هذا اليوم سيصبح مدني أحدنا مدني الآخر وعدوه عدوه .

مادة ٣ :

ونظراً إلى طلبات مختلفة قدمت ولا تزال تقدم من قبل الفرنسيين والمورلنديين
(١) أو بعبارة أخرى ليكر وأقسامهم ؛ إما في مسقط أو جوبرون أو
لازمة مصنع (٢) أو بعبارة أخرى ليكر وأقسامهم ؛ فقد كتبت على نفسي أنه طالما
في الوافي الأخرى لهذا السركو « الحكومة » ، فقد كتبت على نفسي أنه طالما
الحرب مستمرة بين الشركة الإنجليزية وبينهم على أصلي لهم مكاناً في أراضي رعاية
منى لصداقة الشركة ، ولن يحدوا أنفسهم فيها موقفاً لقدم .

مادة ٤ :

وبما أن هناك شخصاً فرنسياً ظل السنوات العديدة الماضية يعمل في خدمتي ،
وقد ذهب الآن على رأس إحدى سفني إلى جزائر الوردشوس فإني سأفصله من
خدمتي بمجرد عودته وأمرده من بلدي .

مادة ٥ :

في حالة دخول إحدى السفن الفرنسية مياه مسقط ، فلن يسمح لها بالدخول إلى
الرفا الذي يسمح للغلوب الإنكليزية بدخوله ، بل تبقى خارجة ، وفي حالة وقوع
اعتداء في هذه الجهة بين السفن الفرنسية والسفن الإنجليزية فإن قوة هذه الولاية

(١) من الواضح أنها ترجمة الكلمة Factory التي اصطلاحاً على اسمها بركالا .

البريطانيون المند حتى ذلك الوقت ترمي إلى عدم التوسع أو الدخول لجزر مالكو
حتى لاستتلاك الشركة نفقات لتمود عليها بريح مؤكداً إذا ما زادت نفقات الحرب
على النوايا التي تعود عليها من التوسع الإقليمي . وهذه السياسة التي كانت علم
إدارة الشركة بلسن ، تثيرت عندما وصل إلى كلكتا حاكم عام جديد هو الركن
وولي في أبريل سنة ١٧٩٨ وكان وولي من دعاة سياسة التوسع وعلم القيد
بالاعتبارات المالية البحتة . وفي ظل هذه الظروف الجديدة رحمت حكومة بومبي
سياستها في الخليج .

ففي مسقط أودت أحد موظفي الشركة من القوس وهو مهدي على خان
للتفاوض مع السلطان في عقد اتفاق معه . فقد جاءه في التعليلات الخاصة بمهمة أن
حكومة بومبي ترغب في إقامة وكالة تجارية في مسقط وطرد الرعا الفرنسيين من
هذه البلاد وإحلال أحد الأعيان الإنجليز بدل الفرنسيين الذين يعملون في خدمة
السلطان (١) .

وصل مهدي على خان إلى مسقط في ٢ أكتوبر سنة ١٧٩٨ وبعد مفاوضات
استمرت عشرة أيام وقع في الثاني عشر منه أول معاهدة سياسية ربطت بين سلطنة
مسقط وبين بريطانيا . وبلاحظ أنها تعتبر في نفس الوقت أول معاهدة بين دولة
عربية مستقلة وبين بريطانيا في العصر الحديث . ومن الطريف أن تورد هذا النص
المرئي للأخافيه كما هو محفوظ في دور الوثائق البريطانية لأنه تموضع على أصواب
هذه النسخة في ذلك العصر (٢) .

وثيقة اتفاق عن ولاية عمان تحت إشراف الإمام السيد سلطان دلم أبر
إلى الشركة السامية القندرية ، دامت عظمتها ، متضمنة في المواد التالية :

(١) كان الاعتقاد السائد لدى السلطات البريطانية آنذاك هناك طرفين من أسلم العرب
ليسط النفوذ على الحكم في الشرق وهما الطب والتجارة .

(٢) بالنسبة لمس الانجليزي أنظر Altabieen Vol. 7. p. 87.

خان قد حصل بهذا الاتفاق على أكثر مما كنا نؤمله » وما يستعصى الانتباه أن بريطانيا لم تعمل على إقامة وكالة في مسقط مباشرة كما نصت عليه الاتفاقية. والظاهر أن سلطان بن أحمد استطاع إقناع السلطات البريطانية بالتخلي عن هذه الفكرة بأن بن لها أن إقامة مثل هذه الوكالة سيؤدي إلى مطالبة الفرنسيين بنفس الامتياز، ويعرضه لخطر الحرب معهم إذا مارض إجابة طلبهم، وهو لا قبل له بحرب الفرنسيين. ويجدر بنا أن نتساءل : ما هي الدوافع التي جعلت سلطان بن أحمد يتحول هكذا بسرعة ويدون تردد عن الصداقة السابقة مع فرنسا إلى التحالف البريطاني؟ يمكن الرد على ذلك من عدة وجوه : أعاد عمان على الهندي مؤثرته من الأرض، وهو الغذاء الأساسي لعظم شبه جزيرة العرب. تكرروا اعتداءات القراصنة الفرنسيين على السفن المانية. وأخيراً : قلق أمراء شبه جزيرة العرب بعد احتلال الفرنسيين لمصر مما دعا شريف مكة إلى حسن استقبال ويلسون الممثل البريطاني في جدة، بل وتسليمه إياه الرسائل التي بعث بها بوشارت إلى كل من سلطان بن أحمد وتبو صاحب. وقد أدرك بوشارت نفسه هذه الحقيقة فذكر لبوشارت على أثر وصوله إلى مصر في أكتوبر سنة ١٧٩٨ عدم جدوى الإصرار على إنشاء وكالة في مسقط لأن الإنجليز قد أقبلوا مداخل المحيط الهندي، بل على فرض وصول البشة إلى مسقط فإن السلطان سيستقبلها بمجدد بالغ^(١)

تأثرت ولاية بغداد مثل غيرها من الأقطار الإسلامية للعدوان الفرنسي على مصر. وكان على رأسها في ذلك الحين شخصية من أعظم شخصيات المالك الكروج هو سليمان باشا الكبير (١٧٨٠ — ١٨٠٢) ومع أنه كان يتمتع بقدر

(١) A. A. E. muncate (١) رسالة من بوشارت إلى بوشارت بتاريخ ١٨/١٠/١٧٩٨

في البر والبحر وكذلك شعبي سيشتكون فيه إلى جانب الإنجليز، فأما في البحار المكشوفة فإني لا أدخل.

مادة ٦ :

في حالة غرق سفينة أو سفن تابعة للإنجليز فإنها تلقى حتما المساعدة اللازمة وتتوفر لها وسائل الراحة من جانب هذه الحكومة كما أن ما عليها من متاع لا ينتصب ولا يستولى عليه.

مادة ٧ :

إذا رغب الإنجليز في أي وقت في إنشاء مصنع عيناء بندر عباس « جونيرون » فلا اعتراض لي على تخصيصهم لهذا البناء ووضع الدافع بقدر ما يترأى لهم. ولا اعتراض على إقامة أربعين أو خمسين رجلا إنجليزيا هناك ومعهم سبع مائة أو ثمانمائة من الهنود. أما فيما عدا ذلك فإن الرسوم التي تجبي على البضائع عند البيع أو الشراء ستكون في نفس المستوى المعمول به في البصرة وأبو شهر.

حرر في أول جمادى الأولى سنة ١٢١٣ هـ الموافق ١٢ أكتوبر سنة ١٧٩٨.

أخرجت هذه الماهدة مسقط عن حيادها التقليدي في الحروب السابقة وجعلت منها حليفاً للسلطات البريطانية في الهند. وقد خصصت ثلاث من المواد لبيان الإجراءات التي يجب اتخاذها ضد الفرنسيين والهنولنديين الذين كانوا يدورون في فلكهم حينذاك. وذهب سلطان بن أحمد في استسلامه للإنجليز إلى حد وضع حامية بريطانية في ميناء بندر عباس التابع له. ولا شك أن بعض حكام الشرق في ذلك الوقت لم يقدروا منزى الاحتلال كما تفهمه في عصرنا.

أما الإنجليز فقد أدركوا مدى الكاسب التي حققوها من وراء هذه الاتفاقية، إذ كتب ذلك كان حاكم بومباي إلى وزير حاكم الهند العام يقول^(١) : « إن مهدي على

(١) B. P. G. Vol 6. رسالة من ذلك كان إلى وزير تاريخ نوفمبر سنة ١٧٩٨

أصدره أروين^(١) أحد ضباط شركة الهند المارفين بالشرق ، قارن فيها بين الطرق الثلاث التي يمكن التفكير فيها لهذا النزو . وهي : البحر الأحمر ، والخليج العربي ، والطريق عبر شمال فارس وأفغانستان وانتهى إلى أن يستخدم الخليج هو أكثر الطرق بعداً عن تحقيق الغزو . فهو يستلزم عبور بادية الشام إلى البصرة ، وهذا العبور قد يستغرق بالنسبة لجيش كبير ثلاثة أشهر . وإذا كان إيجاد السفن اللازمة لنقل الجنود أسير في البصرة منه في السويس فإن البحرية البريطانية واللازمة لنقل الجنود أسير في الخليج عند مضيق هرمز الذي هو أقرب من البحر الأحمر تستطيع وقت الحاجة في الخليج عند مضيق هرمز الذي هو أقرب من البحر الأحمر إلى قواعدها في بمباي . ثم إن السير على الساحل الفارسي في الخليج يكاد يكون مستحيلاً لطبيعته الجبلية ولوقوعه تحت رحمة مدفعية البحرية البريطانية .

نتيجة لهذا الاعتقاد اكتفت بمباي في بحثها الأولى إلى فارس في أواخر عام ١٧٩٨ بالتنبية على احتمال ظهور سفن فرنسية على ساحل الخليج ، وأوعزت إلى الشاه أن يصدر أوامره بالقبض عليها . وحجتها في ذلك أن الفرنسيين يعملون ضد نظام الحكم الملكي ضد الأديان . ويبدو أن هذه الحجة قد صادفت نجاحاً كبيراً لدى الشاه فأصدر فوراً بإرسال ألفي جندي لحراسة سواحل الخليج .

على أنه بعد تخطيط الأسطول الفرنسي في أبو قير أصبح نشاط نابليون محصوراً في منامراته الشرقية ، ولعل هذا هو الذي وجهه إلى حملة الشام في أوائل سنة ١٧٩٩ ، ومذكرات نابليون التي أمليت في سانت هيلانة هي التي أوحى بأن هدف تلك الحملة كان متابعة السير لضرب الإنجليز في الهند . ومن المعروف أن الضياع سيطر على الإمبراطور الأسير في هذه الحقبة الأخيرة من حياته . ومن الأرجح أن يكون هدف تلك الحملة هو التسلطية التي رفضت أن تستترف باحتلال مصر . ومع ذلك فقد كان من الضروري أن تثير حملة الشام مزيداً من

(١) صدر هذا الكتاب في لندن نهاية ١٧٩٨ بعنوان : An Inquiry into the Feasibility of the Supposed Expedition of Bonaparte to TFE East. By Eyles irwin.

كبير من الاستغلال إزاء الباب المالي ، إلا أنه لم يفكر في الخروج عن سياسة الدولة النمائية حينها أعلنت الحرب على فرنسا في أغسطس سنة ١٧٩٨ فقبض على القنصل الفرنسي وأحسن استقبال البوثة البريطاني الجديد هارفورد جونز .

والحق إن الظروف كانت تعمل من جميع الجهات على تقارب سليمان باشا من الإنجليز ، فهو قد لاحظ تفوقهم البحري على الأتقار الأوربية الأخرى في الخليج ، غير أنه تجاوز الحد حيناً أراد أن يتخذ منهم وسطاء لإقامة حلف بينهما وبين مختلف الحكام العرب في الخليج يقصد مواجهة نمو الدولة السعودية الأولى . وهذا السبب نفسه هو الذي جعل والي بغداد أشد حاجة من أي وقت مضى لاستيراد الأسلحة البريطانية من الهند .

وما كاد عام ١٧٩٨ يقترب من نهايته حتى كانت الصدمة التي أحدثتها الحملة الفرنسية في الهند قد أخذت تزول ولو أنها ستجدد حينها يتجه بونابرت شرقاً لنزو الشام في أوائل العام التالي . وقد ذكر دنكان هذه الحقيقة حيناً بعث إلى وكيل الشركة في بوشهر بطمئنته إلى أن الأسطول البريطاني يسيطر على مدخل البحر الأحمر في باب الندب ، كما أن أسطولا آخر يقف أمام سواحل الهند لمواجهة أي احتمال^(٢) .

وفي بريطانيا نفسها ظهرت أبحاث عديدة شككت في إمكان غزو الهند بواسطة حملة تخرج عبر بلدان الشرق الأوسط . وأكدت للرأي العام أن مثل هذه الشروعات أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة . ومن أشهر هذه الأبحاث كتب

(١) 6. 6. 6. B. P. C. ٧ vol. ١١/١٢ رسالة دنكان للسيد على خان بتاريخ ١٧٩٨/١١/١٢

سيوجه السياسة البريطانية في الخليج بضع سنوات . وقد تقرر إرسال هذه البعثة في أغسطس سنة ١٧٩٩ في وقت لم تكن الأنباء الخاصة بفشل بونابرت في حصار عكا قد وصلت بعد إلى الهند . ومما جاء في تعليقات تولي إلى الحاكم العام إلى مالكولم .

« إنه يجب إقناع الشاه بفكرة التعاون ضد زمان شاه (ملك الأفغان) الذي احتل البنجاب وأصبح يهدد الممتلكات البريطانية في الهند^(١) وعدم السماح للفرنسيين بالدخول في أراضي فارس أو لسنهم بالرسو على سواحلها ، وتشطيط التجارة بين الشركة البريطانية وفارس » ولكن حدث ما عاق مالكولم عن السفر عند تقرير بعثته ولم يغادر بومباي إلا في ٢٩ ديسمبر سنة ١٧٩٩ وكانت ترافقه في مهمته سدينتان حريتان . ورغم أنه وصل بوشهر في فبراير سنة ١٨٠٠ فإن الشاه لم يستقبله إلا في نوفمبر من ذلك العام ولكن مالكولم لم يأسف على إقامته الطويلة ببوشهر فقد استغل هذا الوقت في دراسة حوض الخليج من النواحي التجارية والسياسية والحربية ، وانتهى إلى تكوين رأي ظل يدافع عنه طوال حياته وهو أنه من الضروري للدولة السيطرة على الهند أن تكون لها قواعد عسكرية ومستودعات تجارية في الخليج . ولذلك حينما بدأت المفاوضات في طهران جعل من موضوع تنازل فارس لبريطانيا عن بعض الجزر في الخليج العنصر الأساسي في محادثاته ، بينما أصبح الهدف الأساسي من بعثته في الدرجة الثانية من الأهمية نظراً لتدبير الظروف . فحينما يختص زمان شاه اضطرت الظروف الداخلية في أفغانستان إلى الانسحاب من الهند . وفيما يتصل بالخطر الفرنسي فقد أصبح متهيئاً تماماً بالنسبة إلى فارس . بل إن الفرنسيين كانوا يفاوضون في ذلك الوقت للخروج من مصر .

وقد أسفرت بعثته عن إبرام أول معاهدة سياسية مع فارس . وهي تقضي بالتخفيف ضد أية قوة تاتية تنزو الهند ، ويتقدم الأسلحة إلى فارس في حالة الاعتداء عليها من أي طرف آخر .

لجوارف السلطات البريطانية في الهند وأن تجدد نشاطها سواء في منطقة الخليج في ولاية بنده .

وإذا لم يكن هدف حملة الشام واضحاً ، فمن المؤكد أن بونابرت رسم مشروعا بزحف تدريجي نحو الهند مستفيداً إلى التعاون مع الحاكم المحليين في الشرق الأوسط وهي إطار هذا المشروع حاول الاتصال بشريف مكة ويزعيم الحركة الوهابية التي لم يتعرف على اسمه بالضبط حينذاك ، وبقيو صاحب أمير ميسور في الهند ، وأخيراً بساطان مسقط الذي كتب إليه هذه الرسالة في ٢٥ يناير سنة ١٧٩٩ « أكتب إليكم هذا الكتاب لأبلغكم ما لاشك في أنكم قد علمتموه فعلاً ، وهو رسول الجيش الفرنسي إلى مصر . ولما كنتم دائماً أصدقاء لنا ، فليكن أن تقبلوا رغبتي في حماة جميع سفن دولكم ، وعليكم أن تقوموا بإرسالها إلى السويس حيث يجدها تجارها^(٢) »

ويتضح من هذه الرسالة أن بونابرت لم يطلب أكثر من توفير الروابط التجارية . وقد رأى بنفسه حينما زار السويس بعض السفن المانية تتردد على هذا الميناء . وهذا الطلب لا يتناسب مع الأهداف الكبرى التي تنسب إلى بونابرت من أنه كان يهدف الطريق لنزو الهند عن طريق الخليج أو البحر الأحمر .

ورغم الصعوبات التي لقيها بونابرت في مصر وفشله في حملة الشام ، فإنه طالما بقي الفرنسيون يجهلون مصر فإن السلطات البريطانية في الهند لم تكف عن أخذ الإحتياطات في جميع أقطار الشرق الأوسط الواقعة بين مستعمراتهم الكبرى وبين حوض المتوسط^(٣) من ذلك مثلاً احتلال جزيرة برسم في مدخل البحر الأحمر بضعة أشهر من ١٧٩٩ وإرسال بعثة إلى فارس بقيادة الضابط ولبي مالكولم الذي

مماثلة إذ قررت الانسحاب من جزيرة بريم الواقعة على مدخل البحر الأحمر قرب عدن ، وكانت قد احتلت في مايو سنة ١٧٩٩ كعمل وقائي ضد الفرنسيين في مصر ولكنها سرعان ما أخلت في سبتمبر وقطعت المفاوضات مع سلطان الحج بشأن التنازل عن عملة بحرية على سواحل بلاده ، لأن السلطات البريطانية رأت عدم فائدة مثل هذه الخطوة من الناحية العسكرية أو الاقتصادية .

ومن جهة أخرى لقي مشروع مالكمولم ممارسة شديدة من ممثل بريطاني آخر في المنطقة ، هو هارفورد جوز الذي وصف آراء مالكمولم بالجنون . وأخيراً يمكن القول بأن بثنة مالكمولم سنة ١٨٠٠ — ١٨٠١ لم تؤد إلى نتيجة حاسمة ، فإن كلنا الماهدين الخاصتين بفارس لم توقفا في كلكتا .

كان ملكولم من الأوائل الذين دعوا إلى اتباع سياسة توسعية في الخليج . أما زميله هارفورد جوز في ينادي بأن أهدافه كانت محدودة بممارسة الاحتلال الفرنسي لمصر ، ولهذا الترض اقترح خطة فريدة من نوعها لهاجة الفرنسيين وهي إرسال حملة عبر الخليج إلى البصرة ، ومن ثم تهرم صحراء الشام وتقتبج غرباً لنزول مصر بالتنازل مع الجيش العثماني ^(١) ويستخلص من ذلك كله أن الحملة الفرنسية في مصر هي التي دفعت بالإنجليز إلى اتباع سياسة جديدة في منطقة الخليج تهدف إلى اكتساب نفوذ سياسي أو عسكري ، وأن هذه السياسة لم تنته بخروج الفرنسيين من مصر .

مسقط بين الحياض والانحياز

لم تصل رسالة بونابرت إلى حاكم مسقط لأن الإنجليز اعتبروا سبيلها ، وحتى لو قدر لها أن تصل فإنها ما كانت ستحدث أثراً يذكر ، فإن شريف مسكة

أما مطلب مالكمولم بالتنازل عن ثلاث جزر في الخليج وهي هنيجم وقشم وخارج ، فقد اصطدم بمقاومة عنيفة من الفرس ، ولم يفلح مالكمولم بالرشاوى أو التفاوض في إقناع مرزاشقي الصدر الأعظم في ذلك الوقت .

وقد أراد تنظية أهمية هذا التنازل بأن الحقه بمشروع الماهدة التجارية لا السياسية ، كما كان يقضي النطق . ولكن مرزاشقي أظهر إدراكه لخطورة مثل هذا التنازل ، بأن ذكر مالكمولم بأن بريطانيا بدأت صلتها بالهند عن طريق إقامة عمليات صغيرة على الساحل ، والآن أين ذهبت إمبراطورية النول ؟

نتيجة لهذا الموقف رفض الشاه توقيع الماهدة التجارية إلا بعد حذف البند الخاص بالتنازل عن الجزر . ويدعى مالكمولم تنظية لعشله في هذا السمي أن إصراره على منح بريطانيا إحدى الجزر ، لم يكن إلا نظاماً احتيئاً يحصل من فارس على امتيازات أخرى حينما يتخلى هو عن مطلبه هذا . ولكن تصرفاته في المستقبل تكذب هذا الادعاء . فقد تعددت رسائله إلى بومباي وإلى الحاكم العام متوهة بأهمية إقامة حماية بريطانية في الخليج . وقد كتب مثلاً عن أهمية قشم يقول « إن إقامة حماية بها أمر ضروري من الناحية العسكرية ، لأنها تقف خط دفاع أول عن بومباي ، ومن الناحية السياسية ، فإنها تشعر الدول المحيطة بالخليج بقوة بريطانيا ، ولا يجعلها تتردد في اختيار حليفها عند قيام حرب وربية . وأخيراً من الناحية التجارية فإنها تمهد سبيلاً وسيراف هرومز الذي نعرفه في عهد إقامة البرتغاليين هناك » وما يؤكده عندك مالكمولم بفكرته أنه لم ينادر فارس إلا بعد أن حصل على وعد بإرسال سفير إلى بومباي للتفاوض في هذه المسألة ، كما أنه قام بزيارة لجزيرة خاراج في طريق عودته إلى الهند . ومما أضف موقف مالكمولم أن السلطات في كلكتا لم تأخذ برأيه عن أهمية إقامة حماية بالخليج ، إذ أن الحاكم العام وزلي ، وإن كان من دعاة التوسع إلا أنه كان يرى تركيز الجهود في شبه الجزيرة دون التوسع في جزر نائية تحتاج إلى جهود طائل وتكاليف باهظة لتكوين حليفتها . ولم تكن حكومة الهند بعيدة عن تجربة

مثلا الذي تلقى رسالة بونابرت لم يهتمها فحسب ، بل إنه شارك في الشعور العام الذي ساد العالم الإسلامي ضد الفرنسيين ، وحاول أن يساهم بقدر المستطاع في الجهود الرامية إلى إخراجهم من مصر .

ومع ذلك فإن حاكم مسقط وأهل عمان كانت لديهم اعتبارات اقتصادية أخرى تؤثر على موقفهم السياسي ، فلم تجارة نشطة مع كل من الهند وجزيرة موريشس ، ومن الأفضل لهم أن يحافظوا على صلاتهم بالفرقيقتين المتناويتين : بريطانيا وفرنسا . لذلك لم تضع معاهدة سنة ١٧٩٨ نهاية لتردد مسقط في سياستها الخارجية ، والحق إن المعاهدة لم توضع موضع التنفيذ في كثير من شروطها فلم تؤسس الوكالة البريطانية في بندر عباس لعدم تخمس السلطات في الهند لتنفيذ هذا المشروع ، كما أن حاكم مسقط لم يقطع علاقاته التجارية بجزيرة موريشس ولم يسكن بوسعه إن أراد أن يمنع أصحاب السفن العمانيين من ذلك . وإذا ماراجنا أرشيف حكومة بومباي لسنة ١٧٩٩ ، نجد عدداً كبيراً من الرسائل قد تبودل بين دنكان حاكم بومباي وبين سلطان بن أحمد - فالأول يوجه اللوم ، والثاني يحاول تبرير موقفه أمام الإنجليز ، مما يشعر بأن سياسة حكام مسقط بدأت تخضع للرقابة البريطانية منذ هذا التاريخ .

وقد لخص دنكان في إحدى هذه الرسائل مآخذ السلطات البريطانية على السلطان في النقاط الآتية :

- أولاً : عدم تسليم أملاك تبو صاحب الوجود في عمان ، وذلك بعد ضم بريطانيا لإماراته في مايو سنة ١٧٩٩ .
- ثانياً : سوء معاملة الأميرال بلانكيت أثناء مروره بزنجان ، إحدى توابع السلطنة في طريقه إلى البحر الأحمر .
- ثالثاً : استمرار العلاقات التجارية بين عمان وجزيرة موريشس وخاصة

شراء السفن البريطانية التي استولى عليها القراصنة الفرنسيون ^(١) . وإذا كان سلطان بن أحمد قد حاول إرضاء الإنجليز بإقالة حاكم زنجبار ، إلا أنهم يستطع سوى الاعتراف بأن قطع العلاقات التجارية مع موريشس أمور مستحيل وضار بمصالح رعاياه . لهذا رأت حكومة الهند ضرورة استعمال وسائل جديدة للضغط حتى تضمن تنفيذ شروط المعاهدة الخامسة بمقاطعة الفرنسيين ، وعلى ذلك قررت أن يمر ملكو لم بمسقط في طريقه إلى فارس . وفي يناير سنة ١٨٠٠ تمكن من الالتحاق بسلطان بن أحمد على ظهر إحدى السفن الراسية بجزيرة قشم . ويظهر من طريقة تنبئه السلطان أن هذا الأخير لم يكن راغباً في ارتباط جديد مع بريطانيا ، والدليل على ذلك أن ملكو لم اضطروا إلى استعمال أسلوب عفيف ليقتنع السلطان بتوقيع تأكيد جديد للمعاهدة ، فأخذ يذكره بطرد الفرنسيين من الهند ، وينوه بتفوق قوات بريطانيا على جميع الدول . ويهدده بإقتال موانئ الهند في وجه سفن أهل عمان حتى ظفر أخيراً بالتوقيع ^(٢)

والنتيجة الهامة التي ترتبت على زيارة ملكو لم لمسقط هي قبول ممثل سياسي بريطاني في عاصمة عمان للمرة الأولى ، وبناء عليه عين ملكو لم أحد أعضاء بعثته وهو الطبيب بوجل لشغل هذه الوظيفة .

ويدعى بوجل أنه استطاع أن يحدث انقلاباً في سياسة سلطان بن أحمد نحو الفرنسيين وذلك بسد شهر ونصف من إقامته بمسقط . ولم تكن إقامة بوجل طويلة في هذه البلاد حيث قضى بحجه في نهاية سنة ١٨٠٠ .

(*) ذكر موريزي Maurizi الطبيب الخامس للسيد سعيد أن معظم السفن الكبيرة الناجية للسلطنة معمرها هذه الأسلاب الفرنسية .
(١) Kaye Val. I. p. 105

وعندما وصل كافنيك إلى مقر عمله في أكتوبر سنة ١٨٠٣ كان القتال قد تجدد بين فرنسا وإنجلترا ، وعلم الخبر في مسقط فلم تجد السلطات البريطانية للسلطان عدداً القبول إقامة قنصلية فرنسية . ورغم التهديدات التي سمعها من قائد السفينة الحربية القالة للوند الفرنسي ؛ علل السلطان موقفه أمام الفرنسيين بوجود ثلاثين أو أربعين سفينة عمانية في موانئ الهند ، وأن قوى الدولتين غير متعادلة في المحيط الهندي .

ويستنتج من هذا التعليل أن تجارة عمان مع شبه جزيرة الهند كانت أشد اتساعاً وألزم لحياة السلطنة . على أن فشل بعثة كافنيك لم يحدث استياء مالم لدى السلطات الفرنسية في جزيرة موريشس . وقد كان رأى حاكم الجزيرة الجديد الجنرال ديكان أن إقامة وكالة بمسقط لا يساوي الشاق التي تلزم لضمان احترام المثل الفرنسي في سلطنة عمان . وكان تقرير كافنيك الذي كتبه عند عودته مؤيداً لوجهة النظر هذه . فقد جاء في هذا التقرير : « إن بلاد عمان الفقيرة لا تحتل أهمية سياسية أو اقتصادية . ولا يزيد السلطان عن أن يكون شيخاً من مشايخ البدو . والدائمة الوحدة التي قد تجنيها فرنسا من إقامة وكالة هناك ، لا تعدى إيجاد محطة للبريد بين المحيط الهندي وأوروبا . وحتى هذه لا يمكن تحقيقها طالما بقي الإنجليز يسيطرون على الملاحة في الخليج ^(١) » .

ولكن بعد إقامة طوبلة بلغت ثلاث سننات كما لموريشس أخذ ديكان يدرك خطأ موقفه السابق حيال السلطنة العمانية . ولذلك انتهز أول فرصة أتاحت له ، فاقترح على السيد سعيد حاكم عمان الجديد الدخول في معاهدة مع فرنسا سنة ١٨٠٧ ، وكان على ديكان أن يبرر تغيير موقفه أمام الحكومة في باريس لأن المعاهدة التي اقترحها لا تنفق والحصار القاري الذي ضربته فرنسا على إنجلترا ومستعمراتها في ذلك الوقت . وفي تقرير أرسله إلى باريس عدد الأسياب التي

(١) 118 A. C. 4 V ol ٩ تقرير كافنيك بتاريخ ٩ فبراير سنة ١٨٠٣

وفي سنة ١٨٠١ كان مبدأ حكومة الهند هو عدم التدخل في شئون شبه جزيرة العرب ، وعلى ذلك لم تقبل تقديم أية مساعدة ولو بإرسال بعض الجنود الثمانيين على استخدام الدافع حينما طلب سلطان بن أحمد استعدادهم للاستعانة بهم ضد الوهابيين . ومما زاد في حق السلطان ، إلغاء الامتيازات التي كانت حكومة الهند قد منحتها للسفن العمانية عند توقيع معاهدة سنة ١٧٩٨ ، مثل التزود بالثمن في الهند وإعفاء الملح من الضرائب الجركية . هذا مما حدا سلطان بن أحمد إلى الرد في استقبال سيتون عند زووله بمدينة مسقط ولكنه مرعان ما كسب نفوذا لدى الإمام ، وكانت أول نتيجة إيجابية لسياسة سيتون هي منع اعتماد ممثل فرنسي أرسل إلى مسقط سنة ١٨٠٣ .

وقد كانت فرنسا تريد انتهاز فرصة صلح إسمان المغود بينها وبين إنجلترا في مارس سنة ١٨٠٢ وما قصد بترتب عليه من تخفيف الرقابة البريطانية على بلدان المحيط الهندي ، فقررت في ٢٠ يونيو سنة ١٨٠٢ تعيين ممثل لها في مسقط واختارت لذلك أحد النواب في عهد الثورة وهو كافنيك . ومن المعروف أن هذا الصلح لم يكن سوى هدنة قصيرة . ولم يخفف من وطأة الحذر التي كانت تسود كلتا الدولتين : إنجلترا وفرنسا وخاصة في مستعمراتها . لذلك ظل سيتون يراقب عن كثب تحركات السفن العمانية بين مسقط والمستعمرات الفرنسية . ومن ذلك مثلاً أنه كشف عن سفارة عمانية أرسلت إلى موريشس مع أحد الحاربين القدامى في جيش نابو صاحب ، وهو بالتالي عدو للإنجليز وصديق للفرنسيين ، ويدعى الشيخ علي ، ولكن السلطان برد موقفه بأن هذه السفارة كانت تهدف إلى استرجاع بعض السفن التي سلبها القراصنة الفرنسيون . والذي يعنيها هو أن السلطات البريطانية كانت على علم بمسير الممثل الفرنسي إلى مسقط .

يبدو ضرورة الاحتياط بالعلاقات الودية مع سلطنة عمان كما يلي :

أولاً : بعد دخول البائرك في الحرب بجانب الحلفاء أصبحت جميع وسائل الاتصال بين المستعمرات الفرنسية ومراكم تونس في الهند متدثرة . ويمكن استخدام السفن المانية وسبلة من وسائل الاتصال (١) .

ثانياً : إن تشجيع أسطول عمان بضر بمصالح الأسطول التجاري البريطاني الذي يتنافس معه على نقل البضائع بين الهند وبلدان الخليج .

ثالثاً : إن مسقط بما لديها من ممتلكات في أفريقيا الشرقية تستطيع توفير عدد كبير من الرقيق اللازم لرخاء المستعمرة خاصة بعد أن أهلك السوق الرقائبة في موزمبيق أمام الفرنسيين .

ولعل الظروف التي قيام مفاوضات بين السلطات المانية والفرنسية لإعلاء اتفاق بين البلدين ، كانت وليدة المصادفة . فقد حدث أن استولت سفينة بريطانية على إحدى سفن الفرنسيين الراسية في ميناء مسقط في بولية سنة ١٨٠٦ ، ومصادف هذا التاريخ تولى السيد سميد الحكم في مسقط ، بإرسال اعتذار إلى الخمرال ديكان وكان يحتوي على عبارات تدل على الاحترام الشديد إلى حد القول « أنني أنظر إلى بلادى كلها تابعة لسيادتك » (٢) . وبعد ثلاثة أشهر من التردد أخيراً أتمتها ديكان البحارة العرب الذين حولوا رسالة السيد سميد ، أجاب ديكان رسالة يرض فيها مشروع إنشاء علاقة ودية بين البلدين وتنظيم حركة الملاحة والتجارة . وعلى هذا الأساس أرسل سميد سميد أحد وجهاء عمان : ماجد بن خلفان ، ومنحه قارباً كهدية لتوقيع أى اتفاق يتوصل إليه مع الفرنسيين .

(١) A. C. 129 تقرير من ديكان بتاريخ ١٨/٦/١٨٠٦ .

(٢) A. C. 129 رسالة من السيد سميد إلى ديكان بتاريخ ١٠ جاسس الأول ١٨٧٧ .

ولاحظ أن المستعمرات الفرنسية كانوا يبالغون بتل هذه العبارات دون أن يقدروا معناها الحقيقي وإنما يبتغون بها من الباطل الأثرة لأجل طوبى الرسائل .

كانت المشكلة أمام ديكان هي كيف يعرف مراكم باستقرار الملاحة والتجارة بين سلطنة عمان وبين الرأى الهندية التابعة للدولة معادية ، بينا تحرم للشهريات الفرنسية الخاصة بالمصارى على المايدين وحلفاء فرنسا معاً الأجبار مع العدو ، ومن المعروف أن هذا التشريع بني على قانون صدر أولها بتاريخ ١٨/٦/١٨٠٦ وقضى على الدول الحايمة بتصرم الأجبار مع الإنجليز وإلا تفرست سنيتها للمصادرة . ومصدر الثاني بتاريخ ١٨/٧/١٨٠٧ وقضى بتجريد كل سفينة تدخل الموانئ المادية من جنسيتها .

وحق يلقى ديكان مع هذا التشريع بقدر الإمكان ، اتفق على حل وسط فهو لا يمنع التجارة بين عمان والرأى الإنجليزية بتاتا ، ولكنه يضع عليها قيوداً ، وذلك في مشروع الماهدة الذي اتفق عليه سنة ١٨٠٧ بين الحاكم الفرنسي ووكيل السيد سميد . فقضى المادة السادسة من مشروع الماهدة على أن السفن المانية تستطيع الرسو في إحدى موانئ الهند ولكن بشرط أن تخرج منها وتنتجيه مباشرة إلى ميناء تابع للسلطة ، فلا يجوز لها الملاحة بين ميناء معاد وآخر مثله . وتحرم المادة الثالثة الأجبار بالأسلحة مع الإنجليز ، ولكنها تستثنى الجبل ، لأنها من أهم المصادرات المانية . وترخص الماهدة للسفن الفرنسية بتفتيش السفن المانية ، كما تنظم عدة مواد الوسائل التي يمكن بواسطتها التعرف على شخصيات السفن العربية ، فلهذا يحمل وثائق دالة على جنسيتها وعلى جهات تملكها ، وعلى قائمة بأسماء البحارة والركاب . وبينما تقيد الماهدة التجارة مع الإنجليز ، تنص في نفس الوقت على الحرية التامة للتجارة والملاحة بين مسقط وتوانها ، وبين المستعمرات الفرنسية مما يترتب عليه رجحان كمية فرنسا على بريطانيا في السلطة . وبالرغم من هذا رقت الحكومة في باريس توقيع الماهدة أو مجرد النظر فيها ، تحسباً بجبا المصارى الاقتصادى الفروض على بريطانيا ومستعمراتها . ولم تقدر أنها فشلت في تطبيقه في أوروبا ، وكان من باب أولى فشلها في الخطر الهندى ، حيث لا تتبادل قوى الدولتين التجاريتين ، إذ لم يكن

الصراع قائماً في الحقيقة بين فرنسا وإنجلترا كما هو الحال في أوروبا . بل كل يتشابه فيه مستعمراتها في المحيط الهندي — وفوق شامع بين جزيرتي موريشس وبوربون الصغيرتين ، وبين شبه جزيرة الهند — ويبدو أن ديسكان كان يقدر هذه الحقيقة ويعرف مدى احتياج المستعمرات الفرنسية إلى عرب عمان . لذلك قبل أن يصله رفض باريس وافق في العام التالي على تعديل لهذه المعاهدة حسبما يطلبه السيد سعيد . ويخفف هذا التعديل من القيود على الملاحة المانية في الهند^(١) فيبيح لها الانتقال من ميناء معاد إلى آخر مثله بشرط أن تكون متجهة إلى الخليج بعد ذلك .

ولكن باريس أصرت على موقفها فلم يقدر للاتفاقية الأصلية أو المعدلة أن توضع موضع التنفيذ .

كيف تمت هذه الاتصالات بين عمان ومستعمرة موريشس الفرنسية بينا كان الأسطول البريطاني يملك التفوق التام في المحيط الهندي ، وبينما كان سيتيزن مغنياً في مسقط ممثلاً لحكومة الهند البريطانية ؟ الحق إن الصلات بين بريطانيا وبين مسقط كانت قد توقفت من جديد بعض الشيء منذ فشل بعثة كافنديش حتى تولى السيد سعيد الحكم ، وقد نجح سيتون في سنة ١٨٠٥ في إقناع حكومتها الهند بإرسال بعض الأسلحة التي استخدمها بدر بن سيف حاكم مسقط حينذاك ضد خصومه من القبائل العربية النازلة في جزر هرمز وقشم — أما السيد سعيد الذي تسلم السلطة في سنة ١٨٠٦ فقد صادف في بداية عهده صعوبات شديدة لتثبيت سلطته في الداخل أو مواجهة الزحف السعودي القادم من نجد . فبنى خطه على الاستعانة بإحدى الدول الأوروبية ، ولعله فكر في الفرنسيين أولاً نظراً لأن حكومة الهند سبق لها أن رفضت التورط في المنازعات الداخلية بشبه جزيرة العرب ، إلا أنه سرعان ما تبين له خطأ اختيار الحليف وقد أشرنا إلى أن سفارته الأولى احتجزت

(١) انظر مشروع الاتفاقية وتعديلاتها بتاريخ يونيو ١٨٠٧ .

في موريشس — سبتمبر سنة ١٨٠٦ وعلى أثر ذلك بعث رسالة هامة إلى ديسكان حاكم بمباي يعرض فيها وضع السلطنة تحت حماية الإنجليز^(٢) ويتضح من هذه الرسالة أن السيد سعيد كان أكثر صراحة في رغبته في الاعتماد على التأييد البريطاني للمحافظة على مركزه في عمان . وكانت حكومة بمباي مستعدة لقبول تلك الفكرة غير أن حاكم عام الهند جورج بارلو رفضها معللاً ذلك بعدة أسباب ، منها ازدياد الأعباء على البحرية البريطانية لأن بحرية عمان تجارية أكثر منها حربية . ومن التوقع أن وضع السلطنة تحت الحماية البريطانية قد يعرضها لهجمات الفرنسيين ، كما أنه يترتب على هذه الحماية كثافة السلطان ضد أعدائه بداخل بلاد العرب مما يجبر حكومة الهند إلى التورط في المنازعات الداخلية في شبه جزيرة العرب ، وهو مبدأ تعارضه السلطات البريطانية بشدة في ذلك الوقت . ومنها أن حياض مسقط يجمعها من السفن الفرنسية ، وهو لا يعنى بالضرورة السباح بإقامة وكالته فرنسية بها ما دامت معاهدة سنة ١٧٩٨ سارية^(٣) وعلى هذا كتب ديسكان إلى السيد سعيد يخبره بأن الحماية البريطانية ستقتصر على السفن التابعة باللاحة بين عمان والهند، وأنه لا يخشى في الوقت الحاضر أي اعتداء فرنسي على السلطنة . والظاهر أن هذا الرد خيب أمل سعيد فاستأنف المفاوضات مع فرنسا خلال عام سنة ١٨٠٧ وأوائل ١٨٠٨ ولكن الظروف أخذت تتحول بسرعة نحو تأكيد التفوق البريطاني في المحيط الهندي . ولم يكن السيد سعيد بحاجة إلى أن ينتظر رفض حكومة باريس توقيع الاتفاق لكي يحاول من جديد توقيع علاقه مع الإنجليز ، ففي سنة ١٨٠٨ شرع الأسطول البريطاني في حصار جزيرة موريشس كما أن اليعنة الفرنسية التي أرسلت إلى فارس كانت في طريق عودتها إلى فرنسا دون أن توفق في إغتياب الشاه إلى التحالف معها .

(١) رسالة من السيد سعيد إلى ديسكان بتاريخ نوفمبر ١٨٠٦ .

(٢) Bengal political secret Consultations رسالة من الحاكم العام إلى حكومة بمباي بتاريخ أبريل ١٨٠٧ .

لذلك كله تقرر إرسال جويرين في سنة ١٨٠٦ وهو يحمل مشروعا طموحا باجتذاب فارس إلى عائلته فرنسا سبا وأن الحرب كانت قائمة في ذلك الوقت بينها وبين روسيا، أي أن مصالح البلدين عادت متفقة كما كانت عند إرسال بعثة أوليفيه في ١٧٩٦ - ١٧٩٧.

كان يحكم فارس في ذلك الوقت فتح على شاه الذي يعدد المؤسس الحقيقي للإسمرة التجارية. وقد تقبل اقتراح التحالف بكثير من الترحيب حتى أنه أرفق البيوت الرنسي في عودته بدينار فارس لكي يقابل الإمبراطور ويقدّم معه التحالف المطلوب والتقى به فعلا في فينسكين اشتاين ببولندا حيث كان يقيم معسكره بعد تحقيق عدة انجازات على روسيا. وبعد مفاوضات قصيرة تم توقيع مساعدة التحالف في ٢٤ مايو سنة ١٨٠٧^(١)، تحتوي هذه المعاهدة على قسمين متميزين ويتضمن القسم الأول تعهد فرنسا بمساعدة فارس على استرجاع أراضيها الشمالية التي فقدتها بسبب الاعتداءات الروسية.

أما القسم الثاني فيتضمن التسهيلات التي يجب على فارس أن تمنحها للقوات الفرنسية "توطئة لنزول الهند". ويحتل هذه التسهيلات القسم الأكبر من المعاهدة. كان تنفيذ التحالف أمرا مكثفا عند عقده في مايو سنة ١٨٠٧ ولكن سرعان ما تدهورت ظروف فرنسا السياسية بها إلى الإمبراطور قابل القيصر في تلمست في ٧ يوليو ١٨٠٧ وعقد معه الصلح الشهير باسم هذه البلية. إلا أن عقد هذا الصلح لم يمنع نابليون من النسي في مشروع التحالف الفارسي، ولذلك عين وفدا كبيرا تحت رئاسة الجنرال جاردان للذهاب إلى فارس فوسل إليها في نوفمبر سنة ١٨٠٧.

غير أن مهمة جاردان أصبحت شاقة إلى حد كبير، إذ أنه من الطبيعي بعد صلح تلمست أن تتوالى فرنسا في الضغط على روسيا. وفي نفس الوقت لم يخف جاردان

(١) انظر من المدمت France des traites de la
T. 1, p. 201-203

مغامرة طارئة في فارس

من المعروف أن إقامة إمبراطورية في الشرق كانت من الآمال التي لا تمت نابليون طوال عهده بالحكم، وكانت هذه الأطماع تتخذ شكلا جديدا كلما فشلت فرنسا في غزو الجزر البريطانية. حدث ذلك في سنة ١٧٩٨ وتكرر في سنة ١٨٠٠. وفي ذلك الحين كانت العلاقات قد عادت إلى مجراها الطبيعي بين فرنسا والدولة العثمانية فأرسلت مستشارين في مهمة سرية على الأرجح لمساعدة مشروع غزو الشرق، كما بعثت فكرة غزو مصر سنة ١٨٠٨ ووسط هذه الشروط احتلت فارس ومنطقة الخليج مكانا مرموقا باعتبارها حلقة هامة من حلقات الطريق إلى الهند. وقد تولى فصلان نشطان مراقبة أحوال فارس منذ سنة ١٨٠٥ وما كورانسيز الفصل الفرنسي في حلب، وروسو زميله في البصرة. وكورانسيز هو صاحب اقتراح البعثة السياسية التي أرسلت إلى فارس في سنة ١٨٠٦.

وقد بنى اقتراحه على تعداد النوايا التي ستعود على بلاده من توثيق صلاتها بفارس وهي تلخص في السكرة التطبيقية من أن تلك البلاد يمكن أن تستخدم يوما ما لنزول الهند، ولكنه بصيف تقاطعا أخرى جديدة مثل فكرة انخراط فارس مأوى الدراسة الفرنسيين الذين امتد نشاطهم إلى الخليج العربي منذ سنة ١٨٠٥ وكذلك مساهمة الفرنسيين في استئصال اللؤلؤ، مع ملاحظة أن العرب وليسوا القوس هم الذين كانوا يتولون هذا اللون من النشاط الاقتصادي. كذلك أوصى كورانسيز باقتضاء فارس قاعدة لتكوين جزيرة موريشس والضغط على ولاية بندا كي يتم استخدام الطريق البري لنقل البريد البريطاني^(١).

(١) A.A.E. Correspondence de persie رسالة من كورانسيز إلى نابليون بتاريخ ١٨٠٦/٥/١٠.

لمن إلحاحه على الشاه في تنفيذ القسم الخاص بالتزامات فارس التي نصت عليها معاهدة التحالف . على أن الشاه لم ينفذ الأمر رغم تفسير الظروف في استمرار التحالف على أساس أن تستخدم فرنسا الوساطة لدى القيصر ، وعلى ذلك استمرت البعثة في مزاولة نشاطها حتى خريف سنة ١٨٠٨ .

كانت عمليات جاردان تتم عن رغبة فرنسا في القيام بنشاط واسع المدى ، للطفة . وأهم هذه العمليات ما كان يصل بدراسة الطرق التي يمكن استخدامها عبر فارس للسير إلى الهند ^(١) . ومنها ضرورة الاتصال بجزيرة موريشس للتفاوض في إعداد حجة بحرية في الخليج ، وتوخي الاتصال بالهولنديين في بلاد العرب لمرقة ما إذا كانوا على استعداد لقطع بريد الهند ، وأخيراً تنفيذ هذه العمليات باليمن عن أنسب جزيرة في الخليج لإقامة حامية فرنسية .

وكان موضوع التنازل عن جزيرة فرنسا قد أثير أولاً عند وضع مشروع معاهدة فيسكين شتاين . ولكن مندوب الشاه طلب تأجيل مجملته حتى وسور البعثة الفرنسية إلى طهران . وقد تم الاتفاق نهائياً على أن يكون التنازل مشروطاً فنصت المادة ١٧ من المعاهدة التجارية التي وقعت بين فرنسا وفارس في ديسمبر سنة ١٨٠٧ على أن تنازل فارس عن جزيرة لقوسا بعد إعادة إقليم جورجيسا إلى فارس بمساعدة فرنسا ، وذلك عن طريق وساطتها لدى روسيا . فلاحقاً وأندرفت باريس توقيع المعاهدة التجارية ^(٢) علماً بأنها بعدم قدرتها على تنفيذ هذه الوساطة وقد سبق أن حاولت فرنسا استصدار فرمان من الشاه بإعلان الحرب على إنجلترا . فم تمضيح ، لأن الشاه كان يشترط دائماً تنفيذ هذا الوعد الخاص بإعادة كاملا كالتى سلبها روسيا أولاً . ومهما يكن هناك من شروط التنازل عن جزر في الخليج فمن الواضح أن موقف الشاه في هذا الموضوع كان أقل سلاية بالنسبة لفرنسا لأن

(١) نشر أحمد الميرزا الثاني النسخة بجمته ، أطلر p. 81 Gardane

(٢) Al A. E. C. Perso Tome 9, 4/12/ 1807

سبق أن رفض أسلاماً التنازل سنة ١٨٠١ بالنسبة لإنجلترا . ويمكن تأجيل هذا التردد بأن فرنسا ليست لها جيوار فارس مثل ما لبريطانيا فلا يخشى منها تهديد لاستقلال بلادها .

ويبدو أن الشاه كان يمان على وساطة فرنسا لدى روسيا آملاً أن تزيد على إمكاناتها في الواقع . ولعل هذا مادعاه إلى ترك النشاط الفرنسيين بجهزون أعماله البلاد المختلفة بحرية تامة ومما هو جدير بالذكر أن دراسة منطقة الخليج قد أثارت قلقاً خاصاً عند السلطات البريطانية في الهند . وقد وقعت مهمة دراسة هذه المنطقة على الشاهين ترينل ودوبريه ^(١) . فما كادت ومبارى تم ظهورها في جزيرتي قشم وهرمز في فبراير سنة ١٨٠٨ حتى أوقدت سبتون وكيها في سفينة بحرية لتتبعها ، ولكنه لم يظهر بها إذ أنها رسلا إلى بوشهر قبل الضابط الإنجليزي ببعضه لهم . ولم تؤد زيارة الشاهين الفرنسيين لمنطقة الخليج إلى نتيجة إيجابية بل اقتضرت على تعبير الحكومة الفرنسية بخوفه معروفة ، وهي أن النفوذ البريطاني قد بلغ في هذه المنطقة حداً لا يمكن معه النافذة ، ولذلك قررا عدم صلاحية الخليج كطريق أساسي لحلة الهند . ومن القطوع به أن النفوذ الفرنسي عندما بلغ ذروته في فارس أوائل سنة ١٨٠٨ لم يقرب إلى منطقة الخليج ، فقد كانت المنطقة الساحلية في فارس يحكمها رؤساء قبائل عربية مستوطنون بالنسبة للسلطة المركزية في طهران ، وكان هؤلاء الشاهين وخاصة ما كم منطقة بوشهر من آل نصر يستفيدون من حركة التجارة الشيعة بين الهند وفارس . وقد ذكرنا أن شيخ بوشهر كان يحصل بمقتضى معاهدة سنة ١٧١٣ على ٣٪ من جميع العمليات التجارية من التجار المحليين ، وفي نظير هذا الامتياز كان يعطى حاكم شيراز التابع لطهران مبالغاً سنوياً قدره بقسمة آلاف جنيه ، مما يدل على ارتفاع أرباحه من تلك الرسوم ، وكان في استطاعته أن يقدم هذا بما عينة إلى رجالات البلاط في طهران . وهذا ما يفسر لنا استمرار الوكالة البريطانية في بوشهر ، رغم إلحاح جاردان على الشاه

(١) كتب دوبريه Dupeire قصة وفترها سنة ١٨٠٨

أنه أثناء إقامته ببوشهر من مايو إلى يولية كان يستمتع بالترجيب العائلي من حاكم المنطقة وتجارها .

وقد اتخذ ملكولم من هذا الحادث حجة قوية لإقناع اللورد منتو بنظرته اللدنية الخاصة بإنشاء قاعدة بريطانية في الخليج ، وكان نظره في ذلك الوقت موجها نحو جزيرة « خاراج » دون قسم ، وهي الجزيرة الواقعة بالقرب من بوشهر ، فاقترح ملكولم قتل وكالة ببوشهر إلى هذه الجزيرة التي مستعمرة بريطانية .

ولكن فيما كان ملكولم يقوم باستعدادات عسكرية ضخمة بعد عودته إلى بومباي ، رى منافسه هارفورد جونس في فارس أواخر أكتوبر سنة ١٨٠٨ ، وقد جاء إليها بملا البلاط الذي رأسه ، وليس مندوباً عن حكومة الهند التي كانت تتولى في العادة شؤون العلاقات بين بريطانيا والدول الناجمة للمستعمرة الكبرى . وكان لورد منتو الحاكم العام للهند قد احتضن سياسة ملكولم نحو الخليج . فكتب إلى جونس يأمره بالعودة وإسباح الطريق لحجة الهند العسكرية المدعة ضد فارس . ولما لم يكن جونس تابياً لحكومة الهند استباح نفسه عسيان هذه الأوسر والاستمرار في التفاوض مع حكومة الشاه . وكان مندوبه يختلف عاماً عن ملكولم إزاء هذه المشكلة ، فهو يقوم على طمأنة فارس إلى حسن نيات بريطانيا إلى حد أن جونس وضع حياته تحت تصرف السلطات الفارسية من أجل عدم استخدام القوة من جهة بريطانيا .

على أن نجاح هارفورد جونس لا يمكن نسبته إلى هذه السياسة وحدها ، بل نستطيع القول بأن العامل الأول في هذا النجاح هو رأس الشاه من فرنسا وعودتها بالسعادة ، خاصة بعد أن صرح جودوفتش القائد الروسي الذي تولى قيادة الحملة الروسية في شمال فارس بأن وساطة فرنسا غير مقبولة لديه ، وهكذا استأنفت القتال منذ سبتمبر سنة ١٨٠٨ .

لجدها ، بل على العكس ذكر أن روس التزم البريطاني في هذه الآونة ، منع « كسوة شرف » خلفها عليه حاكم شيراز بفضل توسط حاكم بوشهر .^(٢)

وقد جاء في تقرير تريبل أن نحو مائتي سفينة تابعة لشركة الهند الغربية تصل سنوياً إلى بوشهر حاملة منتجات الهندس وأوربا ، ومنها الأرز واللبان والأدوات الصناعية الخفيفة وخاصة الصوف . ثم تعود بحملة بمنتجات فارس والبلدان المجاورة لها ومن أهمها الخيل وفيلد شيراز والقطن والبراكين الجبلية . وباستثناء أحد المخصصين الفرنسيين لم يمكن في وسع فرنسا مجرد التفكير في التنافس التجاري مع إنجلترا ، لأنه يستحيل إيجاد حركة ملاحية منظمة بين فرنسا وفارس . فملأوة على طول السافة لا بد أن تخضع هذه الملاحية لحركة الرياح الموسمية . وعلى أحسن الفروض ستضطر التجارة الفرنسية إلى استخدام سفن مستط في النقل البحري . ويتفق التقرير إلى أن أهمية فارس لفرنسا سياسية بحية^(٣) .

ولعل هذا مادام ملكولم إلى الاعتقاد بسهولة نجاح مهمته حين أسندت إليه حكومة الهند القيام بصفة ثانية إلى فارس في أبريل سنة ١٨٠٨ . وبناء على اعتقاده هذا لم يعط ملكولم سوى أربع سفن صغيرة ، ٤٠٠ جندي بينما كانت عمليات منتو الحاكم العام تشير إلى ضرورة استخدام قوة أكبر لمواجهة النفوذ الفرنسي . لذلك كانت دعمة ملكولم عظيمة عندما وصل إلى بوشهر في ١١ مايو سنة ١٨٠٨ ورفض الشاه استقباله . إلا أن فتح على شاه راحي في نفس الوقت مركز بريطانيا في الخليج فأخاله على حاكم شيراز الخنص بشؤون المنطقة للمناومة . ولكن ملكولم رأى في هذا الإجراء إهانة عظيمة . وترك البلاد متوجهاً بالمودة مع قوات كبيرة للانتقام لهذه الإهانة . وما يذكر

(٢) انظر G. P. G. P. 927.

(٣) هذا التقرير كتبه اسكلتون أحد القومانيين الفرنسيين بالأسنان سنة ١٨٠٦

وفى نوفمبر بذل الشاه آخر محاولة للحصول على تدخل فعلي من الإمبراطور وأعطى جاردان مهلة شهرين لمعرفة جواب نابليون النهائى ، ولما لم يصل أى نيا من فرنسا بعد انقضاء هذه المدة قرر الشاه استقبال جونس فى طهران وتم ذلك فى ٤ فبراير سنة ١٨٠٩ . ولم يلق بالا لاعتراضات جاردان الذى انسحب من عاصمة فارس احتجاجاً على استقبال ممثل الدولة المعادية . كانت الظروف إذن مهيأة أمام هارفورد لتثبيت دعائم النفوذ البريطانى فى تلك البلاد . وفلام ينقض شهر على إقامته حتى وقع فى ١٥ مارس اتفاقاً تمهيدياً ألغى بواسطته جميع المعاهدات التى عت بين فارس والدول الأوربية الأخرى ^(١) ، بينما كسبت بريطانيا امتيازات سياسية . وأصبحت الدولة الوحيدة التى يمكن طلب وساطتها فى النزاع بين فارس وجيرانها . وفيما يخص منطقة الخليج ، حصلت بريطانيا على وعد باستخدام موانئ فارس وجزرها فى حالة الاعتداء عليها ، ولكن نصت المادة السادسة على أن احتلال بريطانيا لهذه الأجزاء من فارس لايعنى ملكها إيهاها . وعلى أثر النجاح الذى أحرزه جونس أصبحت حملة ملككولم غير ذات موضوع . وكان قد أعد منذ يناير حملة بحرية قوامها ثلاثة آلاف جنسى وأوشك على الإبحار إلى الخليج ، فقامت أبناء جونس بخيبة لشروعه الأمور .

وقد فتح الاتفاق التمهيدي لسنة ١٨٠٩ الباب لسلسلة من المعاهدات بين بريطانيا وفارس . فصنفت الأولى تقوذاً سياسياً واقتصادياً فى الجزء الجنوبي من البلاد على الأقل . وخلافاً للسياسة الروسية كانت تعطى للامتيازات الاقتصادية الدرجة الأولى من الأهمية . وحتى تضمن بريطانيا سلامة مواصلاتها مع فارس كلن أمن الخليج شيئاً حيوا بالنسبة لشركة الهند الشرقية . ولكن ما كادت تستقر لها الأمور فى فارس حتى ظهرت على الساطع الآخر للخليج قوى جديدة معادية للسيطرة البريطانية على اللاحة فى الخليج .

الفصل الخامس

العرب والملاحه

سيطر العرب على أوجه النشاط المختلفة فى الخليج خلال القرن الثامن عشر فهم الذين يدرون حركة الملاحة التجارية بين موانئ الخليج المختلفة من جهة وبينها وبين الهند وشرق أفريقيا من جهة أخرى . وفى بعض الأحيان يواصلون السير إلى جزر الهند الشرقية ، ولو أن عرب حضر موت هم الذين اشتهروا أكثر من عرب الخليج بزواولة النشاط الاقتصادى فى جنوب شرق آسيا . كذلك اشتغل العرب بصناعة بناء السفن وبالنوص على اللؤلؤ ، ومن ثم سارت لهم السيطرة التامة على جزر الخليج وعلى أجزاء مختلفة من الساطع الشرقى أيضاً .

وفى نهاية القرن الثامن عشر انجذبت بعض القبائل العربية إلى القيام بتمارات بحرية للاستيلاء على السفن التجارية التى تمر بيماء الخليج ، وهذه التمارات هى التى تحدث المؤرخون الانجلز عنها كثيراً باسم القرصنة . ونسبوا إلى مواطنيهم فضل القضاء عليها .

ومن الصعب التمييز بين القرصنة وبين الحروب البحرية . وقد رأينا كيف أن الأوربيين باختلاف جنسياتهم مارسوا القرصنة فى منطقة المحيط الهندى منذ ظهور البرتغاليين بها فى القرن السادس عشر . وفى مصر الذى نحن بمصدده الآن كانت فرنسا ترخص لبعض بحارتها المشهورين بالجرأة أن يهاجموا سفن الأعداء وأن يحصلوا الغنائم التى تنتج عن ذلك لحسابهم الخاص ، ولعل هذا هو أهم فرق بين القرصنة وبين الحروب الرسمية أى أنه إذا تم الاستيلاء على السفن لحساب الدولة فإن ذلك يكون من أمور الحرب للتمارف عليها ، وإذا استولى عليها أفراد لحسابهم الخاص أصبحت قرصنة . وقد اهتمت بريطانيا بهذا الموضوع بعد

طاقاتها للشاحنات البحرية ، فإنها كانت تساهم بقسط وافور مع أهل البحرين وقطر والكويت في أعمال النوص على التؤلؤ ، كما تساهم مع المانيين في نقل التجارة من شرق أفريقيا والهند ولكن يبدو أنه بعد الانفصال عن التبعية لسلطان عمان وجد كثير من بحارة القواسم أنه من الأسر تحقيق الربح بالسطور على سفن التجار المانيين الخاضعين للبوسعيد . وقد بلغت القواسم من القوة في نهاية القرن الثامن عشر إلى حد أنها انتزعت جزيرة قشم من سلطان بن أحمد وانتقل أحد فروعه إلى لنجة على الشاطئ الشرقي من الخليج حيث تأسست مشيخة عربية تابعة لرأس الخيمة . وعندما وصل نفوذ الدولة السعودية الأولى إلى جنوب شرق شبه الجزيرة ربح سلطان بن مقر زعيم القواسم بإعلان تبعية لحكومة الدرعية طالما أن هذه الحكومة لاتتبر من وضعه كزعيم للقبيلة بل على العكس أصبحت قبيلة القواسم تستند إلى مؤازرة دولة قوية لسي غارس منامراتها البحرية على نطاق أوسع . ففي سنة ١٧٩٧ هاجت إحدى السفن النابذة لشركة الهند الشرقية واستولت عليها ، لذلك يظن بعض الكتاب الانجليز (١) أن هذا العام يوافق دخول القواسم في تبعية الدولة السعودية الأولى . والأرجح أن ذلك لم يتفق بصورة نهائية إلا في سنة ١٨٠٢ أي بعد أن أقام الوهابيون حصناً ثابتاً في البويري في العام السابق وانتشر نفوذهم المعنوي في إقليم الظاهرة (٢) .

اعتبرت القواسم بعد الانضمام إلى الدولة السعودية منامراتها البحرية جزءاً من حركة الجهاد وبالتالي فإن الأسلاب تعد غنائم حرب ويجب تأدية خمسها إلى الحاكم الشرعي أي رئيس الدولة السعودية ، وذلك حسب ما تقتضيه الشريعة الإسلامية في أحوال الجهاد . ولا تعرف بالضبط مدى التزام القواسم بهذا المبدأ وعلى كل فقد انصب هذا « الجهاد » في الناب على السفن المانية . فإذا أضفنا إلى ذلك احتلال السعوديين للبويري ومنعطهم على كثير من قبائل الظاهرة ؛ تبيننا

(١) S.R.B.P. 248

(٢) ابون بشر من ١٤٥٠

انتهاء الحروب النابوليونية فحملت مؤتمر فيينا على اتخاذ قرار عكس اتجاه القرصنة في مختلف بحار العالم .

ويجد بنا أن تقساما عن وضع المامرات البحرية التي اشتهر بها العرب على ضوء القياس الذي أشرنا إليه ، والأرجح أن هذه المامرات كانت صورة مسكورة لا يقع بين القبائل من مشاحنات في البر ، وإذن فهي تم لحساب القبيلة أو لحساب رئيس العشيرة في معظم الأحيان .

ومن القبائل التي اشتهرت بتلك المامرات البحرية بنو كعب في شمال الخليج ثم بنو ياس وبنو علي والقواسم جنوب قطر ، وهذه القبيلة الأخيرة هي التي أحرزت في ميدان المامرات البحرية شهرة لا تضارعها فيه أية قوة عربية في العصر الحديث.

ونزل هذه القبائل البحرية على الشاطئ المتد من خور الهديد شمالاً حتى رأس مسندم جنوباً أي في مسافة طولها نحو ثلاثمائة كيلومتر ، وهي كثيرة التمارج ومن ثم يسهل على القوارب الصغيرة السريعة أن تقتنص منها ملجأ من تتبع السفن الكبيرة . وكان هذا القسم من الساحل تابعاً لسلطين عمان في عهد اليعاربة و في بداية عصر البوسعيد ، في سنة ١٨٦٥ فصر راشد بن مطر عري التبعية لأحمد ابن سعيد واتخذ من رأس الخيمة مقراً له كزعيم لقبيلة قوية هي قبيلة القواسم . وفي حوالي هذا الوقت تقريباً أخذ دياب بن عيسى من أسرة البوفاح يجمع حوله قبيلة بني ياس ويتخذ من جزيرة صغيرة تدعى أبوطي مقراً لمشيخته القبيلة الجديدة . وهكذا ظهر إلى الوجود قسم متميز من ساحل الخليج الغربي أطلق عليه الانجليز اسم ساحل القرصنة ، وهو الذي سيتطور فيما بعد إلى ساحل الهدنة ثم إلى الشيشات السبع في الوقت الحاضر (١) .

ومن الخطأ الظن بأن القبائل التي تنزل بهذا الساحل كانت تنكس جميع

(١) قبيل وفلتي بجاي باخبار القواسم ومعاصمها البحرية ، ويمكن الرجوع إلى تقرير مطول في مختارات بجاي المنشورة 359-290 S.R.B. أما عن نداء أبوطي فيمكن الرجوع إلى مؤلف معاصر أنظر تحت الراجح MANN

مدى الخطر الذي تعرض له سلطان بن أحمد في نهاية عهده ، لذلك ذهب بعض من حطاه ليلووه ضد الوهابيين . ودخل إلى مكة ليستعين بشريتها . وحين وصل إليها سنة ١٨٠٣ كل الوهابيين في سبيلهم للاستيلاء عليها . ولما علم التتال توجه حاكم مسقط إلى الدولة العثمانية فقام بزيارة لعل باشا والى بغداد باقتدار حليها شيبيا ضد الوهابيين ، وروى أنه في بغداد رسم خطة لمواجهة قوة السوديين المساعدة ، إلا أنه لم تنجح الفرس لتنفيذ شيء منها لأن القواسم زعمت بمحاكم مسقط ونجحت من قتله في طريق العودة . وعلى أثر ذلك اضطرت أسوار مال وأربسكت أن تقع في يد السوديين حصة حبيبا المثل حكم مسقط إلى يد من سبقت مدبرين الوهابيين خلال فترة قصيرة (١٨٠٥ - ١٨٠٦) ولا غرو أن تشجع هذه الأحداث القواسم على توسيع نشاطهم ، بعد أن كانوا يتحصنون السفن البريطانية أسجورا لا يخشون من اغتياب منها حتى لا تستأجر وحدها بتمارة الخليج .

ذلك أنه من الدال على أن البريطانيين استمروا بالقواسم في إظهار مسكافة الفرس ، ولكن إذا قلنا النظر في الواقع البريطانية للاحظ أن مثل شركة الهند الشرقية في الخليج كانوا يشكون من منافاة التجارة العرب لهم ، لذلك انبثرت الحركة هذه الفرس فخصمت بعض الحملات العسكرية لتعظيم اللاحه العربية باسم مسكافة الفرسه أحيانا ومسكافة تجارة الزيق أحيانا أخرى ، وعالفت مع الحكم العرب الذين اتفقت مصلحتهم مع الإنجليز للاحه . من اعتماد الدولة السعودية الأولى إلى منطقة الخليج .

لم تكن حكومة الدعية مسئولة بصورة مباشرة عن منطقة الخليج ومن باب أولى عن نشاط القواسم في البحر ، وذلك إلى أن اتخذ سعود قراراً في سنة ١٨١٠ بتعيين ممثل له رئيساً للقواسم وإضافة إقليم إداري يعرف بإقليم الطيف يضم الأحساء والبحرين وفطر ، وحتى ذلك الحين لم تتخذ حكومة الهند البريطانية

موقفاً محدداً من الدولة السعودية الوهابية . ويبدو أنها سالت في بداية الأمر إلى احتساب ودعا ، في سنة ١٧٩٩ أرسل ماسي التتصل الإنجليزي بالبصرة بمبعوثاً منه إلى العربية يدعى ريتو وتو سعت هذه الحيلة لكن هو الأوروبي الوحيد الذي رار صحت الدولة السعودية الأولى (١).

وهذه مهتمة هو الممول على وعده من رعي الوهابيين بتأمين البريد البريطاني الذي يربط بين البحرين والبحري من البصرة إلى حلب حيث تقع بعض القبل التي تتبع الدولة السعودية ، ويقال إن عبد العزيز بن سعود اشترط بإقامة صلح مع والي بغداد قبل إرسال أي وعد . لذلك لم تستر البعثة البريطانية عن قتي . هذا عظم شأن القواسم وتأكد ارتباطها بالوهابيين أخذت السلطات البريطانية في الهند تنظر بروح العداء نحو القوة العربية الجديدة . ومن ثم توسط الإنجليز في مشروع التحالف بين سلطان بن أحمد وبين والي بغداد (٢) ، ذلك التروع الذي لم يوضع موضع التنفيذ فاضطرت بريطانيا إلى العمل منفردة في وجه القواسم بأن أرسلت داليد سبتون وكيلها في مسقط سنة ١٨٠٥ وبموجبته بعض السفن الحربية لضخوف القواسم . وعلى استعاط أن يحصل على تمهيد باعترام السفن البريطانية ويدفع غرامة للتعرض عن السفن الهندية التي استولت عليها القواسم . وفي حالة التفكير في الخروج على هذا الاتفاق تستر القواسم السلطات البريطانية في مدة لا تقل عن ثلاثة أشهر . وهذا الشرط الأخير غريب من نوعه ولا يمكن أن يؤخذ مأخذ الجد ، لذلك لم يكن أحد ليتوقع أن تتغير القواسم بريطانيا باستئناف معامراتها البحرية سنة ١٨٠٨ في ذلك العام أسمرت

(١) ورد ذكر هذه البعثة في : مؤلف روسو الفصل الفرنسي المثار إليه ساينا Roussieu p. 30 وكذلك في : مؤلف بريديجر Brydges التتصل الإنجليزي في بغداد ، ولكن لم يغير على ذكر تلك البعثة في الوثائق .
(٢) Miles Vol. S. p. 298
(٣) جاء هذا التتصل نتيجة لأفراحات ما نسب التتصل البري : الثاني بالبصرة ، انظر رسالته بتاريخ ١٨٠٠ / ١ / ٣ P. B. C. 3 / 1

السويبات التي استولوا عليها . وإنّ فلان الإنجليزي لم يكونوا يختلفون عن القواسم في عدم مراعاة تقاليد الحرب^(١) .

وقد حاول السيد سعيد أن يقتنع الانجليز بالتعاون معه ضد الوهابيين في البحر غير أن ذلك يتناقض وتضليلات حكومة الهند البريطانية ، ومع ذلك فقد تجاوز الكولونيل سميت عن هذه التلميحات قليلاً حيناً هاجم حماية سعودية في ميناء شفاص في يناير سنة ١٨١٠ وتمكن من تسليمه للسيد سعيد .

في هذه الأثناء خفت القوات السعودية لنجدة القواسم وأرسل مطر بن محمد الطبري إلى عمان حيث استمر خمس سنوات يلعب دوراً كبيراً في اجتذاب قبائل جديدة نحو تبعية الدولة السعودية . وكان من التوقع أن يتعرض السيد سعيد لانتقام الوهابيين بعد أن انسحب حلفاؤه الإنجليز ، لذلك بادروا للاستعداد بالشاه الذي لم يكن يوسمه أن يفعل شيئاً . وواجهه حاكم مسقط فترة من أخرج إليه^(٢) ، ويدو أن الساطعات البريطانية في الهند أرادت أن تقصر موقفها بعد هذا التدخل الحربي لدى حاكم الدرعية . وتضح من رد سمود على هذا الخطاب أنه استجاب لرغبات الإنجليز بمنع حلفائه من الاشتباك معهم في الخليج . ومما جاء في خطابه . . . إن سبب الخصومات المستمرة بيني وبين من يسمون أنفسهم مسلمين انحرافهم عن كتاب الخالق ورفضهم الامتثال لنبيهم محمد . فليست إذن أشن حرباً على من ينتمون إلى فرقة أخرى ، ولست أتدخل في عملياتهم العادية ، ولست أساعد ضد أحد . فادمت تحت سيطرة العمل القدير فقد سموت على جميع أعدائي وفي هذه الظروف رأيت من الضروري أن أبلغكم أنني لن أدنو من شواطئكم ، وأني منعت أتباع عقيدة محمد وسفهم من أن يقوموا بأي تنكيل

السفينة البريطانية ميمبرفا وهي تقوى كثيراً حجم تلك السفينة التي استول عليها القواسم منذ عشرة أعوام ، كما حطم طراد إنجليزي صغير كان رتلين بصفة مالكوكم إلى فارس .

وكان مالكوكم قد نجح في ربط فارس إلى محاللة بريطانيا ، وفي نفس الوقت انتهت المفاوضات بين السيد سعيد وبين الفرنسيين ، ولذلك حيناً قرر الإنجليز التدخل وسمحوا خطتهم على أساس وجود حلفاء لهم بين القوى المحلية في الخليج العربي . وجاء في التلميحات التي زود بها ليونيل سميت قائد الحملة . أن يقوم بتدمير مراکز القرصنة والسفن الراسية فيها مع ملاحظة عدم الاستطام بالوهابيين ، بل تشير هذه التلميحات إلى أن بريطانيا كانت تود بإخلاص الإبقاء على « علاقات الودة » معهم ومع الدول الأخرى في جزيرة العرب^(١) ، كما تقتضي بالتعاون مع السلطات الفارسية على الساحل الشرقي إذا تطلب الأمر تتبع القرصنة هناك ، والساعدة على تدعيم سلطة الشاه في هذا الشاطئ . ولعل التلميحات البريطانية كانت تقصد رد مشيخة لنجة التي استولى عليها القواسم إلى حلفائهم الدرس .

خرجت الحملة من بومباي في أواخر أكتوبر سنة ١٨٠٩ وكانت تتألف من ثلاث سفن حربية وثلاث أخرى لحمل المعدات ، وبعد توقف قصير بمسقط أخذت تهاجم مراکز القواسم وتزلت في رأس الخيمة لمدة يوم واحد وألحقت أضراراً جسيمة بالبناء .

ومما بلغت الفظ أن لورينار « المؤرخ الرسمي للخليج من قبل حكومة الهند » قد اعترف بأن كثيراً من بحارة هذه الحملة عادوا بثروة كبيرة من

الحملة البريطانية سنة ١٨٢٠ ونتائجها

في الوقت الذي أخذت فيه الدولة السعودية تزحف وتطأ الحلة المصرية الثانية (١٨١١ - ١٨١٨) جددت القواسم نشاطها في البحر وبدأت سنة ١٨١٢ بالتوسع ليركب الإمارات العربية الأخرى ، ثم وسعت من نطاق منافعها فشملت السفن البريطانية وذهبت تنهبها في المحيط الهندي وإلى مسافة لا تحصى أكثر من مئتين ميلاً عن ومباي . وتدل هذه الأحداث على أن قوة القواسم لم تكن تستند حيودها من وجود الدولة السعودية ، وإنما كان ارتباطها بها معنوياً في الغالب .

وقد قدر أسطول القواسم سنة ١٨١٨ بـ ٦٢ سفينة كبيرة و ٨٠٠ من القوارب الصغيرة^(١) ، ومن القرب أنه في هذه الحقبة التي بانث فيها القواسم ذروة قوتها البحرية تمسكك الاتحاد القليل إلى إمارات سنيرة . والظاهر أن ذلك جاء نتيجة تدخل السعوديين في شئوننا ، ففي سنة ١٨١٦ تمكن سلطان بن مقر من التوار من الدرعية ، وحينما عاد إلى موطن قبيلته يستلم أن يسترد زعامتها وأخضر نفوذه في الشارقة ، بينما استقلت فروع القبيلة يرواى رأس الخيمة وألم القوين ، وهكذا ولدت مشيخات جديدة على الساحل المهادن تعمل أسماء جغرافية بعد أن كانت تعرف باسم القبيلة أو بفرعها . ووسط هذه المشيخات المنفرعة عن دولة القواسم الأصلية إن صبح التعبير ظهرت مشيخة سنيرة راجعة هي العجنان .

وإلى الشمال من ذلك استقرت أسرة البو فلاح في جزيرة بطنى منذ سنة ١٧٦١ حينما اكتشفت وجود المياه فيها . وهذه الجزيرة تقع على مسافة قليلة من الساحل بحيث يمكن وصلها بالأرض عندما تترى الشبخة من عوائد النبط . وفي عهد

يستحكم . فإذا ما ظهر أحد من تجاركم في موانئ أو رغب في الحج إليها فسكن آتياً . لا يؤدعيكم إذن احتراق عدد من السفن لأنه ليس لما فيه في رأي ولا في رأي أصحابها أو أهل بلادها . والحقبة إذن هي أن الحرب مرة ولا يجوزها إلا أحقق كما قال أحد الشراء » .

تدل هذا الخطاب إن صبح^(٢) على ضعف إدراك سعود للأوضاع الخارجية ، ولا غرو فإن أهل الدرعية كانوا يتساهلون بمناسبة هذه الأحداث عن عقيدة الإنجليز . وبعد بحث تبيوت ابن بشر أنهم « من الصاري » ويمكن الربط بين هذه الرغبة في مسألة الإنجليز بالخليج وبين استدعاء سعود سنة ١٨١٠ لسلطان ابن مقر زعيم القواسم واحتجازه بالدرعية وتعيين موظف في هذا الجزء من الساحل يقع للدرعية تبعية مباشرة . وبناء على ذلك توقف نشاط القواسم نحو ثلاثة أعوام .

البريطانية المدنية بالأمر، فهناك بروس القيم العام الذي كتب مذكرة بهذا السبيل إلى حكومة بومباي (١) وأيد هذا الرأي دبلوماسي السفير البريطاني في طهران، ولو أنه كان يأخذ في الاعتبار مسألة أخرى بالإضافة إلى موضوع مكافحة القومستوى تزايد النفوذ الروسي في شمال فارس وخاصة بعد اتفاقية جولستان سنة ١٨١٣ التي أدت إلى انتزاع إقليم جندة لصالح روسيا. وفي رأيه أنه لا بد من أن يقابل ذلك مظاهر جديدة للنفوذ البريطاني في منطقة الخليج، وكانها نفس في هذا الاقتراح وادرس سياسة تقسيم فارس إلى مناطق نفوذ، تلك السياسة التي ستأخذ شكلها النهائي في أوائل القرن العشرين.

وشارك في هذه الدعوة إلى استخدام القوة وليهم هيد، وهو سابع في البحرية البريطانية قام برحلة إلى العراق والخليج سنة ١٨١٦ ونشر أظباعاته عن تلك الرحلة في ١٨١٩ وما جاء فيها قوله: إنه عاجل على الحكومة البريطانية في التفاوض مع مثل هؤلاء القادة الذين لا يعرفون القوانين والدين أسبحوا بشكوك خطيرة على الملاحة البريطانية (٢) أكثر مما كان يفعله عسكرو الوطن الأساسي (٣) يعني الفرنسيين (٤).

كانت ظروف السلطات البريطانية في الهند مهينة في سنة ١٨١٩ أكثر من أي وقت مضى لتدخل عسكري واسع النطاق في الخليج العربي. فقد انتهت الحرب السامة في أوروبا وخرجت منها بريطانيا بممتلكات أكثر أماناً في الشرق، وبالتالي فقد أصبحت أكثر اهتماماً بتأكيد سيطرتها البحرية على الطرق المؤدية إلى المحيط الهندي، وفي داخل الهند تنقلب الإنجليز على مقاومة الهزات العنيفة، تلك المقاومة التي كانت تؤثر على حكومة بومباي بصفة خاصة. وفي عام ١٨١٠ كانت السلطات البريطانية (٥) تتجاهل إلحاح السيد سميد حاكم مسقط لحمايته من شغب الوهابيين،

(١) F.R.P. vol. 32. مذكرة من بروس بتاريخ ١٠/١٠/١٨١٨.

(٢) Heude, p. 60

(٣) P. 146

(٤) كويلايد

شخبوط بن دياب (١٧٨٣ - ١٨١٦) تأكدت زعامة البوлах على قبيلة بني ياس. وقد وقف في بداية الأمر موقف الحياد من التوسع السعودي، ولكن منذ أن استأنفت القواسم نشاطها في البحر سنة ١٨١٢ أخذت إلى حكم مسقط، واحتدم النزاع بين بني ياس والقواسم خاصة حينما تموت مشيخة أبو ظبي سنة ١٨١٦ لاضطرابات نشأت عن الصراع الأوسري على الحكم، ذلك الصراع الذي سيجعل من تاريخ المشيخة سلسلة من حوادث القتل والاعتقال، فقد أفضى أحد أبناء شخبوط ويدعى محمداً أباه عن الحكم في سنة ١٨١٦ ثم تمكن أخوه طهون من إعادة الأب سنة ١٨١٨ فليجأ محمداً إلى القواسم وازدادت الاشتباكات البحرية نتيجة هذه الأحداث التي سترك آثارها في تاريخ الشيخات حتى وقتنا الحاضر. فقد أصبح أمراً تقليدياً أن تتصالح مشيخة أبو ظبي مع سلطنة مسقط ويتفق هذا الجانب بتأييد بريطانيا بينما تقترب الإمارات القوية عن القواسم من الدول السعودية العاقبة، ويستبعد هذا الصراع حول الحدود في وقتنا الحاضر نتيجة التقريب عن القطر.

لا شك أن تلك النزاعات الداخلية هي التي أضعفت من القوى البرية المتنامية للنفوذ البريطاني وجعلتها تسلم السياسة التي فرضتها بريطانيا عليها بعد حملة سنة ١٨٢٠. وكان وليم بروس القيم العام في الخليج العربي آنذاك يحاول أن يسوي خلافاته مع القوى العربية البحرية عن طريق المفاوضات وأمن في تلك المحاولات عامي ١٨١٥، ١٨١٦ وكان يمثل الدولة السعودية أكثر استعداءاً من الشيخات البحرية المتنامية مع الإنجليز، فقد ذكر أن حكومته تراقب على أن توقف القتال ضد السفن الإنجليزية في البحر، أما الشركون (ويعني بهم الإمارات العربية التي لم تعرف بسيادة الدولة السعودية) فلا يمكن التقصير في الجهاد ضدكم (٦).

وفي سنة ١٨١٨ تواترت الآراء الداعية لاستخدام القوة من مختلف الجهات

(٦) كان المتعاونون بالدولة السعودية الأولى يربطون بين التسمية السياسية لهم وبين اعتناق المذهب الوهابي أو السني.

والشارقة ورأس الخيمة ، ويستمرى الاقتناء ورود مادة في الساهدة المعقودة مع شيخ أبو ظبي إذ تقول « يتتبع الإنجليز عن الدخول لساحل الشيعة أو تحميم أي حصن أو برج بها » وذلك احتراماً للسيد سعيد حاكم مسقط ، ويستنتج من هذا أن شيخ أبو ظبي كان يعترف بسيادة عمان .

وقعت هذه الماهدات فيما بين السادس والحادي عشر من يناير عام ١٨٢٠ وفي الحادي والعشرين من هذا الشهر عرض كير نص الماهدة العامة على الشايخ الحسن تاركاً الباب مفتوحاً ليرحم للدخول فيها إذا قبلوا الاضطرار بالبادي العامة التي تخمونها ، وضاع مطلبها بتنظيم قواعد الملاحة ولا يمدد بعضها أن يكون مبادي أولية في القانون البحري . ونظراً لأهمية تلك الماهدة في تاريخ الإمارات العربية الخليج ، ندرج فيما يلي موادها موقفة مع حذف قليل من التفاصيل .

المادة رقم ١ : تتنوع الأطراف المتعاقدة عن جميع أعمال السلب والتفوس في البحر والبحر بمسلة دامة .

المادة رقم ٢ : كل عمل من أعمال السلب أو التفوس الذي يرتكب بمسلة فردية يعتبر ساراً للإسبانية ما دامت لا توجد أي حرب رسمية بين الحكومات .

المادة رقم ٣ : تلتزم السفن التابعة للعرب الأصدقاء (بحكم هذا النص) برفع علم أحمر يكون رمزاً على جنسيتها ولا يجوز لها استعمال شعار آخر .

المادة رقم ٤ : تسوى القبايل المسألة علاقتها الداخلية فيما بينها .

المادة رقم ٥ : يجب على السفن العربية من الآن فصاعداً أن تكون مزودة بوثيقة موقفة من رئيس السلطة التابعة لها ويسجل فيها اسم اللالك وحجم السفينة وأسماء البحارة ، ويعين فيها البناء التي أبحرت منه وميناء الوصول . وإذا قابلت إحدى هذه السفن سفينة بريطانية وطلبت إليها إظهار سجلاتها وجب عليها تنفيذ هذا الطلب .

على أن النتيجة الأساسية لحلة ١٨١٩ كانت الدخول مع رؤساء القسار الساحلية في ماهدات مختلفة جمات من بريطانيا حكام في شتوت جنوب شرق بلاد شرب .

وقد عمد جرات كير أولاً إلى توقيع ماهدات منفردة مع معظم رؤساء القبائل الذين لهم سلطة مستقرة في المنطقة الواقعة ما بين قطر وحدود سلطنة عمان ، وتناول هذه الماهدات الإجراءات العملية للنسبة لكل مشيخة من هذه المشيخات . ففي الماهدة المعقودة مع صالح بن مقر شيخ القواسم وضع التساير البريطاني الشروط الآتية (١) :

(أ) يتعهد شيخ القواسم بتسليم السفن الحربية الموجودة في رأس الخيمة أو في الشارقة أو في أبو ظبي ، ويحتفظ فقط بمراكب الصيد .

(ب) يتعهد الإنجليز ألا يدخلوا أحياء القبايل بنية تخريبها .

(ج) يرد العرب ما لديهم من أسرى من الرعايا البريطانيين .

(د) بعد تنفيذ هذه الشروط تقبل القواسم في ماهدة المصالح العامة كبقية القبايل العربية المسألة . وهناك الشرطان الأخيران يجعلمان جميع الماهدات الفردية مع رؤساء القبايل الآخرين ، ولكن بينما يتعهد الإنجليز للقواسم بعدم احتلال أحيائهم يشترطون في الماهدة الثانية المعقودة مع حسن بن رعة شيخ الجبلان احتلال الحصون التي كان قد شيدها . ولما لم يكن لهذا الشيخ إعلم يحكمه بمسلة رسمية فقد نصت المادة الثانية على الاستيلاء على جميع سفنه الموجودة في موانئ الشيخات الأخرى .

وقعت ماهدات مشابهة مع مشيخات أبو ظبي ، وأم القيوين والسجستان

(١) أنظر نس لأعمالك لى مجموعة ماهدات الهند والأندلس المأهولة .
Aghison, vol. 7, P. 54, S. P.

ووصفتها بالنقص لأنها لم تحتو على تحديد العقوبات التي يجب فرضها على المخالفين لمبادئ اللامعة الجديدة كحمل الوثائق أو غيرها . وكذلك لم تحدد عدد السفن التي يجوز لكل قبيلة امتلاكها ، والحجم الذي لا يجوز أن تزيد عليه هذه السفن . وانتقدت بومباي تساهل كبير في عدم تهديم القلاع وإدخال مادة محرم بناء الجديد منها . كما أبدت بومباي رغبة في إضافة مواد أخرى تحرم استيراد أخصاب السفن من الهند . وأخيراً اعتبرت الشروط الإنسانية المتعلقة ببيعارة الرقيق وعدم قتل الأسرى غير كافية ولا تضمن وسائل عملية لتنفيذها . وقد دافع كبير عن معاهداته ببراعة فائقة ، واستطاع بعد وصوله إلى بومباي في مارس إقناع الحكومة بتوقيعها حتى لا تظهره على الأقل بمظهر غير المؤثق به في كلته أمام العرب . ومما استخدمه من حجج لتفنيد اعتراضات بومباي نستطيع اختيار النقاط الآتية على سبيل التمثيل فقد ذكر كبير (١) :

أولاً : إن القبض على جميع الرؤساء المستولين كان يتطلب تقيهم في داخل بلاد العرب حيث فر بعضهم ، وقد نصت التعميمات الخاصة بالحلقة على تجنب الاعتماد عن النقطه الساحلية ، بينما كان العدو حافزاً لهم على العودة إلى بلادهم وعلى خلق جو جديد من الثقة .

ثانياً : إن بقاء وحدات بحرية بريطانية بصفة دائمة في الخليج خير ضمان لتنفيذ الشروط وأشد أثراً من النصوص التي تكتب على ورق لتحديد العقوبات القانونية ، فضلاً عن القصور بالشروط الإنسانية في المعاهدة هو مساعدة سكان هذه المنطقة على فهم المبادئ العامة لقوانين اللامعة الدولية ، ولا ينتظر منهم تغيير عاداتهم دفعة واحدة . بل يكون التحسن تدريجياً .

ثالثاً : إن تحديد عدد السفن التي يجوز امتلاكها ، وكذلك أحجامها لا ينبغي

المادة رقم ٦ : إذا رغب رؤساء العرب في إرسال ممثل عنهم بهذه السجلات إلى القيم البريطاني في الخليج لتوقيعها جاز لهم ذلك تسهيلاً لدخول سفنهم إلى الموانئ البريطانية ولعمليات التفتيش ، وبشروط عرض السجلات على القيم سنوياً .

المادة رقم ٧ : إذا لم تكف قبيلة من القبائل عن القرصنة وجب على القبائل الأخرى أن تجتمع للتفاوض في عمل مشترك ضدها ويمكن اشتراك الحكومة البريطانية في التسوية النهائية بعد توقيع العقوبة على القبيلة الذنبية .

المادة رقم ٨ : إن قتل الأسرى بعد تسليم أسلحتهم يعتبر عملاً من أعمال القرصنة ، ولا يمكن اعتباره عملاً من أعمال الحرب الشريرة . فإذا ارتكبت إحدى القبائل هذه الجريمة اعتبر ذلك خرقاً لمعاهدة الصلح ويجب على القبائل الأخرى محاربتها بالاشتراك مع بريطانيا ، ولا يكف القتال إلا بمقتلهم الذنبين .

المادة رقم ٩ : إن خطف الرقيق من الساحل الشرقي لأفريقيا وتقلهم بعد ذلك فوق المراكب التجارية يعتبر عملاً من أعمال القرصنة . ويجب على العرب الكف عن ذلك .

المادة رقم ١٠ : نستطيع السفن العربية التي تحمل العلم الخاص بها الدخول إلى الموانئ البريطانية . وكذلك موانئ حلفاء بريطانيا والتجارة فيها بكل حرية وإذا هوجمت إحدى السفن فإن الحكومة البريطانية تأخذ ذلك بمن الاعتبار .

المادة رقم ١١ : تعتبر جميع الشروط المذكورة معاهدة عامة ، فيجوز لمن شاء من الرؤساء الآخرين دخولها بنفس الطريقة التي انضم بها الموقعون .

لم تقبل حكومة بومباي إجراءات كبير الدبلوماسية بين الرضى لأنها كانت ترغب في إنهاك وسيلة أعنف مع التزمين . ومن أهم الاعتراضات التي وجهت إلى تصرفات القائد جرات كبير هو أنه أفرج عن الرضى من الدين وقبوا في الأسر ترك بعضهم في مناسبتهم كرؤساء قبائل ، كما أنها انتقدت نصوص المعاهدة

ويبدو أن السلطات البريطانية فشلت أسلوباً آخر لمراقبة الملاحة في الخليج،
الآ وهو تخصيص ست سفن حربية للتيسام بدوريات مستمرة . وعلى كل فإن
انسحاب بريطانيا من قسم عام ١٨٢٣ لم يقلل قط من رغبتها في تشديد رقابتها
على الشحنات الخس العريبة .

فقد تعيين مقيم عام جديد هو ماك لود خلفاً لوليم برووس ، كلف بالتعليم
زيارة استطلاعية للمنطقة . وكان عيه أن يحير الرؤساء البحرينيين أثناء تلك الزيارة
بأن انسحاب بريطانيا إنما يرجع إلى قنيتها بأنهم يتوون احترام التصديقات السابقة .
وكان عليه أن يفهمهم أيضاً بأن بريطانيا تلتزم الحياد التام في أمر علاقاتهم فيها بينهم
وكان على المقيم العام أن يدرس الموضوعات الآتية :

الوضع السياسي لكل من هؤلاء الرؤساء كمعرفة ما إذا كانوا يخشون
سيادة دولة من الدول الكبرى المجاورة في فارس أو عمان أو السلطة السعودية في
نجد ، وكذلك البحث عن موارد البلاد الاقتصادية وخاصة بناء السفن وكيفية ،
وأخيراً بحث إمكان إقامة وكالة فاعمة دون أن تشكل نفقات كبيرة . ونشر هذه
الصلوات بنوايا بريطانيا المستقلة لوضع هؤلاء الرؤساء تحت حمايتها دون الاحتكاك
باللؤل الأخرى المجاورة .

قام ماك لود بالطواف بجميع البلدان الواردة ذكرها بالتصليات أثناء شهر
فبراير عام ١٨٢٣ وعندما عاد إلى مقر عمله في بوشهر كتب تقريراً مفصلاً عن
هذه الزيارة ، لعله أصبح موشداً لحكومة بومباي في سياستها نحو الرؤساء
البحرين خلال مدة طويلة ، فهو الذي أوحى بشكرة حظر المنازعات البحرية فيما
بين الرؤساء العرب تحت ضمان بريطانيا ، تلك العسكرية التي تستلحق بمبدأ أنهي
عشر عاماً . وما جاء في التقرير : ليس من المتوقع أن يهدى الرؤساء العرب قواثنا
البحرية من جديد ، ولكنه لا يمكن الآن منهم من مهاجمة السفن التجارية
التامة لجيرانهم . فإذا أردنا محاولة تدبير هذه الدادات فيجب علينا ألا نجلبهم

يشي . لأنه من الأفضل ترك القطار اللازم من السفن التي تحمي به كل قرية نسب
وليس أكبر السفن هو أصلها للفرسة .

رابعاً : من الأقرب إلى النطق أن تقوم الهند تمنع تصدير الأخشاب للعرب ،
لأن نقص المائدة على أن يلزم العرب أنفسهم بالامتناع عن استيرادها . ولو
تمت فيما بعد أن أراء كير كانت أسمى لنجاح السياسة البريطانية وأصبحت هذه
الماعدة للضرورة لمنع الفرسة دعامة للفرد البريطاني في منطقة جنوب الخليج .

٣

اتفاقات الهدنة

ترتب على حملة سنة ١٨٢٠ إقامة حامية بريطانية ثابتة في باندور بجزيرة قشم ،
وذلك بعد أن تمت عدم ملامة رأس الخيمة من الناحية الصحية لإقامة الجند الذين
كانت غالبيتهم من الهنود ، ولكن تحت قيادة ضباط من الإنجليز كذلك فإن
تلك الجزيرة تكسب الحامية قتالية أكبر لمراقبة شؤون الملاحة .

على أن الاحتلال البريطاني لم يستمر دون أن يحدث معارضة من جانب فارس
التي ادعت السيادة على تلك الجزيرة بينما الإنجليز كانوا قد رابطوا فيها بإذن من
حاكم مسقط . وكان من الطبيعي اعتبارها جزءاً من الدولة العربية التي تسيطر على
الشاميين المحيطين بالجزيرة : ميناء بندر عباس في الشرق وأرض عمان في الغرب .
ولم تشأ بريطانيا في هذه الحقبة المبكرة أن تصطلم بنارس قوت انسحاب
وورث ذلك حكومة بومباي أمام الحاكم العام قولها : « إن الانسحاب من
جزيرة قشم وإن سبب ضرراً عمداً وهو تخريب الإشراف على ملاحة الخليج وما
قد يترتب عليه من ظهور الفرسة من جديد فإنه يجنبنا ضرراً أشد وهو الوقوع في
نزاع مسلح مع فارس » .

وبجانبه من أبو ظبي واستنجد الخليلاء، بريطانيا التي استخدمت قوتها لانسحاب
ممثل الشارقة من تلك الواحات . وحينما حلول السيد سعيد غزو البحرين سنة
١٨٢٨ طلب مساعدة حلفائه من بني ياس وأراد الفرس أن يقوموا بعمل مماثل
فطلبوا إلى شيخ الشارقة لمعادهم ببعض السفن ، وفي ذلك الحين لم يكن الشعور
القوي والناصح فأبدى شيخ الشارقة استعداداً لطبية الطلب الفارسي ، وكان
الإنجليز هم الذين استخدموا المنط مرة ثانية لأنهم كانوا في ذلك الوقت
يعارضون في ضم البحرين لدارس .

وفي سنة ١٨٣٣ حدثت اضطرابات داخلية في مشيخة أبو ظبي فأثر ذلك
في حالة اللامعة في ساحل الهدنة بأكله ومع ذلك فإن المشيخة كانت شديدة
الشأن حسب الماصرين فقد سكنها بـ ١٤٠٠ نسمة معظمهم من قبيلة
الناسير ولم يكن اسم المشيخة قد استقر بعد فتعرف أحياناً بالاسم القليل :
بني ياس وأحياناً أخرى بالاسم الجغرافي أبو ظبي .

وقد نشأت تلك الاضطرابات عن اغتيال الحاكم طهون وقنازع أخويه
خليفة وسلطان على السلطة . ووسط تلك الاضطرابات لجأ أصحاب السفن من
قبيلة بني ياس إلى أعمال الفرس على نطاق لم يهود من قبل . وقد حلول
حاكم لينة الذي كان يتمتع بهيبة بين الرؤساء العرب أن يتوسط لإعادة السلام
إلى اللامعة مما يدل على أن العرب كانوا حريصين قبل تدخل الإنجليز لتأمين
ملاحة الخليج . ولذا السبب قرر الشيخ العربي غرامة على مشيخة أبو ظبي
ورفعت قبيلة بولاسه أن تدفع نسبها من تلك الغرامة وانسحبت إلى دبي
وشرعت في تأسيس مشيخة جديدة . وكانت دبي حتى ذلك الحين تعد من توابع
أبو ظبي ، ويسكنها عدد كبير من أسرة اليفلاح .

وقد أدت هذه الأحداث إلى تقاوم الصراع إذ اتفقت بولاسه مع الشارقة
على شن حرب رهيبة ضد أبو ظبي ، وضربت حول الجزيرة حصاراً من

على استخدام سفنهم للنقل البحري لأن بلادهم فقيرة ولا تصدر شيئاً إلى الخارج،
وأن تمنحهم كل ما تستطيعه من حماية لحراكمهم ، وذلك بصحرم النزاع فيما بينهم
فوق البحر ، ولكن دون استعمال وسائل العنف حتى لا تثير غضبهم .

تقرب على توصيات القيم العام إنشاء وكالة بريطانية بالشارقة وهي الثانية في
المنطقة العربية بعد وكالة مسقط ، وكانت هذه الوكالة الأخيرة قد عهد بها منذ
وفاء سبتون عام ١٨١٠ إلى أحد الرعايا البريطانيين من الهند ، ولذا كان طبيعياً
أن يهدد وكالة الشارقة أيضاً إلى شخص من غير الإنجليز وظل الحال هكذا إلى
عهد قريب .

أما لماذا اختيرت الشارقة دون غيرها من الشيخات ، فقد يكون ذلك
وأجماً إلى أنها أكبر الشيخات التي تخلفت عن دولة القواسم الكبيرة ، ولما
أن صداقة بريطانيا مع أبو ظبي لم تكن قد اتصفت بعد .

من الواضح أن معاهدات سنة ١٨٢٠ كانت تنبع اشتباك العرب بالسفن
البريطانية ، ولم تقصد منع الاشياء كالت بين القوى العربية المختلفة . وقد تميزت
الفترة ما بين سنة ١٨٢٠ إلى ١٨٣٣ بالنسبة لساحل الهدنة بالتنافس بين مشيختي
الشارقة التي تعتبر نفسها وريثة لمولة القواسم وتتطلع من حين إلى آخر إلى
إعادة تكوينها تحت زعامتها ؛ وبين مشيخة أبو ظبي التي تزعم قبيلة بني ياس
وتتوق لها الناسير أيضاً بالنسبة (١) . وكان يؤجج ذلك الصراع انتهاء القواسم
إلى المانوية ، وبني ياس إلى المانوية ، أي ذلك التكتلين المتخاصمين في عمان .
وقد ظهرت آثار ذلك الصراع في عدة مناسبات ، فمثلاً حلول حاكم الشارقة
بسقط نفوذه إلى وإحالت البوريني سنة ١٨٢٦ فاستسلم بالسيد سعيد حاكم مسقط

(١) زار وايت لوك أحد موظفي شركة الهند الشرقية لساحل الهدنة في سنة ١٨٢٦ ولحق
من تلك الرحلة دراسة مفصلة أنظر .

كانت بحاجة إلى استرداد هيبها في الخليج سنة ١٨٤٢ فقد قررت في ذلك العام الانسحاب من جزيرة خراج بعد أن احتلتها أربع سنوات متوالية ، كما أنها أرادت أن تنجو أثر ظهور المصريين وانحداد نفوذهم إلى ساحل الهدنة سنة ١٨٤٠ وقد تبين عند إرسال سعد بن مطلق مندوباً عن الإدارة المصرية في نجد إلى منطقة الشيوخ أن غالبية العظمى مالت إلى نداء هذا المبعوث العربي بما في ذلك مشيخة أبو ظبي التي كانت تعتبر دائماً معادية للحكم السعودي وبالتالي للحكم المصري الذي حل محله في نجد .

وقد ظهر رد فعل بريطاني سريع على أثر ظهور المصريين في منطقة الخليج . واستحدثت عن هذا الموضوع بالتفصيل فيما بعد . ويكفي أن نشير هنا إلى أن بريطانيا رأت أن نظام الهدنة الدائمة سيورد هيبها في المنطقة ، ولذا لم تستمع إلى اعتراضات أهل على هذا النظام . وكانت هذه الاعتراضات تنبئ على فكرتين ، الأولى : أنه لا يوجد قوة بريطانية كافية لوضع الهدنة موضع التنفيذ ، ولذلك فمن الأفضل الاحتفاظ بنظام الهدنة المؤقت لأن عدم تنفيذ الهدنة الدائمة يهدد ب سقوط النظام بأكمله . الثانية : أنه من الصعب التمييز بين الحرب الرسمية وبين القرمصة . ونظراً لهذا الخلاف في الرأي استقر الأمر على حل وسط وهو جعل الهدنة البحرية لمدة عشر سنوات .

وقد جاء في مقدمة الاتفاق أن الرؤساء البحرينيين العرب يقصدون فوائد السلم ويتعهدون عن أنفسهم وعن حلفائهم بأنه إذا وقع اعتداء على سفنهم فلا يلجأون إلى الانتقام إلا بعد أن يجيزوا القيمين العام البريطانيين^(١) أو قائد حامية إيسادور في جزيرة قشم .

(١) انظر نصوص هذه الاتفاقيات في مجموعة المباحثات التي أعدها aitchison وقد رجعا إلى الجزء الخامس بالخليج حسب الطبعة الأولى ، أما الطبعة الأخيرة بتاريخ ١٩٢٣ فقد خُصص الجزء الخامس عشر منها لدراسة الخليج .

سبتمبر سنة ١٨٣٣ حتى أبريل سنة ١٨٣٤ وخلافاً للسياسة السعودية السابقة أبدت حكومة الرياض أبو ظبي في تلك المناسبة ، بينما تخلت مسقط عنها كرد على تخاذل بني ياس أثناء محاولة غزو البحرين سنة ١٨٢٨ . ويبدو أن حكم أبو ظبي في فترة الانسحابات هذه اضطرأ إلى دفع الجزية لحكومة الرياض^(٢) .

والذي يمتنا من ذلك كله هو أن اضطراب الملاحة مدة سنتين ، كما أنه أبعد الأثر في حياة القواسم وبني ياس أكبر قبيلتين بحريتين في ساحل الهدنة ، فقد توقفت أعمال النوص على الأتو ، ولما كان السكان يشتركون جميعهم من الخارج بتاج النوص فقد ساءت أحوالهم المادية إلى حد كبير ، وهذا هو العامل الرئيسي الذي سبب لتفقد أول هدنة بحرية في ٢١ مايو سنة ١٨٣٥ .

ففي ذلك التاريخ اجتمع الرؤساء البحرينيون عند حفل القيم العام البريطاني وتعهدوا بعدم اللجوء إلى الاشتباكات البحرية فيما بينهم أثناء موسم النوص بين شهري نوفمبر ومايو ، وقد طبق نظام الهدنة للمرة الأولى في نهاية عام ١٨٣٥ وأوائل عام ١٨٣٦ وجدد في العام التالي ، وفي سنة ١٨٣٧ أخذ حاكم الشارقة زمام المبادرة باقتراح جعل الهدنة سنة كاملة دون الانقصار على موسم النوص . وقد ظلت هذه التعهدات تجدد سنوياً بالاتفاق مع القيم العام حتى سنة ١٨٤٢ وفي ذلك العام أرسلت حكومة بومباي اقتراحاً بجعل نظام الهدنة دائماً .

ما هي الدوافع التي جعلت بومباي مستعدة لتصل مستويات عسكرية هائلة في الخليج ؟ الواقع أن نظام الهدنة البحرية كان أداة من أدوات النفوذ البريطاني فالتعهد باحترام أمن الملاحة يقدم للقيم العام ، ويقبل الرؤساء العرب بتخفيض هذا النظام الأحكام التي تصدرها بريطانيا في حالة تقصص الهدنة . والتاثير أن بريطانيا

(١) انظر هذه التفاصيل في كتاب خُصص لتاريخ أبو ظبي .
Mans p.35, S.p

وما يستلزمه الاتفاقيات السابقة كان يوقها القيم العام البريطاني والمليح ، أما هذه الاتفاقيات فنظراً لأهميتها وقها الحاكم العام البريطاني في الهند . وبعد هذا الاتفاق سارى القبول حتى الوقت الحاضر من الناحية النظرية رغم تغير الظروف التي عقد فيها توتراً تاماً .

وكان من الممكن أن تحول الشبكات نشاطها البحري إلى التجارة لولا أن الاتفاقيات عقدت في نفس الوقت الذي أخذت فيه اللامعة البخارية الأوروبية تنتشر ببطء المحيط الهندي ، فلم يكن يوسع الرأكب التجارية منافستها . وبما أن حياة الشبكات ترتبط بالبحر فقد تدهورت أحوالها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وصارت بحاجة مستمرة إلى المساعدات الخارجية واستغلت بريطانيا تلك الفرصة لكي تخضعها لنفوذها .

وكانت المدة البحرية إلى عشر سنوات في أعقاب ظهور ظهور العرب بالمليح ، فكذلك تم وضع نظام المدة البحرية الداعة سنة ١٨٥٣ نتيجة لنشاط السويديين الهادي آنذاك للفوز البريطاني . وبعد اتفاق سنة ١٨٥٣ ، عهد في تاريخ الساحل الجنوبي للخليج العربي ، فإن هذا الاتفاق لم يمنع من الأنشطة كالت البحرية ، بل ساعد على بقاء الوضع الراهن بالرغم من أن بعض الشبكات يتبع من العنصر حتماً يصعب معه الاستمرار في البقاء كوحدة سياسية قائمة بذاتها . ومن جهة أخرى سكن هذا الاتفاق بريطانيا من أن تصبح مستعبداً تقرض الترامات على الشبكات التي تهاجم سفنها سفن أية دولة لم مدينة أخرى . تقرض أيضاً هذه الترامات إذا لم يرق لها تصرف إحدى الشبكات في الأمور السياسية البحتة . وقد أدى الاتفاق إلى انهيار الأنشطة كالت البحرية تقريباً وأصبح ساحل المدة يسمى بحق ساحل الداء أو الساحل التصالح حسب التسمية الإنجليزية .

أما المازعات الداخلية في البر لم تقطع وإن كانت قلت . ومع أن العام سنة ١٨٥٣ لا يعطى لبريطانيا حق التدخل إلا في الأنشطة كالت البحرية ، فإنها كانت تتجاوز اختصاصاتها في كثير من الأحيان وتقوض وسائلها في مشكلات تتعلق بالمناطق الداخلية كما حدثت مثلاً ١٨٦٦ بتأسيس ولايات الوردني .

وحسب اتفاق سنة ١٨٥٣ كان على الرؤساء البحريين أن يجتمعوا به لشهاء أجله للاتفاق على نظام المدة الدائم ، ويشبه هذا الاتفاق في مبادئه من عدة وجوه الاتفاق السابق ، فهو يندد في المقدمة بالساري التي ترتب على القرصة خصوصاً في مواسم صيد التزلو وما جاء فيه « ... أن يقطع الحرب والجمال فيما بين رعائنا والتطابق علينا وليستقيم بين الجميع منا ومن يعقنا صلح تام في البحر على التولام » .

ورث سعيد بنذر عباس وعدة جزر كانت تابعة لمسقط من قبل ولكن بما أن الرجل كان أكثر اهتماماً بتسمية تروته فقد تطلع إلى جزر البحرين الغنية وكان يذكّر دائماً أنه تاجر قبل أن يكون سلطاناً .

وقد سبق لأسلافه أن قاموا بمحاولات مشابهة على جزر البحرين واستولوا عليها لفترات قصيرة . أما أول محاولة في عهد السيد سعيد فقد وقعت في سنة ١٨١٦ وفي سنة ١٨٣٦ أرسل أسطولاً لهاجة البصرة لأن الدولة العثمانية امتنعت عن دفع المخصص السنوي الذي اعتادت أن تقدمه لحكام مسقط منذ عهد أحمد ابن سعيد مؤسس الأسرة .

وبهذه المناسبة تجددت أطماعه في البحرين فقام بمحاولة أخيرة للاستيلاء عليها في سنة ١٨٠٨ إلا أنه لم يـسـكـن أسعد حظاً منه في الزلات الأخرى . وقد عارض حلفاؤه الإنجليز تلك المحاولات لأنها لا تتفق وسياسة احترام الوضع الراهن التي اتبناها في الخليج وأنبوه على تلك الحملة الأخيرة . وذكر حاكمهم بومباي أن تلك الحملات العسكرية قد تؤدي إلى الإخلال بأمن الملاحة حتى ولو كانت على شكل حرب رهيبة .

ويقال إن فشل سعيد في الخليج واستيلاءه من كثرة الاضطرابات في عمان هو الذي صرف اهتمامه إلى شرق إفريقيا حيث شرع يحول جزيرة زنجبار إلى عاصمة ثانية ابتداء من سنة ١٨٣٣ (١) .

والحق إن سعيداً واجه صعوبات هائلة في عمان منذ توليه الحكم عام ١٨٠٦ فقد تصادف ذلك مع توغل السعوديين إلى إقليم الظاهرة واستيلائهم على البويري وسيطرة حلفائهم القواسم على ملاحة الخليج ، بل إن بعض أفراد أسرة البوسعيد مثل بدر بن سيف انضم إليهم وانتزع السلطة خلال مدة قصيرة بعد وفاة سلطان

(١) انظر كتابنا عن زنجبار ، الفصل الرابع .

الفصل السادس

عهد السيد سعيد ونتائجه

١ - مشكلات السلطة

إن سعيد بن سلطان بن أحمد هو بلا شك أبرز الشخصيات في أسرة البوسعيد بل يجوز لنا بدون مبالغة أن نقول إنه من الشخصيات الهامة في تاريخ العرب الحديث ، وإن لم يحظ باهتمام كافٍ من المؤرخين العرب ، وربما كان ذلك راجعاً إلى تطرف بلاده والناطق التي زاول فيها نشاطه ، أو لأن الكتاب المعاصرين الآن قد يفتخرون من تقديره باعتباره أنه استسلم للسياسة البريطانية وكان في بعض الأحيان أداة لتقوية قوتها ، وهذا لا يمنع من أن السيد سعيد قام بتجربة فريدة من نوعها وهي إنشاء دولة عربية إفريقية في شرق إفريقيا .

وعلى العكس من ذلك كثرت المؤلات عن السيد سعيد وأعماله بالإنجليزية والفرنسية ، وسام في ذلك الرحلة المعاصرون له وبعض المؤرخين المحدثين (١) وقد انصب اهتمام هؤلاء على منجزات الحاكم العربي في شرق إفريقيا ، وذلك لأن الأوربيين استعادوا من تهديد العرب لتلك المنطقة وفتحها للتجارة العالمية . أما الجانب الذي يعيننا الآن من حياة السيد سعيد فهو حكمه في مسقط وعمان والمحاولات التي قام بها في النصف الأول من حياته للتوسع في منطقة الخليج العربي . وقد

(١) من أهم كتب الرحالة عن السيد سعيد المؤلف الضخم الذي وضعه القائد البحري جيان Guilaio عن شرق إفريقيا ، كما يوجد بحثان تفصيليان عن السيد سعيد بالإنجليزية ، أحدهما لسكولاند Coupland والثاني لروبيو Rueten وموافقاً أحد الضباط الألمان وعفد السيد سعيد عن طريق آله .

انتقامية ولما عمدت إلى أعمال التخريب والتعطل دون تمييز (١) وأردت هذه الحلة قتال البوعل بنمسا شديداً للإيجاز عذروا عنه أحيانا بالتقارب مع الفرنسيين . وفي نهاية القرن التاسع عشر سلباً كثير من أبناء القبيلة إلى طلب الرغوة الفرنسية حتى يتمكنوا من دفع العلم الفرنسي على مفهم فيلقنا من تفتيش الأسطول البريطاني . وسعود إلى التحدث عن هذا الموضوع فيما بعد .

أكد هذا الحادث الصلات الوثيقة التي تربط سعيد بالإيجاز حتى إن قائد الحلة قدم إليه سيقاً موصفاً كرمز على الزمالة في القتال . ولا شك أن ثمة صلة بين هذه المساعدة البريطانية القيمة وبين الاتحاد الذي وقعه السيد سعيد في العام التالي (١٨٤٢) مع بريطانيا والذي يقضي بحظر جزئ لتجارة الرقيق . وسنرى كيف أن ذلك الاتحاد وما تلاه من اتفاقات أخرى خاصة بهذا الموضوع كان يمتد على كثير من التفاصيل من جانب عرب عمان .

وبينا اجتذب الإيجاز اجتذاباً إلى التدخل في مسألة البوعل فما كيد هبهم نلاحظ أنهم تحولوا عن صدقهم في مسألة الوردى ، لأن هذه الواحات تقع برباً عن البحر بخلاف ميناء صور ، وهناك تنتشر قبائل النعم التي اعتنقت الدعوة الوهابية ، ولذا لم تنظر نوليد الدولة السعودية الثانية نفسها في نجد وبادرت إلى إعلان استقلالها عن حاكم مسقط في عام ١٨٤٢ وطبع سعيد مرة ثانية في أن يستعين بمخلفاته الإيجاز في تلك القضية فوجه إلى حاكم ريمى طلباً بهذا المعنى في أكتوبر عام ١٨٤٣ وقد أجاب الفرس استور بخطاب هام في يناير من العام التالي يعتبر في الحقيقة أساساً للسياسة التي مقصير عليها بريطانيا مدة من الزمن إزاء موضوع إمامة عمان والإيجازيين . وقد ذكر الفرس استور "أن واحة البوردي تقع برباً عن الساحل في المنطقة الواقعة خلف سلسلة الجبل الأخضر ، وأن جزاً كبيراً من هذه المنطقة لا يخضع فلاحكم أئمة مسقط ، فنشدتولى سلطان برأحمد الحكم في المنطقة الساحلية استقل عمه سعيد بن أحمد بالمنطقة

(١) انظر تقرير الجور طرسون من هذه الحلة .

بن أحمد والد سعيد . ولولا أن الأسرة الحاكمة انقسمت على نفسها لما تمكن هذا الأخير من التغلب في النهاية ، وظل سعيد بعد نجاحه في الاستيلاء على مسقط يشعر بحوج موكزه ، ولذا رأياه يقطع إلى العودة الأوربية . وقد وجد في الإيجاز حلفاء أقوياء في البحر ولكمهم كانوا في ذلك الوقت غير مستعدين للتورط في داخل شبه الجزيرة ، ولذا صار على السيد سعيد عبء مواجهة الوهابيين وحده . وما يسترعى الانتباه أن وطأة الوهابيين لم تخف عن عمان أثناء الحملة المصرية في بلاد العرب . وحتى بعد سقوط الدولة السعودية الأولى استعورت القبائل الهابية تخطين الحرج الوهابية متتاراً لتبرير قورمها على حكم مسقط . مثال ذلك ثورة قبائل البوعل القوية في الجنوب والتي تسيطر على ميناء صور الهام . ومنذ البداية طلب السيد سعيد إلى قائد الحامية الإنجليزية في قشم مساعدته في قمع هذا التمرد ، فرفض هذا الطلب تحشياً مع السياسة الإنجليزية العامة ، ولكن شامت الظروف أن تقع إحدى السفن الإنجليزية الصغيرة في يد البوعل مما أدى إلى إرسال مندوب بريطاني للاحتجاج ، وقد قتل هذا المندوب أثناء الرحلة ، وعلى أثر ذلك أرسل الجور طرسون قائد الحامية قوة صغيرة إلى عمان فوصلت إلى ميناء صور في ٢٤ نوفمبر وطلعي بها السيد سعيد على رأس قوة كبيرة من جنده الداعمين الذين كانوا يحصون من بين العنصر الهلو شتاني أو البيلش . وانجحت القوة إلى أحياء قبيلة بفي بوعل في إقليم جعلان . وعلى نحو تخمين ميلان من مدينة صور فوجئت الحملة الإنجليزية الهابية بتقاتل القبيلة فلم تستطع الصمود وقرت بعد أن قتل نحو ثلثي الحملة البالغ عددهم ٧٠٠ جندي ، منهم سبعة شباباً إيجازياً ولما الجنود قد كانوا رما من الهند . اعتبرت حكومة الهند البريطانية هذا الحادث شامراً بسمعتها في الشرق ولذلك قررت إرسال عدة تاديبية كبيرة للانتقام من قبائل البوعل ، وبعد قبيلتها إلى الجنرال لينيل سميت وتكون في غالبيتها من جنود أوربيين . وانجحت الحملة مباشرة إلى أحياء القبيلة دون أن تترك معها قوات محلية ، واعتبرت الحملة أنها

محار حتى يوحدها الوضع الجديد في بلاد العرب . وتم الاتفاق في عام ١٨٣٩ على تعيين القبائل التابعة لكل فريق وتنظيم مروجها في منطقة الشرق الآخر ، وتداول الطرفين لنع عصيان القبائل بالنسبة لأى من الحكومتين (١) . وقد ضمت بريطانيا هذا الاتفاق طامحاً أنه يهدف إلى مقاومة التوسع العربى . وهذا يعنى أيضاً أن بريطانيا اعترفت بحكومة محار ضمتاً ، وقد تأكد هذا الاعتراف حيناً وقت في عام ١٨٤٩ اتفاقاً معها بشأن إنشاء تجارة الرقيق .

في هذه الأثناء كان سيف بن حمود قد اعتصب الحكم من أبيه في محصار ورأى تونى بن سعيد ونائبه في حكم القسم العربى من السلطنة أن الفرصة قد سنحت للتخلص من حركة العصيان هذه ، ونجح عن طريق المصادقة في أسر سيف بن حمود أثناء غارة شنها على البناء عام ١٨٥٠ وما يستترعى الانتباه أن بريطانيا اعتبرت هذا تفعلاً لبدأ الوضع الراهن الذى تتمسك به في منطقة الخليج . ورغم الصداقة التى تربطها بالسيد سعيد ورغم أن حركة محار كانت تستند إلى العارضة الإيجابية المادية للفوز الأجنبي ، فقد تساءلت حكومة بومباي عما إذا كان من المناسب التدخل لإعادة سيف بن حمود (٢) ، فنصح القيم العام في الخليج بالتدخل عن تلك الفكرة . وهكذا انتهى اتصال محار .

افترزت ثورة محار بتجدد الضغوط السودى على شمال غرب عمان حتى إن سيداً إثر عودته من زنجبار عام ١٨٣٢ اضطر إلى عقد اتفاق مبدئى مع حكومة الرياض يقضى بدفع جزية سنوية . ولا علت بريطانيا بهذا الاتفاق نصيحته بعدم قبوله مما جعل حاكم مسقط يشتر بمرج موكزه ، فإن بريطانيا لا تريد التورط في داخل شبه الجزيرة لمساعدته ، وهي في نفس الوقت تحته على مقاومة النفوذ السودى وانفشاره في عمان ، حتى قبل أن هذا الوقت كان من الأسباب التى جعلت سيداً

(١) Atchinson Vol. 7. P. 110.
(٢) رسالة من حكومة بومباي إلى ماليل بتاريخ ١٨٥٠/٩/١٣

الساخنة على رأس حزب دينى متمسك بمبادئ الأباشية . وهذا الحزب ينتقد بشدة سياسة القرب من الأجانب التى استتبها السيد سعيد . وقد أخذ الإمام من مدينة الرستاق شبه عاصمة في داخل البلاد . وعلى ذلك فإن السلطات البريطانية لا تجد أى عبور لتدخلها في مثل هذه الشؤون الخاصة بأمر السيادة على مناطق غير واحة الحدود (١) »

ولم تكن مشكلات السيد سعيد في عمان مقصورة على ثورات القبائل ووطأة الوهابيين من جهة وأحداث البوريمى وإقليم القاهرة ، فقد تعرض حكمه لعصيان الحكام من أقاربه . وأشهر حوادث العصيان هى تلك التى ترميها حمود بن عزاللى الثلاثيات ، وكان يحكم ميناء محار البناء الثانى في السلطنة بسند مسقط ، وهو يقع على مائة ميل شمال العاصمة . وكان الانجليز قد قدموا تعديلاً بمساعدة السيد سعيد على الاحتفاظ بعنسلاته الساحلية ، لذلك حيناً استنقل خطر هذا الترد وأوشكت مسقط أن تقع في يد حمود بن عزال ؛ وأرسلت حكومة الهند طرادين أنشأوا البحر في نفوس الثمردين .

وكان يشجع على كثرة حركات العصيان تنصيب السيد سعيد في زنجبار . وقد أصبح يحكم أقاليمه بالنيابة أمل إلى الإقامة في هذه العاصمة الجديدة إلا أنه كان يعطّل دائماً إلى العودة إلى مسقط لمواجهة هذه الثورات .

وإذا كان الانجليز قد تمكنوا لمنع وقوع مسقط بيد حمود بن عزال فإنهم يذهبوا إلى الحد الذى رجاه منهم حليهم وهو القضاء على الحكومة الاتصالية فى محار ، حتى أن سيداً فكر وقتاً ما في الاستيلاء بالوهابيين لكنه وجد أن في تلك الخطة خطراً على كيانه . وحيناً ظهرت قوة الصربين في بلاد العرب واعتدت إلى الركن الجبوى الشرقى ولقيت تأييد بعض الشيعيات في ساحل الهند شمر كل من حاكم محار والسيد سعيد بمرج موكزه ، وقبل الأخرى الاعتراف الضعيف بحكومة

(١) B. P. C. رسالة من اللن ستون إلى السيد سعيد بتاريخ ١٨٢٤/٧/٧

وأوسع في معظم الوقت في زنجبار ، ونصادف ذلك مع استرداد فيصل بن تركي للسلطة في نجد واستئناف الضغط السعودي على عمان ، ولم يحول ذلك سبباً عن استثماره في حصار بناة على ساحل بونيقيا الشرق مما يدل على أن ممتلكاته الأثرية أصبحت تحتل الدرجة الأولى في نظره ، ولذلك فضل أن يدفع المال للسودين ليرد عن عمان دون أن يتورط في حرب ببلاد العرب .

وعلى هذا النحو يمكن تفسير إجمال سعيد لجوء هام من ممتلكاته الآسيوية وأعلى به ميناء بندر عباس على الساحل الشرقي للخليج ، فقد كان هذا الميناء يقع عليه ١٦ ألف جنية استراتيجي من حصيلة النصر التي الحركة ومند عام ١٨٤٦ شرع الروس في محاولة التزانه من يد السلطات المالية ولكنهم عجزوا نظراً لانقضاء القوة البحرية ، وفي عام ١٨٥٥ شهدوا الحصار وأوشك الميناء أن يقع في يدهم مما اضطر سعيد إلى قبول شروط تعد في الحقيقة مقدمة للحصار وأوشك الميناء أن كان هذا الميناء يعتبر جزءاً من أراضي السلطنة العربية ، قبل سعيد أن تكون إدارته له على سبيل الإيجار ولعدة عقود بشترين عاماً . وعلاوة على ذلك يجوز لدارس التطور في ذلك الشرط في حالة حدوث فلافل داخلية يهان ، ونفسي الانشقاق كذلك بحروب عزل الحاكم العثماني بناء على طلب حاكم شرار ، وبلغ علم فارس ، مما يتضمن معنى سياستها على الزيادة ، ودفع ١٢٥٠٠ ومان سندياً في نظير إيجار الجراد (٢١) وهكذا شهد سعيد في نهاية حياته تقلص ممتلكاته الآسيوية ، وذلك نتيجة غير متوقعة وهي أن ينضم حكم هذه الشخصية البارزة بفتك الدولة العربية الكبيرة التي أنشأها المرءة بالسعيد في القرن الثامن عشر . وربما يمكن تفسير هذه الحقيقة في استسلام سعيد لأهداف السياسة الاستعمارية البريطانية ، فوهم وروابط التحالف والصداقة التي كانت تربطه بريطانيا ودفع أن العلاقات بين هذه الأخيرة وبين فارس كانت متوترة في سنة ١٨٥٥ بسبب حصار جديد ضربه فارس على مرات إحدى المدن الواقعة في طريق الهند من جهة أفغانستان ، فإن بريطانيا

(١) انظر الامان 3 Appendix vol. 7

يقع معاهدة التجارة مع الولايات المتحدة في عام ١٨٣٣ وقد فكرت حكومة يومينا في تغيير سياستها بعد عقد تلك المعاهدة مع الولايات المتحدة ، غير أن حكومة الهند العامة استقرت على رفض هذا التغيير ، وما جاء في الخطاب الذي وجهته إلى يومينا بهذا الشأن ه ليست الحكومة البريطانية مستعدة للوفاء على استحال قواتها للحفاظ على سلامة ممتلكات إلام سقطت في داخل القارة . إن قوة الواليين في ازدياد دائم وليس لنا أي مصلحة في الاشتراك معهم في حرب ، وقد أوصى واردين الخير بشترين بلاد العرب في مذكرة بتاريخ فبراير عام ١٨٣٦ بأفضلية اتباع هذه السياسة . وعلى فرض أن سقطت في أيدي الواليين فإن هذا لا يزجنا مادامنا نحافظ على نفوذنا البحري في الخليج ، ولما كانت سلامة التجارة هي التي تهتنا فقط في هذه الحالة فإننا لن نتدخل ضد الواليين إلا إذا شجعوا التورصة (١) .

تتبع السياسة البريطانية تديراً جذرياً بمناسبة التوسع المصري في بلاد العرب كما سنرى . ويمكن أن نشير هنا إلى أن مثل القيم العام أخذ يتصل مباشرة برؤساء قبائل النعيم والطواغر واجتمع معهم في العجمان عام ١٨٤٠ وودعهم بالذراع عنهم وزودهم بالأسلحة وأرفق في الدولة صبوراً عنه ديمي حوتن الذي سنبص شخصية هامة في مسقط وزنجبار ، وهو أول أدوي يزدو البورجي (٢) .

ويستنتج من ذلك أن بريطانيا حين بدأت تتدخل في هذه المنطقة لم تصدر في سياستها عن مبدأ تأكيد ساطة حكم مسقط ، بل أتاحت بالقبائل مباشرة لمرأحة التوسع المصري ثم الدولة السعودية التي حلت محلهم بعد انسحابهم من بلاد العرب .

ومندسة ١٨٤٤ عهد السيد سعيد بإدارة مسقط وتوابعها إلى ابنه الأكبر توفيق

(١) R. P. G. ١٨٤١/٢/٧ خطاب من طاك العام إلى حكومة يمان بتاريخ

(٢) S ١٢٢ انظر تقرير عن عتات حكومة يمان R. B. بتاريخ مارس سنة ١٨٤٠

لها أسطول الضخم وقال إنه في غير حاجة إليه وأن السفن تعرض للسط من جراء وقوعها في الرأى وفقاً لويلادون استخضامه، وعزا اهتمام سعيد بهذا الأمر إلى إغراء الإنجليز الذين يريدون تشييل مصانع بناء السفن في بومباي (١).

ولم يخف ولستد الرحالة الإنجليزي نوابا مواطنيه نحو القوة البحرية العربية فذكر « أن خير سياسة تقيها بريطانيا في سلاطها مع سعيد هي أن يجعله صف أمراء الهند فتستخدم أسطولهم في مناوراتها بالحيط الهندى كما تستخدم جيوش الأمراء البرية في الهند » وبدأ توفر كثيراً من الذخائر. ويمكن لبريطانيا أن ترصد هذا الأسطول بلا حرجين أوديين فإذا سقطت حكومة عمان في يد شخص آخر غير السيد سعيد فيمكنها الاحتفاظ بهذا الأسطول في الوقت الذى قد تراجع فيه عدواً خطيراً في المنطقة (٢).

وخلاصة القول إن حكم سعيد انتهى بالفعل من الناحية السياسية بالنسبة لعمان على الأقل، وإن كان كثير من الممارين قد استفادوا من الناحية الاقتصادية بفتح أوجه مدينة للشايط في شرق إفريقيا. وقد ازدادت السفن العربية التى تردد على هذا الساحل ازدياداً هائلاً وكان بعضها ملكاً خاصاً للأفراد وكثير منها أيضاً يمتلكه حاكم البلاد، ولكن بينا ازداد نشاط العرب في اللوحة التجارية لم يحسن السيد سعيد استخدام أسطولهم الحربى. ويستنتج ذلك من قلة وجود الجنود المدربين على استخدام الدافع، ففى إحدى الوثائق المصرية أن سعيد بعث رسالة إلى محمد على والى مصر فى عام ١٢٥٥ هـ (١٨٤٠ م) يطلب فيها بالمالح سرعة إرسال أحد المدمتين لأن « المدعى الوحيد الذى كان عنده قد مات ».

(١) Wellsted vol. I, Page, 403.

(٢) وثائق عابدين — مخطوطة رقم ٧٦٩ وثيقة رقم ٢٨ أساية، ٢٧ عزام — ١١ قو الدعة ١٢٥٥ هـ.

التزمت الحماة في هذا النزاع، ويرجع ذلك إلى أنها اعتبرت السوق الخارجية أكثر تقدماً لها من عمان من حيث استيراد البضائع الإنجليزية.

أصبح مركز العرب يندرج في مهاب الزلح، وبعد وفاة السيد سعيد استطاعت فارس أن ترفع من قيمة الإيجار وأعلنت أنها غير مقيدة بالاتفاق في حالة تغير الأسرة الحاكمة، ولذا سار أمامها مبرد قوى لا احتلال للبناء عند ما استول عزان بن قيس على السلطة في عمان عام ١٨٦٨ ولم يبق بعد ذلك إلا من محتلات على الساحل المواجه سوى ميناء جوادور الذى استعطف به إلى ما بعد قيام دولة باكستان التى يقع هذا البناء وسط أراضيها.

إن دولة تركت ترك كلها تقريباً على مناطق ساحلية وعلى جزر السلطنة العربية الأفريقية التى أقامها سعيد لا بد وأن تستند إلى قوة بحرية كبيرة. وإذا لم يكن سعيد وأهل عمان قد أبرزوا كفاءة في المراك البحرية فلا شك أنهم كانوا من أفضل البحارة العرب في تلك الحقبة من القرن التاسع عشر. وللاستفاه انتهت جهود سعيد لبناء قوة بحرية هائلة إلى نفس النتيجة التى انتهت إليها جهودهم في التوسع بمنطقة الخليج، وأدى بذلك التضحية بمصالحه لخدمة المصالح البريطانية حتى أن أمر هذا الأسطول في النهاية إلى بريطانيا. وقد ذكر دور ترس البوثن الأمريكى الذى عقد المساعدة التجارية مع السيد سعيد أن أسطول عمان هو أكبر أسطول تمتلكه دولة وطنية من اليابان حتى رأس الرجاء الصالح. وقد يكون في ذلك شيء من المبالغة ولكن كثيراً من الممارين وصف عظمة هذا الأسطول وقد عرفت أسماء البرفامات الثلاث الكبيرة وهي شاه علم — وكارولينا — وفيكتوريا. هذا عدا السفينة الحربية الكبيرة لبيرويل التى أهداها إلى ملك إنجلترا عام ١٨٣٥ وكل هذه القوارض كانت تحمل ما يتراوح بين ٤٠، ٧٥ مدفعاً — وعلاوة على هذا نضم أسطول سعيد الحربى نحو ٢٥ سفينة من الأبحام المصرية. وكانت هذه السفن الصغيرة تستخدم في الأعمال التجارية لأن سعيداً ليس من هواة التمارات الحربية. وقد انتقد جيلان أحد البحارة الفرنسيين الذين اتصلوا بسعيد أملاكهم

وكان السيد سعيد هو الذي أخذ زمام المبادرة لإيجاد نوع من الصلات الرسمية بينه وبين بريطانيا على أثر عقد المعاهدة مع الولايات المتحدة ، إذ لم تكن تربطه بالأولى حتى ذلك الوقت سوى معاهدة إلغاء تجارة الرقيق الموقعة سنة ١٨٢٢ ولما كانت المعاهدة الأمريكية قد أثارَت بعض الشكوك في الهند ، أراد سعيد أن يثبت حسن نيته لحليفه القوى الذي تحرك نحوه دوافع الحاجة أكثر من الرغبة .

ففي سنة ١٨٣٥ وصل أحد مندوبيه على بن ناصر إلى لندن ليقابل اللك ولكن لم يكن يحمل الأوراق الدبلوماسية المتعارف عليها في أوروبا ، فلم يسمح له بالمقابلة وأحيل إلى وزير الخارجية . وعند تولي المسكة فيكتوريا عرش إنجلترا انتفض سعيد الفرصة فبادر السكرتير بالرسالة بالتهنئة . واختار أحد التجار الإنجليز وهو روبرت كوجان ليقبض عنه في هذه المناسبة وطلب إلى الحكومة البريطانية أن تقبله ممثلاً دائماً للإمام في لندن . ومع أن بريطانيا رفضت أن يمثل الإمام أحد الموظفين الإنجليز ، إلا أنها استجبت في هذه المرة إلى فكرة إنشاء علاقات رسمية مع سلطنة مسقط ، لاسيما وأن كوجان أبرز أهمية هذه السلطنة لبريطانيا من الناحيتين الإستراتيجية والسياسية نظراً للغرف التي طرأت على الشرق الأوسط في ذلك الوقت .

وقد شهدت سنة ١٨٣٨ حوادث هامة حول منطقة الخليج العربي ، منها معارضة محمد علي بسط نفوذه في بلاد العرب . ومنها تجدد النزاع البريطاني الروسي على النفوذ في إيران . ثم تردد السفن الفرنسية بكثرة على منطقة البحر الأحمر بعد إنشاء الخط الملاحي المنتظم للسفن التجارية من مرسيليا إلى الإسكندرية وإكالة لمخط من يومباي إلى السويس سنة ١٨٣٧ . ونتيجة لهذا أخذ الإنجليز يبحثون عن محطة بحرية بين الهند والبحر الأحمر فاحتلوا سقطرة سنة ١٨٣٤ . ثم اضطروا للجلاء عنها في العام التالي لأسباب مناخية إلى أن استقروا في عدن سنة ١٨٣٩ . ويلخص التقرير الذي وضعه كوجان النواحي التي يمكن أن تستفيد بها بريطانيا من السلطنة في الأمور الآتية :

٢ - العلاقات الخارجية

فتح السيد سعيد ممتلكاته العربية والأفريقية للاميازات الأجنبية وذلك بمنتهى الماهات التي عقدها مع ثلاث دول كبرى ، هي الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا . وكان النظام الاقتصادي الذي أُنشئت عليه السلطنة يوحى للسيد سعيد بأن اجتذاب هذه الدول التجارية سيزيد من ثروته الخاصة ، فقد جعل من جزيرة زنجبار مستودعاً لجميع المواد الخام التي ينقلها أو يستخرجها العرب من أفريقيا ، وبينما قفل موانئ الساحل في وجه التجارة الأجنبية فرض رسوماً جركية على جميع البضائع التي تصدر من ميناء زنجبار ، وبهذه الطريقة أمكنه وضع التجارة الخارجية تحت رعايته الدقيقة وأصبحت الرسوم الجركية من أهم موارد دولته .

ويتضح من ذلك أن القسم الإفريقي من السلطنة هو الذي اجتذب الدول الكبرى إلى عقد معاهدات الصداقة والتجارة مع السيد سعيد . وتنطبق هذه الحقيقة على الولايات المتحدة وفرنسا بصفة خاصة ، ولذلك لا يدهشنا أن تكون الولايات المتحدة أسبق من بريطانيا التي لها صلات وثيقة بالسيد سعيد إلى عقد معاهدتها مع « سلطنة مسقط » في عام ١٨٣٣ . وبينما اقتصر اهتمام الولايات المتحدة على التجارة وعلى القسم الإفريقي من السلطنة نجد لبريطانيا أهدافاً متعددة لملاقها بالسيد سعيد حتى من قبل معاهدة التجارة معه عام ١٨٣٩ فلها أهداف إستراتيجية في منطقة الخليج ، كما أن لها علاقات تجارية مع موانئه ، ولها خطط سياسية تهدف إلى إبعاد أية دولة كبرى لحياسة نفوذ على شواطئه ، كذلك فإن الحاليات الهندية تنتشر في موانئ الخليج وعلى ذلك ظل هذا القسم من السلطنة القريب من الهند يحتل الدرجة الأولى من اهتمامها بينما لم تلتفت إلى شرق أفريقيا إلا من زاوية واحدة ، زاوية تجارة الرقيق وذلك على الأقل قبل سنة ١٨٤٠ :

أولاً : استخدام أسطول السيد سيد السخيم في حالة وقوع نزاع مع الفرنسيين أو مع دولة كبرى في منطقة الخليج العربي .

ثانياً : الاشتغال على إحدى جزر الخليج أو سواحه التي يشك أن يخلو منها السيد سيد وذلك في حالة شوب نزاع مع روسيا حول فارس .

ثالثاً : فتح مستعمرات مستط الأوربية للصحراء البريطانية وذلك حتى لا يستقر بها الأمريكيون^(١) .

والتي لا ذكر إلى التراجع عند معاهدة مختلف عسكري مع السيد سيد على أن يستقر منها أموال المزارعات الساحلية حتى لا تنقلب بريطانيا في المناهضة التالية داخل بلاد العرب . ومع ذلك رفضت بريطانيا هذا الاقتراح ولكنها قبلت تعيين كوماندران على الحاضرة السيد سيد بشأن عند معاهدة تجارية فقط .

تم التوصل إلى عقد الاتفاقية في ٢٩ مايو سنة ١٨٨٩ .

وتتضمن معظم بنودها تنظيم التجارة والاعتماد كتمديد الرسوم الجمركية والتزامات الرأى العربية بتقديم المساعدات إلى السفن البريطانية التي توطىء . ولعل أخطر نتيجة ترويت على تلك المعاهدة هي إبطال نظام الامتيازات الاقتصادية التي كان مبروراً في الدولة العثمانية والسكن آثاره الوشيكة لم تعد إلى بلاد العرب حيث لم تمارس هذه الدولة سلطة فعلية فيها . وحسب هذا النظام يعزى التصل البريطاني الفصل في المنازعات التي تحدث بين الرعايا البريطانيين والمسلمين في المنطقة كما يؤخذ رأيه في القضايا التي تنشأ بين الرعايا البريطانيين وبلاد العرب . ولم يترك السيد سيد في بداية مشواره هذا النص إلا ليعطيه أثره .

(١) مذكرة كوتش سنة ١٨٨٤ ، ٢ ، P. O. 54 vol. 2 .

الرعايا البريطانيين الذين ينتمون إلى القسم الإنجليزي ، ولكن القسم البريطاني معه^(١) على اعتبار الحدود دغلاً إنجليز ينطق عنهم هذه المس . وكان الحدود يحدون في موال السلطة سنة ١٨٨٩ خمسة آلاف ، وزياد عدم تم بعد ، وما حوت بريطانيا لبيروت قسماً واسعة . وما زادها مشورة أن هؤلاء يعود كوا يستقر على الصحراء المصرية لبلاد .

لم تقع معاهدة الصلح بين وقوع خلافات بين سيد وبين الحكومة البريطانية في أي من ثورتها الجبرت قضية التصل البريطاني ، عقب سيد أن يكون التصل من أبناء الإنجليز حتى يتجنب تعيين أحد القود مندوباً عن تركة الله الشرقية لأن سيد كان يأمل في إنشاء علاقات متفهمة مع الحكومة البريطانية لاعتقاده بأن ذلك يدل على علو مكانته الدولية . وفي سنة ١٨٨٠ اعتذر بريطانيا هذا الاقتراح فحاربت أحمس على التركة السابقين وهو انكسر هزول قنيتها ل . مستط ، ولم يبد اختلاف عند هذا الحد فقد أراد سيد أن يكون اسمه بوراً ، تطوعية مباشرة ، أو لغرض مكسب الله بأنه هو صاحب الاختصاص عند منه طريقة واستقر الرأي على حل وسط وهو أن يكون هورتون ممثلاً لتركة الله ونوزارة الخارجية معاً .

ويبدو أن هذا التصل التثاني عند مهمة هورتون لأه كبراً ما كانت تخلف وجهات النظر بين وزارة الخارجية في لندن وبين السلطات الاستعمارية في لندن .

وبما كل اهتمام بريطانيا ما يزال موجه نحو القسم الآسيوي من السلطة فقد كان من التوقع أن يستمر هورتون مقوم في مستط ، وفي آخر خفة لمر التصل البريطاني أن يوجه إلى زعيم جماعة أن يكون قريباً من الإمام الذي أصبح ينطق سلم دولته في تلك الجزيرة . أما الوثائق الرسمية البريطانية فكشفت عن الهدف

(١) P. O. 54 vol. 2 ، رسالة من حاكم إلى السيد حاكم تاريخ ١٩١١ ، ١٨٨٤ .

لقد رأينا كيف فكر سعيد عند توليه السلطة في معالجة الفرنسيين ، ولكن بعد استيلاء الإنجليز على جزيرة موريشوس لم يصبح هناك مجال للترددين الدولتين الأوربيين . ومنذ أن استرد الفرنسيون جزيرة بوردون عام ١٨١٧ وهي الجزيرة المعزولة المجاورة لموريشوس وهم يعملون على تجديد علاقتهم بالتجارة والبحارة العرب ، ومنعهم عدة تسهيلات لكي يحتد بهم إلى الجحى ، تلك المستعمرة حاملين إليها الآن والخيول ، ولكن منذ عام ١٨٤٠ أخذوا يتطلعون إلى التوسع على حساب ممتلكات السيد سعيد في شرق أفريقيا وكان القومندان جيان هو التمس لتلك السياسة التوسعية ، لذلك حينما ذهب إلى حاكم مسقط لكي يعتمد عليه تعيين قنصل فرنسي في زنجبار ، اسطدم بمعارضة قوية بورها الإمام بأنه يجنح من أساطيل بريطانيا التي تسيطر على المحيط الهندي ، وقد يكون ذلك صحيحاً فإن هذا العام يصادف احتدام الأزمة الشرقية وتشكك الإنجليز بشدة من نوايا الفرنسيين في المحيط الهندي ، ولكن يجب إضافة عامل آخر وهو أن السيد سعيد كان أشد غيرة وحرصاً على ممتلكاته الإفريقية التي يتطلع إليها الفرنسيون ، بينما كان يتمركز في تلك دولته ببلاد العرب دون أن يشعر بكثير من الاستياء من جرائد التدخل البريطاني . على أن فرنسا ظفرت في النهاية بمقدار معاهدة تجارية عام ١٨٤٤ عندها تسببت الامتيازات التجارية والقضائية التي نصت عليها معاهدة عام ١٨٣٩ مسح بريطانيا وكان قصد فرنسا هو أن تستفيد من التجارة مع القسم الإفريقي من السلطة ومع ذلك فيسكون لتلك المعاهدة آثارها على سلطنة مسقط بعد أن انفصل عنها زنجبار .

الحقيقي ، وهو أن يكون هناك قريباً من شرق أفريقيا حيث راحت الإشاعات عن وجود أطاع فرنسية^(١) .

والظاهر أن الأمل تجدد في نفس سعيد بعد عقد تلك المعاهدة في أن تساعد بريطانيا في تحقيق رغبة قديمة وهي ضم جزر البحرين . وقدم طلباً بهذا المعنى إلى وزارة الخارجية صرّحت في عام ١٨٣٩ ثم في عام ١٨٤٢ وقال إن ذلك هو التوضيح المناسب عن التفضيلات التي ترتبت على تحديد تجارة الرقيق . وربما مال أوردن^(٢) وزير الخارجية إلى الاستجابة لهذا الطلب لولا أن اعترض مكتب الهند مذكراً بأن عرب البحرين لن يقبلوا الخضوع للسيد سعيد ، وأن مثل هذا المساس بالوضع الراهن سيثير المنازعات التي تهدد أمن الملاحة في الخليج مرة أخرى .

ومما يسترعى الانتباه أن هذه الخلافات لم تحل دون توثيق الروابط الشخصية بين سعيد ومورتون إلى حد يفتقد عليه الحاكم العربي ، فقد كان يستشير في جميع الشؤون الهامة ، بل كثيراً ما كان يهد إليه بالإشراف على الإدارة في زنجبار بالاشتراك مع أحد أبنائه أثناء تغيبه في مسقط .

وفي نهاية حياته تبرع لبريطانيا !!! ببعض الجزر المجردة التي يمتلكها قرب ساحل شبه الجزيرة الجنوبي وهي جزر كوربا موربا التي كان من الممكن الاستئذان بها كمحطة تصل القسم الآسيوي بالقسم الإفريقي من السلطنة ، ولكن يبدو أن سعيداً كان يهوى التفضيلات من أجل بريطانيا ، فلو أن هذه الجزر تشكلت تكون عديمة السكان إلا أنها تحتوي على كميات لا بأس بها من الأسمدة . وقد ساعدت بعض الشركات البريطانية إلى استغلالها^(٣) فلا غرو بعد ذلك كله أن يأخذ سعيد رأى حلفائه في علاقاته مع العالم الخارجي وخاصة مع فرنسا .

(١) S.L.B. Vol 43 خطاب من حكومة بمباي إلى مورتون في ١٨١٧/٩/١٣

(٢) E.O. 54 Vol. خطاب من أوردن إلى حكومة الهند في ١٨٤٥/٨/٨

(٣) P. 530. S.Q. كولاند

بل ولينزل التحكيم البريطاني في مستقبل السلطنة . وقد عهد بالتحكيم إلى اللورد كيننج حاكم الهند العام بالرغم من أنه سبق أن أبدى رأيه في هذه القضية ونادى صراحة بالتقسيم .

وعلى كل فقد أرسلت بعثة لتقصي الحقائق رأسها كوجلان من حكومة عدن وكان بدجر صاحب التاريخ الشهور لعمان أحد أعضائها ومن المناسب أن تذكر هنا مبررات التقسيم التي قدمتها اللجنة (١) . فبها المحافظة « على الأمن في كل من بلاد العرب وشرق إفريقيا » فقد ذكر التقرير أن سميذاً رغم اليهبة التي كان يتمتع بها لم يستطع تجنب السلطنة القلاقل والثورات الداخلية ، فكان كلما ذهب إلى زنجبار اشتعلت ثورة في عمان ، وإذا انتقل لإخمادها تعرضت أفريقيا للقلاقل ، ومن باب أولى لا يستطيع أحد من خلفائه فرض سلطته على أجزاء السلطنة المترامية .

ومنها أن المستعمرات العربية بأفريقيا في بداية عهد سعيد كانت مجرد « حضانات » لتربية الرقيق . أما الآن فقد أصبحت مدناً كبيرة تقوم في أهميتها بلاد عمان نفسها . وأصبح ذلك بمقارنة طريفة فقال إنه كما استقل الأنجلو سكسون والإسبان الذين هاجروا إلى أمريكا بعد أن كونوا أمماً كبيرة في المهجر ، فكذلك يحق للشعب العربي في شرق أفريقيا أن يتفصل عن عمان وهذا في مصلحة الحضارة الإفريقية نفسها ، لأن الانفصال سيركز جهودهم لنشر الحضارة في إفريقيا . ومنها تسهيل مكافحة تجارة الرقيق فإن عرب الشمال (عرب عمان) لا يخفضون لأوامر حظر تلك التجارة .

وأخيراً الاعتراف الدولي الذي حصل عليه ماجد فصلاً من الدول الكبرى بما في ذلك فرنسا التي أبدت ميلاً إلى توبني .

صدر التحكيم في أبريل عام ١٨٦٩ وهو يقضي بإعلان زنجبار وتوابعها

(١) نشر هذا التقرير بتوبني :

٣ - انفصال زنجبار

رأينا كيف واجه السيد سعيد صعوبات جمة لإقامة سلطة مدعومة من عمان الداخلية فضلاً عن الساحل ذاته ، غير أن تلك القلاقل السياسية لم تمنع من ازدهار السلطنة وامتلاك الدولة والأفراد ثروات هائلة نتيجة التجارة البحرية واستغلال شرق أفريقيا حتى بدت مسقط وعمان أعظم أقطار الخليج شأنًا في منتصف القرن التاسع عشر . ولذا فإن انفصال زنجبار عنها بعد وفاة السيد سعيد كان ضرورة قاضية هيبت بعده مسقط إلى إمارة صغيرة ليس لها كبير وزن في السياسة الدولية . ولذا يجدر بنا أن نتوقف قليلاً لاستعراض هذا الحادث وإن كان يعد إلى حد ما استطراداً بالنسبة لكتاب مخصص للخليج العربي (١) . ويقال إن سعيداً هو الذي مهد لهذا التقسيم حين فصل إدارة الممتلكات العربية عن القسم الإفريقي من السلطنة وعين على كل منهما واحداً من أبناءه ، فحينما قضى بحجة عام ١٨٥٦ كان توبني يدير مسقط وتوابعها منذ اثني عشر عاماً ، بينما كان ماجد يدير زنجبار منذ بضعة أعوام قليلة فأصبح الانفصال أمراً واقعاً .

على أن توبني لم يدخر وسماً لإعادة السلطنة مدعياً بأنه صاحب الحق الشرعي في كلتا المنطقتين باعتبار أنه كان مستقراً في العاصمة التارنجية للسلطنة ، ولأن موارد زنجبار تبلغ ضعف موارد القسم الغربي . ورأى ماجد أن يدرك ادعاءات أخيه بدفع مبلغ سنوي من المال ، غير أن توبني اتخذ من ذلك دليلاً على التهمة ، لهذا يادر حاكم زنجبار بقطع الإغاثة وعجل ذلك بتوبني كي يجرب القوة بالرغم من عمله بالممارسة البريطانية ، وفي أكتوبر عام ١٨٥٩ جرد حملة للاستيلاء على زنجبار ، وعند رأس المدخل على مدخل خليج عمان اعترض سبيل الحملة أسطول بريطاني أتى على وجه السرعة من الهند ، وكان ظهور الأسطول كافيًا لكي يعود توبني أدراجيه

(١) انظر تفاصيل هذا الموضوع في كتابنا « زنجبار » الفصل السابع .

سلطنة مستقلة تحت رئاسة السيد ماجد على أن يقدم هذا الأخير إغاثة سنوية ٤٠٠.٠٠٠ ر.ك. (١٠.٠٠٠ جنيه) للتعبؤ عن التفاوت بين موارد زنجبار وموارد مسقط ويؤدى كذلك مبلغ (٢٠.٠٠٠ جنيه) عن السنوات الفائتة وأوضح كالتج أن هذه الإغاثة لا تعنى قط التهمة السياسية. وأخيراً نص التحكيم على ألا يتدخل عرب عمان في شئون شرق أفريقيا بعد ذلك (١).

أسفر التقسيم عن وقوع كلنا النقطتين تحت السيطرة البريطانية الكاملة بعد أن كانت هذه السيطرة تتخذ شكل الصداقة في عهد السيد سعيد، ويمكن القول بأن هذا التحكيم هو الذى مهد لفرض الحماية البريطانية على كلنا الدولتين. ولا غرو فقد صارت بريطانيا ضامنة للإغاثة السنوية التى تدفعها لزنجبار لاسقط، وحينما قطعت الأولى هذه الأغاة بعد أحداث وقعت عام ١٨٧٠ حلت بريطانيا محلها في دفع الإعانات المالية لاسقط. ورغم ذلك كله لم تنقطع الصلات بين البلدين فإن كثيراً من أبناء العرب في شرق أفريقيا لم ينسوا وطنهم الأصلي. وحينما أسقط حكم البوسعيد في زنجبار في يناير عام ١٩٢٣ وتعرض العرب لاضطهاد الحكومة الجمهورية وكذلك لاضطهاد حكومة تنزانيا بعد ضم الجزيرة إلى تنزانيا لم يمتنعوا عن الجالية العربية هناك سوى مسقط وعمان ملجأ لها، وفتقر عدد اللاجئين ببعض الجالية العربية العربية هناك سوى مسقط وعمان ملجأ لها، وفتقر عدد اللاجئين ببعض آلاف. ومهما قيل من أن العرب في شرق أفريقيا كانوا يشكلون طبقة راحلة وإنطاعية مستقلة فإن وضع اللاجئين الآن في مسقط وعمان بعد مشكلة إنسانية.

الفصل السابع

الوضع الراهن في بلاد العرب

١ - نجد النشاط المصرى ١٨٣٨ - ١٨٤٠

حينما احتلت قوات إبراهيم باشا نجدا والأحساء من سنة ١٨١٨ إلى سنة ١٨١٩ رأت الحكومة البريطانية في الهند أن تلك فرصة طيبة لإيجاد إدارة منظمة على ساحل الخليج تتعاون معها في قمع حركة اللالحة العربية التى لا تلتزم بأنظمة اللالحة الدولية. ولهذا السبب أرسلت مندوبا عنها يدعى سادليير للتعاون مع القائد المصرى. وقد وصل اللندوب البريطانى إلى الأحساء بعد قرار محمد على بالانسحاب من بلاد العرب، واضطر إلى عبور شبه الجزيرة كلها دون أن يتمكن من الحاق إبراهيم باشا. فلما عاود وإلى مصر نشاطه في بلاد العرب سنة ١٨٣٨ اتخذت بريطانيا موقفا مختلف تمام الاختلاف عن موقفها السابق، ففى خلال العشرين سنة الماضية تثيرت علاقاتها بمصر كما تبدلت نظرتها إلى الخليج العربى. فبالنسبة لمصر أصبح محمد على يمثل فى نظرها قوة وطنية سامدة فى الشرق الأوسط تسيطر على طريق البحر الأحمر. فمن الخطورة على مصالحها بكان أن يهدد إلى النوع الثانى الذى يصل بين المحيط الهندى وبين أوروبا. وبالنسبة لظرة بريطانيا إلى الخليج فقد صارت لها سياسة موسومة وعى منع أية قوى وطنية كبيرة نسبياً من أن تتوسع على حساب الشيوخات أو الإمارات الصغيرة. وطلبت هذه السياسة إزاء مصر والدول السعودية المتعاقبة، كما طلبتها بالنسبة لاعتبارات قورس والبحرين.

التي محمد على في هذه الحظية سياسة جديدة تقوم على أساس استغلال

أسبق إلى الاحتجاج من حكومة الهند ، فهو الذى لفت نظرها إلى هذه المسألة منذ نوفمبر سنة ١٨٣٨ وما كادت هذه تتلقى رسالة وزير الخارجية حتى وجهت القائد العام لأساطيل بريطانيا فى الشرق ، السير مثلند إلى منطقة الخليج ، وترك القامات التى زود بها الحرية للقائد العام لتحديد الحالات التى تستخدم فيها القوة ، ومن بينها حالة إزال قواص مصرية فى البحرين . ولم تكن هناك نية لإرسال حامية مصرية إلى تلك الجزر لأن الشيخ عبد الله نفسه لم يكن مستعداً لذلك . وبهذه المناسبة قبلت بريطانيا أن تبسط حمايتها على البحرين إذا طلب شيخها ذلك مع أنها كانت ترفض فى السابق مثل تلك الحماية . ومن الغريب أن بريطانيا بت احتجاجاتها على الصلات الجديدة التى نشأت بين البحرين وبين والى مصر على أساس أن تلك الجزر تابعة لفارس . وسنرى كيف أنها فى مناسبات أخرى عديدة عارضت ادعاءات فارس على البحرين ، مما يدل على أن بريطانيا لم تتخذ مبدأ ثابتاً إزاء تلك القضية بل كانت تغير حججها القانونية حسب مصالحها الخاصة (١).

وصل القائد البريطانى إلى الخليج فى يوليو ١٨٣٩ ولم يجد مقاومة من المصريين ، إذ أنه كان من الصعب على خورشيد باشا أن ينقل قوات بحرية إلى الخليج بعد أن احتل البريطانيون عدن فى أوائل هذا العام . ومن جهة أخرى فإن شيخ البحرين كان يمينه قبل كل شئ تأمين سلطته ضد منافسيه من أبناء الأسرة . وبما أن بريطانيا قد قبلت الآن ضمان حكمه فإنه يفضل الاعتماد على الحليف الأقوى ، ولذلك أبلغ خورشيد باشا شفاهة بتراجعه عن اتفاق مايو . لم يثن هذا الحادث محمد على عن مواصلة نشاطه فى بلاد العرب ، ولكن بينها نصر خورشيد باشا مباشرة فى مسألة البحرين ، اعتمد هذا القائد على وسطاء فى عمان وخاصة سعد بن مطلق الذى كان يعمل من قبل باسم الحكومة السعودية

الحكام المحليين وخاصة أبناء الأسرة السعودية كأداة لسيط قوته فى بلاد العرب وهكذا عين خالد بن سعود نائباً عنه فى الرياض واستخدم موظفى الدولة السعودية المشهورين كسعود بن مطلق للتوغل فى عمان التى عمل بها من قبل .

أما فى شاطئ الأحساء فقد أقام خورشيد باشا والى المدينة السابق حامية مصرية فى القطيف واتخذ هذه المدينة مركزاً للاتصال بالمشيخات الساحلية ولا سيما إمارة البحرين حيث كانت شهرتها فى مصايد الدواش شائعة فى مصر . وحسب الوثائق المصرية كان الشيخ عبد الله آل خليفة حاكم البحرين آنذاك هو الذى طلب الاتفاق مع خورشيد باشا لأنه كان يعاني فى ذلك الوقت من خلافات أسرية . وقد التفت خضومه من أبناء الأسرة إلى فارس . وبناء عليه أرسل خورشيد مندوباً عنه يدعى محمد رفعت إلى البحرين حيث وقع فى مايو سنة ١٨٣٩ اتفاقاً ينص على تعهد الحكومة المصرية بتأييد الشيخ فى حكم البلاد ويقدم فى مقابل ذلك « زكاة » تقدر بألفى كرونة سنوياً وبعض السفن لمساعدة الحملة المصرية على الانتقال إلى ساحل عمان إذا احتاج الأمر إلى ذلك . ولم يثر بعد على هذه المعاهدة فى الوثائق المصرية . أما الوثائق البريطانية فقد شوهت الوضع حينما وصفتها بأنها معاهدة حماية ، وهى تطبق بذلك مفهوماتها الاستعمارية على العلاقات بين الدول الإسلامية فى ذلك الحين . ويلاحظ كيف استخدمت عبارة زكاة لوصف المبلغ الذى تدفعه البحرين لمصر ، مما يدل على أن العلاقة تبنى على أساس الرضا المتبادل ؛ هذا فضلاً عن أن المبلغ كان يقل كثيراً عما تطلبه الدول الأخرى الطامعة فى البحرين مثل مسقط أو فارس . وحتى من قبل أن تعقد هذه المعاهدة ظهر رد فعل بريطانى سريع بعد وصول خورشيد باشا إلى سواحل الأحساء . وكان بالمرستون الموروف بدائه الشخصى (١) ل محمد على

واستمر حتى هذه الفترة يتصرف باسم سعود نائب محمد علي في نجد. وهذا لا يبدو غريباً إذا عرفنا أن خورشيد باشا كان يذكر مرارحة أن الحكم المصري هو وريث الدولة السعودية . وبناء عليه رحبت مشيخات القوام كالشارية ورأس الخيمة بسعد بن مطلق ككاتب عن والي مصر ، لأنها كانت تميل منذ عهد الدولة السعودية الأولى إلى الحركة الوهابية . ومن القريب أن الشيخ خليفة حاكم أبو ظبي تحول في هذه المناسبة إلى التحالف مع سعد بن مطلق بالرغم من علاقته السيئة في السابق مع الدولة السعودية ، ولم يشذ عن ذلك الترحيب سوى قبائل النعيم وذلك لأسباب شخصية محضة فإن سعداً بن مطلق كان قد أساء في السابق معاملة أهل البورعوى والظاهرة لأنه حملهم مسؤولية مقتل أبيه في عهد الدولة السعودية الأولى .

ساد الدغم السلطانيات البريطانية في الخليج بعد أن لاحظت التفاف المشيخات حول سعد بن مطلق كيهوئ لمحمد علي ، وكان ولستد الرحلة البريطاني قد لفت منذ سنة ١٨٣٥ نظر بلاده إلى احتمال وصول النفوذ المصري إلى عمان .

وفي هذه المناسبة خرجت بريطانيا عن سياستها التقليدية كما فعلت في البحرين . وبعد أن كانت تقتصر تدخلها على الساحل رأت أن تستعيد من معارضة قبائل التميم للهبوط المصري ، وجهياً ذهب عقل القيم العام في الخليج آنذاك إلى المعصاة في يوليو سنة ١٨٤٠ بت طلب رؤساء تلك القبيلة وزووم بالسلاح والأسلحة ، وألم من ذلك وعدم بالطامة البريطانية ، ولهذا أرسل الكابتن مخرجي ليعلم على أسوار الحصون في واحات البورعوى ودعا عقل إليه رؤساء المشيخات وأبهم على موقعهم وهدم باستخدام القوة .

ولقد ظلت إلى وقتنا عابدين صورة التهديد للوجه إلى الشيخ مقرين سلطان حاكم الشارقة وما جاء فيها « فليكن معوماً أشاقد أندرا العامة أن كل أحد من الشايخ الداخلين في سلك الصالح مع جناب حضرة السركل يهاندور

(القيم العام البريطاني في الخليج) يعطى لسعد بن مطلق مكان عنده يقع الخلل في صداقته مع حضرة السركل ذي الاقتدار ولا يلو من إلا قسمة^(١) .

كيف كان موقف السيد سعيد من مشروعات محمد علي في بلاد العرب ؟ يبدو أنه رغم نخوة من وجود قوة كبيرة منظمة بجواره ، فقد كان هذا الحاكم الشنور ، لكن كثيراً من التقدير لحاكم مسلم نجح في الأخذ بأساليب الحضارة الحديثة . وتدل على ذلك الرسائل القليلة التي بعثها سعيد إلى والي مصر ، وقد أشرنا إلى إحدى تلك الرسائل التي طلب فيها تزويده بمذيعين مدنيين من لندن محمد علي . ومن جهة أخرى لم تكن مسألة السلطة في البورعوى تعني حاكم مسقط لأنه يكتفى بتدعيم سلطته في الساحل ، ولذلك لم يتر أحد ضجة حول هذه القضية سوى السلطات البريطانية في الخليج .

بل إن سعيداً فكرو يوماً ما في التعاون مع محمد علي لتحقيق آماله في ضم البحرين ، وتهدد بدفع جزية مقابل المساعدة المصرية ، والظاهر أن هذا الأمر لم يندم بمرد للرسالة ، وكان عقل القيم العام يخشى أن يتم شيء بهذا الصدد ، ولذا نصح حكومة الهند بأن ترضى سعيداً في البحرين خاصة بعد عقد اتفاقية عام ١٨٣٩ وذلك منسأ من التنازب بينه وبينه اوالى الطموح .

لم يفت محمد علي في مسألة الخليج العربي موقفاً حازماً فراجع أمام التهديدات الإنجليزية ، والظاهر أنه كان يريد أن يساهل في هذه المسألة على أمل أن تنضج بريطانيا الطرف عن مشروعات التوسعية في الشام والعراق ، فإن هذه الولايات كانت عمود الدولة الكبرى التي يريد إنشاءها .

(١) وثائق عابدين . مخطوطة رقم ٢٧٠ — حقيق ١٢٥٥ صورة الشرق العربي رقم ٣ للوزارة لمرقة رقم ١١٢ حرم بطريرك ٢٩ ربيع الآخر ١٢٥٥ (٥ يونيو ١٨٤٠) رسالة من عقل إلى سلطان بن مقرين حاكم الشارقة — فلاحين رسالة بحالي زكريا فلاح من ٢٨

عسكرياً، وأن دفع هذه الأموال كان منقطعاً وليس بصورة منتظمة. والركعة على كل حال مسألة دينية محضة. كذلك بذلت المصادر السعودية الجهد لإثبات أن الركعة كانت تحصل من جميع القبائل تقريباً التي تنزل بين قطر وعمان. بما في ذلك قبائل الظواهر في عان، وبنو عاجر في قطر، والناصر في الظفرة وهي الآن تابعة لمشيخته أبو ظبي (٢٧).

والحق إن النظام الإداري للسعوديين كان في حد ذاته لا يستند إلى أسس متينة كما هو منتظر في مجتمع بدوي كاجتماع بلاد العرب في ذلك الوقت، ولذلك يستحسن عدم تطبيق معلوماتنا للدولة الحديثة عند إثارة الجدل حول تلك الفنية التاريخية. وعلى كل فقد كان حكم السعوديين لرحلات البويعي متقطعة، فكانت قبائلهم تغفل أحياناً، كما خضعت فترة قصيرة لحكام أبو ظبي خلال عامي سنة ١٨٤٨، ١٨٤٩.

وفي عام ١٨٥١ عاد فيصل نشاطه في الخليج وحاول في هذه المرة أن يملك أسطولا جالسا بينا كانت الدولة السعودية الأولى تعتمد على مراكب القبايل أو الشيفات للتحالفة معها. وفي هذه الرحلة لم يقتصر فيصل على طلب الجزية من من مسقط، بل طالب كلا من البحرين وأبو ظبي بدفع «الركعة» لحكومة الرياض وبهذه المناسبة قام الأسطول البريطاني بتجاوزات أمام ساحل الأحساء وضرب موانئه لتهديد السلطات السعودية. ويبدو أن هذا الخلاف سوى بد قليل عي لأمس النبل الوسط، فهدت بريطانيا أن الركعة لا تعني التسمية السياسية، وبالتالي لا تتعارض مع سياسة الوضع الراهن، كما أن فيصل أخذ يميل عن مدافحته لسلطات البويعية في الخليج، وكتب في رسالة عامة إلى كلببول القيم السلام (١٨٥٤ سنة) يذكر بوجود اتفاق بين أسلافه وبين الإنجليز، نهيد فيه السعوديين بالتحالفة على السلام لمدة عام وتهديت بريطانيا بترك الساحل من

(٢٧) الدولة السعودية ج ١ ص ٣٣ وما بعدها.

٢ - الدولة السعودية الثانية

تمكن السعوديون من استرداد سلطتهم على أثر إجبار مصر على الانسحاب من بلاد العرب، نتيجة تدخل الدول الكبرى ضد محمد علي عام ١٨٤٠ وقد استقرت السلطة السعودية في ظل حكم فيصل بن تركي الذي تمكن من التراب من مصر عام ١٨٤٣ وأعاد للدولة حيويتها، وواصل قطعاً نهج التقليدية نحو منطقة الخليج، وكان بإمكان حكومة الرياض أن تخضع بعض مشيخات الساحل أو تقبلها بسفنة نهائية لولا أن حالت بريطانيا دون هذه النهاية، ولأن حدة المعارمة بالنسبة للسعوديين كانت أقل منها بالنسبة لمصر، إذ أن منزع التوسع للمصري في بلاد العرب كان جزءاً من سياسة دولية عامة اتبعتها بريطانيا في ذلك الحين.

وفي عام ١٨٤٥ تعرضت مشيخة أبوظبي لدعوة من الأسطرلابات العموية التي شكرت كثيراً في تاريخها، وتصادف ذلك مع ظهور سعد بن مطايع من جنوبه في البويعي وتقدمه نحو ساحل الخليج مما أحدثت دعوته لدى حاكمي مسقط وحملوا، كما يستعيد إلى ابنه تويحيى وناثيه في مسقط بأن يقبل دفع الجزية لحكومة الرياض كما سارع حمود بن عزان إلى إعلان خضوعه. وبهذه المناسبة دارت مناقشات طويلة حول منزلة الجزية التي دفعها مسقط وديومعاً من إمارة الخليج للحكومة السودرية (١٨) فسمى الصادر السودرية هذه الجزية بالركعة ونذكر أنها كانت تدفع بانتظام. ولأنها تعني التسمية السياسية، بينما تذكر الصادر الإنجليزية أن هذه الأموال هي في الحقيقة إثارة يدفعها حاكم ضعيف لحكومة مجاورة أقوى منه.

(١٨) وثائق عابدين - محصلة رقم - ٢٧ - ص ١٢٥٠ صورة الوثيقة العربية رقم ٢ الوثيقة العربية رقم ٢٧٥٠ ص ١٢٥٠ روبر الأكر ٢٧ يونيو - ١٨٤٥ رسالة من حاكم سلطنة عمان إلى حاكم السلطنة - نقل عن رسالة يسال ذكرها باسم ص ٢٨.

تصادف هذا التهديد مع موت أكبر شخصية في تاريخ الدولة السعودية الثانية - فيصل بن تركي - وظهور شيخ الحرب الأهلية بين ابيه عبد الله وسعود ، لذلك سارع عبد الله الذي تسلم السلطة في بداية الأمر إلى استرضاء الانجليز ، فأرسل عبد الله بن مانع إلى مقر القيم العام في بوشهر لتقديم الترامة والاعتذار ، وفضلًا عن ذلك أصدر تصريحاً هاماً في أبريل عام ١٨٦٦ أعلن فيه عبد الله بن فيصل عن رغبته في صداقة الدولة البريطانية ، وتعهد باحترام مصالح رعاياها في المناطق التابعة له . وأتم من ذلك تعهد بعدم المساس أو الهجوم على أراضي الشيوخ والقبائل المرتبطة بمعاهدات مع بريطانيا^(١) . وبالفعل توقفت التطلعات السعودية نحو الخليج بقرعة من الزمن ، وحينما رد عبد العزيز آل سعود في هذا القرن إلى الدولة السعودية حيوتها وقوتها وبسطهم من أجل ذلك بالممارسة البريطانية ستبرز بريطانيا هذا التعهد للاحتجاج على النشاط السعودي في منطقة الخليج .

٣ - البحرين والدعوات الفارسية

تعرض آل خليفة أثناء حكمهم للبحرين لأطاع جميع الدول المجاورة ، ولذا لجأوا أحياناً إلى استرضاء هذه الدول بدفع الإتاوات كما أنهم استعانوا ببعضها على البعض الآخر في أحيان أخرى . وكان أقرباء آل خليفة في قطر يحسدونهم على حكم تلك الجزر النائية وخاصة البحار الشهيرة رحمة بن جابر وهو الذي أغرى سعوداً عام ١٨١٠ بالاستيلاء عليها . فلما نجح آل خليفة في استرداد سلطتهم عاد يغري السيد سعيد عام ١٨١٦ بعضهم إلى مسقط مما أدى إلى إرسال حملة فاشلة على نحو مارأينا . ولم تنقطع غارات رحمة الانتقامية على سفن البحرين إلا عند مقتله في المراك البحرية عام ١٨٢٨ ، لذلك كان من المتوقع أن يرحب حكام البحرين بنظام الملاحة التي فرضها بريطانيا بالقوة على مشيخات ساحل عمان ، غير أن بريطانيا لم تكن في ذلك الوقت قد اتخذت بعد سياسة واضحة إزاء البحرين في إطار مبدأ الوضع

Htowitz uel. I. p. 172 (١)

السكوت حتى عمان تحت تصرف الدولة السعودية باعتبارها نائبة عن الدولة العثمانية في شبه جزيرة العرب .

ولهذا الخطاب أكثر من متنى ، فهو يشير إلى اتفاق لا يوجد له أصل في جميع الوثائق المروفة ، كما أنه يجعل السعودية نائبة للدولة العثمانية وهو ما ستنبهه الحكومة السعودية في مناسبات أخرى^(١) .

ومهما كان فيصل بن تركي أكثر حرصاً من أسلافه على صراحة التفارب مع الإنجليز فإن السلطات البريطانية لم تقطن قط إلى وجود هذه الدولة الكبيرة نسبياً ، والتي تتطلع للسيطرة على الإمارات والشيوخ المرتبطة معها بمعاهدات . ويلاحظ أنه بينما سكنت حكام مسقط عن معارضة الحكم السعودي في البورني من ١٨٥٣ - ١٨٦٩ ، كان الإنجليز يحضون خلفاءهم باستمرار على التجرش بالواهانيين هناك ، كذلك تدخلوا باسم البحرين سنة ١٨٥٩ لأن فيصلاً كان يلجئ إليه بعض مشايخ آل خليفة المطالبين بالحكم ، ولكن أخطر صدام وقع بمناسبة ثورة القبائل النافرية في أواخر عهد تويني سنة ١٨٦٥ واستيلائهم على ميناء صور تماماً كحدث عام ١٨٢٠ حينما استولى البوعل على البناء ، ومن المروف أن هذه القبائل تتخذ من البادية الوهابية في كثير من الأحيان شعاراً لثورتها ضد حكام مسقط . وقد تعرض بعض الجنود الذين يعتبرون رعايا إنجليز في ذلك الوقت لخسائر مادية من جراء هذه الثورة ، لذلك حل بطل القيم العام البريطاني في الخليج حكومة الرياض مستولية هذه الأحداث وطالب بترامة كبيرة ، فلما رفض الطالب ظاهر على رأس حملة بحرية أمام القطيف وهدد بتدمير الليناء (يناير عام ١٨٦٦) إذالم يجب طلبه في خلال ١٨ يوماً .

(١) S. L. B. Vol. 113. مرفق بخطاب كابل إلى حكومة يومباي بتاريخ ١٨٥٤/٨/١٤

مساعدة بريطانيا ولكن الظروف التي عقدت فيها معاهدة التحالف مع فارس عام ١٨١٤ قد تغيرت. غاية الأمر أن بريطانيا امتنعت عن تأييد الرؤساء العرب في الساحل الشرقي للخليج حتى لا تضعف من مركز حكومة طهران، فلت ذلك مثلا مع حاكم منطقة بوشهر المدعو عبد الرسول، وربما يرجع ذلك أيضاً إلى أن الإنجليز لم يحبوا ازدياد قوة العرب على الساحل الشرقي خشية وجود قوة بحرية جديدة تنافسهم في السيطرة على ملاحية الخليج.

وقد غيرت بريطانيا سياستها إزاء فارس في الثلاثينات بعد أن لوحظ ازدياد النفوذ الروسي في طهران ولا سيما منذ وفاة فتح علي شاه، فاعتبرت أي امتداد فارسي في جهة الشرق تهديداً روسياً غير مباشر لسلامة مستعمرة الهند. ولذلك حينما حاصر الفرس مدينة هرات أجاب الإنجليز بإرسال حملة بحرية إلى الخليج احتلت جزيرة خراج مدة أربع سنوات واستخدمت التهديد للظفر بامتيازات اقتصادية في فارس.

وقد فكروا في العام في انتهاز تلك الفرصة لشراء الجزيرة سيما وأن وجود البريطانيين بها تصادف مع وصول المصريين إلى شواطئ الخليج، غير أن حكومة الهند لم تأخذ بالاقتراح بعد انسحابهم من بلاد العرب.

لم تتر فارس قضية البحرين بعد استئناف العلاقات مع بريطانيا إلا بتجاسية ونوع نزاع أسرى بين آل خليفة، فقد تمكن محمد بن خليفة من انتزاع السلطة من عم أبيه عبدالله، فالتجأ هذا الأخير إلى طلب الحماية الفارسية، ولم تكف بريطانيا في هذه الالة بالتهديد بل كتب أبردين^(١) وزير الخارجية رسالة هامة تنفي فيها أصلا حق فارس في ادعاء السيادة على البحرين بدليل أن أسرة القاجار منذ أن أتت إلى الحكم لم يمارس أحد من أفرادها سلطة فعلية في تلك الجزر. وقد أنار هذا الخطاب جدلاً قانونياً حول وضع فارس في منطقة الخليج، وقدم حاجي ميرزا

(١) رسالة من أبردين إلى شيل السفير البريطاني في طهران بتاريخ ١٨١٤/١٠/١٩

تمريض أهل النجدة وغيرها من الرعايا الفارسية عن السفن التي قدسوها لطليلة نيرة البحرين عام ١٨٢٠.

سمح فارس لبريطانيا بالإقامة في قسم مدة ثلاث سنوات. وفي أثناء هذه الفترة نشأ قوة بحرية مشتركة بين أن تصبح فارس ذات أسطول قوي، وإلا لهددت فارس إحداهما لإخضاع البحرين كل على عيطاليا عديم طموح حربي، لشد أثير الأسطول الفارسي. وعلى حكومة فارس أن تغير موقفها من فارس وتم فتح تلك لدى حكومة يوسفي حتى تفتح في مركزه.

من الواضح أن عامل نضحية لطلبة في عقد هذه الاتفاقية، فكان ذلك من أسباب رفض حكومة يوسفي لتوقيعها، ويؤيد لهذا التهمة في هذا المصالح العام. فالتحليل يناقش، فلهذا أيضاً استندت حكومة يوسفي في الملاحقة على مشترك الاتفاقية، وهو هي الذي بريطانيا لا تريد، وأما تزجيج لطلبة على أوسع نطاق، وكذلك راجحت بريطانيا تقوم عليها أسطوانات مستقلة. وعلى كل بهذا الصداق يوقع بدعوة الاتفاقية، فليل لأن حكم شيرازي يتناقض بدون استثنائه وبعثاً يطمح عالمياً أي أن المشروع الاتفاق الذي أوزعه بعض المؤرخين الفرس^(١).

وحينما فشلت هذه الطريقة الدبلوماسية لجأت فارس من جديد إلى محاولة عزز البحرين أو آخر عام ١٨٢٢ ولم تكن أحسن حظاً في هذه المرة من المحاولات السابقة، وكانت هي الأخيرة من نوعها. إذ أن حكومة طهران سناجاً بعد ذلك إلى وسائل أخرى وهي الزايمرات السياسية والاستفادة من الخلافات الأيرانية لتذكير بادعاءاتها في البحرين.

وعلى كل فقد توقفت جميع المحاولات في السنوات العشرين التالية نظراً إلى أن الحرب مع روسيا استوعبت جهود الفرس، وكانت حكومة طهران تأمل في

ومجلس وزراء فارس مذكرة هامة رداً على هذا الخطاب. فقامت بإثبات حكم الفارسيين البحرين ولو بفترة قصيرة. واستخرج لهذا السبب عملة ذهبية مغروية في البحرين باسم الشاه عام ١٨١٧ وهذا في حد ذاته أمر مستحسب فيه إذ لم يثبت أن البحرين كانت لديها دالر لسك التتو في ذلك الوقت. والأخطر من ذلك أن رئيس وزراء إيران ادعى في الذكرى بأن «الشعور السائد لدى جميع الحكومات الفارسية للتعاقد أن الخليج الفارسي من بداية شط العرب إلى مسقط يجتمع جزأه وموآتيه بدون استثناء يقتضى إلى فارس، بدليل أن الخليج يسمى بالفارسي» واستثنى إلى بعد ذلك الذكريات بين فارس وبريطانيا، وكان حكم البحرين لا يعلكون لأنفسهم شيئاً. وفي عام ١٨٤٨ ادعت مذكرة فارسية أخرى بأن غالبية أهل البحرين من الله من وأنهم يريدون الانضمام إلى فارس^(١).

لم تثر بريطانيا هذا الموضوع اهتماماً فظلت تتعامل مباشرة مع رؤساء البحرين على أنهم حكام مستقلون. وبناء عليه عقدت مع محمد بن خليفة اتفاقاً بشأن حظر تجارة الرقيق ١٨٤٧. ومن الواضح أن السياسة البريطانية لم تهدف قط إلى المحافظة على إمارة عربية، بل كان دفاعها عن حكومة العتوب في البحرين جزءاً من السياسة الدائمة التي تتبعها في الخليج. ألا وهي احترام الوضع الراهن. ولما لم تعتبر موقعها حيناً امطلعت بمحاوالات السعوديين ضم الجزر، بل إن متاولوها للتدخل السعودي كانت أشد. ذلك أنه بعد أن يش عبد الله من مؤازرة حكومة طهران حاول أن يجمع بعض الرؤساء العرب في الجزر والسواحل الجنوبية مما أثار الرعب لدى محمد بن خليفة، وأخذ يقطع إلى حليف آخر فأجبه إلى الدولة العثمانية، وكان ذلك في عهد تولي بالرستون لوزارة الخارجية وهو من أنصار التوسع الاستعماري، ولذا رأى في هذا الحادث مناسبة لبحث إمكان وضع البحرين تحت الحماية البريطانية. ولو أن السلطات الحامية لم تأخذ بهذا الشرع نظراً لوفاء

عبد الله بن خليفة بعد قليل، والاعتقاد بأن حكومة البحرين ستقيم بشئ من الاستقرار^(٢).

لم يتحقق طمأنينة الحكومة البريطانية، فقد التجأ محمد بن عبد الله الطالب بالسعة إلى فيصل بن تركي وأعلن نفسه تابعاً له واستعد لنزو البحرين أو على الأقل مهاجمة السفن التابعة لها. وقد جرت هذه الأحداث بريطانيا إلى جنوب موانئ الأحساء أكثر من مرة وخسارة ميناء السلم الذي أخذ منه محمد بن عبد الله آل خليفة متراً له. وقد دمر الأسطول البريطاني هذا اللينة الصغير سنة ١٨٥٩ وذلك حين قام محمد بن خليفة بمحاولة جديدة لنزو الجزر. ومع ذلك لم يعتبر حاكم البحرين هذا العمل كافياً لتأمين حكمه فكان يطالب بتسليم خضعه داخل بلاد العرب. وكان هو معروف لم تكن بريطانيا مستعدة لتحمل مثل هذه الأعباء.

أخذ محمد بن خليفة حاكم البحرين يضي فوته البحرية. وفي نفس الوقت رأى أن يوطد صلاته بالمول الإسلامية الكبيرة المجاورة، فكان يرفع أحياناً علم فارس وأحياناً أخرى العلم العثماني، مما يدل على أن مظاهر السيادة لم تكن تنفي هؤلاء الحكام الصغار طالما أنهم يتمتعون بسلطة فعلية في أقاليمهم. وربما دفعه إلى ذلك تأليب القيم العام لبحرين أراد أن يستخدم أسطوره الجديد في مهاجمة الأحساء بنفسه. وذهب حاكم البحرين في تحدى بريطانيا إلى حد دعوة وكلاءه من بغداد ومن طهران للإقامة في بلاده. وقد اختارت فارس أحد الأشخاص المعروفين بعدائهم للإنجليز وندعى ميرزا مهدي خان ليميلها في البحرين. وبذل البعوث الفارسي نشاطاً كبيراً حتى اقتنع محمد بن خليفة بأفضلية إعلان تبنيته لفارس والاعتراف بسيادتها ودفع جزية سنوية لحكومة طهران (أبريل ١٨٦٠).

ومهما كان لهذا الإعلان من منفى بالنسبة للادعاءات الفارسية فإن

« نظرا للاضطرابات التي أحدثتها القبائل البحرية ، فإن محمد بن خليفة أعلن انقباضه إلى معاهدة الصداقة والسلام الدائم التي تهدف إلى تقديم التجارة وسلامة جميع الشعوب التي تستعمل هذا البحر للاحتيا » و« تحتوي المعاهدة على الشروط الآتية ^(١) : تأكد جميع المعاهدات السابقة بين البحرين وبريطانيا ، تعهد شيخ البحرين بالاتفاق عن أي اعتداء بحرب أو الاضرار في أعمال القرصنة ، مادامت بريطانيا تعدد بالعموم اللازم لحفظ جميع ممتلكاته من اعتداءات القبائل التي تسكن الخليج . وتنفذاً لهذا التعهد يقبل شيخ البحرين أن يخبر القيم العام البريطاني بكل حادث اعتداء يقع عليه في أقرب وقت ممكن ، ويقبله حكماً بينه وبين المعتدين . وتعهد ألا يتخذ هو أو أحد رعاياه أي إجراء مضاد بدون موافقة الحكومة البريطانية ، إذا رأت بريطانيا ضرورة ذلك . وتعهد القيم البريطاني بأن يتخذ من جانبه الإجراءات اللازمة ضد المعتدين على شيخ البحرين أو رعاياه . كما يقبل شيخ البحرين الأحكام التي يصدرها القيم ضد أحد رعاياه إذا كان معتدياً . يستطيع الرعايا البريطانيون الإقامة والتجارة في البحرين دون قيد لحريتهم ، على أن يدفعوا عموماً عن بضائعهم لا تزيد على ٥ ٪ من قيمة تلك البضائع ، ويتمتع هؤلاء الرعايا باستيازات الدولة الأولى بالرعاية . وأخيراً تحال الخلافات بين الرعايا البريطانيين وبين أهل البحرين إلى القيم البريطاني في بوشهر إذا لم يستطع الوكيل المحلي في البحرين تسوية هذه الخلافات . وكذلك القيم البريطاني منح وساطته بشأن المنازعات التي تقع بين رعايا الإمارة وبين أحد سكان موالي الخليج التابعة لقبائل حاوية لبريطانيا .

وقعت هذه المعاهدة في ٣٠ مايو سنة ١٨٦١ وهي بمثابة تطبيق لاتفاقات الهدنة التي سبق عقدها مع مشيخات الساحل بالنسبة لجزر البحرين ، يضاف إلى ذلك الاتفاقيات التنصلي والقضائية التي أدخلت من قبيل في مسقط ولكن البحرين لم تصل بعد إلى نظام الحماية الرسمي .

(١) Aitchison vol. 7, p. 51

اللازمات تدل على أنه لم يصدر إلا لأسباب تتعلق بمنازعات أمسية ، ولم تكن الحكومة الفارسية على كل حال قادرة على وضعه موضع التنفيذ كما لم يكن محمد بن خليفة نفسه يرضى بالتنازل عن سلطاته لو أنه علم بأن فارس تمتلك القوة البحرية الكافية لاحتلال بلاده .

اعتبرت بريطانيا هذا الإعلان غزلاً بسياسة الوضع الراهن ، ولذلك أسرع جونس القيم العام في بوشهر بإبلاغ القبا إلى رولنس الوزير الإنجليزي بطهران ، ووصف هذا الحادث بأنه شديد الخطورة بالنسبة لبريطانيا . ولكن رولنس آو لا يشير هذا الموضوع في مناقشة دبلوماسية صاخبة قد تلفت نظر الدول الأوروبية الأخرى وخاصة روسيا وتؤدي إلى تدخلها في سياسية منطقة الخليج .

لذلك اكتفى رولنس بنصح الحكومة الفارسية بعدم القيام بأي عمل عسكري في الخليج قبل طرح المسألة للبحث في لندن ^(٢) . ولكن عندما تلقى رسل وزير الخارجية في ذلك الوقت تقرير رولنس عن مشكلة البحرين أحاله إلى مكتب الهند وبعد مشاوره مع الحاكم العام بكلكنا في ٢٨ فبراير سنة ١٨٦١ قرر أنه لابد من إعلان البحرين إمارة منفصلة عن الدول المجاورة . وبذلك اتخذت بريطانيا الخطوة الحاسمة التي كانت تتردد في اتخاذها من سنة ١٨٤٠ ويلاحظ أنها اتخذت في الوقت الذي تحول فيه حاكم البحرين عن صداقتها ، ولذلك اضطرت لاستعمال وسائل الضغط لفرض شروطها على حاكم البلاد ، ولو أنها اتخذت نفس هذا القرار قبل سنة ١٨٦٠ لما احتاجت إلى استخدام مثل هذه الوسائل .

خرج جونس على رأس أربع سفن حربية بريطانية ، وبعد حصار لبناء الثامنة قدم نص معاهدة جديدة إلى محمد بن خليفة لتوقيعها . وتشير مقدمة المعاهدة إلى أن البحرين إمارة فاعمة بذاتها وتحدد أهدافها كما يلي :

(١) 249 vol. 60 F. O. رسالة من جونس إلى رولنس بتاريخ ١٧/٤/١٨٦٠

وقد وضع رولنس الشيفر البريطاني في طهران مؤلفاً ماماً عن الصراع البريطاني الفارسي لآسيا يسمون : England and Russia in the east.

وبهذه المناسبة أحياى كلابندون وزير الخارجية على خطاب محسن خان السفير
الارمني بتصريح هام في ٢١ أبريل سنة ١٨٦٨ ومع أن التصريح غامض بعض
الشئ إلا أن فارس أخذته أساساً هدماً لادعاءاتها حيناً أثارت قضية البحرين في
عمية الأمم سنة ١٩٢٧ . ويشير التصريح إلى أن هدف بريطانيا من الاتفاقات
السابقة مع حكم البحرين هو منع الاضطرابات البحرية وتجارة الرقيق . وقد
عقدت هذه الاتفاقات في وقت لم يكن لادرس فيه أى تمثيل في تلك الجزر . ومع
هذا بنا كان بإمكان فارس أن تؤدى هذه المهمة فإن بريطانيا ترحب بذلك لأنها
ستخفف عن أعبائها ، وهي راتفة من أن الشاه لا يرضى بالاضطرابات وتنفى
الحكومة البريطانية أن تحير الشاه بعد ذلك بجميع الإجراءات التي تتخذها بشأن
البحرين مطلقاً ، إلا إذا دعت الضرورة اتخاذ إجراء . سريع فتقوم بإبلاغه فيه . بعد
والصفة العامة التي استندت إليها فارس هي قول كلابندون بأن بريطانيا كانت
تجاهل في السابق احتجاجات فارس بالنسبة للبحرين ، أما الآن فتستولى نتائجها
لهذه السابقة .

ومن الواضح أن هذه العبارة لا تعنى اعتزالاً بالسيادة كما ستؤكد الحكومة
البريطانية نفسها بعد ذلك بقليل ^(١) .
لم يستسلم محمد بن خليفة بعد خروجه من البحرين ، بل ذهب إلى الكويت
حيث حاول أن يصلح التوسط بينه وبين أخيه . وقبل على بن خليفة عودته
على مسؤوليته . وقد لاحظ محمد أن الاستياء عام من حكم أخيه الذي أبتل الناس
بالضرائب - ربما القوة ، بالترهات التي فرضها بريطانيا ، ولذلك رأى الفرصة
ساعمة لاسترداد السلطة مما استدعى تمخلا عسكريا بريطانيا ثانياً . وفي أثناء
عازله انزعاج الحكم من أخيه اتصل محمد بالحكومة العثمانية التي أرسلت من

(١) انظر مقننون التصريح في 172 vol. 1
Adamiyate Chapter 5
Farugi p. 78 S.O

لم تسكمل الاتفاقية حسن التناهم باستمرار بين محمد بن خليفة وبين الأمير
فوق سنة ١٨٦٧ بعد توقيع المعاهدة بست سنوات شن محمد بن خليفة غارة على
جزيرة قطر التي كان يعتبرها من توابعه ، ومع ذلك فقد اعتبرها بريطانيا غزاة
للاتفاق سنة ١٨٦١ لذا أنهزى اللغم البريطاني بالعودة إلى بلاده ، ولكنه استمر
محله الانتقامية في قوى قطر . وقبل أن تتدخل السلطات البريطانية بالتدخل
فيماثل قطر نفسها بهجوم متباد مما أحدث خسائر كبيرة في الجانبين ، لذلك قر
نظراً بمحاصرة البحرين في أغسطس سنة ١٨٦٧ ولم يكن في استطاعة محمد بن
خليفة المقاومة ففر إلى داخل بلاد العرب تاركا السلطة لأخيه على بن خليفة .
ولم يرفع الإنجليز حصارهم إلا بعد أن تمهد الحاكم الجديد باحترام اتفاق سنة ١٨٦١
وعلاوة على ذلك قبل عدة شروط تأديبية فرضها القيم العام ، ومما جاء في مقضا
تلك الشروط ٥ : بأن محمد بن خليفة ارتكب عملاً من أعمال القرصنة فإن منه
الشرعية كحماً ك البلاد قد زالت عنه ٥

أما الشروط ذاتها فكانت غاية في القوة ، فهي تقضى بتسليم جميع السفن
الحربية التي تمتلكها الأسرة الحاكمة من آل خليفة . ودفع مبلغ مائة ألف دولار
غرامة إلى القيم البريطاني ، يدفع منها ٢٥ ألفاً فوراً وينتسب الباقي على ثلاث
سنوات . إبعاد محمد بن خليفة نهائياً عن حكم البلاد وتسليمه إلى القيم العام
في حالة عودته إلى البحرين . وإذا خال الحاك هذه التعهدات يعتبر هو
نفسه قراصناً . تعيين وكيل دائم لحاكم البحرين في بشهر حتى يتفق ارشادات
القيم العام .

يلاحظ أن هذه الشروط كانت تنسى سبب البحرين بسرعة أكثر من غيرها
نحو الحجاز ، إذ أن تجريدتها من القوى البحرية يحمل بريطانيا بضرورة الحال
مسؤلة عنها . وقد أدركت الحكومة العثمانية منزى هذه التطورات ، ولذلك
عادت التذكير بادعاءاتها لدى حكومة لندن .

٤ - ظهور إمارة قطر

جاء ظهور قطر كوحدة سياسية متأخراً عن مشيخات الساحل الجنوبي الأخرى ، وكانت شبه الجزيرة تخضع أحياناً للدولة السعودية ، وأحياناً لإمارة البحرين ولما كان النظام القبل هو السائد في قطر فكثيراً ما كانت بعض القبائل تغنن ولائها للبحرين ، والبعض الآخر للحكومة الرشيد ، وقد لا تتبع حكومة من الحكومات النطقة نسبياً .

ولم يقابل قطر من آل النعيم التي لها فرع كبير في عمان ، والناسير التي تنتشر أيضاً في أبو ظبي ، ثم بنو هاجر . وبدلاً من ذلك على أن التوزيمات القبلية لا تخلق دائماً التفضيلات السياسية . ومن الناحية الذهنية انتشرت الحركة الوهابية في قطر ، ومع ذلك فإن سلاسلها بالبحرين ظلت قوية .

ورعنا يرجع ذلك إلى أن آل خليفة أنفسهم تناوأت في قطر وظلوا يدعون حق السيادة على ميناء الزبارة الذي خرجوا منه لنزول البحرين حتى بعد قيام إمارة قطر في سنة ١٨٦٨ وفي أوائل القرن التاسع عشر اتخذ رحمة بن جابر من حور حسان على الساحل الغربي لشبه الجزيرة وكراً لها لاجتذاب سفن صيد اللؤلؤ وخامسة من البحرين . وما أن تخلص آل خليفة من هذا الخطر الدائم حتى استردوا بعض نفوذهم في شبه الجزيرة .

وما لبثت الدولة السعودية أن تمت في عهد فيصل بن تركي ، فاحتل السديري نظراً في سنة ١٨٥١ وطالب حكومة البحرين بتناخضات الجزية فكانت نفسها عن نفسها وعن قبائل شبه جزيرة قطر أيضاً . ولذلك يعتقد البعض بأن عبارة « البحرين وتوابعها » التي وردت في معاهدة سنة ١٨٦١ المقودة مع بريطانيا كانت تعني قطراً ولو أنه لم ينص قط عليها بالاسم .

جديد مهدي خان كممثل لها في البحرين غير أنها كانت عاجزة عن فعل شيء ما لتأييده عسكرياً .

وقد كشفت هذه الأحداث العسكرية لمارس كيف أن التفادها للقوة البحرية هو الذي أصعب مركزها في الخليج العربي ولم تكن بريطانيا ترحب بقيام دولة بحرية أبداً كانت في تلك المنطقة ، لذلك انجذبت فارس متعددة سنوات إلى الولايات المتحدة لمساعدتها في بناء أسطول دون أن تفكر بنتيجة هامة . وفي أوائل سنة ١٨٧٠ استدعت خبيراً فرنسياً يدعى بوراي فاقترح أن تزجر فارس للربنا جزيرة حراجل مدة ٩٩ سنة مقابل مساعدة فرنسا في بناء الأسطول الطوسي ، ولم تنجح الحرب السبيلية القوية لتأجبه هذا المشروع ، حيث عرضت بريطانيا أن تقوم بنفس المهمة إذا تنازلت فارس عن ادعاءاتها في البحرين ^(١) .

استنتج مما سبق ^(٢) : مالانها هي التي حالت دون استيلاء فارس على البحرين خلال القرن التاسع . وهذا صحيح نظراً لثقلها البحري ، ولكن على فرض أن بريطانيا لم تنجح ذلك فإن القوى العربية المحيطة كانت من الأخرى تلك قوات بحرية لا يستهان بها في ذلك الجنوب أنفسهم ، وكان يستصعبهم أن يردوا عن أنفسهم محاولات الغزو . وهذا لا يقلل من قدرته يستند من القول ما يروى الحاكم البريطاني للبحرين في سنة ١٨٧٠ يذكر أن الحكومة العثمانية يقول فيها إن تجارة فارس ما كانت تستطيع أن تمتنع بالأمن لولا وجود الأسطول البريطاني في الخليج ، ولو تخلت بريطانيا عن الاهتمام بأمن الملاحة فإن مستط وغيرها من الإمارات العربية ستعرض شواطئها فارس وملاحمتها للخطر ، وقد يظهر مناسف آخر جديد هو الدولة الشامية التي لم تكن تنتم حتى الآن بوضع قوة بحرية لها في الخليج ^(٣) .

(١) أبرز ما روى P. B. Faragel هذا الحادث الدلائل على سقوطها حتى فارس في البحرين .
(٢) فلا من جمال زكريا فارس من ١٧٣ رسالة تحت الطبع .

ارتباطاً أوثق بجملة بريطانيا . ولذا استسير قطر في خط منابر للشيخات حتى قيام الحرب العالمية الأولى .

إن سياسة الوضع الراهن التي اتبعتها بريطانيا طوال القرن التاسع عشر هي التي أدت إلى هذا التفكك الذي نشاهده الآن في شرق جزيرة العرب ، وهي التي استندت من ذلك التفكك في نهاية الأمر .

وفي السيفيات من القرن التاسع عشر تعددت ثورات قبائل قطر ضد حكومة البحرين^(١) ولم تشارك قبائل النعيم في بداية الأمر . لذلك لم تنجح الثورة التي قام بها عيسى بن طريف سنة ١٨٦٣ وكان محرك تلك الثورات الكورن المقررة على القبائل رغم فقر البلاد والتي ترهقهم بها الحكومات المختلفة . وفي سنة ١٨٩٦ تجمعت معظم قبائل قطر تحت قيادة محمد آل ثاني الذي كان يعمل جامعاً للضرائب لحساب آل خليفة ، ولكن نظر لعدم وفائه بجميع الالتزامات أرسل محمد آل خليفة أحد أقرانه للقيام بهذه المهمة ، ولذا عم السخط شبه الجزيرة واضطرت حكومة البحرين إلى الاستعانة بأبو ظبي أحياناً وبحكومة الرياض أحياناً أخرى ، واتسع نطاق القتال مما أعطى بريطانيا الفرصة للتدخل في النزاع ، فاعتبرت تدخل البحرين منافياً لمعاهدة سنة ١٨٦١ وتوسعت لتنظيم العلاقة بين البلدين على أساس أن يدفع آل ثاني مبلغاً معيناً للبحرين نيابة عن قبائل النعيم . ويجوز أن يدفع آل ثاني مبلغاً معيناً للبحرين نيابة عن القبائل التي تسلم بالولاء له^(٢) ، ولا يعني ذلك تبعية قطر لأي من الحكومتين . وهكذا صار لقطر إمارة مستقلة تحت زعامة آل ثاني . وينتمي آل ثاني إلى قبيلة العانيد وهي ليست أكبر قبائل قطر ومع ذلك فقد حافظت على الإمارة لأنها راغت كياناً للقبائل الأخرى . ويتضح مما سبق أن بريطانيا هي التي ساعدت على قيام هذه الإمارة ووجدت في أحداث سنة ١٨٦٨ فرصة لربط قطر بجملة نظام الهدنة .

على أن الخطط البريطانية لم توفق في الاحتفاظ بالنفوذ على قطر مثل الشيخات الأخرى ، ففي العام التالي لقيام الإمارة انتزع قادم آل ثاني السلطة من أبيه ، ورأى أن يتخلص من أعباء الضرائب التي تتقفل قبائل شبه جزيرة ، ووجد في العنانيين حلفاء طبيعيين يحمونه من أطاع آل خليفة الذين ارتبطوا

(١) التيهاني من ١١٣ وما بعدها .

(٢) انظر حرمان والساحل الجساري للخليج العامي من ٢٨٠ وما بعدها .

ومع أن هذا الخط الملاحة البخارية أصبح أسرع طريق المواصلات بين أوروبا والهند إلا أن الأوساط المختلفة في بريطانيا لم تشأ أن تجعل مواصلاتها مع الهند تحت رحمة مصر وفرنسا ، لذلك ناقش كل من مجلس العموم ومجلس إدارة شركة الهند الشرقية سنة ١٨٣١ موضوع إنشاء خط ملاحي آخر عبر الخليج نهري دجلة والفرات .

ولهذا الغرض أرسلت بعثة فنية برئاسة الكولونيل تينيسي طافت بأحما العراق وانتهت إلى صلاحية النهرين الملاحة البخارية .

والحق إن ولاية بغداد أصبحت منذ زمن طويل حلقة مكملة لطريق الخليج العربي ، ولما تطالعت بريطانيا إلى إحراز تفوز هناك منذ أوائل القرن التاسع عشر . ونفس بوادر تلك السياسة في تأييد الإنجليز لأحمد المهدي الكرجي سليمان كوشك الذي أراد إعلان استقلاله عن حكومة استانبول سنة ١٨٠٧ وكانت العلاقات بين بريطانيا وبين الدولة العثمانية قد انقطعت ، فأرسل كاتنج وزير الخارجية آنذاك إلى القنصل البريطاني في بغداد يحثه على تأييد الحركة^(١) ، لهذا كان من المتوقع أن تعمل الدولة العثمانية بعد إسقاط دولة المهدي الكرجي في العراق سنة ١٨٣١ على مقاومة التسلل البريطاني ، والذي حدث هو العكس فقد تناولت السلطات العثمانية مع بعثة تينيسي وفي سنة ١٨٣٥ صدر فرمان يرضى لسياسة بريطانيا في الملاحة في الرافدين بصورة منتظمة . ثم سمحت السلطات العثمانية بعد ذلك بأن تلحق بهما سفينة حربية للحراسة . ولم تعد بريطانيا فقط بتل البريد على هذا الخط وحسب ، بل فتحت شركة الهند الشرقية أسواقاً جديدة في آسيا الوسطى عبر الخليج .

(١) F. ٤٥٠. vol 1 (١) انتخاب من كتاب لك مارفورد جونز تاريخ ١٨٠٧/١٨٠٨.

الفصل الثامن

المظاهر العامة للنفوذ البريطاني

١ - الخليج وطرق المواصلات

برزت أهمية الخليج الاستراتيجية بالنسبة للهند أثناء الحروب النابليونية ولم تقتصر نظرية المستعمرين البريطانيين للخليج بعد القضاء على نفوذ فرنسا في الشرق ، إذ لم يمض زمن طويل على ذلك حتى بدأ الوجود الروسي نحو الجنوب في اتجاه فارس ، وتوضعت تلك البلاد من جراء هذا التنافس الاستعماري لمخبرين عسكريين بريطانيين : الأولى من سنة ١٨٣٨ إلى سنة ١٨٤٢ والثانية من سنة ١٨٥٦ - ١٨٥٧ وزلت كلها المثلين بشواطي فارس الناحية للخليج .

وحسب يدون تهديد الدول الأوروبية الأخرى كانت بريطانيا تعتبر الخليج العربي طريقاً هاماً من طرق المواصلات وأسرها بين الهند وأوروبا ، وقد رأينا كيف استغضته في القرن الثامن عشر لنقل البريد ، وفي الثلاثينات من القرن التالي أخذت الملاحة البخارية تعمل على الملاحة العربية الشراعية في المحيط الهندي وبتدريج أخذ دور الملاحة العربية يقتصر على التجارة بين الموانئ الصغيرة في الخليج وفي شرق أفريقيا .

وبمناسبة انتشار الملاحة البخارية تجددت المنافسة التقليدية بين طرق البحر الأحمر والخليج العربي ، وقد أنشأت بريطانيا خطاً ملاحياً يصل بين بومبي والسويس على أن يرتبط بالخط الفرنسي الذي يصل ما بين مارسيليا والأكسندرية

لم تنف المشروعات البريطانية عند خطوط الملاحة ، ففي سنة ١٨٥٦ أقرن بريطانيا أن تربط الخليج بالبحر الأبيض عن طريق خط حديدي يمر بولاني بننداد وحلب . وإذا كان هذا المشروع لم يوضع موضع التنفيذ فذلك لأن الحكومة البريطانية رفضت أن تضمن حقوق الساهمين .

كذلك أصبح الخليج العربي من أولى المناطق في العالم التي مدت إليها الأسلاك البرقية ، فقد كشفت ثورة الهند سنة ١٨٥٧ عن ضرورة نقل الأنباء على وجه السرعة ، وحسرت بريطانيا على إنشاء شبكة برقية تمتد من الهند إلى الخليج ثم تمر عبر العراق أو إيران . وكانت الدولة العثمانية من جهتها تعمل على الاستفادة من خطوط البرق لتأكيدها سلطتها في الولايات ، ولذلك أنشأت لحسابها شبكة برقية تصل ما بين الأستانة وبنداد ، وقد ربطت هذه الشبكة بالخط البريطاني ، وقد رأت بريطانيا تأمينا لمواصلاتها البرقية أن تنشئ خطا آخر من بوشهر إلى طهران فينداد ، وذلك لعدم اطمئنانها إلى وجود سلطة عثمانية قوية جنوب العراق .

وقد استندت خطوط البرق عند اتفاقات مع مسقط والشيخات العربية المحتلة أولا للساح يأقمة المنشآت ، ثم للتمهد بالحفاظ عليها . وقد شئت هذه الاتفاقات الدخ على معاقبة الذين يلحقون الأضرار بأعمدة البرق (١٨٦٤ - ١٨٦٥) .

٢ - مسألة تجارده الرقيق

مازال الخلاف دأرا حول أهداف بريطانيا من مكافحة تجارة الرقيق ، يدعى معظم المؤرخين الإنجليز أن العوامل الإنسانية كانت تحمّل الرجة الأولى ، لكن السامع عند غيرهم هو أن بريطانيا حققت من وراء ذلك مصالح اقتصادية وسياسية . وتشتمل المسألة الاقتصادية في أن الاستثمار أخذ يتوغل في القارة الإفريقية لأن الثمن التاسع عشر ، فمن مصلحة بريطانيا كدولة مستعمرة أن تبقى اليد العاملة

مستعمراتها . ولا تسمح بنقلها إلى الخارج . ومن الناحية السياسية كانت الاتفاقات التي تعقد بين بريطانيا من جهة والدول الأوربية أو الآسيوية والإفريقية من جهة أخرى تمنح الأسطول الحربي البريطاني حق التفتيش على سفن الدول المتعاقدة ، مما أكسبه نفوذا أعظم فوق البحار .

والذي يعيننا هنا هو بيان كيف كانت مكافحة الرقيق مظهرا من مظاهر الفؤد البريطاني في الخليج . بدلنا على ذلك مشلا أنه حينما طلبت الدولة العثمانية عام ١٨٤٧ مشاركة بريطانيا في مكافحة تجارة الرقيق بالخليج العربي قبول طلبها بالرفض .

وبينا كل الأوربيون يركزون نشاطهم في نقل الرقيق من غرب أفريقيا إلى العالم الجديد ، كان العرب يعملون على الساحل الشرقي لأفريقيا ، واشتهر العثمانيون بصدمة خاصة بهذا النوع من التجارة وحققوا من وراسها أربابا هائلة . ولم يكن الرأي العام حتى في أفريقيا نفسها قد تطور بعد ليستذكر هذا النوع من المـ لاقات الأجنبية ، فإن رؤساء القبائل الأفريقية هم الذين كانوا يسترقون مواطنيهم نتيجة حروبهم القبلية ، ثم يحملوهم إلى الموانئ ليدعوم للتجار الأوربيين أو العرب .

ويرجع أول تدخل بريطاني في هذه المسألة بمنطقة الخليج إلى مساهمات سنة ١٨٢٠ التي نصت على أن تجارة الرقيق نوع من القرسنة ، ولكن دون تحديد الوسائل التي تكفل وضعها موضع التنفيذ . أما أول معاهدة محددة فقد عقدت مع السيد سعيد حاكم مسقط سنة ١٨٢٢ وكان فاكور حاكم جزيرة موريشيس هو الذي اعتم بهذه القضية ، نظرا إلى أن تلك الجزيرة تقع قريبا من ساحل أفريقيا الشرقي . فبث القيم العام بالخليج إلى مسقط حيث صادف استسلاما تاما من حاكمها ، بل إن السيد سعيد لم يفتقد روح الجملامة نحو حلفائه حينما قال إن هذه الاتفاقية ستكلف عمان خسائر فادحة ، ولكن حتى لو ترقب عليها خسائر أعظم فسنلنا نفس الشيء . إرضاء للحكومة البريطانية . وقد حظرت معاهدة سنة ١٨٢٢ على التجار العرب

سنة ١٨٤٢ بأن تجارة الرقيق قد ازدادت في منطقة الخليج رغم الإجراءات البريطانية. لذلك تدخل أردن مرة ثانية وعرض على السيد سعيد حظر تجارة الرقيق بصفة تامة.

أثار هذا العرض الذعر في نفس السيد سعيد لأنه لا يريد أن يفقد صداقة الإنجليز، لذلك عرض حلاً وسطاً^(١) وهو أن توقف التجارة بين الممتلكات الأفريقية وبين الممتلكات الآسيوية من السلطنة. وعلى هذا الأساس تم عقد معاهدة جديدة في أكتوبر سنة ١٨٤٥ وهي تنص بالإضافة إلى ما ذكر على تدخل السيد سعيد لدى الرؤساء الآخرين في الجزيرة العربية حتى يمتنعوا عن جلب الرقيق من ممتلكاته الأفريقية. وأهم من ذلك الترخيص للسفن البريطانية بتفتيش السفن المانية في جميع أنحاء الخليج الهندي والخليج بما في ذلك المياه الإقليمية. فإذا ثبت مخالفاتها للمعاهدة جاز للسلطات البريطانية القبض على البحارة ومصادرة السفينة.

وعسكناً تصور إلى أي مدى أساء البحارة الإنجليز استخدام حق التفتيش إذا عرفنا أنه كانت تصرف لهم مكافآت مالية بمقتضى قانون صدر في سنة ١٨٤٨^(٢) وينص على منح البحارة مبالغ معينة عن كل رأس تضبط من الرقيق، أو عن كل طن من حمولة السفينة المصادرة. ويعترف المؤرخون الإنجليز بسوء استخدام الأسطول البريطاني لحق التفتيش، وكيف كانت السفن العربية تصادر أحياناً لجرد أن بحارتها من الزنوج. كذلك كان من السهل إلقاء التهم على أي حاكم عربي يخالف في سياسته الأوامر البريطانية.

أرغمت مشيخات ساحل عمان على عقد معاهدات وخضعت سفنها للتفتيش البريطاني وطلبت عليها معاهدة سنة ١٨٤٥ المعقودة مع مسقط. ثم أدخلت

(١) FO 84. vol 540 خطاب من السيد سعيد إلى أردن في أبريل سنة ١٨٤٤
(٢) G. P. G. vol 2. P. 1485

أن يبيعوا الرقيق في الأقطار التابعة لدول مسيحية. وهذا يعني إغتيال المستعمرات البريطانية والفرنسية والبرتغالية في وجه التجار العرب — ولوضع هذه الاتفاقية موضع التنفيذ سمح للأسطول البريطاني بتفتيش السفن المانية في المحيط الهندي وراء خط يقع على ستين ميلاً من ساحل أفريقيا الشرقي، أي أن تجارة الرقيق بين شرق أفريقيا والخليج استمرت دون تدخل خارجي إلى أن كان عقد معاهدة الصداقة والتجارة بين بريطانيا وبين مسقط فاستغلت الأولى هذه الفرصة لتتهدد رقبتها على الملاحة العربية، وألحقت بالمعاهدة أنظمة جديدة للتفتيش وذلك بتوسيع المنطقة التي يسمح فيها للسفن البريطانية بتتبع السفن المانية، وبإلحاح حق التفتيش لسفن البحرية الهندية بالإضافة إلى سفن البحرية للسكنية في الخليج كان نادراً في ذلك العصر. كما استاء السيد سعيد لهذا الوضع لأنه اعتبر ممارسة سفن تملكها شركة تجارية لحق التفتيش على سفنه إعداءاً لمركزه الأدبي أمام رعاياه.

وكان لسعيد مبرر قوي لهذا الاستياء، فإن نظرة حكومة الهند إلى مكافأة تجارة الرقيق كانت أكثر تأثيراً بالأهداف السياسية المحضة، وتريد أن تتخذها بصراحة أداة لتقوية نفوذها في البلدان المجاورة. وقد رأينا كيف رفضت حكومة الهند إشراك الدولة المانية معها في إجراءات المكافأة. وكتب هنل بهذا المد يقول: «إن الدولة المانية ستقتض هذه الرقابة حجة لإرسال أسطول حربي إلى الخليج، وسيكون هدفها الحقيقي هو إعادة توطيد نفوذها في بلاد العرب. فلا بد إذن من توقيع اتفاق بين الدولة المانية بضمين لبريطانيا وحدها حق التفتيش»^(١).

يحل على ذلك أيضاً أن فرنسا عارضت مبدأ التفتيش البحري، ورفضت أن تشترك مع بريطانيا في عمارته حتى لا تطالب هي الأخرى بالرضوخ له. لذلك كله لم تشمر الإجراءات، البريطانية لفصح شيل السفير البريطاني في طهران

البحرين في هذا النظام ، وتهدد شيخها بالإضافة إلى ذلك بتسليم جميع السفن التي قد تضبط في موانيه حاملة الرقيق .

وإذا كانت الإمارات الصغيرة قد استسلمت لإجراءات التنشيط البريطانية ، فإن الدول الكبيرة نسبياً مثل فارس والدولة العثمانية قاومت التدخل البريطاني ، لما يطوى عليه من انتهاك لسيادتها . ولجأ بالمستوطن إلى أسلوب التهديد لكل من حكومتى الآستانة وطهران . ورغم ذلك لم تستطع أن تفرض نفس الشروط التي سبق أن فرضتها على الإمارات العربية .

حاولت فارس أولاً أن تصدر تصريحاً منفرداً من جانبها يحظر استيراد الرقيق من أفريقيا ، غير أن بالمستوطن عدد بأن لإجراءات التنشيط البحري قد طبقت على الدوائر بالرغم من أنها رفضت عند اتفاقية سيقا المسمى - فن الأفعال كعلم التنشيط عن طريق معاهدة . وبناء عليه عقدت معاهدة سنة ١٨٥٧ مع فارس ولكنها تحتوي على عدة تحفظات مثل استثناء السفن التابعة للحكومة من حق التنشيط ، كما يشترط حضور ضباط من القرم عند استعمال هذا الحق من جانب بريطانيا ، وكذلك تلص الماهدة على الاكتفاء بحصادة الرقيق دون السفينة الشبه بحمله . فاما السفينة وبجارتها فيجب تسليمها إلى أقرب ميناء فارسي وبعد نشوب الحرب الإنجليزية الفارسية سنة ١٨٥٦ ، ١٨٥٧ . وما زلت عليها من اذلال النفوذ البريطاني في فارس استطاعت بريطانيا أن تفرض معاهدة جديدة سنة ١٨٥٩ تسمح بتفتتها بتفتيش جميع السفن الفارسية دون استثناء ، وينطبق ذلك على السفن الأجنبية الموجودة في المياه الإقليمية الفارسية .

كان تعاون الدولة العثمانية ضرورياً لتنفيذ سياسة إلغاء تجارة الرقيق ، وذلك لأن كثيراً من الأقطار الواقعة على الخليج العربي والبحر الأحمر تقر لها بالسيادة ، وتوقع عليها على سلفها . وقد تم عقد معاهدة بين بريطانيا ومصر في هذا الشأن سنة ١٨٧٧ . أما الدولة العثمانية فكانت قد اكتفت بإصدار تصريح من جانبها يحظر التجارة بين ولاية بغداد وشرق أفريقيا . ولم تدخل في معاهدة رسمية مع بريطانيا إلا في

(١) Aitchison . vol. 10, p. 76

سنة ١٨٨١ وتضمن هذه الماهدة بأن يكون حق التنشيط سارياً على الطرفين ، ولكن من الواضح أن بريطانيا هي التي مارست تطبيقه فعلاً . كذلك نصت الماهدة على أن تسلم السفن الحاملة لأفروب سلطة عناية لحاكمها ، بخلاف الإمارات العربية الصغيرة التي تركت هذا الحق للمحاكم البريطانية .

كانت عمان هي أكثر أقطار الخليج تأثراً بالإجراءات المضادة لتجارة الرقيق ، وذلك لأن النظام الاجتماعي والاقتصادي لربط ارتباطاً وثيقاً بالرقيق . وقد أدى ذلك إلى قيام عدة ثورات ضد حكومة مسقط التي استسلمت لبريطانيا في هذا الشأن . ومن جهة أخرى استمرت التجارة تخارس سراً ، ولجأ العمانيون إلى نقل الرقيق برأ من شرق أفريقيا إلى الصومال ثم يعبون خليج عدن إلى حضرموت نجياً للورود بالبحر ما أمكن . ونتج عن ذلك أن ازدادت الآلام التي يتحملها الرقيق إلى الرحمة (١) .

ورغم أن الإجراءات البريطانية لم تعد عملياً في إحداث تغيير في مجتمع شبه الجزيرة العربية ، فقد منعت بريطانيا في تشديد المعاهدات المضادة للرقيق ، ففي سنة ١٨٧٣ أثار الدكتور هنري فريز صحة في البرلمان البريطاني حول هذا الموضوع ، وقام برحلة في المحيط الهندي زار خلالها كلا من مسقط وزنجبار ، وأجبر الحكومتين على التصديق بالناء تجارة الرقيق نهائياً ، وكان رغش سلطان زنجبار ضاعب لاستئناف دفع الإعانة السنوية إلى مسقط فأصبح مضطراً إلى إلغائها نهائياً ، وحلت بريطانيا محل زنجبار في تقديم إعانة سنوية لتلك الإمارة العربية التي ازدادت تها في نهاية القرن التاسع عشر . وأخيراً ألغى نظام الرقيق نفسه في إعلان صدر عن سلطان مسقط سنة ١٨٩٧ .

لقد كان من الأجدى لمكافحة نظام الرق مساعدة المجتمع على الأخذ بأساليب

(١) انظر من هذا الموضوع

Catching of the Slave trade in the Indian Ocean.

وبين الشرق الأقصى وأوروبا من جهة أخرى .

وأصبحت السفن البريطانية تتردد على ميناء بوشهر بصفتها دافعة . وبنت التجارة البريطانية هناك نحو مليوني جنيه سنوياً في أوائل القرن العشرين . ولما كانت فارس كسوق للأسلحة تتقدم على القسم العربي من الخليج ، فقد اهتمت بريطانيا بفتح الطرق البرية بين موالي الخليج وبين مراكز العمران الرئيسية في فارس (١) وكانت شركة للنس صاحبة امتياز الملاحة في الرافدين تسمى للحصول على امتياز مماثل في نهر قارون الذي يقع مصبه عند شط العرب . وأرسلت الهندسين لدراسة الملاحة التي بُنيت صلاحيتها إلى مسافة ١١٧ ميلاً في الداخل ، غير أن بريطانيا ظلت تصطلم بمعارضة شديدة من الحكومة الفارسية ، لأن مثل هذه الامتيازات كانت تقبها في العادة سيطرة سياسية وعسكرية أحياناً . ومما زاد مخاوف حكومة طهران من هذا الأمر وقوع إمارة الحمرة العربية على مداخل النهر فصار هناك احتمال بأن يؤيد الانجليز زعقة الشيخ الحمرة إلى الاستقلال التام . وأخيراً استقر الرأي عام ١٨٨٨ على فتح النهر للملاحة الدولية دون احتكار شركة من الشركات . ومع ذلك فقد تبين أن السفن الإنجليزية وحدها تقرّبها التي استفادت من هذا النظام . وكانت الخطط البريطانية تأمل في إقامة خط حديدى بالإضافة إلى فتح نهر قارون للملاحة كمشروع إنشاء خط بين بوشهر وطهران ، غير أن مثل تلك المشروعات كانت ذات طابع سياسى ، وتحتاج إلى اتفاقات دولية .

كانت بريطانيا تصنع طبعاً لماهدة معقودة عام ١٨٤١ مع فارس بحق الدولة الأولى بالرعاية ، وقد نصت تلك الماهدة أيضاً على حق تعيين قناصل ووكلاء تجاريين في جميع المدن الفارسية مع القنصليات السكّانية لحايتهم ، ولكن الأطماع الاستعمارية نظرت من تلك الامتيازات المادية إلى الرغبة في احتكار بعض السلع . فمعرض مشروع على حكومة طهران بأن تحتكر شركة بريطانية تجارة التبغ ، فأنار ذلك رد

(١) Curzon Persia and the Persian Question

الحضارة الحديثة وهذا هو النهج الذى اتبعته الإدارة المصرية مثلاً في السودان . أما بريطانيا فقد جعلت من مكافحة الرق أداة للتدخل في شئون عمان الداخلية في ذلك حق محاكمة المخالفين لأوامر الإناء ، واتسعت هذه المحاكمات بالعد ، وروح الاستعلاء حتى تعرضت لانتقاد بعض الكتاب الإنجليز أنفسهم . ولم يكن بريطانيا مهية لأن تلعب دور ناشر الحضارة في بلاد العرب ، وهكذا استقر الز شائفاً في شبه الجزيرة مدة طويلة وانتظرت الحكومة السعودية حتى عام ١٩١٢ لى تصدر التشريعات الرائدة للرق .

٣ — التدخل الاقتصادي

كانت إجراءات مكافحة الرقيق حجة لمناخنة دوريات الأسطول البريطانى في الخليج العربى . ولا شك أن السيطرة البحرية على مياه الخليج هى التى أدت إلى التدخل المستمر في جميع المشكلات السياسية أو العسكرية التى شهدتها المنطقة بالمعنى الجغرافى الواسع . فمن الخليج امتد التدخل البريطانى إلى قلب ولاية بندا . وسرى كيف قاومت بريطانيا الإجراءات الثمانية للتسليم شط العرب ، كما أنها أخذت تتوسط في الخلافات على حدود ولاية بندا بين الدولة العثمانية وبين فارس وأصبحت طرفاً في الماهدة التى وقعت سنة ١٨٤٧ بهذا الشأن .

وفي الجنوب أوقفت بريطانيا تطلعات حكومة طهران للامتداد إلى المحيط الهندى وبسطت حمايتها على الإمارات الإسلامية في بلوختستان وألحقها بمستعمرات حكومة الهند . وهى التى استخدمت خبراتها لتخطيط الحدود بين تلك المحمية وبين فارس في السبعينات .

وقد حلت الملاحة البخارية البريطانية بالتدريج محل الملاحة العربية الشراعية ، وأصبحت أهم وسيلة لنقل التجارة الخارجية بين فارس وولاية بندا من جهة ،

وفي السابق كانت العلاقات بين بريطانيا ومشيخات ساحل عمان تعتمد من التمديدات المنفردة بالامتناع عن الترسنة وتجارة الرقيق. وقد أصبحت هذه التمديدات أداة قوية في يد الإنجليز بفضل تفوقهم البحري. ويبدو أن السلطات البريطانية أساءت استخدام قوتها في فرض الترامات على المشيخات، فكانت تلزمهم بدفع مبالغ كبيرة من المال لأبسط الأسباب. فمثلاً أزم شيخ أبو ظبي بدفع مائة ريال لأنه أطلق عبارات تارية على قطع من الأغنام يمتلكها أحد رؤساء القبائل من غير أتباعه، واعتُرف بالبحر بأن خزنة القيم العام في بوشهر امتلأت بالأموال نتيجة تلك الترامات.

وكانت البحرين منذ عام ١٨٧٠ هي محور النفوذ البريطاني في المنطقة العربية، فإن الشيخ عيسى بن علي بن خليفة الذي تولى الحكم في هذا العالم وصل إلى السلطة إلا نتيجة التدخل العسكري البريطاني لانتجته أليه بحجة غيابه للتمديدات السابقة. وفي عهد الشيخ الطويل الأمد (١٨٧٠ — ١٩٢٤) كبت البحريين بسلسلة من الاتفاقيات حولتها إلى شبه مستعمرة. ورجع أول اتفاق من هذا النوع إلى عام ١٨٨٠ وهو عبارة عن عهد من طرف واحد أعلن فيه شيخ البحرين بأنه لا يتفاوض أو يدخل في اتفاق مع دولة أجنبية بدون إذن الحكومة البريطانية. وكذلك لا يسمح بإقامة مستودع في أراضيه إلا بمشورتها. ثم أكل باتفاق ثان عام ١٨٩٢ عهد فيه حاكم البحرين بعدم التنازل أو رهن أو تأجير جزء من أراضيه إلا بإذن الحكومة البريطانية، وعدم اعتماد عمالين للحدود الأجنبية في بلاده.^(١)

هو إذن نظام الحماية الذي من أم مظاهره الإشراف على السياسة الخارجية للقطر النوع تحت الحماية. ولكن بريطانيا تنشأ أن تسمى هذه الاتفاقيات صراحة بهذا الاسم، بل وصفتها بأنها الاتفاقيات التي تجعل العلاقات مقصورة على بريطانيا

(١) Aitchison vol, II, P: 235-237.

فعل عنيف في الأوساط الوطنية بفضل نشاط جمال الدين الأفغاني، ولم تتمكن الشركة من وضعه موضع التنفيذ. كذلك تطلع الإنجليز إلى الاستيلاء على إدارة الجمارك الفارسية مقابل قروض يمنحونها لحكومة طهران، غير أن الوطنيين أجبروا الشاه على استخدام فنيين من دولة ليس لها نفوذ في الخليج مثل بلجيكا.

ولا شك أن النفوذ البريطاني في الخليج هو الذي مهد السبيل للحصول على امتياز النفط في المنطقة من حكومة فارس عام ١٩٠١ وخلاصة القول إينا نفس منذ القرن التاسع عشر بوادر تقسيم فارس إلى منطقتي نفوذ بين بريطانيا وروسيا.

وفي ولاية بغداد استعاد الإنجليز أكثر من غيرهم من الدول الأوروبية بنظام الامتيازات نتيجة تفوقهم في الخليج، إلا أنهم استطدوا هنا أيضاً بمصارمة وطنية كما هو الحال في فارس. فأراد بعض المصلحين الثمانيين إنشاء شركة كملاحية وطنية للرافدين حتى تكسر احتكار شركة لنش البريطانية كما عملوا على محضن شط العرب لحمايته من الأسطول البريطاني.

ويعد انتشار الجاليات الهندية في موافى الخليج مظهراً من مظاهر النفوذ الاقتصادي البريطاني، فقد استقر الرأي على اعتبار هؤلاء رعياً انجليز ينتمون بالامتيازات القنصلية، وكانوا يعرفون في هذه الأقطار بالبانين ووصل كثير منهم إلى مراكز عالية في مسقط وفارس. وقد أداروا الجراك لحكومة مسقط في كثير من الأحيان. وباستثناء المسلمين منهم لم تندمج الجاليات الهندية في البيئات الوطنية، بل كانت تنتظر تنمية ترونها للمودة بها إلى الوطن حينما تسنح الفرصة.

٤- الاتفاقات المانعة

١ اكتسب النفوذ البريطاني أقوى صوره في الساحل الجنوبي الشرقي لشبه جزيرة العرب ابتداء من قطر حتى مسقط. فقد أخذها هنا شكلاً قانونياً بقصد الاتفاقات المانعة في أواخر القرن التاسع عشر.

بمنع تجارة الأسلحة عام ١٨٩٨ وهي ترخص للسفن البريطانية بتفتيش السفن الموجودة في المياه الإقليمية للإمارات .

كذلك حصلت على تعهد من البحرين والشيخات بدم منحه شركات أجنبية اعتبارات خاصة بالزئو إلا بمشورة الحكومة البريطانية . وفي نفس الوقت عييت وكلاء دائماً في البحرين عام ١٨٩٣ ثم رفع بعد ذلك إلى درجة مستشار ، ووسعت اختصاصاته ، وصار من بينها الإشراف على الأمن ، وفي عام ١٩١١ تعهد حاكم البحرين ألا يسمح للدول الأجنبية بإقامة مكاتب بريد في بلاده . ولهذا الموضوع أهمية خاصة لأن الدول الأوربية كانت تحصل على حصانة لدوائر البريد التابعة لها داخل الأقطار الشرقية .

وأخيراً بلغ هذا التدخل ذروته في إصدار قانون عام ١٩١٣ بحمل البحرين خاصة لتنظيم القانون المدني والجنائي المعمول به في الهند (كما لو كانت مستعمرة) . اختلف إذن وضع الإمارات قبيل الحرب العالمية الأولى . فالبحرين تحولت إلى مستعمرة وإن لم يحمل الاسم ، وصارت للشيخات الست محميات فصلاً . أما مسقط فلن التفرقة البريطانية استند فيها إلى الصلات التاريخية التي نشأت منذ عهد السيد سعيد أكثر مما استند إلى وضع قانوني . وسنرى كيف أن بريطانيا حاولت أن تدعى بأن مسقط لم تفقد استقلالها يوماً ما ، ويرجع ذلك إلى اعتبارات دولية . فقد تعهدت في تصريح ثنائي مع فرنسا عام ١٨٦٢ باحترام استقلال كل من مسقط وزنجبار ، ولكن ذلك لم يمنع بريطانيا في أكثر من مناسبة من التدخل العسكري لتفجئة الحكم الذين لا يستسلمون لها ، وتعيين آخرين تنفق سياساتهم مع رغبتها . حدث ذلك مثلاً عام ١٨٧٠ لإسقاط حكم عزان بن قيس وتعيين توكي بن سعيد .

والحق إن مسقط لم تفلت من زمام الاتفاقات التي تنتقص من سيادتها ، ففي عام ١٨٩١ فرض على فيصل بن تركي اتفاق سرى مقابل الاعتراف بحكومتها .

(الاتفاقات اللاحقة أو exclusive treaties) وفي نفس العام ١٨٩٢ عقدت اتفاقات مائة مع الشيخات ، ويبدو أن ذلك جاء في أعقاب نشاط مبعوثين من الفرس ترددوا على بعض الإمارات منذ عام ١٨٧٧ ولما استغسرت الحكومة البريطانية في مسقط عن هذه الزيارة قبل لها إن هناك مشروع محالف بين دول وأوروبي من جهة ، وبين فارس من جهة أخرى . وبعد قليل عاد مندوب طهران بحمل أعلاماً فارسية لرؤيتها فوق مرآب الشيخات (١) وقد أثار ذلك احتجاجات بريطانية في طهران ، ثم رأى قطع السبيل على فارس وورعا على فرنسا أيضاً بعد هذه الاتفاقات المائة التي صيغت تماماً على صور اتفاقات البحرين .

وفيما على غرض لإحدى هذه الاتفاقات وهي الموقعة مع الشيخ زايد بن خليفة حاكم أبوظبي :

إني لا أدخل أبداً في قرار ما ولا عداوة مع أحد من الدول سوى الدولة البهية الإنكليزية .

٢ - يعتبر رضاء الدولة البهية الإنكليزية لا أميل أن يسكن في حوزة ملكي وكيل من دولة غير الدولة البهية الإنكليزية .

٣ - أبداً لا أسلم ولا أبيع ولا أرهن ولا أعطى للتصرف شيئاً من ممالك لأحد إلا للدولة الإنكليزية .

وتعتبر هذه المعاهدات سارية حتى الوقت الحاضر وما زالت بريطانيا ترفع تسمية للشيخات بالحميات ، وحتى تناسب ظروف العصر المادي للاستثمار اكتفى بوصف فاضل ، فأطلقت عليها اسم الإمارات المرتبطة بمعاهدات خاصة مع بريطانيا .

ومنذ ذلك الوقت وحتى عام ١٩١٤ منعت بريطانيا في فرض الاتفاقات التي تحكم سيطرتها السياسية والاقتصادية على البحرين والشيخات ، كانتفاقات غامضة

الفصل التاسع

العثمانيون

تختلف مفاهيم الدولة والسيادة عند العثمانيين عنها في وقتنا الحاضر. فهي تبنى أحياناً على الرقعة الروحية، وأحياناً على التهر العسكري، ولكنها لا ترتبط بالأرض والموطن، كما هو متعارف عليه في عصرنا. وعلى ذلك فمن الصعوبة يمكن تحديد مدى امتداد السلطة العثمانية على شاطئ بلاد العرب. وقد بسط الإنجليز نفوذهم على الساحل الجنوبي دون أن يحدث ذلك رد فعل في الدولة العثمانية.

أما بالنسبة للأحساء فقد كان الوضع مختلفاً. وفي قطر كان غامضاً لعدة طوابع. وقد أشرنا إلى أن فيصل بن تركي السعودي اعتبر نفسه في بعض المناسبات تابعاً للعثمانيين، لذلك احتجبت حكومة الآستانة على ضرب الأسطول البريطاني الدمام سنة ١٨٥٩ كذلك رفع شيخ البحرين العلم العثماني سنة ١٨٥٨ وطلب إرسال وكيل من ولاية بغداد. ونحن نعرف الآن رد الفعل البريطاني.

غير أن بسط السلطة العثمانية في بلاد العرب لم يتخذ شكلاً جديداً إلا منذ سنة ١٨٧٠ وقد مهدت لذلك عوامل مختلفة تصالحت جميعاً على دفع العثمانيين نحو الخليج، فنها فتح قناة السويس مما هباً للأسطول العثماني الانتعاش حول بلاد العرب للوصول إلى الخليج. ومنها تولى مدحت باشا حكومة بغداد (١٨٦٩ — ١٨٧٢) وكان يمثل فريق المصلحين الذين يرون ضرورة تثبيت السلطة الفعلية في جميع المناطق التي تخضع للدولة اسماً، وأن خير وسيلة للتعبوض عن الخسائر الإقليمية في البلقان هو تأكيد السلطة العثمانية في البلاد الإسلامية التابعة لها.

ونص هذا الاتفاق على التمسك بعدم تأجير أو رهن جزء من أراضيه إلا بمشور الحكومة البريطانية. وجاء في المادة ١٣ أنه لا يجوز للسلطان أن يتدخل في المنازعات التي تقع بين البريطانيين وبين رعايا الدول الأخرى، سواء أكانت دولة بأمور مدنية أو جنائية. وهذه أمور تقتضي من السيادة اختصاصاً صريحاً. ومع ذلك فإن الاتفاق لا يمنع من الاتصال بدول أجنبية، وهذا هو الفرق بين وضع مسقط وبين البحرين أو الكويت، وبناء عليه أعادت فرنسا افتتاح مصلحتها نهاية القرن التاسع عشر. وتعرضت مسقط لفترة جديدة من التناقص الدولي دون أن يبال ذلك من قوة النفوذ البريطاني.

وخلاصة القول إن بريطانيا صارت تعتبر الخليج قبيل الحرب العالمية الأولى بحيرة بريطانية، وقد أطلقت على نفوذها هناك اسم السلام البريطاني Pax Britannica. وكانت تشير ضحية كل أراوت دولة أخرى أن تارس في بلد الخليج أو قرب سواحلها لو تأت من النشاط السياسي أو الاقتصادي.

وقد سار الشاهيون منذ ذلك الوقت يعتبرون أنفسهم وريثة للدولة السعودية ويطالبون بالجزيرة التي كانوا يحصلونها من بعض إمارات الخليج مثل البحرين ، كما أن وجودهم في قطر أثار مشكلة الحدود بينها وبين أبوظبي ، ولهذا كله أخذت السلطات البريطانية في الخليج تتحرك لإيقاف التوسع الشاهي^(١).

٢ - النزاع البريطاني العثماني في قطر والبحرين

بلغ الإنجليز كدائهم في تصوير أطماع الدول الأخرى بالخليج حتى ولو كان الأمر متعلقاً بدولة غير أجنبية عن المنطقة كالدولة العثمانية ، إذ أن كثيراً من عرب الخليج كانوا يسلمون لها بزعامه العالم الإسلامي . أما السلطات البريطانية فقد ذكرت أن امتداد الشاهيين يهدد استقلال الإمارات ، وما يجدر ذكره أن مفهوم الاستقلال الذي استخدمته السلطات البريطانية في هذا الصدد يختلف تماماً عن مفهومنا في الوقت الحاضر ، فهو يعني وجود سيامي لمنطقة معينة بصرف النظر عن كون هذا الكيان خاضعاً لدولة أخرى أو موضوعاً تحت حمايتها . وحتى لو أخذنا بهذا المفهوم للاستقلال فإن العثمانيين لم يناموا كيان الإمارات العربية ، ولم يعتبر وجودهم في قطر مثلاً متناقضاً مع بقاء آل ثاني كأمرء لشبه الجزيرة ، وفضلاً عن ذلك فإن العثمانيين ساعدوا آل الصباح بعد حملة بلاد العرب على توسيع نفوذهم ، وفضلوا في نهاية الأمر الإدارة غير المباشرة . فهدوا إلى رؤساء قبيلين كان عمرهم زعيم قبيلة بني خالد بإدارة بعض مناطق الأحساء . واكتفوا بإقامة حليات في التطيف والحفوف والدوحة ، وحتى هذه الحاميات اضطرت العثمانيون إلى إتمامها نظراً لدمدم ملاممة الناح الحار لحياة الجند ، ولأن هذه البلاد الفقيرة كانت تتطلب نفقات هائلة ، ولم يكن بعض هذه الحاميات يتجاوز بضع عشرات من الجنود .

(١) نشرت حكومة الهند مدعاً من الوثائق المتعلقة بالسياسة الشاهية في بلاد العرب أنظر Turkish guridition along the Arabian coast of the Persian Gulf,

وطبيسي أن يكون المجال أمام وإلى بغداد هو بلاد العرب^(٢) . ثم مدحت ربا مواتية للزحف إلى بلاد العرب حينما مات فيصل بن تركي سنة ١٨٢٦ فوقع ربح على السلطة بين أبيه عبد الله وسعود ، واستند عبد الأول بالعثمانيين الذين لم يلبط عليه إلا بعد مجيء مدحت باشا إلى ولاية بغداد . وأخيراً بعد النشاط التجاري ببلاد العرب جزاً من سياسة الإصلاح العسامة التي امتدت آثارها إلى البحر ، إذ أرسلت في نفس الوقت حملة لاسترداد السلطة فيها سنة ١٨٧١ .

خرجت حملة الأحساء بقيادة نافذ باشا في أبريل سنة ١٨٧٠ وجرت رحلتها عديداً من القبائل العربية التي تنزل جنوب العراق ، كما ساعدوا الصباح ما كـ الكويت بوضع عدد كبير من مواكبه تحت تصرفها .

وسرعان ما تجاوز مدحت باشا أهدافه الأولى وأوى مساعدة عبد الله على استرداد السلطة ، وأخذ يتدخل في شئون نجد الداخلية حتى ندم عبد الله على استخراجه بالعثمانيين ، لأن ذلك أشاع هيئته لدى الوهابيين المتمسكين بمبادئ الإصلاح الديني وسعى العلماء للتوفيق بين الآخرين ولكن ذلك لم يحل دون استمرار العثمانيين في التقدم في شبه الجزيرة ، وقد وأنهم الفرصة حينما اتصل بهم قاسم آل ثاني ، وقبل إقامة حليات عثمانية في بلاده . وقد دفعه إلى ذلك مقاومة ادعاءات حاكم البحرين في شبه جزيرة قطر ، وكان بذلك بمثابة أول احتكاك بين الإنجليز والعمانيين . فالأولون يساعدون شيخ البحرين والآخرين يساعدون حاكم قطر .

وفي نهاية سنة ١٨٧١ زار مدحت باشا المناطق التي أخضعت حديثاً ونزع في تنظيم إدارتها بتقسيمها إلى ثلاثة قضاءات : التطيف على الساحل ، والهنون عاصمة الأحساء . والبدع ، وقد اشتهرت منذ ذلك الوقت باسم الدوحة . ولم يزل الشيخ قاسم في وجود الحامية العثمانية متاورساً مع مركزه كزعيم لقبائل قطر .

(١) انظر على حيدر بن مدحت باشا بحثاً بالفرنسية عن أصل آية انظر : 1908, Paris, Son CŒuvre, Medhat Pacha et Hayder.

بادرت بريطانيا إلى الاستئصال عن أهداف الحملة الثمانية سنة ١٨٧٠ - سنة ١٨٧١ وقد أجاب وزير الخارجية بأن نجدنا وتواجهنا « الأحساء » وفطر من أملاك الدولة ، أما الإمارات الأخرى فليس لحكومة الآستانة اطلاع بها . ولا شك أن وزير الخارجية العثماني كان يعنى بالإمارات الأخرى فقد لولها على ساحل عمان .

وإذن فقد صار هناك شبه تعارف على أن القسم الجنوبي من الساحل المر منطقتة نفوذ إنجلترا ، والقسم الشمالي تابع للعثمانيين . ولما انحصر النزاع أولاً المنطقة الوسطى : فطر والبحرين ، ودار حول ثلاث نقاط : التطلمات العثمانية والبحرين ، وحدود فطر الجنوبية المشتركة مع إمارة أبوظبي ، ثم عدم استقرار السلطة في فطر وأجاء بعض قباطها بالولاء إلى حكام آخرين غير آل ثاني .

تطلع العثمانيون إلى البحرين بمناسبة زيارة مدحت باشا للحاميات العثمانية الأحساء ، وفطر سنة ١٨٧١ فقد أرسل من هناك موظفاً تركياً كبيراً وطلب إلى الشيخ عيسى بن خليفة إقامة مستودع للوقود تستخدمه السفن العثمانية ، وطلب إلى الشيخ رجب بهذا الطلب وتبرع بأرض البناء .

أما بريطانيا فقد اعتبرت ذلك تهديداً لنفوذها السائد في البحرين وأعلن الحكومة العثمانية على التراجع عن الخطوة .

ثم أثبتت مسألة جنسية البحارة القيمين في ولاية بغداد ، واستخدمت بريطانيا أسلوب التهديد مرة أخرى كي لا تعتبر الدولة العثمانية مواطنين . ومن الغريب أنها قبلت تسوية على أساس اعتبار البحارة من الرعايا الروس ، وكانت خطة بريطانيا ألا يتحول البحارة إلى مواطنين عثمانيين في العراق ، أو إلى مواطنين إيرانيين في فارس .

ومما يسترعى الانتباه أن كلا من فارس والدولة العثمانية اعتبرت أن بريطانيا

هي الطرف الآخر الذي بمسألة البحرين ولم تتنا الدولة العثمانية تذكرة بحقها في الجزر طوال القرن التاسع عشر ، وإن كانت هذه المحاولات أشبه بإدعاءات رمزية^(١) .

كل الإنجليز يرون أن يقف الزحف العثماني عند الأحساء ، غير أن تحول قسم آل ثاني إلى محالة العثمانيين أفسد حسابات الإنجليز ، وبجنى العثمانيين إلى فطر أثبتت مسألة حدودها الجنوبية في حوز العديد ، وهي منطقة جدية تتكون من تماريح خنجرانية تقع عند قاعدة شبه الجزيرة . ولولا وقوع هذا النزاع ولشتماره حتى الوقت الحاضر لما دخل حوز العديد في حسابات التنازع .

ولذلك العيون كانت قبيلة القبيسات تسكن الخور وقد هاجرت إليه فراراً من حكم البرتغال في أبو ظبي .

ويبدو أن شيخ القبيسات خادم بن نهبان تطلع إلى تسكون إمارة مستقلة أسوة ببحرانه . فسكب إلى القيم العام البريطاني سنة ١٨٦٩ شارحاً موقفه على النحو التالي :

لقد جئنا في الأصل من أبو ظبي ، غير أننا منذ أيام صدينا تايين لفطر . ونحن زبد الآن أن نضع هذا السكان تحت الحماية البريطانية ، فزجو إلى ترسلوا لنا رابة وكتاباً لكي تكون دليلاً على ذلك^(٢) .

وإن كان شيخ القبيسات يعتبر الحماية البريطانية أساساً لتسكون إمارة أول الاستقلال حسب التصور البريطاني الذي أشرنا إليه . ولو قبل الإنجليز هذا لتسكون فعلاً إمارة عربية جديدة جنوب فطر .

لم يكن يوسع السلطات البريطانية أن تتخذ موقفاً واضحاً إزاء تلك المنطقة

(١) Farugi, p. 88

(٢) عمان والساحل الجنوبي للعديد م ٢٥٥ .

الشيخ عيسى بن خليفة تأييد الإنجليز في هذا الصراع . وفي أكثر من مرة تعرضت موانئ قطر لدفاع الأسطول البريطاني ، وسامت العلاقات بين قاسم آل ثاني وبين الإنجليز حتى سحبت الحماية الهندية من قطر سنة ١٨٨٧ وأخيراً دمر الأسطول البريطاني ميناء الزبارة سنة ١٨٩٥ فاندثر منذ ذلك الوقت . ولم تقبل الدولة العمانية أكثر من الاحتجاج بالطرق الدبلوماسية ، ولمل ذلك الوقت هو الذي جعل قاسماً يتحول بالتدريج عن ولائه للعانيين .

ورغم أن زعيم قطر يحمل رتبة قائم مقام إلا أنه اتصل بالسلطات الإنجليزية مباشرة ، وربما كانت الجزية الكبيرة التي تطالب بها الدولة العمانية هي أهم سبب لاستيلائه ، وليس معنى ذلك أنه تحول فجأة من التحالف الشمالي إلى التحالف البريطاني ، بل بقي موقفه متارحماً حتى قيام الحرب العالمية الأولى .

غير العروفة ، ويبدو أنها اعتبرت خور المديد تاباً لقطر عند عقد الاتفاق . آل ثاني سنة ١٨٦٨ تم امتك الصالح الخاصة على الإنجليز تغيير موقفهم مدعياً العثانيين واتصلهم بشيخ القبيسات . ورأى بيلي القيم العام أن العظمة تهم اعتبار خور المديد جزءاً من أبو ظبي ، لا تركها مشيخة منفردة مجاورة للخليج لأنها في هذه الحالة قد تطلب حمايتهم كما فعل آل ثاني . وقد عرف الشيخ بيلي أن خليفة حاكم أبو ظبي هذه المخاوف الإنجليزية واستغلها فادعى بأن الزبارة ولسوء مطالبين بخور المديد ، وأنهم أرسلوا علماً عثمانياً إلى بيلي بن حاكم بن القبيسات المستبد . وهكذا دفع بالإنجليز إلى استخدام القوة لإجبار بن القبيسات على رفع علم الهدنة البحرية ولكنهم لم يملوا رسمياً أن الغرض من إمارة أبو ظبي إلا في سنة ١٩٠٥ وفي هذه الأثناء لم تنقطع العلاقات قطر وأبو ظبي ، واشتعلت بين الإمارات حرب طويلة (١٨٨١ - ١٨٩٠) أيد الإنجليز خلالها مدداتهم شيخ أبو ظبي واستخدموا القوة أكثر من ضد قطر (١)

كل الاتحاق القنود بين قطر وبريطانيا سنة ١٨٦٨ ينطوي على إيثار شعبي بالكليات القبلية ، إذ تهدد آل ثاني بتأدية الجزية نيابة عن بعض القبائل إلى البحرين وبعضها الآخر لحكومة الرياض . ومع أن قاسماً لم يلتزم بهذا العهد إلا أن الشهور القليل ظل قوياً ، واستمر آل القيم مثلاً يتجهون بولاهم إلى البحرين ، بينما اتصل زعماء قبائل أخرى مباشرة بالحامية العثمانية في الدولة وفتح عن ذلك أن سكان البحرين طالبوا إخماء الزبارة الذي تسيطر عليه قبائل آل القيم ، فأجاب العثانيون بتحرير قبائل ابن علي وبنو حاجر لهاجة ، وبما سارت قطر خلاصاً للصراع الإنجليزي الشمالي . وكان من المتوقع أن يلد

(١) مطالب السعودية الآن بخور المديد وذلك ضمن الرمن السعودي لمكة امير دراسة وافية لهذه الحالة .

انظر عرض السعودية ج ١ ص ٢٤١ - ٢٥٠ ومؤيد الرمن مطلب قطر و هذه الحالة على أساس أن سلطة السعودية كانت ضعيفة في ذلك الوقت ، وأن آل ثاني حلفاء السعود ملوا عليهم مؤثماً في كونهم أصحاب الحق بخور المديد .

وحينما قضى المماليك على داود باشا آخر عماليك الأسرة القرجية سنة ١٨٣١ حاولوا أن يمدوا نفوذهم إلى الكويت وذلك عن طريق إلزام شيخها بدفع جزية ، ولم يستمر هذا الوضع طويلاً نظراً لاضطراب الأوضاع السياسية بالخليج . وبالتالي فقد كانت حكومة الآستانة هي التي تحتاج إلى مساعدة أسطول الكويت للدفاع عن شط العرب ، لذلك تحول الأمر إلى دفع إغاثة سنوية لحاكم الكويت في منتصف القرن التاسع عشر . وقد ذكرنا من قبل كيف اشترك آل الصباح بجانب المماليك في حملة الأحساء سنة ١٨٧٠ وعلى أثر ذلك صدر فرمان يحدد علاقة الكويت بالدولة العثمانية ويعطيها صفة قانونية .

فينص فرمان على جعل الكويت سنجقية وهذا لا يسقط حق أسرة الصباح في توارث حكمها . ويختار أعضاء الأسرة الحاكم ثم ينصبه السلطان وينعنه لقب قائمقام^(١) . وذلك سياسة واقعية استعملتها باسماً وهي تلائم أحوال شبه جزيرة العرب . وبقيت العلاقات حسنة بوجه عام بين آل الصباح وبين المماليك حتى استولى الشيخ مبارك على السلطة سنة ١٨٩٦ فقلب أوضاع الكويت رأساً على عقب .

كان مبارك الصباح (١٨٩٦ — ١٩١٦) مولماً بالأمورات ، استخدمها للوصول إلى السلطة كما استخدمها في علاقاته بالقبائل والدول الأجنبية . ولم يصل مبارك إلى الحكم إلا على أشلاء آخرين دبر قتلهم ، مما عمده الحاكم السابق والمجرح ، وفي اليوم التالي للحادث فأجأ مجلس الأسرة واستخدم التهديد لكي يظهر بإعلان إمارته . غير أن ذلك الطريقة أثارت استياء الكثيرين وجعلت الدولة العثمانية تزد وتزد طويلاً قبل أن تصدر فرمان التنصيب في العام التالي . وزعم المارسة في الكويت يوسف آل إبراهيم أحد أعيان البلاد ، فذهب إلى

(١) إن النظام السابق في إمارات الخليج هو أن الأسر الحاكمة تختار الأمير عند وفاة أو موت أحدهم دون أن يتقدم بنظام الورثة الدقيق .

الفصل العاشر

العرب والنزاع العثماني البريطاني

قبل الحرب الأولى

١ - مسألة الكويت

أشرنا إلى ضعف السلطة العثمانية في جنوب العراق وزعة القبائل هناك إلى الاستقلال عنها ، لذا كان من باب أولى أن تتمكن إمارة الكويت من التمدد أن تصطدم بالعثمانيين . وقد أتاحت مصادر الثروة المختلفة نمو الكويت خلال القرن التاسع عشر ، قبل ظهور النفط بوقت طويل . فبها المساهمة في أعممال النوص على الأثر . ومنها وقوع الكويت في منتهى خليج عقيق يصلح لسو السفن الكبيرة . ومنها استخدام شمال شبه الجزيرة العربية لهذا البناء للاتصال بالعالم الخارجي .

وبواسطة المال تمكن آل الصباح من جمع قبائل من نجد والأحساء أثناء الاندماج كالتحريرية على الأقل ، غير أن سلطة الأمراء الثابتة لم تتجاوز البناء وما حوله إلى مسيرة يوم واحد . ولا شك أن مجاورة الكويت للدولة الإسلامية الكبرى جعل علاقتها بالعثمانيين أمراً حيوياً ، بخلاف إمارات الخليج الأخرى . وبحرور الوقت نشأ نوع من التبعة إبان القرن التاسع عشر^(١) . ومن مظاهر هذه التبعة حمل سفن الكويت للعلم العثماني وإن لم تطبق هذه القاعدة بصورة عامة ، فكان بعض أهل الكويت يرفعون علم ساحل السلام الأحمر ، وبعضهم الآخر يحمل أعلاماً أوروبية ليستفيد من الامتيازات الممنوحة للأوروبيين في ولاية بغداد .

(١) استخدم بعض الكتاب الأوروبيين عبارة السيادة لوصف الخلاف بين الكويت وها الدولة العثمانية وهذا اليوم الثوري لا يمكن استغناءه ، بدلالة على الحالة التي نحن بصدد معالجتها كويت في دائرة الخلاف الإسلامية .

الأمم معاهدة البلاد على أن تعين لى راتباً سنوياً ونسبت الخدمات التي قدمتها فيما عني عندما اشتركت مع مدحت باشا في حملة الأحساء ، كما تناون آل الصباح مع حكام البصرة لقمع قبائل المنتفق^(١) .

اقترح الشيخ مبارك فكرة الحماية البريطانية في أوائل سنة ١٨٩٨ فقبل هذا الطالب بالرفض من جانب حكومة الهند وهي الجهة التي كانت ترسم السياسة البريطانية في الخليج العربي آنذاك .

ولعل حكومة الهند كانت تسلم بأن القسم الشمالي من الخليج الناحم للأحساء حتى شط العرب داخل في إطار السار الدولة العمانية ، وتجعل من قطر والبحرين حداً لتدخلها السافر في القسم الجنوبي .

إنما ما الذي حدث خلال عام واحد لكي تغير تلك الحكومة رأياها وتقبل حماية الكويت في يناير سنة ١٨٩٩ ؟ .

أولاً : التوصيات التي قدمها الكولونيل ميد القيم العام البريطاني في الخليج وهي تحث على قبول الحماية وتبرز أهمية الكويت على النحو التالي : يملك الكويت ميناء ممتازاً فإذا أصبح تحت حمايتنا فسيكون من أهم موانئنا في الخليج « الفارسي » فضلاً عن إضافة إلى احتمال جعل الكويت في المستقبل نهاية لخط حديدي من الإسكندرونه أو بورسميد فلينا يقول الإشراف على هذا البناء مستحسن حماية تلك الممرات ، ومن جهة أخرى فإن تجارة الكويت نشطة مع البصرة ومع سوريا ونجد ، لذا يستلزم تجارة الرقيق والقومنة ضربة قاضية حينما تصبح الكويت تحت حمايتنا^(٢) وقد تعددت الذكريات البريطانية في

(١) عبد العزيز الرشيد ص ١٤٠ وما بعدها

(٢) F.O.78 N. 5113

رسالة الكولونيل ميد إلى حكومة الهند بتاريخ ١٨٩٩/٤/٢٥ من الدواوين - الخليج العربي والملاقات الدولية ص ١١٧ .

البصرة حيث وجد ترحيباً من واليها حمدي باشا^(١) وأيد الرجلان حقوق أبناء الحاكم للقول في أن يرثوا السلطنة . ورأى السلطان عبد الحميد أن ينفذ هذه الفرصة لكي يقوى نفوذ في الكويت ، وطالب بالتحقيق في حادثة القتل فاتهم مبارك الشيخ يوسف آل إبراهيم ، وعلى أثر ذلك صدر فرمان بتعيينه قائم سنة ١٨٩٧ .

تحسنت العلاقات بين الشيخ مبارك وبين العثمانيين قليلاً لكن دون أن تتحقق الثقة بين الطرفين ، ولم تساعد الظروف الخارجية على استمرار هذا التحسن ، فإن والي البصرة ظل يظهر خصومته للشيخ مبارك . ومن جهة أخرى كانت المناوشات بين آل الصباح وآل الرشيد تتكرر من حين إلى آخر ، وبعد أن تخلص هؤلاء من خصومهم آل سعود تطلخوا إلى احتلال منفذ على البحر يساعد على استيراد حاجاتهم من الخارج وخاصة الأسلحة دون رقيب .

ولما كان العثمانيون يحتلون العقير فلم يبق أمامهم سوى الكويت ، وفي حالة وقوع نزاع على نطاق واسع بين آل الرشيد وبين الكويت فمن الأرجح أن يساعد العثمانيون حانهم من آل الرشيد .

هل كانت هذه اللابسات مبرراً كافياً لكي يطلب الشيخ مبارك الحماية البريطانية ؟ لقد بحثت هذه القضية حتى في أثناء حياة شيخ الكويت القاهر ، وأتيح للشيخ رشيد رشا أن يسأله عن سبب هذا التحول . ومن المعروف أن هذا الفكر البنائي كان يميل إلى الإنجليز في بعض الأحيان ، لذلك أجاب في تقرير موقف مبارك حينما قال : لقد صرح لي بأن الدولة العمانية كالآب الرعي ولكن الأب يقسو أحياناً على أبنائه ، وقد طلبت إلى حكومة الأستانة في أحد

(١) عمولات البصرة في نهاية القرن التاسع عشر من متعريفية إلى ولاية ، وهذا في حد ذاته مظهر من مظاهر اهتمام العثمانيين بالخليج وعصبه مزرعة العرب .

تلك الحقبة وكلها تشير إلى ضعف الروابط التي تصل بين الكويت واليهامانية، وبالتالي تبرر لبريطانيا قبول الحماية دون أن يكون في ذلك مسار بعيداً المحافظة على سلامة الدولة الشمانية.

ثانياً : التناقض الدولي على الشروط العمرانية وخاصة مشروعات السكن الحديثة كما تبين الآن من رسالة الكولونيل ميد .

وفي ذلك العهد كان ينظر إلى الامتيازات كأنها مظهر من مظاهر الدور السياسي وفي ١٨٩٨ صدر الامتياز الخاص بمد سكة حديد بندا العالم لتركمانية، وفي نفس الوقت راجت الشائعات عن وجود مشروع روسي للخط بين البحر المتوسط، وبين الخليج، كما وجد مشروع بريطاني لمد خط حديدي بين عند بور سعيد وينتهي عند الكويت ماراً بسوريا وشمال شبه الجزيرة. وفي جميع الأحوال مستقرون للكويت أهمية عظمى بالنسبة لتلك المشروعات.

وأخيراً عن كيرزن كما كان عاماً الهند في نهاية سنة ١٨٩٨ وقد جاء إلى النصب وفي رأسه أفكار توسعية تختلف تماماً عن تلك الآراء التي عبر عنها سنة ١٨٩٢ في كتابه « فارس والسألة الفارسية » وفيه أيد سيطرة العشائين على القسم الشمالي من الخليج، لكن وجود قوى أوربية من وراء الدولة الشمانية أثار الخاوف في نفس رجل الاستعمار البريطاني، لذلك جاد بالوفاقية ووضع الكويت تحت الحماية البريطانية، وبناء عليه وقع الاتفاق بين الكولونيل ميد والشيخ مبارك في ٢٣ يناير سنة ١٨٩٩ :

١- يتعهد الشيخ مبارك عن نفسه وعن ورثته بالآلا يستقبل في بلاده وكلاً أو يمثلين لدولة أجنبية دون موافقة الحكومة البريطانية.

٢- يتعهد بالآلا يتنازل أو يبيع أو يؤجر أو يرهن جزءاً من أراضيه لحكومة أو لرعايا دولة أجنبية، كما لا يسمح باحتلال جزء من أراضيه أو

استخدامه لأي غرض آخر دون موافقة الحكومة البريطانية. وينطبق هذا على جميع الأراضي التي تقع في حوزة الشيخ مبارك والتي قد تكون الآن قد آلت إلى ملكية أحد رعايا دولة أجنبية^(١).

وبلاحظ أن الاتفاق لم ينص صراحة على أن تحتل بريطانيا الكويت في الخارج، غير أن تطبيقه من الناحية العملية أدى بالكويت إلى هذا الوضع خاصة بعد سقوط الدولة الشمانية.

كما أن عقد الاتفاق تم لمواجهة ظروف مؤقتة هي الخوف من أن تخضع الكويت إلى الإدارة الشمانية البائرة. وبعد سقوط الدولة الشمانية استمرت بريطانيا تمارس نفس الدور لمنع ضم الكويت إلى قوة السعوديين الصاعدة في شبه جزيرة العرب، وهكذا بقي الاتفاق ساري المفعول حتى سنة ١٩٦١.

اتفقت مصلحة الطرفين المتعاقدين : بريطانيا والكويت على جعل الاتفاق على الكتمان. فبريطانيا لا تريد أن تسوء علاقتها بالدولة الشمانية ما أمكن. أما الشيخ مبارك فكان حورماً على عدم المساس بالبساتين المديدة التي منحها العشائين لآل الصباح في البصرة بمناسبة اشتراكهم في حملة الأحساء. ولهذا السبب أيضاً بقيت سفن الكويت تحمل العلم العشائاني.

لم تكن هذه الأحداث لتبرر دون أن تشمر السلطات الشمانية بمحذوث شيء ما، وازداد شكها في نوايا الشيخ مبارك، ومع ذلك استجابت حكومة إستانبول لرغبة الانجليز في عزل حمدي باشا والي البصرة، ولم يخرجوا على أن تسوى موضوع نهاية خط بندا مباشرة مع الشركة الألمانية، فاضطر استمشر التمسك الألماني بالاستانة إلى القيام بزيارة لشيخ الكويت لكي يستأذنه في استخدام جزء من أراضيه حتى يصل الخط إلى رأس الكاظمة على خليج

(١) Hurewitz, vol. 1, p. 218

ويقال إن فهد باشا تصرف في هذا الأمر من تلقاء نفسه . وعلى كل فقد رفضت بريطانيا هذا الطلب لأنه يؤدي إلى تورطها في مجده ، وربما كان كيرزن الحاكم العام مستمداً لأن يد النفوذ البريطاني إلى قلب شبه الجزيرة لمنع التدخل العثماني هناك ، لكنه لم يجد تأييداً من حكومة لندن . أما الشيخ مبارك فإنه بعد أن اطمأن إلى فاعلية الحماية البريطانية رأى أن يتجنب بقدر الإمكان الاستخدام بالدولة العثمانية واتبع معها سياسة الصلحة ، ورافق فلا محسن باشا وإلى البصرة الجديد إلى الفاو حيث جدد ولاه السلطان ، وفي نفس الوقت رفض إقامة حامية عثمانية في أراضي الكويت .

بتفص عما سبق أن اتفاق ١٨٩٩ زاد من حدة الصراع حول الكويت ذلك أن الاتفاق لم يبلغ السيادة العثمانية ولم تشجع بريطانيا فكرة انفصال الكويت تماماً عن الدولة العثمانية وهي التي اقترحت أن تستمر سفن الكويت في حمل العلم الثنائي مع إضافة كلمة « كويت » في وسطه .

وحينما تكررت محاولات العثمانيين لسط نفوذهم إلى الكويت لتسكين الشرية الأتانية من تنفيذ مشروعاتها ، اضطرت بريطانيا إلى التصريح بوجود الاتفاق ، وأثار ذلك احتجاج الحكومة العثمانية إذ أعلن وزير خارجيتها توفيق باشا أن هذا الاتفاق يعد خرقاً لماهدة برلين عام ١٨٧٨ وأجاب سالتزبري وزير الخارجية البريطاني بأنه ليس في النية إعلان الكويت محمية بريطانية ، ولكن حكومة استامبول هي التي قد توغنا على ذلك^(١) وقد توسل الطرفان إلى تسوية مؤقتة لوضع الكويت على أساس عدم التدخل في شؤنه الداخلية ، وبمباراة أخرى سلطت الدولة العثمانية بالوضع الراهن ، غير أن هذا الوضع الغامض أفسح المجال لانهاكة بواسطة كلا الطرفين للتنازعين : بريطانيا والدولة العثمانية ، ففي سنة ١٩٠٢ جدد يوسف آل إبراهيم محاولاته لتزويد الكويت بتأييد العثمانيين ، واستنجد بمبارك بالإيجليز الذين ردوا الزحف عند الفاو ، واضطرت الدولة العثمانية إلى إنكار تأييدها للحركة . وفي

(١) B.D.W. vol 10 مذكرة بريطانية عن وضع الكويت بتاريخ سبتمبر ١٩٠١ .

الكويت . وقد رفض الشيخ مبارك التفاوض مع البعث الأتاني تنقيداً لانفاقه مع بريطانيا ، وأبلغ الأخيرة بهذه الزيادة .

ثم أتاحت للعثمانيين فرصة للانتقام من الشيخ مبارك بعد أن لحقت به هزيمة منكرة في الصرف وهي أعظم المارك التي دارت بينه وبين آل الرشيد سنة ١٩٠١ وكان الشيخ مبارك قد استمد للمحرك استعداداً عظيماً فأتى بالرتبة من قبائل مطير والمنتفق والعجمان ، غير أن هذا الجيش البدوي لم يصمد أمام جيش الرشيد الذي دربه العثمانيون ، وفعلوا استمدت الدولة العثمانية لاحتلال الكويت بعد موقعة الصرف وأرسلت بارجة حربية إلى الخليج غير أنها تراحت بجرد ظهور الأسطول البريطاني .

ولا شك أن هذه الوقوف الضعيفة المتوالية ، من جانب الدولة العثمانية كان لها أكبر الأثر على توجيه سياسة الأمراء العرب وتفضيلهم الارتباط ببريطانيا مع أنها دولة دخيلة بخفاب وضعها تماماً عن وضع الدولة العثمانية . والدليل على ذلك أن عبد العزيز آل الرشيد بعد أن رأى نفسه وقد حرم من جنى عمار انتصاره في الصرف فكفر في الاتصال باللفصل البريطاني في البصرة ، ولرب دور الوسيط أحد الأعيان العراقيين ويدعى فهد باشا ، ويبدو من رسالة راتسلو الفصل البريطاني في البصرة إلى السفير في استامبول أن ابن الرشيد ذهب إلى حد طلب الحماية البريطانية ، على أن تزوده بريطانيا بالسلاح وتترك له الفرصة لكي ينزل الشيخ مبارك ويحل محله أحد أبناء أخيه ، كما وعد ابن رشيد بوضع بلاده تحت تصرف الشركة البريطانية التي تنوي مسد الخط الحديدي من بورسميد إلى الكويت^(١) وأخيراً هدد بالاتصال بالروس إذا قوبل طلبه بالرفض .

(١) F.O. 78 N. 5173 رسالة من راتسلو إلى أوكفور السفير البريطاني ل استامبول بتاريخ ١٣/٩/١٩٠١ .

العام التالي أقام العثمانيون حامية في أم القصر وصفوان وحاولوا احتلال جزيرة بعل وأثار ذلك قضية جديدة تتعلق بحدود إمارة الكويت ، فادعى مبارك أنها تنتمي للواء شمالا ، وإزاء ذلك أصدر بلنور وزير الخارجية تصريحاً في مجلس العموم ذكر فيه صراحة بأن شيخ الكويت تحت الحماية البريطانية ، ولكنه رفض أن يؤيد في ادعائه بامتداد حدوده إلى الفاو .

وفي خلال السنوات التالية أخذت بريطانيا توطد نفوذها بالكويت تدريجاً دون تكرار بالشكليات القانونية أو النصوص ، حتى تحولت إلى بحجة فلاح ١٩١٤ وكانت السلطات البريطانية تتناحى عن مد الكويت بالأسلحة رغم أنها حصلت على حق تفتيش السفن في المياه الإقليمية للكويت منذ عام ١٩٠٠ ولم ١٩٠٣ منح الشيخ مبارك لقب سير أثناء جولة اللورد كيرزن بالخليج ، وفي الدار التالي عين وكيل سياسي بريطاني دائم بالكويت . وتعد حاكمها بالأسلحة لبر بريطانيا بإنشاء محطات بريد . وفي عام ١٩٠٨ صدر تأكيد للتعهدات الواردة في اتفاق سنة ١٨٩٩ والقاضية بعدم التنازل عن شيء من أراضي الكويت دون مشورة الحكومة البريطانية . وفي نفس الوقت تنازل الشيخ مبارك عن قطعة أرض على امتداد ميلين لبريطانيا مقابل ٦٠٠٠٠٠ روبية ، وأعطيت تلك القطعة الساحلية من الفرائب . وهذه المناسبة ضمنت بريطانيا توارث أسرة الصباح لحكم الكويت . وفي أغسطس سنة ١٩١٠ تعهد الشيخ مبارك بعدم منح الشركان الأجنبية امتيازات لاستغلال الأسفنج أو اللؤلؤ إلا بإذن من الحكومة البريطانية ، ولم يمنع ذلك شيخ الكويت من اتصاله بالدولة العثمانية والعالم الإسلامي .

وقد انضم مع الشيخ طالب النقيب والشيخ خزعل خان حاكم الحمرة إلى حزب حرير واتلاف المارض ، وتبرع للدولة العثمانية عند وقوع الاعتداء الإيطالي على طرابلس ، ولكن عند قيام الحرب العالمية الأولى قرر الشيخ مبارك قطع صلاته

بهايا بالدولة الإسلامية والإسهام مع بريطانيا في غزو العراق متجاهلاً الرأي العام في الكويت^(١) .

(١) لدراسة علاقة الكويت ببريطانيا في هذه الفترة يمكن الرجوع إلى سلسلة كتب من الوثائق:

١ — F.O. 406 وهي تبدأ بسنة ١٩٠٤

٢ — Kowit Confidential in Secret Library

وتوجد سلسلة نسخة مصورة في مكتبة الآداب بجامعة عين شمس

٢- إحياء الدولة السعودية

اختفى الحكم السعودي من نجد إبان العقد الأخير من القرن التاسع عشر حينما استولى آل الرشيد على الرياض سنة ١٨٩١ ، وخرج عبد الرحمن بن عبد الله من حكم نجد من الدولة السعودية الثانية ليطوف بين القبائل الوالية ، راثي به اللطاف إلى الكويت ، وكان يصطحب معه في حياة اللقي ابنه عبد العزيز ، ليكون له شأن كبير في تاريخ شبه جزيرة العرب .

والرغم من التحالف التقليدي بين الشماليين وبين آل الرشيد ، فإن حكم الأستانة شجعت الشيخ مبارك على حسن استقبال اللاجئين السعوديين ، بل قدمت لهم إعانة سنوية عن طريق شيخ الكويت ، ويرجع ذلك الوقت إلى الدولة الثمانية اتبعت سياسة حفظ التوازن في شبه جزيرة العرب كوسيلة من وسائل الاحتفاظ بالسلطة ، فإذا كان آل الرشيد قد تخلصوا من خصومهم ووجدوا لهم نجد تحت سلطتهم فمن الأفضل إبقاء آل سعود كشوكة يمكن أن يهددوا بسلط آل رشيد إذا ما انحرفوا عن الولاء للدولة الثمانية .

وفي الكويت أتيح للأمير السعودي الشاب أن يطلع على أوضاع الحياة الدولية في الخليج ، وليس بنفسه مدى النفوذ البريطاني وتقوفه على الدولة العثمانية وهذا هو ما جعله رأياً يتجه مبكراً إلى التفكير في الاستعانة بالتأييد البريطاني وذلك عن تقاليد أسلافه السعوديين الذين كانوا يمثلون القوة العالمية لسلطان بريطانيا في شبه جزيرة العرب . ولقد اتفقت مصالح السعوديين مع آل الصباح ، واشترك عبد العزيز آل سعود في تلك الحروب ولم تنده هزيمة العريف التي لحق بالكويت سنة ١٩٠١ عن أن يتابع الخطة الرامية إلى استرداد نجد ، ففي يناير سنة ١٩٠٢ شن غارة مفاجئة على الرياض واستولى عليها بواسطة منامرات دون حولها أقاصيص خيالية عن بطولة أمير نجد الجديد .

إن الاستيلاء على الرياض لم يكن سوى نقطة بداية ، وكان الطريق أمام عبد العزيز آل سعود مليئاً بالعقبات لأن الدولة العثمانية أخذت تقدم مساعداتها لآل الرشيد حينما لاحظت تقصاع قوة السعوديين بأطراد . على أن السعوديين ذكروا في الاستعانة بالإنجليز حتى من قبل أن يصطدموا بالعثمانيين . وحسب المصادر السعودية^(١) تقسها طلب عبد الرحمن الفيصل ذلك منذ سنة ١٩٠٢ حينما كان يتأهب لقيادة الكويت ليعود إلى عاصمته القديمة ، ولمح إلى أن الروس كانوا يريدون الاتصال به . وثلت ذلك محاولات مختلفة من جانب عبد العزيز آل سعود لكي يقفل بالتحالف مع بريطانيا ، وفي فبراير سنة ١٩٠٦ ذكر صراحة أنه يريد تأييد الأسطول البريطاني في حملة تهدف إلى إخراج الشماليين من الأحساء . وبين حاجته إلى ذلك الإقليم الذي يوصله بالعالم الخارجي وعرض في مقابل ذلك التأييد امتيازات غير محددة تحصل عليها بريطانيا في بلاده ، ومنها إقامة فصلية في الرياض .

كان يرعى كوكس هو الذي يشغل في ذلك الوقت منصب القيم العام البريطاني في الخليج ، فرحب بهذه الفكرة وتلقاها ابن سعود بمستقبل زاهر وبث بالهيج التالية لإقناع حكومة لندن بقبول الاقتراح السعودي^(٢) فهو من جهة يساعد على مكافحة القرصنة التي تجددت بسبب فوضى الشماليين ، ومن جهة أخرى يصبح ابن سعود تحت الرقابة البريطانية فلا يجزؤ على مهاجمة مشيخات الساحل التي تخيمها بريطانيا ، غير أن حكومة لندن كانت ما تزال متسكة بالسياسة التقليدية التي ترفض التورط في داخل الجزيرة .

وتبين من خطاب يرعى كوكس كيف أن إحياء الدولة السعودية في نجد آثار من جديد التناقض على وضع المشيخات الست في ساحل عمان ، وحسب المصادر السعودية^(٣) لم يشر حكام تلك المشيخات بالخطر إلا في سنة ١٩٠٦ حينما ظم عبد العزيز

(١) عرض السعودية - ١٠ من ٢٨٠ .

(٢) انظر . جريف Grave b. 10g ترجمة حياة السيد يرعى كوكس .

(٣) عرض السعودية - ١ من ٢٧٨ .

بشأن حربى فى الركن الجنوبي الشرقى من نجد قرب عمان . أما فى سنة ١١٠٢
فقد يث زائد بن خليفة حاكم أبو ظبى يضى ابن سعود على استرداده للرياض ،
أما فى سنة ١٩٠٦ فقد جمع هذا الحاكم مؤثراً من الشيوخ السن (١) ليبدأ
فى أمر الدفاع عن بلاده ، وهدد بتأديب حاكم دبي لأنه امتنع عن حضور المؤتمر .
ثم عقد عالة دفاعية مع سلطان مسقط ، أى أن حلفاء الإنجليز الرنطين سبه
بمجاهدات تسكنوا لواجبة الدولة السعودية الناشئة ، أما قسم آل ثنى كما
قطر فشكل وضعه مختلفاً ، فهو غير مرتبط حتى ذلك الوقت بمجاهدة مع الإنجليز
كما أن انتشار الدعوة السلفية فى بلاده كانت تقويه من آل سعود . ومنذ نضع
سنوات حول أحد الجوانب أن ينزع منه السلطة وطلب تأييد الإنجليز . ثم لند
دفع هؤلاء الانترنك فى الزمرة غير أسها كانت تحمل قاتماً على كل حال
تشكل الميخضات الدائرة فى تلك بريطانيا . وعلى العكس ذهب قسم الترحب
بأن سعود منها ظهر قرب ساحل السلام أوأخر سنة ١٩٠٥ .

والحق أن الاتجاهات العامة للدولة السعودية الجديدة لم تكن تسع فقط لبعث
الإنجليز وذلك بالسي لا بخلع الشيوخ كما كان من المائز أن يحدث فى عهد
الدولة السعودية الأولى ، لذلك ستر بعلم الأحساء هو المجال الطبيعي لإرثاء ضيق
عبد العزيز آل سعود .

ومعلا عن ذلك فإن الأحساء كان فى معظم الأحيان قلباً ثانياً للبحر .
وفى سنة ١٩١٣ تهيأت الظروف لنزو الإقليم ، فالسعوديون يوجهون صوب
فى البطان ، وقد اضطرروا إلى إتصاص عبياتهم فى أطراف الدولة الأخرى حتى
قدرت فى الأحساء بنحو ٤٠٠ رجل ، كذلك زامت أبناء المجاهدات الإنجليزية
العناية إلى مسامع أمير نجد ، نقي أن يفرغ نبي - بالقضية للأحساء - بقطع عيب
سبل السقطيل . وفى مايو شش غارة من غارات اللابطة على الحاسيات الهابية لم
يصاحف مقومة نذكر ، وقد تهيأت حش تلك الميخضات إلى البحر من ما أشر

بيل للإنجليز إلى المانيين ، وحققة الأمر أنهم وقفوا موقف الجهاد ولبس
انفوا به قليل فى مشروع اتفاق عقده مع الحكومة الشامية . بأن الأحساء
دلت على منطقة نفوذهم . وسرى كيب أن هذا الاتفاق قد ولد ميتاً ، ولذلك
فكث السلطات الشامية أن تصل إلى تسوية على أساس حل وسط مع ابن سعود ،
وخرجت علاقات فى هذا الشأن . بين عمر فوزى مودبى والى البصرة ، وبين ابن
سعود مندوبة سنة ١٩١٣ وهما مختلف المصدر السعودية عن المصادر الإنجليزية
اختلافاً تاماً ، إذ أن هذه القضية الدارجة أصبحت من الخصائص المستخدمة للبرقان
فى موضوع النزاع على الحدود . فالصادر الإنجليزية ترى أن ابن سعود الشير
لوكلا البريطانيين سنة ١٩١٣ عن هذه المجاهدات وقال أنها ستنتهى إلى عقد
اتفاق قرب مع الدولة الشامية ، ثم أبرز عرض الحكومة البريطانية أمام هيئة
الحكيم الدولية سنة ١٩٥٥ نسخة من هذا الاتفاق وهو مؤرخ ٤ رجب سنة
١٣٢٢ هـ (مايو سنة ١٩١٤) (١) . وقد كرت المصادر الإنجليزية أنه عشر على نص
الاتفاق فى أوشيف البصرة عند استيلاء الإنجليز عليها سنة ١٩١٤ . وحسب
هذا الاتفاق أعلنت بحسد ولاية عناية قضيه وضع الكورث من حيث أن
آل سعود يتولون حكمها على أن يصلو بذلك فومان من استامبول أما الأحساء
ليحكمها عبد العزيز آل سعود لمدة عشر سنوات فاية لتجديد وتقيم الدولة الشامية
حيات هناك فى القطيف والدمير ، وعلى ابن سعود أن يستقدم العلم الشائى ، ولا
يجز له أن يعقد اتفاقاً أو يتبع لشيء استلزمه أجنبية دون موافقة الدولة الشامية .
وبناء على هذا الاتفاق صدر فرمان بتبع عبد العزيز آل سعود لقب الباشوية ،
ولائق المصادر السعودية فيما يأتى عقد اتفاق ينظم العلاقات بين جمهور الدولة الشامية
مع أنها تؤكد على حقوقها فى النزاع على الحدود بين السعودية والشيوخات
(٢) . مع أهمية الوضع إلى قضية النزاع على الحدود بين السعودية والشيوخات
المتطوع برطانيان الأجرة نرى أنه يوجد هذا الاتفاق يسمى ضمناً أن ابن سعود

(١) عمرى مذكورة البرقية لعمس الأولى وثيقة رقم ١١١٥ م. Kaly p.
(م ١٣ - البحوث)

والمق على مشروع اتفاق سنة ١٩١٣ الذي يضيق حدود نجد الشرقية ويوسع اعتماد الشيوخ في داخل شبه الجزيرة .

أما النظرية السعودية فتتناول أن تثبت عدم التزام الحكومة السعودية بالاتفاق الإنجليزي العثماني وهي تستند فعلاً إلى أسس أقوى من الناحية التاريخية أولاً إن مشروع اتفاق سنة ١٩١٣ لم يبرم، ثانياً توقيعه تم في ٢٩ يونيو أي بعد استيلاء ابن سعود على الأحساء بنحو شهرين، وبالتالي تعرضت الدولة العثمانية لأرض لا تملكها فعلاً، ثالثاً أن الاتفاق بين ابن سعود والعثمانيين سنة ١١١٤ هـ إن صح فإنه لا يلزم السعودية بشيء لأن أحكام الرياض كانوا يجملون اتفاق سنة ١٩١٣، رابعاً إن السلطات الإنجليزية لم تكثر لهذا الاتفاق ولم تجعله في جميع تصرفاتها منذ أن دخلت في الحرب ضد الدولة العثمانية سنة ١٩١٤ .

٢ - مشروع الاتفاق العثماني البريطاني سنة ١٩١٣

إذا كان الاتفاق الإنجليزي العثماني لسنة ١٩١٣ لم يبرم فإن له أهمية خاصة تاريخ الخليج ، فقد أصبح من جهة مثار جدل بمناسبة الخلاف على الحدود بين السعودية وبريطانيا ، ومن جهة أخرى يعد هذا الاتفاق مظهراً جديداً من مظاهر تهاون حكومة الاتحاديين في المحافظة على حقوق الشعوب التي كانت تحكمها الدولة العثمانية بصفة عامة والشعب العربي بصفة خاصة .

وهو دليل على عجزهم أمام تغافل البريطانيين في الخليج بالرغم من أنهم تسلموا الحكم على أساس تثبيت سلطة الدولة في جميع المناطق التي تقبها أحياناً وصانع الاتفاق هو إبراهيم حتى باشا الذي عرف بميله الإنجليزية ، وقد اختلف في هذا الاتجاه مع ولاية البصرة وبغداد الذين كانوا أكثر حرصاً على مقاومة التغافل البريطاني .

لقد استمرت المفاوضات نحو عامين (١٩١١ - ١٩١٣) لأنها تناولت عدداً

من موضوعات الخلاف بين البلدين ، منها مسألة الرسوم الجمركية وخط حديد بغداد ومناطق النفوذ في الخليج العربي ومسألة شط العرب . وبإدخال الموضوع الأول فإن السائل الأخرى متشابهة وهي التي تهتم مؤرخ الخليج .

وما زاد المفاوضات تعقيداً أن جهات الاختصاص البريطانية اختلفت فيما بينها على بعض الموضوعات ، مثال ذلك النقطة التي يجب أن ينتهي عندها النفوذ العثماني في الخليج ، فرأى البعض أن يكون ميناء العقير في الأحساء هو نهاية الامتداد العثماني ، أما هاردينج حاكم الهند السام فرأى أن وجود العثمانيين في الخليج أشد خطورة من روسيا أو فرنسا لأن لهم تأثيراً على بعض الحكام العرب تحت ستار الجامعة الإسلامية ، ولذلك ذهب إلى المطالبة بإسقاط سياستهم عن الكويت . وعلى كل فقد اتفق الرأي على إخراج قطر من منطقة نفوذهم . وبين هذين الرأيين وقف جبرائيل موقفاً وسطاً فاقترح على حكومة الهند ربط هذا الموضوع بقضية سكة حديد بغداد « ففي حالة إشراك بريطانيا في الخط فلا مانع من الاعتراف بالسيادة العثمانية على الكويت شرط أن تكون مشيخة مستقلة بشؤونها الداخلية ويمكن أن تدفع جزية للدولة العثمانية . وعند منح بريطانيا امتياز القسم الجنوبي من الخط ففي هذه الحالة سيتيسر مده إلى خليج الكويت ، ولا شك أن حاكم الإمارات سرح بهذه الفكرة لأنها تساعد على إنعاش بلاده » (١) .

تساهل العثمانيون في موضوع قطر كما أنهم تنازلوا رسمياً عن جميع الادعاءات السابقة في البحرين . أما بالنسبة للكويت فقد تمسكوا بحق السيادة عليها مسع نصيب حدودها ما أمكن لا للإمارة من امتيازات خاصة . وكانوا يخشون بحق أن تستخدم الكويت كستودع لتجارة الأسلحة وتهريبها للقبائل الشاعبة في جنوب العراق . في هذه الأثناء تسلم حتى باشا أمر المفاوضات مع الإنجليز وكان يرى أنه من الجاز أن تحقق بريطانيا مع ألمانيا مباشرة بشأن خط حديد بغداد

(١) 2 part 10 B. D. wol. 10 part 2 للرسائل بين جبرائيل ونوفيل باشا وزير الخارجية العثمانية .

جزءاً من أرض الكويت المحددة في المواد التالية. ويحوز لحكم الكويت أن يبين
كلاد رعاية مصالحه في الولاية الشامية.

٣ - تتعرف الدولة الشامية بالاتفاقات المعقودة بين الكويت وبريطانيا وخاصة
اتفاق باريس سنة ١٨٩٩ كما تقر بالاحتيازات التي منحتها شيخ الكويت في أراضي
الرعايا البريطانيين.

٤ - تفل الحكومة أنها لن تقعد اتفاقات جديداً أو تسمى لاحتلال الكويت
طلالاً أن الدولة الشامية لم تقض هذا الاتفاق.

٥ - ٧ - خاتمة بتخطيط الحدود وهي تخرج أم القيسر وصنوان من
الكويت، إذ سبق للشاميين احتلالها بينما تقسم جزيرة بوبيان وولاية للإقامة
لنظم ادعاءات الشاميين السابقة. وتعمل خور الزبير نهاية الحدود الشمالية والقرن
في نهاية الحدود الجنوبية.

٨ - في حالة مد خط حديدي إلى الكويت تتفق الحكومتان البريطانية
والشامية على تنظيم حاجته.

٩ - تختم أملاك شيخ الكويت في البصرة ومعنى من الفرائب. ومن
للإحاطة أن القضية ستغير خلافت بعد استقلال العراق.

القسم الثاني : قطر .

مادة ١١ - تتنازل الدولة الشامية عن السيادة في قطر ويحكمها بالوراثة أسرة
آل ثعل، وتسلم بريطانيا تمنع حكم البحرين من محاولة ضم شبه الجزيرة.

وتشير الاتفاق إلى الأحكام ونجد على أنها مستجيبة عثمانية ويخطط حدودها
الشرقية من قطر حتى عمان، وهذه المادة هي التي أصبحت محور الجدل في قضية الحدود.

١٢ - يصحح للبحارة بصيد اللؤلؤ في جزيرة الرخاوة التي دخلت ضمن
سفن الأحكام.

وتتدخل الدولة الشامية كما سبق للألمان والروس أن فعلوا ذلك في مؤتمر برلين
لذلك صرح للإيجاز بأن الدولة الشامية لا تريد أن ترى دولة أخرى في الخليج
بريطانيا، وهي تتنازل تماماً عن الادعاءات في البحرين مقابل شروط بسيطة لها
لا يتدخل الإنجليز في شؤون البحارة المقيمين في الدولة، وأن تخضع للإقامة ومن
مصادب اللؤلؤ بالنسبة للرعايا الشاميين وأن يعترف باحتلال الشاميين لجزر ظفار
والواقعة جنوب الغبير.

والحق أن موضوع حدود الكويت وتقسيم الجزر الشامية لها وذلك الشامية
الشاميين كل أكثر الموضوعات إثارة للجدل، فقد طالب الشاميون بتطبيق حدودها
من جهة العراق والأحساء والاعتراف بها كجزء من ولاية البصرة، وسرنا
القوانين الشامية فيها، وفيه كثير من الجزر في يد الشاميين لأنهم يريدون مشاركة
الإنجليز في حراسة أمن اللوحة بالخليج. وقد رفضت بريطانيا رفضاً باتاً هذه
الفكرة الأخيرة كما أنها لم توافق على أن تعرف حكومة الاستانة على شؤون
الكويت الخارجية أو تنظيم الولاية فيها، وإنما سلمت فقط بسيادة ومزية. وكان
لا بد من ذكر تفاصيل عديدة لتنظيم وضع الكويت العبد في هذا الاتفاق واستقلال
فيما على تحليل الأقسام الحامة من الاتفاقية^(١).

القسم الأول : خاص بالكويت :

١ - تشكل الكويت قضاء مستقلاً مستقلاً ذاتياً، ويرفع شيخ الكويت
العلم الشامي كما كان في السابق مع إضافة كلمة « كويت » إليه.

٢ - وتسلم الحكومة الشامية عدم التدخل في الشؤون الداخلية أو الولاية
وإنما تصدور فقط القرارات الخاصة بالتعديب، كما لا يجوز لها أن تحتل عسكرياً

(١) انظر من مصدوع الاتفاقية 194. 190. 2-p. 10 Part 2. Hurewitz vol. 1, q. 272.
BD.W.

ولمّا يذكّر أن حامية عثمانية كانت حاضرة مرابطة في اللوحة عند مدخل الاتفاق ، غير أن الشيخ كان يتصرف بدون أن تتدخل في شؤنه وتدابيره الإنجليزية في سنة ١٩١٤ .

القسم الثالث : البحرين :

١٣ - تتنازل الدولة العثمانية عن جميع ادعاءاتها السابقة في البحرين (بحر) جهة أخرى تعان الحكومة البريطانية أنها لا تنوى أن تضم البحرين (أي لا تحوّلها إلى مستعمرة) .

١٤ - تتعهد بريطانيا بإلزام البحرين ألا يفرض رسوما إضافية على الرعايا الشبان الذين يشتغلون بصيد الأسماك .

١٥ - يعتبر البحارة القيمين في الدولة العثمانية أجانب ، ويرعى التعامل البريطانيون مصالحهم . وهكذا فوضت الحكومة البريطانية وجهة نظرها في هذه النقطة . أما مذهبها بضم البحرين فيجوز مدينة شكية ، إذ أن الجزر تحوّل إلى مستعمرة فعلا كأرياف سنة ١٩١٤ .

القسم الرابع : اللاحة في الخليج العربي .

١٦ - تقر الدولة العثمانية بأن بريطانيا تقوم بحراسة اللاحة في الخليج من قطر حتى المحيط الهندي ، وتسلم جميع التنظيمات التي أدخلتها بريطانيا في شبه الجزيرة العربي وادارة العلاقات والتعام بأعمال الشرطة البحرية ، وتحتفظ الدولة العثمانية بحقها في المياه الإقليمية والسواحل التابعة لها . وتدعى به دليل كبد أن الاتفاق الخاص بشط العرب قد قضى هذا الدأ .

وأخيراً تنص الاتفاقية على تشكيل لجنة لدراسة الحدود على الطبيعة ووضع مدونة تفصيلية بها . ومن الواضح أن هذه اللجنة لم تشكل قط نظراً لعدم إتمام الاتفاقية مما يقتض من قبيلتها في موضوع تخطيط الحدود .

٤ - مسألة شط العرب

فتح مشروع اتفاق سنة ١٩١٣ الباب لدسوية خلافات أخرى متعلقة بين بريطانيا والدولة العثمانية ، مثل مشكلة خط بغداد ، وموضوع شط العرب . وستتناول الموضوع الأول في الفصل التالي . أما شط العرب فيطلق على القسم الأخير من الرافدين الذي يبدأ عند التقاء نهري دجلة والفرات وينتهي عند مصبهما في الفرات . وكانت كل من الدولة العثمانية وفرنسا قد عندتا اتفاقاً خاصاً بتخطيط الحدود فيما بينهما ، جعل شط العرب داخلاً في الأراضي العثمانية على أن تنهى حدود فارس على شاطئ الأيمن . وأقر الاتفاق مبدأ حرية الملاحة الدولية في هذا الممر المائي الواقع في منطقة حدود . وفي ذلك الحين كانت بريطانيا تؤيد مطالب العثمانيين باعتبار أن لفارس كانت خاضعة للنفوذ الروسي ، وقد أفضت الدولتان الأوربيتان نفسيهما على الاتفاق بمحجة ضابته .

وفي نهاية القرن تدهورت نظرة بريطانيا إلى المشكلة ، إذ أصبحت تسمى إلى الاعتراف بالقوة العسكرية في الخليج ، وبالتالي اعتبرت على قيام الدولة العثمانية بتحصين شط العرب ، مع أن ذلك التحصين حتى طبيعي ، وقد جاء في أعقاب غزو مصر وإحساس العثمانيين بأن بريطانيا لا تحترم سلامة أراضيهم .

وقد استخدمت حكومة الهند البريطانية فارس لتحقيق أهدافها ، فغشها على الادعاء بأن تسليم شط العرب يعارض مع مبدأ حرية الملاحة . وأجاب وزير الخارجية العثماني بأن من حق فارس أن تحسن الشاطئ الأيمن بما في ذلك أرض بلورة الحمرة دون أن يكون في ذلك مساس بحرية الملاحة في شط العرب لولا سهر قلوبهم .

ولما كانت هذه الإدارة الأخيرة تقع بمحاذات شط العرب ، لم يمت السلطات البريطانية في الخليج أن تخوض الشيخ خزعل حان حاكمها العربي لكي يولي العثمانيين كما يستعمل مع كثير من سائر الأمراء فيما بعد .

والنحنا أن حكومة استامبول قد نهأت بعقد اتفاقية سنة ١٩١٣ التي تملأ
مطهر من مظاهر عجزها عن الدفاع عن الولايات العربية . وقد برزت
الحكومة الاتحادية اتفاقية شط العرب مثلا بأنها باغت السفن التجارية لنشرى
بمنها سفنا حربية . ولم يقتنع الوطنيون العرب بشيء من ذلك فبرزت صهيون
عن استقلالها من سياسة الاتحاديين كما يرى المؤرخون العرب في اتفاق سنة ١٩١٣
برحاسا بتقسيم العالم العربي بين الدول الاستعمارية أثناء الحرب العالمية الأولى (١)

(١) ساحل المصري — العالم العربي والدولة العثمانية .

لم تفلح هذه المبادرات فاجأت بريطانيا إلى التهديد باستغلال ليبيا
١٨٨٩ ، وصرح بأن تخصيص شط العرب بهذه مصالحها التجارية زعلا ليز
ضمن بوجود أطماع استعمارية جنوب العراق آنذاك . وقد كشفت الوثائق لما
من وجود مشروعات باستغلال الأراضي العراقية في جنوب العراق بواسطة
شركات بريطانية (٢) .

ثبتت مسألة شط العرب معلقة حتى تمت تسوية معظم الخلافات في مشرق
اتفاق سنة ١٩١٣ فأمكن التوصل إلى تسوية ودية خاصة بهذا النوع
وبلاخط أن الاتفاقية أكدت التنازل البريطاني في جنوب العراق ، فمن ثم
الامتيازات السابقة ، ونحوها شركة لنش إلى شركة احتكارية محلية من
على بيع السفن العثمانية التي تستخدم في ملاحية النهرين لهذه الشركة .

وتقرر إقامة لجنة عثمانية بريطانية مشتركة للتسيير للراحة ، وإقامة القنصل
في شط العرب . وبالإضافة إلى ذلك حصلت بريطانيا على احتكر التسيير على
الشاطئ ومشروعات التسيير الأخرى في جنوب العراق . ويبدو أن الفرنسيين
استغلوا أنهم قد أمروا تقديما في إقليم المهرة (ألمو عروستان التابعة لحرس)
حيثما شملت الاتفاقية بنسدا غاما بتظيم الولاية في تلك الإمارة مع التسليم
باستغلالها الذاتي .

لم تكن مشكلة السلطة في جنوب العراق محامية على زعماء الاتحاد والذين
في استامبول ، وكان آدم ويدعى إسماعيل حتى باشا يبرز ولاية بغداد سنة ١٩١٠
فشكا من تقلم السلطة هناك . والحق أن السلطات البريطانية لم تكتف بإثارة
الأمراء المستقلين على حدود الدولة بل اتصلت برؤساء القضاة التي تزل جنوب
العراق وكان بمسهم أيضا على الكوريت إذا استطاع بالشعبيين ، لذلك يبدو

(٢) F.O. 78 N. 1684 مذكرة كران ديل وزير الخارجية بتاريخ
١٨٨٩

أن يشمل التمسيد سلطنة مسقط أيضاً ، ويقال إن هذه الإضافة جاءت نتيجة خطأ أحد الموظفين في وزارة الخارجية البريطانية . وعلى كل فإن بريطانيا لم تقترض على أن تتمتع باحترام استقلال مسقط لأنها كانت تدرك أن تقودها مستند من واقع السيطرة البحرية في الخليج وليس نتيجة اتفاقات دولية .

صدر التصريح الثاني في ١٠ مارس سنة ١٨٦٢ ويتضمن تمسيد الحكومتان الفرنسية والإنجليزية باحترام استقلال سلطنتي مسقط وزنجبار . ولم يمنع هذا التصريح بريطانيا من أن تعفي في دعم تقودها في عمان دون معارضة ، بل إنها عرفت النشاط الفرنسي الذي يحدد في نهاية القرن ، وفرضت حاجتها على زنجبار سنة ١٨٩٠ مما يؤكد أن هذا التصريح كان عديم القيمة ، ولذا يمكن القول بأن تاريخ عمان في هذه الفترة كان يدور في الحقيقة حول تقطين : مشكلة السلطة في الداخل وموقف الإنجليز من حكم مسقط ومن الثورات الداخلية .

لم يجد ثويني بدأ من الاستماتة بالإنجليز لمواجهة تلك الثورات رغم أنه لم ينتهزم تدخلهم لفصل زنجبار ، ذلك أن الثورات الداخلية تعددت في عهده فنها عصيان أخيه تركي حاكم صحار ، وتجمع الأبايين تحت زعامة عزان بن قيس ، ومطالبهم بإحياء الإمامة . وقد أشرنا إلى تدخل الإنجليز لحماية ثويني من ثورة قبائل صور التحالف مع الوهابيين .

لقد انتهت حياة ثويني بطريقة مفاجئة لم تأت عن طريق أي من تلك المحركات السياسية ، بل عن طريق اغتيال عائلي ، إذ غدر به أحد أبناءه ويدعى سالم وقته سنة ١٨٦٦ ولم يجد الحاكم الجديد أمامه من أنصار سوى الثاقورية الربيعين بالحركة الوهابية ، لذلك رفض الإنجليز التعاون مع سالم ومكثروا في أن يؤيدوا أخاه تركي للاستيلاء على السلطة ، ولكنهم اكتشفوا أن له خطة للاستيلاء على زنجبار فتدخلوا عن هذه الفكرة .

الفصل الحادي عشر التنافس الدولي

اضطرت بريطانيا إلى تسوية خلافاتها مع الدولة العثمانية لأنها ليست غريبة عن منطقة الخليج العربي . أما بالنسبة للدول الأوروبية التوسعية فقد أبدت تفضلاً تاماً في سياستها ، حتى قال روزن أحد الصحفيين الألمان « إننا عطس الآن في الخليج خيل لبريطانيا أن أركان الامبراطورية قد زلزلت » وفي مثل هذه الظروف لا بد وأن نتوقع أن يبلغ الإنجليز في تصوير أطماع الدول الأخرى ، ومن ثم يجب أخذ الوثائق البريطانية في هذا الموضوع بشيء من الحذر .

ومنذ نهاية القرن التاسع عشر انحصر التنافس الدولي في ثلاث صور : نشاط فرنسي متقطع في مسقط ، تتناقل النفوذ الروسي في فارس ، تسلل الألمان إلى ولاية بغداد عن طريق حصونهم على امتياز خط حديد بغداد .

١ - عمان والتنافس الإنجليزي الفرنسي

رأينا كيف شجع الإنجليز على انفصال زنجبار عن مسقط مما أثار عليهم حنق ثويني ابن السيد سعيد حاكم عمان . وقد أوجه خليفة السيد سعيد بفسكره أحياناً إلى نابليون الثالث ، غير أن النشاط الفرنسي المحدود كان منصفاً في ذلك الحين على القسم الأفريقي من السلطنة . وبإع هذا النشاط ذروته في زنجبار سنة ١٨٦١ حتى لجأ الإنجليز إلى التهديد بالقوة لمرة للشروعات الفرنسية في شرق أفريقيا ، وانتهت الأزمة باقتراح بريطاني بأن تتمتع الدولتان باحترام استقلال سلطان زنجبار وفي أثناء المحادثات حول هذا الموضوع^(١) اقترح الفرنسيون

(١) 1178 vol. 84 F.O. الرسائل التباعدية بين ثويني وزير الخارجية وكاوتي السفير البريطاني في باريس — انظر كذلك الجزء الثاني من الدراسة الثاقورية التي نشرها كوبلاند عن شرق أفريقيا Coupland, exploitation of east Africa

العامية بهذه الطريقة جعل مركزه ضعيفاً في الداخل واقتصرت سلطته على الشريط الساحلي بينما تعرض داخل البلاد لحالة من الفوضى التامة ، كانت الإمامة تبرز خلالها من حين إلى آخر حتى استقر وضعها بعض الشيء سنة ١٩١٣ .

استندت قبضة بريطانيا على عمان في عهد ترك بن سعيد ، فهي التي تدفع الإمامة السنوية بدل سلطان زنجبار ، وهي التي تؤيد السلطان ضد ثورات القبائل أو الأحزاب الدينية العادية . وفي ١٠/٢/١٨٧٥ حصلت على مزيد من الامتيازات الجركية ، وعندما أقيمت الاحتفالات الحامسة بإعلان فيسكتوريا إمبراطورة على الهند دعى ترك لحضور الاحتفالات في دلهي .

ومع أن بريطانيا ضمنت ثورات الأسرة للحكم في أواخر عهد ترك فإنها سلّمت ابنه فيصل عندما آلت إليه السلطة سنة ١٨٩٠ ، وهكذا أجيته على توقيع اتفاق جديد يفتقد من سيادة البلاد انتقاماً واضحاً في ١٩ مارس سنة ١٨٩١ ، إن أهم ما في الاتفاق الجديد هو النص على تعهد حاكم مسقط بعدم التنازل أو تغيير جزء من أراضيه إلا بإذن الحكومة البريطانية (١) . وفيها عدا ذلك فإنه توسيع للامتيازات التي سبق لبريطانيا أن حصلت عليها في معاهدة الصداقة المفعلة سنة ١٨٣٩ سواء أكانت امتيازات اقتصادية أم قضائية . وقد نص صراحة على أن الهنود يعتبرون رعايا بريطانيين . ومن الواضح أن التعهد بعدم التنازل يتناقض والتصريح البريطاني الفرنسي لسنة ١٨٦٢ ، لذلك رأت بريطانيا أن تحيط الاتفاق بسرية إلى أن تجدد النزاع بينها وبين فرنسا في مسقط فاضطرت إلى إعلانه .

ولا ينطوي اتفاق سنة ١٨٩١ على مبدأ الحماية الرسمية ، لأنه لا يلتزم الماهدات المفعلة مع الدول الأخرى وهي فرنسا والولايات المتحدة وهولندا ، والتي تسمح لهذه الدول باعتماد قناصل لدى السلطان . وبناء عليه لم تعترض بريطانيا على

ويلاحظ أن بريطانيا واجهت في تلك الحقبة قوى عديدة متصارعة في عمان لكنها تنفق جميعاً في معاداة السيطرة البريطانية ، فبالإضافة إلى أن ترك بدأ إعادة توحيد السلطنة ، كان الأباشيون تحت زعامة عزان بن قيس ينفذون على حكام مسقط استسلامهم للأجانب ويدعون إلى نبذ الاتفاقات التي عقدها السيد سعيد والتي تمنحهم امتيازات عديدة أما سلام حاكم مسقط ١٨٦٦ - ١٨٦٨ فإن ارتباطه بالوهابيين كان يبعده عن الانحياز . وانتهى هؤلاء إلى افضلية الزام الحياض أمام تلك القوى المتصارعة وتركوا مسقط لنفط في يد عزان بن قيس سنة ١٨٦٨ وحاولوا سلم دون جدوى الاشماع بالسعوديين ، فإتهم كانوا مشغولين في ذلك الوقت بالحرب الأهلية حتى أنهم تركوا واجات البويرين تقع في يد عزان ابن قيس سنة ١٨٦٩ .

جمع عزان بن قيس بين السلطة في مسقط وبين الإلمنة كما كان الحال في بداية عهد أسرة السيد سعيد ، غير أن حكمه لم يتطور عشرين لأن شروطاً مختلفة نجحت ضد المقاطعة التي أبدوه انقسموا على أنفسهم ، وتدخل العلماء الأباشيون في شئون الحكم حتى أنهم منعوا كثيراً من السكوس وزادوا حكومة مسقط فقر (٢) وأهم من ذلك اعتبرت السلطات البريطانية إحياء الإمامة ضربة لنفوذها في مسقط ، ولذلك عادت واتفتت مع ترك بن سعيد على خطة تهدف إلى تسليم الحكم في مسقط بعد أن يتعهد بالتنازل عن سياسته الرامية إلى التدخل في زنجبار .

كان ترك منذ فشل عصيانه الأول قد لجأ إلى بومباي ، وهناك روض على طاعة السلطات البريطانية حتى عفت عنه سنة ١٨٦٩ وأخذت تعد له العدة للعودة إلى عمان . وفي سبتمبر من العام التالي وصل على ظهر سفينة بريطانية وأخذ يجمع القبائل التي حاصرت مسقط ، وقتل عزان أثناء الحركة غير أن استيلاء ترك على

الامتياز ، ولم يستسلم فيصل فحسب بل إنه صعد على ظهر السفينة وعبر عن أسفه للقائد البريطاني .

كان موقف فرنسا في هذه القضية يستند إلى أسس قانونية أقوى ، فهو يمشي مع التصريح الثنائي لسنة ١٨٦٢ وهو التصريح الذي لا يمكن أن تلغيه معاهدة عدم التنازل لسنة ١٨٩١ ، وعلاوة على ذلك جاء الحادث في أعقاب أزمة قانونية ، ولهذا الأسباب مجتمعة لم تنشأ الحكومة البريطانية في لندن أن تزيد الشككة تقييداً واقتراح سالف يرى أن يعترف لفرنسا بحقها عتقياً في إنشاء مستودع على أرض عمان على أن تحقق الدولتان لأخيار مكان آخر بعيداً عن الخليج العربي لإقامة المستودع ، وذلك لأن الاعتقاد السائد لدى الاستعماريين البريطانيين هو أنه طالما لا توجد لفرنسا مصالح تجارية أو ملاحية تنطلة بالخليج فإن إقامة مستودع هناك لا يمكن أن يكون إلا لتحقيق أغراض توسعية . وفي أغسطس سنة ١٩٠٠ تم الاتفاق بين ممثلي الدولتين في مستط على إقامة المستودع الفرنسي في الكلاء على ساحل حضرموت .

صحت هذه الأحداث بالورد كيرزون إلى أن يرسل قصلاً جديداً في مستط فوفيه صلات الحزم والحيوية ، ووقع اختياره على برسي كوكس كزاهدنا للنصب ، وكان وجوده في مستط بداية عهد طويل من نشاطه السلمي ولسع في العالم العربي ، وسينتهي به الطاق إلى العراق ، وضع خلالها أسس لاتحاد البريطانيين الذي أخلو شتوته فترة من الزمن بمس الحرب العالمية الأولى .

كانت خطة كوكس هي أن يبعد التنمية التقليدية بين حاكم مستط وبين الإنجليز وذلك عن طريق تزويده بالمال وتأنيده ضد الترد السعري الداخلي ولم يبلغ به الأمر لتحقيق هذا الترض أنه كان يقدم للسلطان قروماً من جيبه الخاص ، كما قام بحركة طلاق خلالها معظم الراكز الداخلية وانتهت به

تعيين نائب قنصل فرنسي في مستط سنة ١٨٩٢ ، غير أن بناة الإمبراطورية مثل كيرزون اعتبروا اتفاق سنة ١٨٩١ خطوة لوسع عمان تحت الحماية البريطانية فعلا ، فكسب في العام التالي « إننا نعطي إمام مستط معاشه السنوي وعلى عليه سياسته الخارجية ، وكل تدخل أجنبي في شئون مستط يعتبر موجهاً ضد بريطانيا وإني مقتنع بأنه لن يمر زمن طويل حتى تعلن الحماية بصفة رسمية وحينئذ يرفع علم صاحبة الجلالة على قلعة مستط » (١)

تعرض حكم فيصل مثل أسلامه للقتل الداخلي ، وخلافاً لعلم الثورات السابقة زعم المناوئة لا الثاقفة الترد سنة ١٨٩٥ وقد اضطر السلطان إلى الانسحاب بالقلمة لأن الثوار تمكنوا من دخول مستط ، إذ أن التأييد البريطاني أتى متأخراً في هذه المرة لذلك أسرها فيصل في نفسه ووثق صلاته بأوتاني ممثل فرنسا الذي رفع إلى درجة قنصل سنة ١٨٩٨ مما يدل على تجديد اهتمام فرنسا بهذا الجزء من شبه جزيرة العرب . وكان أوتاني مثل كثير من القناصل الذين يعيشون في أقطار متفرقة بشعرون بالحاجة إلى إجماع صوتهم للعالم ويتصلون بالبالة في تصوير الأزمات الدبلوماسية . وبالإضافة إلى ذلك كان الشيخ عبد العزيز كان السلطان هو حلقة العلة بين فيصل بن تركي وبين القنصل الفرنسي . ويشتمل هذا الشيخ إلى مدينة صور التي حصل كثير من أصحاب الراكب فيها على الحماية الفرنسية . ومن ثم ارتبط أوتاني بتأثيرات السياسة القبلية . وقد دعت جميع هذه الأسباب فيصل إلى الاستجابة لعلم الفرنسيين بإقامة مستودع في عمان ، واختير مكان يعرف برأس الحصنة لهذا الترض ، وقد منع هذا الامتياز بناء على معاهدة الصداقة الموقعة بين السيد سعيد وفرنسا في سنة ١٨٤٤ .

كان كيرزون قد تولى في ذلك الحين حكومة الهند ، فالتخذ موقفاً متشدداً من هذا الموضوع ، وأرسل سفينة حربية لتهديد السلطان مع إنذاره بسحب

(١) B D. W. vol. 10 Part 2 المراسلات بين برسي وتونلي والشار وزيه الخارجية الثمانية .

الرحلة في أي وطني . ويبدو أنه أحرش خلال تلك الرحلة مشكلة السلطة في عمان
فلم يشأ أن يسلك بلاطه عنه تسيير الوسم هناك هناك منذ زمن طويل (١)
وهكذا يعود اهتمام الباحث ليتركز حول الأزمات الدبلوماسية التي تحدثت
بين فرنسا وبريطانيا في مسقط وتندور تلك الأزمات حول نقطتين : الأولى تتعلق
بحمل السنن العمانية لأعلام فرنسية ، والثانية بمسألة تجارة السلاح . ومن الواضح
أن كلا الأمرين نشأ عن وجود نظم الاختيارات . فحسب هذا النظام كل
يسمح للمول الأوربية بأن تنفع حاجتها لبعض وعيا الدول الآسيوية والأفريقية ،
وكل هذا الاختيار يمنح في الأصل الأشخاص الذين يعملون في القنصلية ولكن
كثيراً ما كانت الدول الأوربية تسيء استخدام هذا الحق ، وى مسقط
منحت فرنسا عدداً من أصحاب السنن وخاصة من مدينة صور جنسيتها ، مما كان
يبيع هؤلاء دفع العلم الفرنسي على سفنهم ، وبالتالي تشتمهم . يجمع الاختيارات التي
اللا جانب . وقد تبين أن المحاكم الفرنسية في جزر كومود ولى جيبوتي كانوا
يختصون الميزون أوراما تنص عليهم المجلسية الفرنسية .

كانت بريطانيا تنصرف بنفس الطريقة مع بعض المحاكم الوطنية في منطقة
الخليج العربي ، لكنها اعترفت بنقطة على تصرفات الفرنسيين في مسقط بسحب
المجلسية الفرنسية عن المارين مستندة إلى تصريح سنة ١٨٦٢ الخاص بقرار
مسقط ، أي أنها اعتبرت منح المجلسية الفرنسية لأصحاب السفن متنافياً مع هذا
الاستقلال . وكان أهل صور يقولون على طلب المجلسية الفرنسية لكي ينظروا
من التفتيش البريطاني من جهة ، ومن سلطة ما ك مسقط من جهة أخرى . ذلك
أن فرنسا كانت قد نذرت جميع الاتفاقيات الخاصة بمنح تفتيش السفن ولم توافق
على إجراءات مؤتمر بروكسل لسنة ١٨٨١ بقصد مسكافة تجارة الرقيق .

شرعت حكومة الهند في إثارة هذه القضية سنة ١٨٩٦ وبحثت السلطان على
الاحتجاج بل إليها دفعه إلى القيام برعاية المور حيث سحب الأوراق من بعض

لسن العمانية التي حصلت على المجلسية الفرنسية . ولما كانت هذه القضية قد
توزع بتوضيح التنازل عن رأس الحصة فقد اشتد غضب حكومة الهند على
بمعلن ترك إلى حد أنها قطعت عنه الإجابة السنوية في سنة ١٨٩٧ وفي سنة
١٩٠٠ اندم الزرع من جديد بعد أن تخلت بريطانيا من حزب البور التي
أنفك كاهلها وأجبرت ما ك مسقط على التمسك على العمانية الذين ينتهون
بالجاة الفرنسية وإيداعهم السجن مما اضطر فرنسا إلى إرسال سفينة حربية
لإلزامهم وأائل سنة ١٩٠٤ في موعد القربى فيه الدولتان من توقيع
الاتفاق لودي ، لذلك توقف الزرع عند هذه النقطة وألغيت الدولتان بد قليل
تجزيه الخلاف إلى محكمة العدل الدولية .

مدرحكم المحكمة في يونيو سنة ١٩٠٥ وكان أقرب إلى وجهة النظر
البريطانية (١) فهو ينص على أن العمانية يجب أن يخضعا لسلطة القنصلية للسلطان
في جميع الأحوال ، أما بخصوص حل الأعلام الفرنسية فميزي الحكم بين طيقتين :
دولة التي عملوا على الاختيار قبل سنة ١٨٨٢ ولم أن يستمروا في حل
أعلام الفرنسية . ومؤلاء الذين حصلوا عليها بعد هذا التاريخ فيسقط عنهم
الاعتراف . وقد اعتبر عام ١٨٩٢ لأنه يطابق الموعد الذي تقرر فيه تعديل نظام
روكس الخاص بالتفتيش البحري ومسكافة تجارة الرقيق ، لا يجوز التمسك
لسبة اللبنة التي ترفع العلم الفرنسي حتى في مياه مسقط الأقيسية . ويتبع
الحكم من انقضاء اختيار تنفع السفن بالمجلسية الفرنسية من شخص إلى آخر حتى
إذا كان من دولته . ولهذا النص منازع عام إذ أنه أصبح مقنن للإعلام الفرنسية
أن تلحق بعد مدة من عمان .

(١) Burnet-Millon, les Bourriers de la mer des Indes
عمر كاتالان الذي قدمه موزر فاجار "الفرنسية والفرنسي بنقد حكم محكمة العدل الدولية".
عمر بن الرح

٢٠

٢- الإطّاع الروسية

في سبتمبر سنة ١٨٩٩ وضع اللورد كيرزون مذكرة هامة عن سياسة بريطانيا^(١) في فارس والخليج العربي . وتندرد الرسالة بوجود أطّماع دولية متعددة تهدد النفوذ البريطاني وتكمن خطورتها في أنها ليست صادرة عن دولة واحدة بل عن دول عديدة وأكثر ما يخشاه كيرزون هو أن يكون الفرنسيون والروس قد نسقوا سياساتهم في الخليج نتيجة وجود تحالف بين الدولتين منذ سنة ١٨٩٢ .

ومنذ زمن طويل كانت السلطات البريطانية في الهند تنظر بعين القلق إلى تسلل النفوذ الروسي إلى طهران ، غير أن هذا النفوذ كان يقتصر في الضيق على الشاه ، وبالتالي توجيه سياسته توجيهاً معيناً . أما في نهاية القرن التاسع عشر فإن وكلاء الروس أخذوا يتربصون على جنوب فارس وموانئها الناجزة للخليج ، وكان ظهور طبيب أو قنصل أو تاجر يكفي لكي يثير قلق البريطانيين ، وهكذا أخذ كيرزون يعدد مظاهر التسلل الروسي والفرنسي في منطقة الخليج كتميين لفصل روسي في شيراز ، وحبس آخر إلى لجة ، واستقرار بعض الألباء الروس في بندر عباس بالإضافة إلى تعيين نائب قنصل فرنسي في بوشهر ، وإنشاء خط ملاحى بين تلك المدينة وبين بومباي تابع لشركة البساسجيري ماريتيم الفرنسية . ويربط كيرزون بين ذلك كله وبين اختيار الشاه للبلجيكا لإدارة الحركة في موانئ الخليج بتأييد من فرنسا .

وأخذ حاكم الهند الاستعماري يضخم في الشائعات ، فالجنة العلمية الفرنسية التي تزود حوض التارون تريد فتح خط ملاحى هناك ينافس الخط البريطانى ، والتدوب الروسى الذى ظهر في لجة يسمى لإقامة حامية روسية في جزيرة قشم . ومع أن الروس تقوأم من قبل وجود أية أطّاع في جزيرة قشم لدى السفير البريطانى في بطرسبرج ، وذلك لعدم تحمل أعباء الدفاع عنها ، ومع أنى أمل

(١) أظرف نصها في 240-219 p. I. Hurewitz

وبناء على هذا الحكم شرع مندوبو الدولتين المتنازعتين في تعيين السفف التي يجوز لها أن تتمتع بحكم العلم الفرنسى طبقاً لحكم محكمة العمل الدولية فتبين أنها لا تزيد عن ثلاث وعشرين . وقد اخذت جميعاً بعد الحرب العالمية الأولى .

أما موضوع تجارة الأسلحة فإن عمان كانت مستودعاً خصباً لتوزيع الأسلحة لا في شبه الجزيرة لحشب ، بل في فارس وبلوخستان أيضاً ، وطبقاً لنظام الامتيازات كانت الشركات الأوروبية الخاصة لا تخضع للرقابة فتستطيع بيع الأسلحة للوطنين العرب دون أن تتحك حكومة مسقط حق التدخل في ذلك .

وكما حدث بالنسبة لقضية الأعلام طلبت بريطانيا أن يشرف السلطان على تجارة السلاح في بلاده وعرضت في مقابل ذلك التنازل عن بعض الإعانات التي تتمتع بها التجارة البريطانية في الجزائر وتونس . غير أن أصحاب الشركات الفرنسيين ماوسوا ضغطاً على حكومتهم حتى تقوم الإجراءت البريطانية . وتدل الرسائل^(١) المتبادلة بين الحكومتين خلال عامى ١٩١٢ - ١٩١٣ على أن فرنسا احتجّت تارة بمعامدة سنة ١٨٤٤ وتارة أخرى بالتصرّح التنازلى لسنة ١٨٦٢ ، وبناء عليه رفضت فرنسا فكرة التحكيم في هذه القضية ، لأن بريطانيا لم تكن طرفاً في معامدة ١٨٤٤ التي تمنحها الامتيازات في مسقط .

ولما لم تكن فرنسا تملك قوة فعالة في الخليج ، فإن السادومة في هذه السألة كان مقضياً عليها بالفشل . وقد لجح السلطان فيصل بن تركى إلى إنشاء المعامدة ، ولا شك أنه فعل ذلك تلبية لرغبة بريطانيا . وأخيراً اضطرت فرنسا إلى قبول مبدأ التعويض . ويتوقف تجارة السلاح سنة ١٩١٤ انتهت الصالح الفرنسية في مسقط ، ومنذ ذلك الوقت لم تجد فرنسا حاجة إلى إقامة تمثيل قنصل هناك .

(١) نشررت وزارة الخارجية الفرنسية تلك المراسلات على عدة . أظرف نصها للرابف

إلى تصديق هذا النقي فإني أعتقد أن الروس لن يسكنوا عن الحصول على ميناء في الخليج » .

وفي أواخر التسعينات امتد نشاط الروس إلى ولاية بغداد وما حولها من أراضي الدولة العثمانية. وفي الوقت الذي كان الألمان يناوضون فيه لإنشاء خط بغداد ، كان كلفست رجل الأعمال الروسي يضع مشروعاً لإنشاء خط آخر يربط بين منطقة الخليج وبين حوض البحر المتوسط ، ويقترح أن تكون الكويت هي نهاية ذلك الخط . لذلك قيل إن قبول الحماية البريطانية للكويت كان مرجعه مواجهة الخطر الروسي أكثر من مقاومة خط حديد بغداد الألمان ، كذلك فإن تصريح لاندراون عن الخليج في مايو سنة ١٩٠٣ ذكر روسيا بالاسم ولم يشير إلى ألمانيا ، مع أن هذا التصريح صدر في أعقاب منح امتياز خط بغداد . وما جاء فيه « . . . يجب أن نعتبر إنشاء قاعدة بحرية أو ميناء محمض في الخليج » الفارسي « من جانب أية دولة أجنبية أخرى تهديداً خطيراً للمصالح البريطانية وبشكل تأكيد يجب أن نقاومه بجميع الوسائل التي نحت نصرنا » (١) وأخيراً أنشأ الروس خطاً ملاحياً منتظماً بين أوديسا والخليج ، ولما كان هذا الخط يعمد بالخسارة على الدولة فقد استنتجت بريطانيا أنه تمهيد للاطماع التوسعية .

كان أطماع بريطانيا خطئان لمواجهة الروس في فارس ، فرأى البعض أن دعم بريطانيا نفوذها في الجنوب وذلك عن طريق تشجيع العشائر وخاصة البختيارية على الانفصال وتزويدهم بالأسلحة ، وينطبق ذلك أيضاً على إمارة الحمرة ، فإن أميرها العربي في ذلك الوقت كان خزل خان صديق الشيخ مبارك والإنجليز ، وهو ينزع إلى الاستقلال ، فيمكن حمايته ضد الشاه كما حمت بريطانيا الكويت ضد العثمانيين . وقد طلب الشيخ خزل خان معاهدة مع بريطانيا على نسق معاهدة

(١) G.P.G. vol. I. p. 369-370

الكويت لسنة ١٨٩٩ ، غير أن بريطانيا أعطت للحمرة ضمانات أقل من تلك التي أعطتها للكويت من قبل . فتهددت بحماية الإمارة ضد العدوان الخارجي وبايد شيخها طلالا بنى عاقداً على الولاء للشاه ، ويقتصر طلباً لتأمينات الحكومة البريطانية . وهي تؤيد استقلال فارس وفي نفس الوقت تضمن توارث الحكم في أسرة خزل خان (٢) ويرى الفريق الثاني أن تلك الخطة ستزيد من فارس ضعفاً وبالتالي تزعمها في أحضان روسيا ، ولذا نصحوها بتقوية حكومة الشاه ومساعدتها ضد الحركات الانفصالية . وفعلوا كان الروس يسكتيون تقوفاً متزايداً بسبب الاضطرابات الداخلية وحمايتهم لأفراد الأسرة الفارسية الرجعيين العاديين للحركات المستورية . وفي سنة ١٩٠٠ قدموا إلى فارس قرصاً بملبوس خفيه وحصلوا مقابل ذلك على إدارة المراكب الواقعة على الحدود الشمالية ، ثم حصلوا على إعفاءات من المراكب الفارسية في سنة ١٩٠٢ ، وقد أصبح ماهان أحد السياسيين الأمريكيين اللوفين لبريطانيا بأن تتبع مع فارس نفس الخطة التي اتبعتها مع الدولة العثمانية سنة ١٨٧٨ حينما تدخلت لحمايتها من الأطماع الروسية ، وانتقد في كتابه « آسيا والسياسة الدولية » موقف بريطانيا من الدول الوطنية الناجمة للخليج العربي .

إن النهاية المحتملة للخطة الأولى هي تقسيم فارس إلى مناطق نفوذ ، وهذا ما انتهت إليه السياسة البريطانية . فإهي الأسباب التي رجحت تلك الخطة الأولى : وجود الاتفاق الذي جعل من فرنسا صديقاً للطرفين المتنازعين في فارس ، ومكثها من أن تلعب دور الوسيط لتسوية هذا الخلاف . ثانياً : هزيمة روسيا في الحرب مع اليابان ، وشعور الإنجليز بأن أخطار توسعها قد قلت . ثالثاً : نزعة حزب الأحرار في التخفيف من أعباء التوسع الاستعماري ، ذلك التوسع الذي تمخض له حزب المحافظين ، وقد انتقل الحكم إلى الأحرار على أثر انتخابات سنة ١٩٠٦ ونهب السيل لإجراء المفاوضات مع روسيا (٣) .

(١) انظر رسالة هاردينج السفير البريطاني في طهران بتاريخ ١٩٠٢/٨/٧ نقل عن طائر كرايا للسم

(٢) B.D.W. vol. 6. p. 325-576.

ببب ممارسة الحركة الدستورية فإنها قد أحرزت نجاحاً اقتصادياً هاماً حينما حصلت على أول امتياز هام للنفط في جنوب فارس سنة ١٩٠١.

٣ - ألمانيا وخط حديد بغداد

بالرغم من أن مشروع خط حديد بغداد لم يتحقق قط على يد الألمان فقد أثار الامتياز منحة دولية عظيمة، لأنه كان يمس مصالح استثمارية عديدة ومتنوعة^(١)، فاعتبرته روسا مهدداً لأطماعها في شمال إيران وغربها في أن تستأثر بشبكة المواصلات التي تصل ما بين بحر قزوين والخليج العربي وعلى هذا النحو أيضاً خشيته فرنسا أن يقرب النفوذ الألماني إلى ولايات الشام. أما بريطانيا ففطرت إليه من زاوية وجودها في الخليج. وقد أشرنا إلى أن بريطانيا كانت أول من فكر في مد خط حديد يصل ما بين الخليج وبين حوض المتوسط، وذلك إبان استعمار ديليسين لنش قناة السويس، غير أنها تراجمت عن المشروع لأسباب اقتصادية. والحق أن حكومة استامبول هي التي حرصت على ربط ولاياتها بشبكة مواصلات حديثة باعتبارها خير أداة لتوطيد سلطة الدولة. ولذلك فإن السلطان عبد الحميد الثاني هو الذي حث أسدقاه الألمان على مد خط بغداد ومنعهم في مقابل ذلك تسهيلات كثيرة لأن المشروع يكلف نفقات هائلة.

وكان الألمان قد بدأوا منذ سنة ١٨٩٣ في مد شبكة عبر آسيا الصغرى تصل إلى إسكيشهر ثم تقرر مد خط إلى قونية. وفي سنة ١٨٩٩ أعلن السلطان عن طرح مشروع خط حديد بغداد الذي لا بد وأن ينتهي عند ميناء على الخليج وكانت هناك فرصة أمام روس الأموال الأجنبية من مختلف الجلسيات للحصول على امتياز المشروع. وفي ذلك العهد شاع تأليف الاتحادات الرأسمالية الدولية لم غائع بريطانيا أو فرنسا في بداية الأمر من إشراك روس أموالها مع

(١) Earl, Turkey, the great Powers and the Bagdad Railway.

ومن المعروف أن الاتفاق البريطاني الروسي لسنة ١٩٠٧ قد سوى جميع الخلافات الرئيسية في آسيا الوسطى. وفيما يتعلق بموضوعنا قسمت فارس إلى ثلاث مناطق: شالية تدور في فلك النفوذ الروسي، ووسطى محايدة، وجنوبية تخضع للنفوذ البريطاني. ولم يكن الإنجليز راضين عن هذا التقسيم، فأصروا على أن يضيفوا تحفظاً تعترف بمقتضاها روسيا بالمصالح البريطانية في الخليج ولكنهم لم ينصحوها في إدخال هذا التحفظ في صلب الاتفاقية، واقتصر الأمر على إقرار أن روسيا بالتصريحات الواردة أثناء المفاوضات، والتي جاء في خلالها أن روسيا تنوي وجود أية أطماع لها في الخليج، غير أن بريطانيا ألحقت بالاتفاقية بذكر توثيقية هي عبارة عن رسالة قدمها سفيرها في بطرسبرج، وجاء فيها أن الحكومة الروسية لا تنسك للمصالح البريطانية الخاصة في الخليج وفي نفس الوقت تعتمد الحكومة البريطانية بالمحافظة على الوضع الراهن وعدم التعرض للتجارة الشروعة لأية دولة أخرى.

والحق إن اتفاق سنة ١٩٠٧ لم يرض كلا الطرفين بالنسبة لفارس والخليج العربي، فانفق اللورد كيرزن كما أن الروس لم ياتروا به في بعض المناشير، فحينما جرى الاجتماع بين ويلهم الثاني وقيصر روسيا في بوتسدام^(١) بحث إمكان إنشاء شبكة من الخطوط الحديدية الروسية من بحر قزوين حتى بلوخستان أو ساحل كرمان، أي في جنوب فارس الواقع في منطقة النفوذ البريطانية. وعلاوة على ذلك اتفق مبدئياً على ربط تلك الشبكة بنوع خط بغداد، كما وافق الروس على إنشاء خط لاني آخر يصل إلى أسفهان. نعم لم تعد هذه المحادثات مجرد وضع للشروعات، غير أن ذلك كان كافياً في عهده لإثارة ضجة في بريطانيا. ومن جهة أخرى كان لاتفاق سنة ١٩٠٧ أثر بعيد على فارس التي لم تنتشر في هذا الأمر، وأخذت الحركة الوطنية فيها تبث الشعور المعادي لكل من بريطانيا وروسيا، غير أن بريطانيا إذا كانت قد فشلت في كسب نفوذ سياسي

(١) المصدر السابق vol. 10.

الاستثمارات الألمانية لتنفيذ المشروع . فعندما انقردت به ألمانيا في نهايتها الأولى : يبدو أن بريطانيا انشغلت عن ذلك الموضوع بحرب البور ١٨٩٩-١٩٠٢ وثانياً اعترضت بعض الجهات التي لها مصالح مباشرة في الشرق الأوسط على ذلك بصفة عامة ، وعلى اشتراك الألمان فيه بصفة خاصة . ومن أهم تلك الجهات ترك لش صاحبة امتياز الملاحة في النهرين . ومن الواضح أنها ستفقد مواردها تنفيذ المشروع . أما حكومة الهند فقد اعترضت لأسباب استراتيجية إذ أنها سارن تعتبر الخليج العربي منذ مدة طويلة خطأ أمامياً للدفاع عن الهند / وعلى ذلك : سيطرة الألمان على خط يصل إلى الخليج يعتبر مهدداً لأمن المستعمرة الكبرى ، سيما وأن ألمانيا أخذت في نفس الوقت تدعم قوتها البحرية وتنافس بريطانيا في ميدان الاستثمار . ودعا بعض السياسيين الألمان إلى ما عرف « بالرحل نحو الشرق » . صدر عقد الامتياز في مارس سنة ١٩٠٣ لصالح البنك الألمان وتبع العقد شركة خط حديد بعداد امتيازات أخرى عديدة في الولاية كما : مكلر الدين في مسافة معينة حول الخط وبناء عدة فروع أخرى في اتجاه فارس والشام ، ولشركة أن تلتقى المستودعات اللازمة لتأمين سير الخط الحديدى وتشرف على حراسها بالتشاور مع وزارة الحربية الألمانية . وتقرر أن ينتهى الخط عند ميناء على الخليج وإن لم يحدد عقد الامتياز مكان هذا الميناء (١).

ولاشك أن صدور هذا الامتياز في أعقاب حصول روسيا على امتيازات اقتصادية هائلة بين عامي ١٩٠٠ ، ١٩٠٢ في فارس هو الذى جعل بريطانيا تشعر بتهديد مركزها في الخليج نهدياً مباشراً ، وتشغل رد الفعل في حاذين : الأول تصرّيح لا زداون في مجلس العموم والثاني قيام اللورد كيرزن بجولة في الخليج وهو أول حاكم عام يذهب بعيداً في جولته إلى تلك المنطقة . وقد نبين من خلال تلك الزيارة أن النفوذ البريطانى يتركز على الشاطئ العربى ، أما الشاطئ الفارسمى فكان ما يزال مجالاً لنشاط دول أخرى غير بريطانيا ، إذ أخذت

(١) اطرنس الامتياز في 1. p. 252

كل من فرنسا وروسيا وألمانيا قنصليات في بوشهر وبعض المدن الجنوبية في فارس .

ويحدد بنا في هذه المناسبة أن نستطرد قليلاً لتبين كيف عامل اللورد كيرزن الرؤساء العرب أثناء تلك الجولة ، فقد جمعهم في الشارقة وخطب فيهم قائلاً :

« إن الروابط التي تربط بيننا قد جعلت من بريطانيا الدولة الأميرة فيكم ، والحفاظ على الصلاح بين القبائل وما بقيت لكم رابطة بأحد من الدول الأخرى ، وكل واحدة من الحكومات المعروفة باسم الحكومات ذات المائدة غسبر البريطانية ، ولا تقبل من الدول الأخرى وكلاء ، وأن لا تترك من يدها شيئاً من بلادها . هذه الشرائط واجبة على كل واحد منكم ، وهكذا هي واجبة من الجانب الثانى على الحكومة البريطانية أيضاً ، فادامت الشرائط واجب عليها بالصدق لا يمكن لأحد أن ينير حقوقكم وحرصكم » .

وقد تمهد كيرزن فعلاً بعدم التدخل في شؤون الشيوخ الخاصة ، ولكن هذا التمهد لا ينطوى على احترام لهم بل على رغبة في التخفيف من الأعباء ، إذ إن حاكم الهند العام حينها عبر عن انطباعه عن تلك الجولة شبه مجلس هؤلاء الرؤساء بجماعة من الثرثارة تصيح ولا تعرف شيئاً عن آداب الحديث (١) وفي الكويت استقبل الشيخ مبارك اللورد كيرزن استقبالاً حاراً ، وقد وجده حاكم الهند العام أكثر تنوراً من رؤساء الساحل ، ولذا منحه لقباً بريطانياً عالياً . وقد انتفى مصلحة حاكم الكويت مع بريطانيا في ممارسة خط حديد بعداد ، أو على الأقل مده إلى الكويت وشبه موقف مبارك في ذلك موقف شريف مكة من سكة حديد الحجاز ، فإن هؤلاء الرؤساء العرب اللطمين بالاستقلال اللذان كانوا يرون في طرق المواصلات الحديثة مقدمة للقضاء على استقلالهم . وقد أخذت الحكومة الألمانية في الاعتبار مقاومة حاكم الكويت ، ولذا شرعت في إعداد

Fraser, India under Lord Curson, p. 72-115.

الابتداء الألماني بعد الخط الحديدي إلى الخليج ، وقد عبر عن ذلك حتى باشا في نهاية سنة ١٩١٠ بقوله :

إن الدولة العثمانية لا تناقض المطالب البريطانية بخصوص القسم الجنوبي من خط حديد بغداد ، ولكنها تتألم لتشجيع الكويت على الانفصال ، وترى في ذلك مقدمة لاستيلاء بريطانيا عابسا ، بل وبسط نفوذها في جنوب العراق . هذا بالإضافة إلى أن الكويت صارت مركزاً تهريب السلاح وإثارة الاضطرابات . وقد أجابت الخارجية البريطانية بأن التخلي عن الكويت يؤدي إلى فقدان هيبتها في منطقة الخليج بأسرها ، ومع ذلك يمكن التفاوض بهذا الشأن مع ربه بموضوع خط حديد بغداد ^(١) . هل كان ذلك الجواب يعني أن بريطانيا مستعدة لإعادة شيء من السطة العثمانية في الكويت مقابل حصولها على القسم الجنوبي من خط حديد بغداد ؟ إن هذا هو ما فهم من رد الخارجية البريطانية ، غير أن الدولة العثمانية لم تحصل بتفصي اتفاق سنة ١٩١٣ على أكثر من السيادة الرمزية ، أما بريطانيا فقد استطاعت أن تحقق كثيراً من أهدافها بالنسبة لخط حديد بغداد ، وقد اتفق على ذلك مبدئياً في سنة ١٩١٣ مع الدولة العثمانية ثم جرت محادثات موازية بين الأساطين الإنجليزية والألمان وانتهت في يونيو سنة ١٩١٤ إلى عقد اتفاق على أساس المثل الوسط ^(٢) .

ونقضي الاتفاق حصل الإنجليز على امتياز من الخط الواقع جنوب البصرة والإضافة إلى ذلك يكون لهم عنوان في مجلس إدارة خط حديد بغداد . وتمهد لأن يبدء إعطاء أية أفضلية سواء بالنسبة للرسوم أو الأسبقية في استخدام الخط ، وعدم السماح حتى لطرف ثالث بإقامة ميناء على الخليج .

أما بريطانيا فقد تعهدت بفتح شط العرب للدلالة الدولية وإجراء تحسينات

(١) B. D. W. vol. 10 Part 2, p. 31 مصرج على باشا صدارج ١٩١٠/١٢/٢٩

(٢) نفس المصدر السابق ص ١٩٩ - ٣١٢

منطقة المستنقعات الواقعة غرب شط العرب لكي يمد بها الخط وينتهي عند قلعة أخرى مثل خور عبدالله ، ماراً بمدينة الزبير ، ولو أن هذه الأماكن لا تضاهي في صلاحيتها للدلالة خليج الكويت المعين مما يفرض بمصالح المشروع .

لم تنقطع المعارضة البريطانية بعد انصراف الدولة العثمانية عن ضم الكويت وإجبارها على قبول مد الخط الحديدي في بلاده ، ذلك لأنها كانت تعتبر المشروع في ذاته جزءاً من خطة ألمانية واسعة للزحف نحو الشرق ، وأخذت تبع جميع أوجه النشاط الألماني الأخرى مهما كانت بسيطة وتبالغ كالعادة في تصوير أهدافها . مثال ذلك القول بأن إنشاء خط ملاحي منتظم من هجرج إلى الخليج العربي ينطوي على أهداف سياسية لأنه يعود على أصحاب السفن بحجاز كبيرة . كذلك سجلت السلطات البريطانية مع كثير من القلق تكوين شركة وينج هوس في هجورج سنة ١٨٩٦ لاستغلال الأصداف الحجرية في المنطقة . وقد أنشأت في سنة ١٨٩٨ فروعا أخرى في البصرة وبغداد ، وجرت شائعات بأن الشركة نمت لإقامة مستودعات في إحدى جزر الخليج .

دار هذا الصراع دون أن تضع الشركة الألمانية مشروعها موضع التنفيذ ، فقد سارت أعمالها ببطء شديد ، وفي سنة ١٩١٢ لم يكن قد تجاوز الخط حلب واسكندرون ، وبعد عقد الاتفاق الروسي البريطاني سنة ١٩٠٧ تكثفت اللواتي لمعارضة المشروع الألماني . ورات الحكومة الألمانية أن تسامح روسيا على اقتراد وفورات معها إلى اتفاق سنة ١٩١١ تنازلت بتقصاه عن الفرع للبحر شرق خاتقن إلى فارس . أما بالنسبة لبريطانيا فقد تمت تسوية الخلاف معها بتوقيع الاتفاق البريطاني الألماني لسنة ١٩١٣ .

وقد رأينا كيف تخافل الاتحاديون أمام الإنجليز في الخليج ، وربما فكر بعضهم في أن مصلحة الدولة أن تقيم نوعاً من التوازن بين المصالح الأوربية في الإمبراطورية العثمانية ، ولذلك أخذ الاتحاديون في الاعتبار المطالب البريطانية في

الفصل الثاني عشر

الحرب العالمية الأولى ونتائجها

١ - الرؤساء العرب في شمال الخليج

لم تدخل الدولة العثمانية الحرب إلا بعد مضي ثلاثة أشهر من قيامها في أوروبا، وفي خلال تلك الفترة لم تتفعل حكومة الهند بحث الإجراءات التي يجب اتخاذها في منطقة الخليج العربي في حالة خوض العثمانيين الحرب بجانب دول الوسط تسد الملاء. وكان رأي بيرسي كوكس^(١) النقيب العام في الخليج هو ألا ترسل بريطانيا قوات عسكرية إلى المنطقة إلا بعد وقوع الحرب فعلا، وهدفه من ذلك هو ألا تظهر بريطانيا أمام السكان بمظهر المتدنى. ولم تأخذ حكومة لندن بهذا الرأي ومنذ شهر أكتوبر سنة ١٩١٤ أي قبل إعلان العثمانيين الحرب أرسلت بعض القوات للرابطة في البحرين ونحوها تلك الجزر منذئذ إلى قاعدة حربية بريطانية.

ماهي أهداف الأعمال العسكرية البريطانية في الخليج؟ في بداية الأمر كانت الأهداف محدودة وتكاد تقتصر على حماية آبار النفط في مسجد سليمان الواقعة في إقليم الأهواز والتي يربطها خط أنابيب بعبدان، وهي جزيرة صغيرة تقع وسط شط العرب، وقد أسست فيها مصفاة لتكرير النفط. وفي ذلك الحين بدأت البحرية البريطانية في استخدامه للوقود، وأصبح من الضروري أن الهامة لكسب الحرب. ولتأمين الآبار كان لابد إذن من احتلال منطقة شط العرب مع جزء من أراضي فارس.

وبعد نجاح الإنجليز في تحقيق تلك الخطة دون كبير عناء، نصح قواد الحملة

(١) Grave, p. 180, S.Q.

لتيسير الملاحقة فيه، والكشف عن معارضة استئثار الأموال في المشروع. ورائن ألمانيا على إسهام بريطانيا بـ ٤٠٪ لإقامة المذبات التابعة للخط الرئيسي. إن من الأمور التي تسترعى الانتباه هو أنه قبيل اندلاع الحرب العالمية الأولى كانت معظم الخلافات بين بريطانيا وفرنسا من جهة، وبين الدولة العثمانية من جهة أخرى قد سويت، فبالإضافة إلى اتفاق سنة ١٩١٣ وتسوية موضوع خط بغداد في العام التالي، تم اتفاق مماثل بين الرأسماليين الألمان والفرنسيين على الفروع المتدة إلى الشام، فلماذا إذن خاض الاتحاديون الحرب بجانب دول الوسط؟ هل بذلك على أن زعماء الدولة العثمانية عقدوا تلك الاتفاقيات وهم مكرهون على مواجهتها؟ ضغط الدول الأوروبية، وأن ذلك لم يسهم الضربات التي تلقتها الدولة العثمانية من قبل على يد الإنجليز في مصر والفرنسيين في تونس، ولذلك وجدوا في الحرب فرصة لاسترداد هيبة الدولة العثمانية؟

الكويت إمارة مستقلة (١٩١٤/١١/٣) وأسدت التبليغ الآتي إلى الشيخ مبارك : يجب على الرؤساء العرب التعاون مع الحملة البريطانية لتحرير البصرة من النابيين ، ومهمة الشيخ مبارك هي القيام بمهاجمة الراكز النابية في أم القصر وصفوان وجزيرة ببيان وتقسيد بريطانيا بحماية الكويت ، بحسب دودها الجديدة بعد ضم هذه المواقع . منع جميع الإمدادات عن القوات التركية وعرقلة مواصلاتها ، والتعهد بحماية طرق المواصلات البريطانية . وفي مقابل ذلك توجه السلطات البريطانية الشكر إلى حاكم الكويت ، وتعهده بعدم رد البصرة إلى النابيين وبمهاجمة أملاكه في شط العرب له ولورثته ، مع إعفائها من جميع الغرائب والاعتراف باستقلال الكويت تحت الحماية البريطانية^(١) .

وثمة نقطتان هامتان تستحقان النظر في هذا التبليغ ، الأولى : هي الدعوة إلى تحرير البصرة ، فهل كانت بريطانيا تريد أن تجتذب هؤلاء الرؤساء العرب إلى مفهوم جديد للقومية على أساس فكرة الروية ومعارضتها بفكرة التضامن الإسلامي تحت راية النابيين ؟ .

هناك شك كبير حول هذا الاحتمال ، إذ أن حكومة الهند التي أدارت حملة العراق كانت ضد بعث الحركات القومية في الشرق بصفة عامة . وقد اختلفت بهذا الصدد مع حكومة لندن حينما اتفقت مع الشريف حسين على أساس ترعم حركة قومية عربية مناهضة للنابيين .

النقطة الثانية : هو وصف الكويت بأنها دولة مستقلة تحت الحماية البريطانية . ويضر القانونيون هذا التناقض بالتبليغ بين مصطلحين Protectorate أي محمية ، وهذه هي التي تقدم استقلالها ، أما الأقطار الموضوع تحت الحماية Under protection فلا تقدم بالضرورة استقلالها ، وهذه هي حالة الكويت .

(١) Husseini vol. 2, p. 4
إبذات التبليغ العربي المعلق ٦

بالتوغل شمالاً وراء البصرة ، وكانوا يأملون في الاتصال بمخلصهم الروس عبر أراضي الدولة العثمانية . ومن جهة أخرى أصبح العراقي مركزاً لنشاط البعثات الألمانية في الشرق الأوسط ، ولذلك اعتبرت القيادة البريطانية احتلاله أمراً هاماً لمنع تسلل الأعداء نحو الهند ، ومن المعروف أن هزيمة البريطانيين في كوت العارفة أمام النابيين قد عطلت تحقيق هذه الأهداف حتى سنة ١٩١٧ ، لذلك استعمرت منطقة الخليج مدة طويلة عمالاً مفتوحاً للصراع الدولي وخاصة في فارس .

أما الرؤساء العرب في شمال الخليج فكان معظمهم مبيثاً للصدافة البريطانية ولند كرم من هؤلاء ثلاثة هم : خزعل خان حاكم الحمرة ، والشيخ مبارك حاكم الكويت وعبد العزيز بن سعود سلطان نجد والأحساء . وتحتل الإماراتان الأولىان موافق هامة بالنسبة للخطط الحربية البريطانية ، فأنايب النفط تمر بأراضي عويستان كما أن الكويت تقع خلف خطوط الحملة الداهية لاحتلال البصرة .

ولم يجد الإنجليز عناء في كسب ود كل حاكم الكويت وعويستان وعدوا الأول بالاستقلال التام عن الدولة العثمانية والثاني بالاستقلال عن فارس ولكن القضية كانت تتعلق بموقف الشعوب وسبل الغالبية إلى الدولة العثمانية ، وقد نبه انشيسون الموكل بالشئون الخارجية في حكومة الهند وصاحب مجموعة الماهدات الشهيرة ، أنه إلى أن معظم سكان الخليج من العرب متعلقون بالدولة العثمانية بحكم العاطفة الدينية ، وينطبق ذلك على أهالي عربستان^(١) مما يؤكد لنا أن الاتجاه السائد في ذلك الوقت هو اعتبار سكان الإمارة جزءاً من الشعب العربي في الخليج . وقد أكدت الأحداث توفقات إتشيسون إذ أن معظم المشار في جنوب العراق لم تقبل التعاون مع النزاة ، مع أن بريطانيا وضعت خطة لسكي يتولى زعماء المشار بإدارة دولة جديدة في العراق تؤسس تحت إشرافها .

ويعجود إعلان النابيين للحرب قامت السلطات البريطانية بإعلان

(١) معطى عبد القادر النجار : التاريخ السياسي لعربستان

الدولة الشامية وهي ترفض زعامتها الروحية وقضا باتاً ، وفشلاً عن ذلك فإن ابن سعود منبشك في مارك مستعمرة مع آل الرشيد حلناه الشاميين في نجد ، وقدمى ابن سعود بدوره إلى مؤتمر الكويت غير أنه اعتذر بحجة انشغاله بالحرب في نجد وإن كان السبب الحقيقي يرجع إلى استيائه من عقد المؤتمر عند الشيخ مبارك ، إذ تولد بين الرجلين شيء من التحاسد والتنافس .

هل كانت هذه اللابسات تبرر لابن سعود أن يضع بلاده خشاراً تحت الحماية البريطانية ؟ لسنا هنا في مجال الحكم على سلوك ابن سعود وإنما يكفى أن نشير إلى أن مفهوم السيادة والاستقلال كما نعرفه الآن لم يكن قد كرهه التاليمية النظمي من الناس في نجد والأحساء . ومن الغريب أن يشير إعلان التاليمية للعشائين حجة عند الوهابيين في عهد عبد الله بن فيصل في القرن التاسع عشر ، بينما لا نكتاد نسمع عن اعتراض واحد على معاهدة دارين التي وضعت الدولة السعودية في معاف إمارات الخليج الواقعة تحت الحماية البريطانية .

وكان ابن سعود قد طلب في أوائل سنة ١٩١٥ إرسال مندوب بريطاني ليقم لديه في الرياض ، واختير الكاتبين شكسبير للقيام بهذه المهمة ، وقد تلقى المندوب البريطاني حفته أثناء إبعدي المارك مع آل الرشيد ، وفي نهاية العام ذهب ابن سعود إلى دارين قرب القطيف حيث قابل بيرسي كوكس وعقد معه معاهدة مائة في ٢٦ ديسمبر سنة ١٩١٥ .

ويعتقضي المعاهدة تعترف بريطانيا بسلطة ابن سعود في نجد والأحساء والجبيل والقطيف وما بينهما من موان وسواحل ، على أن تبين حدودها فيما بعد . وقهر بتوارث الأسرة السعودية لهذه الأملاك . وتشمل المعاهدة معظم البلاد التي رأيناها في الماهدات لائمة الأخرى مع إمارات الخليج مثل عدم التنازل وعدم التأخير أو الرمن لجزء من أراضي الإمارة إلا بإذن الحكومة البريطانية وكذلك عدم الاتصال بالحكومات الأجنبية ، وإذا اتصل به مندوبون عن الحكومات الأجنبية فعلى ابن سعود أن يخبر السلطات البريطانية بذلك . على أننا نلاحظ وجود (١٥٠) - البيارات

تمكن الشيخ مبارك من التغلب على ميل غالبية السكان إلى الدولة الشامية ، بخلاف حاكم الحمرة الذي استسلم للمعارضة وامتنع عن حضور مؤتمر الكويت الذي دعت إليه بريطانيا أسدقاًها من الحكام العرب في نهاية سنة ١٩١٤ .

ولهذا السبب نفسه نصح بيرسي كوكس الذي صار لاحقاً سياسياً بحملة المراق أن تعلن بريطانيا بأنها تنوى البقاء في البصرة . وذلك لتفت في عقد زعماء العرب في تلك المنطقة ، بالرغم من أن حكومة لندن كانت تتعطف إزاء تلك التصريحات التي تثير الشكوك بين دول الحلفاء ذات الطامع في أشلاء الدولة العثمانية . وكان على الشيخ مبارك أيضاً أن يبرد موقفه أمام الأفطار الإسلامية حتى اضطر إلى إغراء بعض الصحفيين بالمال لنشر المقالات التي تدافع عنه في الصحف المصرية . وعلى كل فقد ذهب حاكم الكويت إلى حد تأليف قوة صغيرة ساهمت بالقدر الذي يتناسب معها في حملة العراق ، ومع ذلك لم يمر التماون بين الكويت وبريطانيا دون إثارة مشكلات عويصة ، فقد اشتد التدخل البريطاني بحجة الحرب في شئون الكويت كفرض الرقابة على البناء لمنع الاتجار مع الأعداء . وبعد وفاة الشيخ مبارك سنة ١٩١٥ خلفه الشيخ جابر الصباح الذي أبدى عطفاً على العثمانيين فقابل الإنجليز ذلك بتشديد الرقابة حتى وضمو الكويت في حالة حصار تقريباً ، مما أثار سخط الأهالي الذين يشتغل معظمهم بالتجارة ، واضطرت بريطانيا إلى اتباع أسلوب اللابسة فوعدت التجار بالتعويض عما لحقهم من خسائر من جراء الحصار . ومن الجدير بالذكر أن هذا التحول في موقف حكام الكويت أتى بعد إحراز الإنجليز انتصارات عسكرية هامة في العراق ، بينما أن الشيخ مبارك نفذ سياسة التماون التام مع بريطانيا أثناء تمورها في الحملة وتمرضها لحزيمة كوت المارة .

لم يصادف ابن سعود نفس تلك المشكلات حينما مال إلى التماون مع البريطانيين ، فإن ارتباط دولته بالحركة الوهابية جعلها منذ القدم خفياً تقليدياً

لك الدرجة من الوعي الوطنى وظلوا مستعدين للتعاون مع أية دولة تزودهم بالمال والصلاح، وبحول دون خضوعهم للحكومة المركزية. ولهذا السبب أخذت صلات الإنجليز تتوثق بالقبائل النازلة فى جنوب فارس قرب شواطئ الخليج ولا سيما البخديارية.

أما حكومة طهران نفسها فقد التزمت بإزاء الصراع الدولى بموقف الحياد إلا أن هذا الحياد لم يجنب فارس عدوان الدول المتصارعة من العسكريين. وقد أثرنا إلى أن الألمان اتخذوا من قنصليتهم فى بغداد محورا لنشاط دبلوماسى واسع فى الشرق الأوسط، بل وفى منطقة الخليج الهندى كذلك. فأعدت كثير من البعثات السرية للاتصال بالحكام وأهم هذه البعثات هى تلك التى أرسلت إلى فارس تحت قيادة واسموس وكان عليها أن تنصل بالألمان وأن تنظم حربا غير رسمية ضد الإنجليز فى مناطق النفط وعلى سواحل الخليج، وبناتىها تظلم الظروف لمصلحة البعثة أن تخوض حبيب الله أمير أفغانستان على مهاجمة الهند (١).

فى ذلك الوقت كان الروس يجارسون منتظمهم على فارس من الشمال، والبريطانيون يحتلون مناطق آبار النفط، ومع ذلك فقد تمكن راسموس بتأييد أصداء المديدين من القرم من الاستيلاء على البعثات البريطانية فى شيراز ثم توجه بعد ذلك لحصار مقر الإقامة العامة فى بوشهر، وانضطرت بريطانيا لإزاء ذلك إلى نقل جزء من قواتها العاملة فى العراق، فقبل إن ذلك كان من أسباب هزيمتها فى كوت الهرة. ولاشك أن هذه الخربة قد أثرت على مركزها فى فارس أيضاً. فقد زحف الشبانيون شرقا إلى خاقين وهددوا من جديد آبار مسجد سليمان، وقبل الإنجليز ذلك بإرسال حملة أخرى عبر سهل قرون لحاية الآبار، وهكذا ترددت أعيان بريطانيا الحربية فى سنة ١٩١٦، ولم تكن ظروفها تسمح بشح جبهة جديدة فى فارس فضلا عن وجود دعوة فى بريطانيا لسحب حملة العراق

Marlow, chasp. 4.

بندين جديدين فى تلك الاتفاقية. الأول: هو تمهد الحكومة البريطانية بمساعدة ابن سمود بالطريقة التى تراها هى أكثر فائدة فى حالة تعرض أراضيها لعدوان خارجى بدون استشارة. والثانى: هو تمهد ابن سمود مثل أسلافه من قبل ألا يمتدى أو يتدخل فى البحرين أو قطر أو مشيختات ساحل عمان الواقعة تحت الحماية البريطانية أو التى ترتبط معها بمعااهدات خاصة (١).

الظاهر أن هدف ابن سمود من عقد هذه الاتفاقية هو الانتفاع من ظروف الحرب وذلك بتلقى إغانات بريطانية تساعد فى حربه الصغيرة مع آل الرشيد. وفلا خصصت لابن سمود منذ عقد الاتفاقية وحتى سنة ١٩٢٤ إغاثة سنوية قدرت بخمسة آلاف جنيه، ومن الناحية الرسمية لم يخرج ابن سمود عن موقف الحياد فى الحرب بخلاف الشريف حسين الذى سار حليفا رسميا للإنجليز. وقد فصل بعض الساسة البريطانيين هذا الأسلوب الذى اتبع مع ابن سمود لأنه يقلل من النفقات. أما التحالف الرسمى فقد كلف بريطانيا فى رأيهم نفقات باهظة دون أن يحقق الأهداف التى تتلهم وهذه النفقات.

٢ - الحرب فى فارس

منذ معاهدة تقسيم فارس سنة ١٩٠٧ اتفق الإنجليز مع الروس على مشاركة الحركة الدستورية فى فارس، كما نسفوا خططهم لمنع أى طرف ثالث من ممارسة نشاط هناك. وعلى هذا النحو استخدموا الضغط لإجبار الحكومة الفارسية على طرد شوستر الخبير اللالى الأمريكى الذى أراد إبرخال بعض الإصلاحات. ومن الطبعى فى مثل هذه الظروف أن يحيل الوطنيون الثقلون إلى التناوب من الألمان والشبانين خلال الحرب العالمية الأولى. أما زعماء القبائل فلم يملوا إلى

Hurewitz, Vol. p. 17.

ذاتها . ومن ثم بذات حكومة الهند إلى أسلوب شائع لديها وهو تكوّن جيوش من الوطنيين يقودها ضباط بريطانيون . وفي جنوب فارس تشكلت لواء من هذا النوع تضم عددا من الهنود القبائل الفارسية أو العربية التي لم تساهل حركة الوطنيين الثقيين في المدن ، وعهد بقيادة هذه القوة إلى بيرسي سايكس الذي اشتهر أيضاً بكتابه عن تاريخ فارس ، وبفضل هذه القوة حافظت بريطانيا خلال العامين الآخرين من الحرب ١٩١٦-١٩١٨ على سيطرتها في الخليج .

٣- بحث الإمامة في عمان

لم يكن أمام البريطانيين مشكلات تعوق نفوذهم في المنطقة الواقعة جنوب قطر لولا أن تجددت حركة الإمامة الإيرانية في عمان قبيل قيام الحرب العالمية وقد سبق أن تبينا كيف أن بريطانيا استندت على أسرة البوسيد للحفاظ على نفوذها في عمان ، ولذلك كثيراً ما أبدت بالقوة سلاطين مسقط منذ الثورات الداخلية ، فهل تمد الإمامة نوعاً من هذه الثورات ؟ هذا ما أراد حكّام مسقط تأكيده .

والحق إن الإمامة لم تنحرف تماماً بعد سقوط عزان بن قيس سنة ١٨٧٠ فقد استمر أخوه إبراهيم يحكمهم في الرستاق حتى خافه سعود بن عزان في سنة ١٨٩٨ ولم تنجح الإمامة في عهد هذين الآخرين في تشكيل القبائل حولها وحتى التمتع باحترام زعماء الأباضية ، ولذلك حينما قرر هؤلاء الزعماء إحياء الإمامة وقع اختيارهم على رجل من غير أسرة البوسيد ، هو ^{سالم بن} راشد بن سالم الخروصي في سنة ١٩١٣ وكان يزعم الحركة من الناحية الدينية الشيخ نور الدين السالي صاحب تاريخ عمان الذي أشرنا إليه مراراً وذهب أنصار الإمامة إلى إيراد اختيار الخروصي على أنه مظهر من مظاهر الديمقراطية ، فإن عدم التقيد بالأمرة الحاكمة وعدم التزام مبدأ الوراثة في تناوب الأئمة منذ سنة ١٩١٣ هو في رأيهم دليل على النزعة الديمقراطية . وهذه مسألة نسبية قد لا تبقى صحيحة إذا ما قيس نظام الإمامة بمفهوم الديمقراطية العاصر .

ماهي العوامل التي جعلت الإمامة تنجح في تثبيت أقدامها في هذه المرة خلافاً للمحاولات السابقة منذ هزيمة عزان ؟ يرجع ذلك أولاً إلى اتفاق عيسى بن صالح الحارثي زعيم الطهوية مع حمير بن سليمان زعيم القبائل البناوية على ضرورة إحياء الإمامة . وهذا الاتحاد بين الكتلتين القبليتين لم يتحقق منذ القرن الثامن عشر . ثانياً : اشتد الاستياء من حكّام مسقط لاستقلالهم للأنجليز في إجراءات مكافحة تجارة الرقيق وتجارة الأسلحة .

باهر فيصل بن تركي — كما هو مألوف من حكّام مسقط — إلى طلب المؤنة البريطانية ، ويبدو أن الأوضاع الدولية في ذلك الحين لم تسمح بإرسال مساعدات كلبية ، ولجأ نوّس الوكيل السياسي في مسقط إلى أسلوب التهديد فبعث برسالة إلى الإمام محمداً إياه بأن الحكومة البريطانية لن تسمح لأحد بمهاجمة مسقط أو مطرح ، وورد الإمام في رده بخروج فيصل بن تركي عن التعامل الدينية مما أدى إلى عزله أكثر من مرة ، كما ذكر بأن أهل عمان اعتادوا أن يديروا شئونهم بأنفسهم . وأما وجهاء الحديث إلى الندوب البريطاني « ... وأنتم معشر هذه اللولة بجحى عليكم أن تكونوا عن أسر السليطين ، ويلزمكم ألا تعتمدوا علينا ، ومن تدعى علينا فإله يميننا عليه » (١) .

وفي سنة ١٩١٤ استولى أنصار الإمام على سمايل مما مكّنتهم من الوصول إلى الساحل ، وتخرج مركز قيصور بن فيصل الذي ولي الحكم بعد ظهور حركة الإمامة بقليل ، ورغم ظروف الحرب فقد أرسلت بريطانيا قوات معظمها من الهند لمساعدة السلطان ، ولو أن دورها اقتصر على الدفاع عن المنطقة الساحلية . ولم يزل ذلك من اهتمام السلطات البريطانية في الهند بأمر البوسيد بدليل أن هاردينج الحاكم العام قام بزيارة لمسقط في سنة ١٩١٥ وقد مال الانجليز في معظم الأحيان إلى إيجاد تسوية بين السلطنة والإمامة على أساس الحل الوسط ، ولم تقطع تقريباً الرسائل بين ممثليهم في مسقط وبين أنصار الإمامة . ويبدو من هذه الرسائل

(١) عرض السعودية ج ١ ص ٣٠٣ صورة من محفوظات الرياض

أن العمانيين لم يعترضوا فقط على إجراءات مكافحة الرق وتجارة السلاح، بل طالبوا كذلك بحرية الملاحة العربية دون خضوعها لإجراءات التفتيش الخلقية، وبعد نهاية الحرب نشط رونالد ونجت الوكيل السياسي الجديد في مسقط في محاولات اجتذاب الإمامة إلى الصلاح، وذلك عملياً مع مبادئ السياسة البريطانية السامية التي سادت حينذاك، والتي تهدف إلى تخفيض التفتيش والأعباء العسكرية في الشرق الأوسط. وما يسترعى الانتباه أن ونجت أخذ يهدد أنصار الإمامة في إحدى تلك الرسائل بعظم قوة بريطانيا في الشرق الأوسط وكيف أنها تمتلك نصف مليون جندي في العراق لقمع الثورة التي اشتعلت هناك^(١) وقد انتهت تلك المحاولات فلا إلى إيجاد تسوية تعرف باتفاق السبب ٢٥ سبتمبر ١٩٢٠ وقد كملت الهدوء في عمان لمدة طويلة.

وتعتبر اتفاقية السبب تساؤلات عديدة، فهل كانت بريطانيا طرفاً فيها؟ ومن ثم الأطراف الحقيقيون الذين عقدوا الاتفاقية؟ وما زاد السألة تعقيداً أن كلا من السلطان والحكومة البريطانية تعتمد عدم نشر الاتفاق حتى إن لجنة التحقيق التابعة للأمم المتحدة التي أرسلت في السبعينات لم تستطع أن تتوصل إلى أية نسخة أصلية. وحسب التفسير البريطاني جرى الاتفاق بين تيمور بن فيصل الحاكم الشرعي، وبين القبائل التي تسكن الداخل بقصد تنظيم العلاقة فيما بينهم. ولم يكن دور ونجت في هذا الاتفاق يزيد عن كونه وسيطاً، والدليل على ذلك استخدام كلمة شعب عمان للتعبير عن الطرف الثاني، ولم يرد ذكر الحكومة، كما أن الذين وقعوا الاتفاق كانوا زعماء القبائل مثل عيسى الحارثي وسليمان بن جهر الهناوي.

(١) نشر مكتب إمامة عمان بالقاهرة عدداً من تلك الرسائل عن الفترة من ١٩١٧ إلى ١٩٣٢ وقد نقل تقرير الأمم المتحدة الخامس بهمان بعض تلك الوثائق - انظر أيضاً كتاب عمان والساحل الجنوبي للخليج الفارسي ص ٩٦ وما بعدها.

وأجاب أنصار الإمامة على ذلك بأن الاتفاق معقود بين حكومتى السلطان الذي يحكم الساحل، والإمام صاحب السلطة الشرعية في الداخل، وهو دليل في حد ذاته على الاعتراف بحكومة الإمامة وهو ملزم لبريطانيا التي كانت طرفاً فيه، لأن دور ونجت لم يكن الوساطة، بل كان نائباً عن حاكم مسقط الذي تتولى بريطانيا شؤنه الخارجي.

أما استخدام كلمة شعب عمان فهو نتيجة لطبيعة الإمامة العنصرية المحلية. ومن البارز أن يكون ونجت هو الذي أقضى هذه العبرة حتى لا يشير الاتفاق إلى حكومة أخرى في عمان غير حكومة مسقط، وفات الحارثي أن ينتبه إلى هذا النزوي. أما كون زعماء القبائل هم الذين وقعوه فذلك لأنهم كانوا يمتلكون السلطة الرئيسية في عهد عبد الله الخليل الإمام الجديد الذي اختير في سنة ١٩٢٠ قبيل توقيع الاتفاق، وإن ذكر أنصار الإمامة أنهم وقعوه بصفتهم شهوداً. ومن الطرف أن حاكم مسقط الحالي سميد بن تيمور صرح أمام لجنة التحقيق التابعة للأمم المتحدة بأن اتفاق السبب تنظيم داخلي للقبائل، وأنه بالإضافة إلى ذلك ليس ملزماً إلا لهؤلاء الذين وقعوه^(١).

ويحتوى اتفاق السبب على أربعة تعهدات التزم بها حاكم مسقط إزاء شعب عمان، ويقابل ذلك التزامات أربعة تعهد أهل عمان باحترامها، ويشار إلى تلك الالتزامات بمبادرة حقوق أهل عمان وهي تشمل:

- ١ - تعيين الحد الأقصى للضريبة الجركية التي يحصلها السلطان في اللواتي وذلك بحسبها ٥ ٪ ويقال إن هذا الموضوع كان الهدف الرئيس من اتفاقية السبب، إذ كلل العمانيون يسعون للتخلص من تعسف رجال الجرك في اللواتي التي هي متفهم الوحيد لتصدير التمر.

U.N. Report on Oman, p. 92 S.Q.

- ٢- رفع جميع القيود عن المانيين الذين يعمرون بمدن الساحل ، ولايجب السلطان أحداً من الهاربين ، وعليه تسليمهم إذا طلب إليه ذلك .
 - ٣- يتمتع أهل عمان بالأمن والحرية في جميع مدن الساحل .
 - ٤- ولا يتدخل السلطان في شؤونهم الداخلية .
- أما حقوق السلطان فهي :
- ١- مراعاة القبائل لحاكم مسقط فلا يهاجمون مدن الساحل .
 - ٢- تمتع سكان الساحل بحرية التجارة في المناطق الداخلية دون قيد .
 - ٣- على أهل عمان أن يردوا الجرمين الفارين من السلطان .
 - ٤- إذا حدث خلاف بين التجار يحكم بينهم حسب الشرع .
- نستخلص من هذا الاتفاق ملاحظتين هامتين ، الأولى : غرض القوم الرئيسية التي تحدد طبيعة العلاقة بين عمان وبين سلطان مسقط ، وهل هي علاقة تيمية أم اتفاق بين دولتين منفصلتين ، فليس هناك أكثر من القول بمرأة القبائل لحقوق السلطان .
- ثانياً : يستشف من بنود الاتفاقية أن معظمها خصص لتنظيم مسائل تجارية وهذا نتيجة لكون موضوع السلطة والسيادة بأشكالها القانونية المحددة لم تكن تشغل المانيين في ذلك العهد .

تخضعت الحرب العالمية الأولى عن تدعيم السيطرة البريطانية في الخليج العربي بصورة تفوق كثيراً ما كانت عليه في السابق ، وباستثناء إحياء الإمامة

فإن جميع الأحداث ساعدت على توطيد تلك السيطرة ، من ذلك اختفاء الدول الكبرى التي تطالعت إلى الخليج قبيل الحرب : السانيا لأنها هزمت ، وروسيا التي أنهى فيها الحكم القيصري وأعلن القاعدون بثورة سنة ١٩١٧ تخليهم عن الأماع الروسية أو ماوسفوه بالأميرالية القيصرية . أما الدولة العثمانية فقد اختفت تماماً من الوجود، وحل البريطانيون محلها في العراق . وحتى لبعض الكتاب الإنجليز أن يصفوا الخليج في ذلك الوقت بأنه بحيرة بريطانية . كما أطلق كيرزن على التيم العام سنة ١٩١٧ بأنه ملك الخليج غير التفوج .

ونظراً للتفوذ الجديد الذي اكتسبه البريطانيون في العراق وفي فارس ؛ وجد كيرزن الذي صار وزيراً للخارجية أن الفرصة قد حانت لإيجاد سلسلة من السموات الفصلة ما بين مصر والهند ، ولهذا النرض سعى لنرض معاهدة على فارس سنة ١٩١٩ متنهراً الترام الذي تركه الشيوعيون في بداية عهدهم بالحكم بأسيا الوسطى . ومع أن هذا الاتفاق لم يوضع موضع التنفيذ إلا أنه من المناسب إيراد خلاصة له ، لأنه يدلنا كيف أن بريطانيا حاولت أن تضع فارس في مصاف الأنظار الوافمة تحت الانتداب مثل العراق ، فقد تمهدت فارس بأن تلجأ إلى بريطانيا لاستخدام جميع السقشرين الذين يحتاجهم ، وهي التي تقدم الضباط لتدريب الجيش الفارسي كما تزوده بالمعدات ، وتقوم لجنة عسكرية مشتركة بتجديد حاجات فارس للدفاع ، كذلك تتولى بريطانيا بالاشتراك مع فارس إقامة الخطوط الحديدية وطرق الواصالات في جميع أنحاء البلاد ، وهي التي تقدم الترويض لتنفيذ الإصلاحات بزمان الجمارك أو غيرها من موارده الدولة .

لم يقض لمشروع كيرزن أن يخرج إلى حيز الوجود ، أولاً لما ذكرناه من أن اتفاق سنة ١٩١٩ مع فارس لم يبرم إذ رفضه المجلس « مجلس النواب » كما أن الثورة التي قادها رضا خان سنة ١٩٢١ كانت معادية للتفوذ البريطاني ، ولم تثبت أن عقدت معاهدة صداقة مع الاتحاد السوفيتي ووجد الإنجليز أنفسهم في فارس من جديد صعوبات دولية .

دائرة النفوذ البريطاني ، فقد شملت الاتفاقية التي وقعت مع الشيخ عبدالله بن قاسم في سنة ١٩١٦ (١) جميع القيود التي فوضت على الإمارات في السابق ، من ذلك العهد بالناء تجارة الرقيق وما يقب ذلك من إجراءات التفتيش . أما تجارة الأسلحة فقد فوضت بريطانيا على حاكم قطر ألا يستورد منها إلا ما يحتاجه هو والعناصر التابعة له ، وقدرت هي هذه الحاجة بـ ٥٠٠ قطعة سنوياً ، ولا يجوز إعادة تصديرها ، كذلك لا يجوز لحاكم قطر أن يفرض رسوماً على الرعايا البريطانيين تزيد عما يدفعه رعاياه ولا تتجاوز بأي حال ٥ ٪ . ومن القيود الاقتصادية الأخرى عدم منح امتيازات للشركات الأجنبية لاستغلال مصادب اللؤلؤ وغيرها من الثروات الطبيعية .

ونص الاتفاق على إقامة وكيل بريطاني بالبيع « الدوحة » ومكاتب البريد وأعمدة الهاتف مع ما يترب على ذلك من إجراءات لحايتها .

وإذا تعرضت قطر للعدوان بدون إثارة فإن بريطانيا تستخدم مساعيها الجدية لحماية الحاكم .

لقد كانت السعودية هي أول قطر في الخليج تخلص من قيد المعاهدات الدائمة ، ولحق بها الكويت بعد زمن طويل ، أما قطر والشيخات السبع في ساحل عمان فقد ظلت غائصة لهذه المعاهدات حتى سنة ١٩٧١ ، في حين تلاشت إمارة عربستان منذ سنة ١٩٢٥ ، ولم يندرها التحالف البريطاني ، فتركت بريطانيا هذه الإمارة العربية تقع في يد إيران وتندمج بفعل حكم طويل في الدولة الإيرانية الحديثة .

ثانياً : لم يوافق معظم الساسة البريطانيين اللورد كيرزن على نظريته التوسعية الشاملة ، بل على العكس عمدت الحكومة البريطانية إلى التخفيف من أعبائها العسكرية ما استطاعت في الشرق الأوسط ، ولا شك أن ثورة العراق الكبرى لسنة ١٩٢٠ قد نهبت الإنجليز إلى استعجال تنفيذ مشروعاتهم التوسعية يسرار بدون تفقات عسكرية لمواجهة الحركات الوطنية .

ارتكز النفوذ البريطاني إذن طوال فترة ما بين الحربين على الشاطئ العربي . وفي الماضي كانت السيطرة البريطانية تنهش عند قطر ، أما الآن فإنها تمتد من شط العرب شمالاً حتى المحيط الهندي جنوباً ، لا يخرج عن ذلك إقليم الأحساء لأن اتفاق سنة ١٩١٥ مع ابن سعود كان مائلاً قائماً وكانت قطر هي آخر الإمارات العربية التي كبلت بمعاهدة مائنة في سنة ١٩١٦ .

ولم تنب قطر عن نظرات كيرزن الاستعمارية حينما كان حاكماً عاماً للهند ، فدعا آنذاك إلى إدخالها في نظام المعاهدات الدائمة ، غير أن السفير البريطاني في استامبول لم يشأ أن يشير تقييدات جديدة مع الدولة العثمانية (١) وفي سنة ١٩١٣ تنازل العثمانيون عن حق السيادة على قطر بشرط ألا تتبر بريطانيا ومنها . ولم تلبث الحماية العثمانية أن أجليت عنها في سنة ١٩١٥ وانتهك الإنجليز اتفاق سنة ١٩١٣ . نعم كانت أمامهم حجة الحرب غير أنهم سيمودون ويتسككون به في مناسبات أخرى . وهكذا سمحوا لأنفسهم بتغيير وضع قطر وتحولها إلى محمية ، وحتى من قبل عقد المعاهدة بصفة رسمية ذكرت قطر في الاتفاق مع ابن سعود كوحدة من الإمارات المرتبطة بمعاهدات مع بريطانيا .

ونحن نعرف الآن كيف أخضعت الإمارات العربية تدريجياً بواسطة سلسلة من المعاهدات المختلفة ، وبما أن قطر قد دخلت دفعة واحدة في وقت متأخر إلى

السلطات البريطانية بعدم بيع التّون لهذه القبائل إلا إذا كانت تحمل تراخيص موقعة منها . وبناء عليه سرفت التراخيص للقبائل للتصاوتة مع الاحتلال البريطاني في جنوب العراق . غير أن ارتعاع أسعار المواد الغذائية أغرى تجار الكويت بنهرب الألبسة إلى القبائل العراقية الأخرى، وإلى رعايا إمارة آل الرشيد التحالف مع الشّانين . فأسفل الانجليز احتجاجات إلى الشيخ جابر حاكم الكويت خلال عام ١٩١٦ وأوائل سنة ١٩١٧، وإزاء هذه الاحتجاجات التماسه ابدى الشيخ جابر^(١) استعداده لوضع مراقبين انجليز على الحدود حتى يراقبوا عمليات سير القوافل .

لم يمش الشيخ جابر طويلا حتى تتضح سياسته إزاء الحصار البريطاني . أما خلله الشيخ سالم فقد اشتهر عنه تقاطعه مع الشّانين رغم أن محركات الحرب كانت تشتير بوضوح إلى قرب هزيمة الدولة العثمانية في الشرق العربي . ولعل سالا استهدف مراعاة مصالح التجار ، وهو أحدهم ، الذين تضرروا من الحصار ، وأرادوا أن يميلوا من التعاطف الإسلامي مبررا لسلوكهم . ولما زادت شكوك الانجليز أرسل القيم البريطاني في الخليج مبعوثا إلى الشيخ سالم طلب إليه أن يباشر بريطانيا الرقابة على الحدود . وتردد الشيخ في الاستجابة لهذا الطلب ، واستشار التجار فحشوه على المقاومة وحينئذ وجه الانجليز انذارا بضرورة وضع حدود الكويت تحت رقابة مفتشين انجليز للتأكد من عدم تهريب التّون إلى المناطق التابعة للدولة العثمانية . وبهذه المناسبة أخضعت الكويت للمرة الأولى لقوات احتلال بريطانية في سنة ١٩١٨ ، بينما كان التلوذ البريطاني يستند في السابق إلى الصلة العنصرية الوثيقة التي تربط بين آل الصباح وبين الانجليز .

(١) انظر رسالة جابر إلى القيم (حسين خلف : تاريخ الكويت السياسي ج ٣ ص ١١٤)

الفصل الثالث عشر

الكويت من الحماية الى الاستقلال

أثر الحرب العالمية الأولى

وأينا كيف أن التعاون الوثيق الذي ساد علاقات الشيخ مبارك الصباح بالانجليز لم يمر دون إثارة معارضة داخلية . وطالما أن الشيخ مبارك كان على رأس الإمارة فقد استطاع أن يكبت هذه المعارضة أما خلاؤه فقد خرجوا عن هذا الخط سيا وأن مقتضيات الحرب دفعت بريطانيا س إلى فرض رقابة اقتصادية على الكويت . ومن شأن هذه الرقابة أن تثير حسخط المجتمع التجاري .

صارت المشكلات الاقتصادية هي محور اهتمام السلطات البريطانية في علاقتها بالكويت أثناء الحرب . وحين كان الشيخ مبارك قائما في الحكم لم تتأخلافان بين هذه السلطات وبين الكويت . غير أنه قضى نحبه في نهاية سنة ١٩١٥ وتصادف ذلك مع رسم خطط جديدة إزاء الولايات العربية في العراق والشام . فقد أخذت الجماعة تستشري ، ورأى الانجليز أن يشنوا حملة تجويع عن طريق الحصار الاقتصادي كوسيلة من وسائل الضغط على الدولة العثمانية . وأبلغ الحكم العرب التحالفون مع بريطانيا في شبه الجزيرة بضرورة التعاون لإحكام الحصار . وبطبيعة الحال أصبح الكويت هو أهم الراكز في عملية الحصار . وذلك بسبب موقعه ونشاط أهله الكبير في أعمال التجارة ونقلها من الهند إلى داخل شبه الجزيرة وماجاورها وبضامة العراق .

فقد كانت القبائل النازلة في العراق تأتى للتزود بالتّون من الكويت . فأمرت

التجار أهدافاً محددة كالنص على سلطة تشريعية أو غيرها. وما يدل على ضعف الحركة في ذلك الوقت أن الشيخ لم يستدع المجلس الاستشاري، وترك بندر دون أن يحس به أحد. غير أن الوضع تبدل في نهاية الثلاثينات فلم تكن الحركة الإصلاحية الطالبة بإنشاء مجلس نيابي تعبر عن مجتمع التجار الذي يريد أن يساهم في السلطة فحسب، بل كانت الحركة متأثرة بالتيارات تنتقل إلى الكويت عبر العراق انتشرت في الشرق العربي، وكانت هذه التيارات تنتقل إلى الكويت عبر العراق حيث تعلم بعض الشبان الكويتيين. ولعل الحركة الإصلاحية تأثرت بالتطورات السياسية التي شهدتها العراق في سنة ١٩٣٦ حيث قام الجيش بمحاولة لتنفيذ الانقلابات السياسية التقليدية وبعث الحياة في فكرة الوحدة العربية والتفسير الاجتماعي. وكانت إذاعة قصر الزهور، تقذف هذه الاتجاهات، وتروج لها في بعض الأقطار العربية خارج العراق، ومن بينها الكويت وذلك بتشجيع من الملك غازي. ويمكن القول إن الكويت في ذلك العهد كانت تمر بمحاولة مشابهة لتلك التي مرت بها بعض الدول الأوربية في القرن الثامن عشر حيناً وأرادت البرجوازية التخلص من امتداد الملكية والمساهمة مع اللوك في السلطة. ومع ذلك فلا بد أن ندرك الاختلاف في أمرين: أولاً: وجود قوة أجنبية لها القول الفصل في أنواع البلاد السياسية. وثانياً: اختلاف درجة الوعي بين البرجوازية التي ثارت في أوروبا باسم العقد الاجتماعي، وبين طبقة التجار في الكويت. فلم يدرك التجار مثلاً مبدأ الفصل بين السلطين التنفيذية والتشريعية، أو حتى القضائية إذ أرادوا أن يكون المجلس التشريعي ورئيسه مسؤولين عن تنفيذ الشروعات العمومية، ويشرف عليها بصورة مباشرة. كما حول المجلس نفسه إلى سلطة قضائية لما اختلفت محكمة الاستئناف.

سبق تأسيس المجلس حركة توزيع لمشورات مربية ضد الحكومة تطالب بإنشاء هيئة تشريعية، وليست استشارية كما كان الحال سنة ١٩٢١ ورأى كل من الوكيل البريطاني وولي العهد عبد الله السلام أن من الأفضل الاستجابة للقائمين بالحركة الإصلاحية حتى لا تتحول إلى أسلوب العنف.

المجتمع التجاري وأثره في الحياة السياسية

يمكن تقسيم أهل الكويت قبل كشف النفط إلى فئتين رئيسيتين: التجار الذين يقيمون في المدينة، ويقيمون بمكانة ممتازة عند الحكم، ولم يشعروا إلى أصول متباينة، ليست بالضرورة عربية. أما الفئة الثانية فهم البدو الذين ينسبون إلى قبائل معروفة. ولم يكن ولاؤهم محدوداً في جميع الأحوال.

ولهذا السبب أوقع البدو حكام شبه الحزبية في منازعات حول الحدود وكان البدو يشكلون أغلب سكان الكويت قبل النفط لكن أثوم على الحكم كل أثر شائناً من أثر التجار سكان المدينة. وقد كون هؤلاء ثروات لا بأس بها، سواء من أعمال النوص أو من نقل التجارة، حتى شعر مبارك الصباح بالحاجة إلى تقييد وكلاء لرعاية مصالحه ومصالح التجار الكويتيين في بعياد وغيرها من مدن الهند. وما يدل على اتساع أعمال التجار والأسرة الحاكمة بصفة خاصة أن سلطات الهند طالبت الشيخ سالماً في سنة ١٩١٩ بمبالغ طائلة من المال عن الأرباح التي حققها الهند. ويبدو أن الشيخ كانوا ينظرون إلى التجار حسب أنسابهم، وكثيراً ما عطف الشيخ مبارك بعض الأثرياء ناعماً أيام الأصل الوضع.

ومن جهة أخرى لم تقبل التجار تدخل الحكومة، سواء من تلقاء نفسها، أو تنفيذاً للأوامر البريطانية بصدده الحصار. وما زاد من عوامل الاستياء بين التجار والشيخ احتكار هؤلاء لبعض السلع. وقد انتهزوا فرصة تولي الشيخ أحمد الجابر سنة ١٩٢١ تقديموا إليه عريضة لتأسيس مجلس شوري يبحث في شؤون البلاد المحلية. ولم يجد الشيخ أحمد الجابر مانعاً من الاستجابة للطلب، إذ لم يوضع

وقد جرى انتخاب المجلس الشورى في صيف سنة ١٩٣٨ واسطة للتزويج أسرة، وهو عدد لا بأس به بالقياس إلى مجموع سكان الكويت آنذاك، طار من مهنوم الأسرة في المجتمع العربي عامة تسع امدد كبير من الأفراد. وتكونوا من ٣٤ عضواً، واختار عبد الله السالم الذي ناصر الحركة رئيساً له. فسير الانتخابات لم تلبث أن نضبت أن يفتت بين المجلس وبين الحكومة، إذ طالب بالإعلام في المباحثات والانتماءات المعقودة مع بريطانيا. فاحتج النعيم البريطاني بأن التبريد الخارجية هي من اختصاص الحكومة البريطانية، وهي عقد^(١) بين الشيخ وبين الإنجليز، وليس لطرف آخر حق النظر فيها.

وإذا سلم المجلس بهذا البدء، فقد كان من الصعب إقناعه بعدم الاختصاص فيما يتعلق بالمباحثات البرتول، ذلك أن مهمته الرئيسية - كما نص القانون الأساسي. هي الموافقة على المسائل المالية. وقد كان هدف المجلس هو الاستفادة من عوائد البرتول للشروعات، ولذلك تطلع إلى زيادة هذه العوائد التي كانت تنفع على تراخيص التقيب. واقترح الوكيل السياسي في الكويت بهذه المناسبة اتباع نظام مشابه لما هو سار في البحرين، وهو تقسيم هذه العوائد إلى ثلاث حصص بالتساوي: حصة تخصص للشيخ، والثالث لأفراد الأسرة الحاكمة، والثالث الأخير يتفق على الشروعات العامة. وفي نفس الوقت اعترض الوكيل على حق المجلس في مناقشة عقد الامتياز ذاته.

اتخذ المجلس رغم قصر عمره قرارات جرئة، كإلغائه الاحتكارات التي كان يمارسها الشيخ في بعض السلع. وعلى خلاف ما هو متوقع لم يجتهد المراء بسبب هذه الخلافات اللالية، بل إن المسألة الرئيسية التي أحدثت القلبية الملهية بين المجلس وبين الشيخ، كانت تتعلق بإصرار المجلس على تنحية السكرتير الخاص للحاكم، وهو فارس الأسفل. وللخروج من هذا المأزق اقترح الشيخ أحد الجار على الوكيل البريطاني تعيين مستشار اجليزي له كما هو الحال في البحرين. فلم تشجع الحكومة البريطانية هذا الاجتهاد، لأن سياستها العامة هي عدم

الاصطدام بالحركات الشعبية، وتعيين المستشار في مثل هذه الظروف يعملها تظهر بظهر الأداة في يد الشيخ، يستخدمها ضد الرأي العام المحلي. كثر خصوم المجلس فالإنجليز - رغم عدم تدخلهم في الشؤون المحلية إلا أنهم شعروا بأن ترك النظام النيابي ينمو في الكويت، قد يتحول ضد مصالحهم الاقتصادية يوماً ما. ومن جهة أخرى أبدى ابن سمود تأييده للشيخ في صراعه مع المجلس، وذلك لاملين: خوفاً من اعتداد مثل هذه الحركات إلى بلاده. وقد جدت بالفعل حركة مشابهة في نفس الوقت في دبي. والعالم اتان: هو وجود أصدقاء العراق القاشي بين أعضاء المجلس، والتعاطف بصفة عامة بين الحركة الإصلاحية وبين حكومة العراق.

وفي الداخل كون الشيعة عنصر معارضة للحركة، وذلك لأن واضعي قانون المجلس ميزوا بين الشيعة والسنة، فكان حق الشيعة مقصوراً على الانتخاب دون الترشح للنيابة والإضافة إلى ذلك شعر الشيخ بالارادة لأن موضوع السكرتير يعتبر تدخلاً في حياته الشخصية، ونأهب لنفس المجلس. وما هو جدير باللاحظة أن عدداً من النواب قاوم قرار النقص واعتصموا في حمن ولم يتسلموا إلا بعد تضيق الخناق عليهم وتأنيهم على مستيبلهم.

ثم حل المجلس بعد تجربة دامت ستة أشهر، في ديسمبر سنة ١٩٣٨ ووعده الشيخ بإجراء انتخابات نيابية جديدة. وبالعمل جرت هذه الانتخابات في مارس سنة ١٩٣٩، ولم يعد الأعضاء الذين اشتهروا بصلاتهم إلى المجلس الجديد، لذلك فقد النظام هيئته، ولم يمارس المجلس سلطة تشريعية، بل تحول إلى مجلس مهتة إبداء النصح. ويقال إن من أسباب ضعف التجربة ما استمرته الحياة النيابية من إجراء إحصاء للتوف على قوائم الناخبين. فاعتبر ذلك مأساً بالتقاليد، لأن حياة الأسرة في المجتمع العربي آنذاك معققة. (١٦٢ - العرب)

بنو الشيخ سالم ، فإن أحداً لم يأخذ هذا الاقتراح مأخذ الجد ، لأنه يقتضي مع البدء وضعه بريطانيا أساساً سياسياً في الخليج منذ زمن طويل ، ألا وهو مبدأ المحافظة على الوضع الراهن . ويستتبع نشوب بريطانيا بهذا البدء حيناً ترسل قواتها لصد الإخوان عن الكويت (أكتوبر سنة ١٩٢٠) ذلك أن ابن سعود كان قد^(١) وطعن البدو في بعض القرى شمال نجد وجمعهم على أسس دينية حول هذه القرى ، ولكنه لم يستطع أن يزرع عندهم العصية القبلية . وهكذا تكونت زعامات محلية كان من أشهرها زمامة قبيلة مطير التي نمت حول فيصل الدويش ، ونزل هذه الجموعة القبلية قريباً من حدود الكويت . وعلم الصراع بين هؤلاء البدو الأزمثنين ، وبين مجتمع تجار الكويت للفتح على العالم الخارجي ، شن الدويش حملة دعائية ضد للفاصل التي اقترحت في الكويت . وباسم نشر الدعوة القبلية وتطهير الكويت من تصاد قرار أن يهاجم الكويت ، ولا يستبعد أن تكون الرغبة في الحصول على القيام للتفوق في البناء عاملاً خفياً حرك الإخوان نحو هذه النافذة .

الحق الإخوان مزينة منسكرة باتباع الشيخ سالم في معركة العجوة في ١٠ أكتوبر سنة ١٩٢٠ . وأصبح بوسمهم أن يستولوا على بقية البلاد . ودفع سالم في حيرة من أموره ، فهو يواجه طلباً من فيصل الدويش بإعلان انضوائه تحت لواء الحركة الدافقية . وهذا يعني من الناحية السياسية التسمية لابن سعود . ومن جهة أخرى لم تكن علاقته مع بريطانيا من الود بحيث يستطيع طلب لبيعة منها . ولكن في هذه الظروف الصعبة تنسازل عن كبرياءه وتجعل التدخل العسكري البريطاني . ولم يكن من الصعب على بريطانيا أن ترد الإخوان من حيث أتوا مستخدمة لهذا الغرض بضع طائرات ، وسفينة حربية رابطة أمام ميناء الكويت .

(١) انظر كتابنا : عهد جزيرة العرب والعصر الحديث .

(٢) عبد العزيز الرشيد تاريخ الكويت ص ٢١٩ .

وهكذا اختفى المجلس الجديد عند قيام الحرب دون أن يشعر به أحد . ومهما كانت تجربة الحياة السياسية قصيرة العمر في الكويت ، فإن أهل البلاد ما زالوا يعتبرونها بداية الرقي السياسي . وبسبب عام ١٩٣٨ سنة الطير.

٣

الكويت وجيرانه

تطور التشكيل السياسي والحدود الجغرافية لكويت من البلاد العربية في المشرق بعد الحرب العالمية الأولى . وكان لبريطانيا دور حاسم في هذا التشكيل . فهي التي توسطت في عدة مؤتمرات لتخطيط الحدود بين الكويت وجيرانه : العراق والسعودية . وكلا الجارين يخضع بشكل ما لتفوق البريطان . وترجع صعوبة تسوية الخلافات مع السعودية إلى أنها لم تكن متصورة على موضوع الحدود ، بل شملت عدداً من الشاغل ، كما أنها تعود إلى عهد سابق أيلم أن استولى ابن سعود على الأحساء سنة ١٩١٣ ، وأصبح الشيخ مبارك ينظر بعين الحسد إلى ذلك اللاجئ . التقديم لديه ، الذي صار أعظمه شاكاً ، وتشمل ممتلكاته مساحة تبلغ أضعاف الكويت ، حتى إن مبارك لأم الدعوة الثمانية لتراضيها في الدفاع عن ممتلكاتها في الأحساء .

وفي أثناء الحصار الاقتصادي البريطاني للضروب على الدولة المالية تبادل كل من ابن سعود والشيخ سالم التهم ، لأن رعيا الطرف الآخر . الذين يتوصون بالتهريب متبكين نظام الحصار . وفي أثناء بحث هذا الموضوع مع ابن سعود اقترح سان جون قلمي البعث البريطاني لدى سلطان نجد ضم الكويت^(١) إلى السعودية . ومع أن بريطانيا لم تكن تنق تماماً

(١) انظر كتابه HISTORY OF ARABIA

ولم يلبث الإنجليز أن تحولوا إلى وسطاء بين الطرفين، ولم يكن ابن سعود يقيم نفس سياسة التصليب نحو جيرانه كما يفعل الإخوان، وهو على كل حال ما يزال مرتبطاً بمهادنة مع بريطانيا هي معاهدة دارين التي تجعله أشبه بأحد أمراء الخليج التابعين للحماية البريطانية. وهكذا أسفرت الوساطة البريطانية عن عقد مؤتمرين: أحدهما في الكويت، والآخر في العقير، وفي هذين المؤتمرين تم توزيع القبائل التابعة لكل إمارة. ولما كان التوزيع يقوم على أساس قبلي، فقد كان من الميسر رسم خط دقيق يفصل بين حدود البلدين على طول المناطق الصحراوية، فبعض هذه المناطق تتردد عليها للمرعى قبائل تابعة لكلتا الحكومتين. ومن هنا نشأت فكرة إقامة منطقة محاذية، وذلك في القطاع الساحلي من الحدود، وتشترك الدولتان في السيادة عليها، وهو وضع ليس له نظير. وسيترب على هذا الوضع بعض المشكلات النشئة بامتيازات النفط كما سنرى.

لم تكن تسوية الخلاف على الحدود هي نهاية الشاغل. فقد ظهرت في العشرينات مشكلة اقتصادية استمرت تؤثر على العلاقات بين الطرفين حتى الحرب العالمية الثانية. ذلك أن ابن سعود كان بحاجة إلى فرض رسوم على البضائع التي تدخل بلاده، لسد حاجات خزنته الخاوية. وقد اعتاد تجار الكويت قبل رسم الحدود السياسية التي هي ظاهرة جديدة في شبه جزيرة العرب أن ينفقوا بحرية من جهة إلى أخرى. فلما حاول ابن سعود أن يقيم مواكز على الحدود للفتيش الجرمي امتنع التجار الكويتيون. وأخذوا يفتقنون في التهرب من هذه المواكز، ومكثهم من ذلك طول الحدود وتعذر مراقبة الصحراوات الشاسعة. وفكر ابن سعود في أن يحول التجارة إلى ميناء العقير، ولكن يبدو أن الميناء لم يستطع أن يجتذب عملاء الكويت، لأن الأخير ميناء حر، وفضلاً عن ذلك له سمته

التاريخية وإمكانياته الطبيعية. ولما أخفق عبد العزيز آل سعود في الاتفاق على تنظيم مرور التجارة، قرر ضرب حصار اقتصادي على الكويت ومنع رعاياه من التعامل معها. غير أن تجار الكويت لم يمدموا وسيلة في تهريب البضائع إلى السعودية. وتكررت شكاوى ابن سعود لدى الشيخ أحمد الجابر تارة، ولدى الوكيل السياسي في الكويت تارة أخرى. ولم تشأ بريطانيا التدخل في هذه القضية إلا بمناسبة تبادل المراسلات بين ابن سعود وأحمد الجابر، فقد اعتبرت هذه المراسلات المباشرة تجاوز الاتفاق سنة ١٨٩٩ الذي يحمل العلاقات الخارجية للكويت من اختصاص الحكومة البريطانية. ونتيجة لذلك لم يكن يوسع ابن سعود أن يضع اقتراحات لحل الأزمة موضع التنفيذ. ومن تلك التترحات تعيين مراقب سعودي في جمرات الكويت، أو أن يقوم الشيخ بحصول الرسوم بنفسه من التجار الذين يتعاملون مع السعودية ثم يوردها لحكومة الرياض.

ومن الطبيعي أن تزول مثل هذه الخلافات عندما يتفجر البترول فيسند حاجة السعودية، ويقضيها عن مثل هذه الموارد البسيطة. وقد أشرنا إلى أن ابن سعود ساند الشيخ أحمد الجابر أثناء تعرضه لأزمة الحركة النيابية سنة ١٩٣٨ ولهذه الأسباب اللبنانية، وابعثبار بريطانيا صديقاً للطرفين، فقد توسطت أثناء الحرب العالمية الثانية لإنهاء الحصار الاقتصادي السعودي. وفي ٢٠ أبريل سنة ١٩٤٢ نجحت في إقناع الطرفين بعقد معاهدة صداقة وتجارة، سهلت سبل الاتصال والتعامل بين رعايا الدولتين.

وقد نصت الاتفاقية على ضرورة مرور القوافل من قنط حدود معينة وتعيين موظفين من البلدين عند هذه القنط. واشتملت الاتفاقية على ملحق خاص بتبادل^(١) التجارين. وظلت العلاقات بين الكويت والسعودية تنمو بإطراد،

(١) عمود بهجت سنان: الكويت زهرة الخارج العربي.

بلغاه هذه البساتين من الضرائب كما كان الحال في عهد الانتداب وكثيراً ما أثارَت الحكومة العراقية التابع لحكام الكويت - فهي تارة تطالب بإثبات حقوق الملكية وتحديد مساحة البساتين - وهي تارة أخرى تشجع حركات الشيوعية التي تزعمت حركات المطالبة بالحكم النيابي ، وحثت بعضهم على الناداء بالاتحاد بين الكويت والعراق تحت الناح المائتي ، على أساس أن ذلك وسيلة للتخلص من نظام الحماية البريطانية .

ومرة أخرى أزيلت ثروة النفط كثيراً من المشكلات المعلقة بين البلدين . فلم تعد البساتين ذات أهمية في نظر أصحابها كما قل نشاط الكويتيين في أعمال نقل التجارة ، وانصرفوا إلى استثمار أموالهم في باب المشروعات العمرانية الذي فتح على مصراعيه . يضاف إلى ذلك أن المياه التي كانت تجلب من شط العرب أسكن الاستثناء عنها جزئياً ، وذلك باستعمال المكشكات التي تحول المياه المالحة إلى عذبة ، رغم أن هذه الوسيلة باهظة النفقات وسفرت بعد قليل كيف أن ثروة النفط قد قضت أيضاً على فكرة الاتحاد بين البلدين .

٨ نمو الدولة الحديثة

حكم الشيوخ بطريقة النظام الأبوي ، بل اعتبروا ثروة النفط ملكاً خاصاً بهم . وشجعت بريطانيا هذا الاعتقاد ، فكان يمثلونها برودون أن تعود الامتياز هي اتفاقات بين الشركة والشيوخ ، وليس لأحد آخر من رعايا البلاد أن يتدخل بشأنها . ولم يعرف الشيوخ الفصل بين السلطات ، فكانوا يمارسون سلطات قضائية إقليمية يتعلق بالأجانب ، فقد طبق نظام الامتيازات القضائية على الكويت منذ سنة ١٩٢٥ وصار التقصّل البريطاني العتد هناك يفصل في القضايا المرفوعة من الأجانب . وحينما بدأ الكويت إدارات حديثة

وكان من مصلحة شركات النفط العمل على تدعيم الاستقرار ، لذلك سعت توثيق العلاقات بين الكويت والسعودية .

وفي سنة ١٩٤٧ عقد الطرفان اتفاقية دفاع وأمن متبادل ، وتمهد كل طرف بتقديم المساعدة للآخر للمحافظة على الأمن . ومعزى هذه الاتفاقية هي تبادل الدولتين لتنظيم حركة تنقل القبائل ، ووضع إمكانات السعودية للمحافظة على نظام الحكم في الكويت في وقت أخذت فيه مظاهر التدخل البريطاني في الخليج تراجع رويداً رويداً . وسيوضح أثر ذلك عند إعلان استقلال الكويت سنة ١٩٦١ .

وكما كان موضوع تهريب التجارة عاملاً مؤثراً في العلاقات بين الكويت والسعودية ، فقد أثر كذلك على العلاقات مع العراق ^(١) . وهذا الخلاف نتيجة طبيعية لاختلاف نظام التجارة بين جارين يأخذ أحدهما بنظام التجارة الحرة ، أو يضع حداً أقصى للضرائب الجركية على الواردات كما تفعل الكويت ، بينما يأخذ الطرف الآخر بنظام الحماية الجركية . وكان حاكم الكويت يرى نفسه من مسئولية تهريب البضائع إلى العراق ملقياً التبعة على القبائل التي تحمل الجنسية العراقية . بل إن موضوع جنسية القبائل المنتقلة على الحدود كان قد سار نزاع بين السلطات العراقية وبين الكويت . وقد ساند الإنجليز معارضة الشيخ لإنشاء مراكز مراقبة عراقية ، أو إرسال وكيل عراقي لبناء الكويت ليشرف على مكافحة التهريب . ولعل اهتمام حكام الكويت بتهريب أنفسهم أمام العراقيين إنما يرجع إلى شعورهم بالحاجة إلى حماية أملاكهم القريبة من البصرة ، وهي بساتين للنخيل . كان الشيوخ يصرون بإتاحتها للخارج ويحتمون من وراء ذلك أرباحاً غير قليلة . وقد احتاجوا إلى الحصول على تأكيدات جديدة من الحكومة العراقية بعد إنها الانتداب باستمرار العمل

(١)

Dickson : Kuwait and her neighbours.

على أثر تصدير البترول سنة ١٩٤٦ وضع أفراد من الأسرة الحاكمة على رأس كل جهاز إداري فكان يديره بالطريقة التي تخلو له ، بحيث لم يوجد تشيخ في أبسط الأمور كالمراتب ولم يكن أحد يستطيع التدخل لتعديل شيء على ملأ الشيوخ ، إلى أن أسست في أوائل الخمسينات دائرة للفتوى^(١) والتشريع ، وحاولت بقدر ما استطاعت أن تضع نظاماً للجهاز الإداري .

ويمكن القول أن النظام الإداري الحديث قد اعتمد على تشكيلين أوليين أسسهما عبد الله سالم الصباح عند توليه السلطة سنة ١٩٥٠ فالتشكيل الأول عبارة عن مجلس أعلى من الشيوخ الذين يديرون الدوائر المختلفة : المالية ، المعارف ، الصحة ، والشرطة ، وهو بمثابة نواة لمجلس وزراء ، إلا أنه جلس عائلي يتعرض لما تتعرض له الأسرة الحاكمة من منافسات شخصية وكظلم لهذا التنافس حارل عبد الله المبارك المشغول عن الشرطة والجيش أن يستولى على السلطة فكتشفت المحاولة وفرت قائم بها إلى مصر .

والتشكيل الثاني يشتمل في ثلاثة مجالس متخصصة ، خصص أحدها للمعارف ، والثاني للشئون البلدية ، والثالث للإنشاءات . ويتكوت كل مجلس من اثني عشر عضواً . وظاهر أنه قصد بهذه المجالس صرف الرأي العام عن تجديد المطالبة بالنظام النيابي ، إلا أنه كان من المستحيل الاستمرار على هذا الوضع الذي ليس له نظير في أي بلد من بلدان العالم . فالمجالس الفنية المتخصصة لا تقوم بديلاً عن النظام النيابي الذي يحسد سلطة الأمة . وحتى في ظل هذا النظام لم يحدث انجمام بين التشكيلين . فقد أصر الشيوخ على أن تقتصر مهمة هذه المجالس على التخطيط ، ولا تتدخل في أعمال الإدارة اليومية . بينما أراد أعضاء المجالس أن يوسعوا من صلاحياتهم كبديل عن الهيئات النيابية المتعارف عليها . ومن جهة أخرى بدأ البعثون الكويتيون

(١) أظن حمد يوسف البسيس : الكويت والتقبل .

الذين تلقوا العلم في الخارج يهودون بالتدرج منذ ١٩٥٧ ، ولم يصبح في وسع الشيوخ أن يواصلوا حكمهم على الطريقة الأبوية . ومن هنا بدأ الإعداد لإنشاء دولة حديثة مستقلة ، سواء من ناحية التنظيمات الداخلية ، أو من حيث الإعداد لإنشاء اتفاقية سنة ١٨٩٩ وإعطاء الكويت مكاناً دولياً مقترناً به .

وطبقاً للخطة التي اشتهر بها الإنجليز في معاملة محمياتهم الصغيرة في الشرق العربي ، مثل إمارة شرق الأردن ، فإنهم أطلقوا الحرية لهذه المحميات في ممارسة علاقاتها أولاً مع العالم العربي ، ثم مع بعض الهيئات الدولية الفنية بالتدرج ، وذلك كخطوة أولى نحو الاستقلال السياسي التام . وهكذا بدأت الكويت تشارك في أعمال الجامعة العربية ، وخاصة في المجالين الثقافي والاقتصادي منذ الخمسينات . كما أنشأت قنصليات في بعض العواصم العربية ، كما سمح لبعض الدول العربية بإنشاء قنصليات لها في الكويت . وذلك تسهيلاً لإجسراء الاتصالات المباشرة في شتى المجالات باستثناء الناحية السياسية .

كذلك انضمت الكويت إلى اتفاقية البرق والبريد الدولية ، وإلى هيئة الصحة العالمية ، وهيئة التغذية والزراعة وغيرها من الهيئات الفنية التابعة للأمم المتحدة قبل إعلان الاستقلال الرسمي .

وفي ٢٥ فبراير سنة ١٩٦٠ ، وبمناسبة الذكرى العاشرة لتولي عبد الله سالم الحكم ألقى الامتيازات ، وتوات حكومة الكويت ممارسة السلطات القضائية على رعاية المكونون .

أما إعلان الاستقلال الرسمي فقد تم في ١٩ يونيو سنة ١٩٦١ ، وهو يتضمن قسمين رئيسيين : القسم الأول عبارة عن تصريح بإلغاء معاهدة سنة ١٨٩٩ ، والقسم الثاني النص على أن هذا الإلغاء لا يمنع من مساعدة أي طرف للأخر إذا طلب إليه ذلك . ولم تلبث الكويت أن استخدمت هذا النص الأخير بالتسل وطلبت مساعدة بريطانيا عسكرياً لمقاومة التهديدات التي أطلقها

من رأى مصر أن تطرح هذه القضية أمام الجامعة العربية. أما وأنها قد طرحت أمام مجلس الأمن، ورجع. م. م. ممثلة فيه حينئذ، فقد كان عليها أن تتقدم بمشروع خاص بها، بالإضافة إلى المشروع الذي تقدمت به بريطانيا. ويسجل كلا المشروعين تصريح العراق باللجوء إلى الطرق السلمية. وتصريح بريطانيا بحسب قواها حينما يطلب إليها ذلك. ويدعو المشروع البريطاني الأطراف المعنية إلى احترام سلامة أراضي الكويت ومراجعة هدوء النقطة. ويطلب إلى مجلس الأمن متابعة ذلك.

أما المشروع المصري فيؤكد على ^(١٢) سحب القوات البريطانية، ويدعو لها إنهاء الخلاف بالاتفاق بين الدول الأعضاء في الجامعة العربية.

حتى الشروع البريطاني بتأييد أغلبية الثلثين (٧ من ١١) إلا أنه أبطل نظر السبوت السوفيتي، بينما حصل المشروع المصري على ثلاثة أصوات. وبذا وقت مجلس الأمن عاجزاً عن الفصل في هذا النزاع. وهكذا تهيأ السبيل لإعادة طرح الموضوع في مجلس الجامعة العربية الذي انعقد في ١٠ يوليو التالي. وقدمت لثرب بمشروع مؤداه: تعهد العراق باتباع الطرق السلمية وسحب القوات البريطانية على أن نحل محلها قوات عربية. وقبول الكويت عضواً في الجامعة العربية وهيئة الأمم المتحدة.

وقد أمضى العراق مهلة للتفكير، وأجل انعقاد مجلس الجامعة عدة أيام، ثم إن قسماً كان يشدد بالطراد من هيئة التهديد والتمارين للنادية بالضم أو لاعتلا. ولم انعقد مجلس الجامعة من جديد في ٢٠ يوليو تقدمت السعودية بتقديم لائحة تحت الموافقة عليه بالإجماع باستثناء العراق الذي كان يناطح الجامعة العربية. ويدعو الاقتراح لكويت إلى أن تصمد بطلب سحب القوات البريطانية

(١٢) Bernard Vernier: L'Irak D'aujourd'hui, ١٩٦١.

عبد الكريم قاسم. لقد جاءت هذه التهديدات مفاجئة لأن قاسم الذي نزل السلطة في العراق سنة ١٩٥٨ لم يشير إلى فكرة ضم الكويت من قبل بل، افتتح قضية عراقية هناك والأكثر من ذلك أنه هنا الحكومة الكويتية بمناسبة إعلان الاستقلال في ١٩ يونيو سنة ١٩٦١ ولم تنص على هذه الية خمسة أيام حتى فأياً قاسم العالم في مؤتمر صحفي بأنه يعتبر الكويت جزءاً من الأراضي العراقية. وأخذ يردد الحجج التاريخية التي ألف استغاثها لها، وأقاليم أخرى معاصرة مثل عربستان، بل إنه لسمح إلى أن الشاطي، السرد، للخليج كله يجب أن يدخل في تسمية العراق. ولم يتخذ أي إجراء، فلما ولد هذه المطالب موضع التنفيذ. لذلك يمكن القول إن أهم تقييحين نزلت هذه المطالب هما احتدام الجدل حول الأسانيد التاريخية، فالعراق ينشر الوثائق التي تثبت أن الكويت كان جزءاً من ولاية بغداد العثمانية، والكويت ينشر وثائق أخرى ليدلل بها كيف أن آل الصباح تنصوا باستقلال في حكم الكويت منذ قيامهم في نهاية القرن الثامن عشر.

والنتيجة الثانية هي دعوة كل من السعودية وبريطانيا إلى مد يد السلة للكويت طبقاً للاتفاقيات المفقودة. وقد تمكنت بريطانيا وحدها من لبس البدء، وأتت خدمة آلاف جندي من المظليين في الحال، يتأرجح لهم يتخذ إجراءات رمزية. فيمثل أنه سيعين حاكماً على الكويت، كما كان بغداد يعين قائم مقامه في الناص. ثم يلقى بأشهرات السفر لوجعا لكويت بحجة أنهم موافقون على قبول ^(١٣).

وكان العراق هو الذي رفع شكوى إلى مجلس الأمن، على السبيل نزول القوات البريطانية إلى الكويت بشكل تهديداً لأمن العراق. وكان

(١٣) أطر لودني للشورة من وجهة النظر الكويتية ينون وجيهه لآباء، الكويت والعراق، أحمد فوزي: قاسم والكويت.

أخذت تهديدات قاسم تقعد وزنها بالتدريج . ففي سنة ١٩٦٢ شعر الكويت بأنه لم يعد في حاجة إلى مراعاة جميع القوات العربية في أراضيها . فألجبت القوات المصرية . أما القوات العربية الأخرى فقد بقيت حتى سقوط عهد قاسم في فبراير سنة ١٩٦٣ .

وطالما كان قاسم في السلطة فإن الاتحاد السوفيتي ساندته معنوياً في مسألة الكويت . فاعترض على عضويته في الأمم المتحدة ، ولم يتمكن من الانسحاق بها إلا في مايو سنة ١٩٦٣ ولم يلبث النظام الجديد في العراق أن أنهى هذه القضية وعند اتفاق مع الكويت في أكتوبر سنة ١٩٦٣ اعترف بتمتصاه باستقلال الكويت ، بل إنه وضع تسهيلات للمبادلات التجارية بين البلدين . وتمهد بتوفير كمية من الماء تقدر بـ ١٢٠ مليون جالون يومياً من الماء العذب ، مقابل ثلاثين مليون دينار قدمتها الكويت بمناسبة توقيع الاتفاق . وبلا حظ أن الكويت لم يسع لتنفيذ البند الخاص بالمياه العذبة ، فقد ظل يفضل عدم الاعتماد على الجار العربي في الشمال في مسألة حيوية كهذه .

٥

التيارات السياسية والاجتماعية

إذا كان عام ١٩٦٣ قد شهد تدعيم مركز الكويت دولياً عن طريق التعاقد بالأمم المتحدة ، فقد تم فيه أيضاً إقرار دستور البلاد ، بعد مرحلة انتقالية دامت نحو عشرين شهراً . وقد تم وضع الدستور بواسطة هيئة تأسيسية تتركب من عنصرى الانتخاب والتعيين . ويشكل المنتخبون أغلبية أعضاء الهيئة ، وهم عشرون بالإضافة إلى الوزراء الذين افضوا إلى الهيئة بحكم مناصبهم . وكان عدد أعضاء مجلس الوزراء حينذاك أربعة عشر ، من بينهم

في أقرب وقت ، على أن تقوم بعض الدول العربية بتدعيم موقف الكويت عسكرياً ، ويتعهد العراق باحترام استقلال الكويت .

ومن المعروف أن أربع دول عربية قد اشتركت في تكوين قوات المد العسكري التي حلت بالتدريج محل القوات البريطانية ، وهذه هي : سورية ، و ج . ع . م . و السودان والأردن .

لماذا أثار قاسم هذه القضية^(١) الشائكة ، ووضع العراق في عرلة عن العالم العربي ، وذلك أثناء تورطه في مسألة الأكراد ، وبدء الحرب الأهلية في العراق ، وما يزيد الأمر غرابة أن قاسماً أطلق كل هذه الصيحات دون اتخاذ أي إجراء على ، ولم يكن من الصعب مفاجأة العالم باحتلال الكويت بل مفاجأته بإرسال صيحات التهديد .

يمكن الإجابة عن هذه الأسئلة بواحد من التعليقات الآتية :
(أولاً) : رغبة قاسم في إشغال الرأي العام بإثارة الشاعر التوبى العراقية . وقد طرح القضية على أساس فكرة الضم بحجة الحقوق التاريخية وليست على أنها جزء من حركة الوحدة العربية .

(ثانياً) : كان قاسم يعتبر نفسه ممثلاً للاتجاهات اليسارية في العلم العربي . وهذا سبب موضوعي يجعله معادياً لنظام الحكم في الكويت ، ومميل هذا النظام نحو بريطانيا والغرب بصفة عامة . والأرجح أن قاسماً أخذ في الاعتبار احتمال المواجهة العسكرية مع بريطانيا في حالة احتلال الكويت . وقد ربط قاسم بين المصالح الإمبريالية ، وبين استمرار وجود الكويت ، ضارباً مثلاً بتفضيل الكويت استخدام الكثافات للحصول على المياه العذبة وما تحققة الشركات الأجنبية من بيع آلات التكتيف من أربع ، يتنازل قتل المياه بأنابيب من شط العرب أقل تكلفة .

(١) اعلم باحث يهودى بهذه القضية . انظر :

أحد عشر يقتضون إلى الأسرة الحاكمة . ولإعطاء عملية وضع الدستور شكلاً ديمقراطياً انسحب الأعضاء المعينون عند التصويت على الصيغة النهائية . ومن أبرز موضوعات الجدل التي أثيرت أثناء صياغة الدستور ما يتعلق بتحديد هوية الكويت ، فظهرت نزعة إقليمية ، أرادت استخدام عبارة « الأمة الكويتية » غير أن الغالبية لم تجد بأساً من خلع صفة « الأمة العربية » على شعب الكويت ، طالاً أن ذلك لا يؤدي في الواقع إلى المساس بكيال الدولة . فاعظم الدساتير العربية التي صدرت منذ نهاية الخمسينات تشير إلى انتهاء شعوبها إلى الأمة العربية . ويقال إن القوميون العرب قد فضلوا عبارة « أن شعب الكويت جزء من الأمة العربية على عبارة « الشعب الكويتي » التي تؤكد النزعة الثانية .

وقد نص الدستور^(١) على أن الشريعة الإسلامية هي مصدر التشريع ويرأس الأمير السلطة التنفيذية . ويجب عليه تعيين ولي العهد في خلال سنة من توليه . وذلك بطريقة تختلف عن الأنظمة الملكية التقليدية . وبالنسبة فإن آل الصباح مثل بقية الأسر الحاكمة في الخليج ، اختار لقب الأمير أو الحاكم ، ولم تتطلع إلى ألقاب الملكية . وقد نظم الدستور وراثته الحكم ، فاشتراط أن تنحصر في ذرية الشيخ مبارك ويختار الحاكم ولي عهده ويتركه أمام مجلس الأمة . ويجب أن يوافق المجلس على هذه الترتيبات بأغلبية عدد^(٢) الأعضاء :

ويعارس مجلس الأمة السلطة التشريعية . وينتخب كل أربع سنوات بواسطة جميع الذكور البالغين الذين يحملون الجنسية الكويتية . وليس في اشتراط الجنسية ما يختلف عن القواعد الدستورية العامة . غير أن

(١) أنظر مجمل الجمل : النظام الدستوري في الكويت .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٨٦ وما بعدها .

هذه القضية أثرت على هيئة الناخبين بالنسبة للكويت نظراً لأنه وقع تمييز بين الكويتي الأصل ، وهو من كان يقيم هو أو أصوله في الكويت قبل عام ١٩٢٠ ، وبين مكاتب الجنسية الكويتية . وفي هذه الحالة لابد من مرور عشرين سنة قبل أن يحق له ممارسة الحقوق السياسية . وقد ضيق قانون الجنسية صدر سنة ١٩٦٦ الحقوق السياسية بالنسبة لهذه الفئات الشكوتة — كما تسمى — فاشتراط أن تحسب العشرون سنة ابتداء من سنة ١٩٦٦ وبقية هذه الشروط هبط عدد الناخبين إلى أربعين ألفاً من مجموع السكان البالغ ٧٣٣ ألفاً وسنعود فيما بعد إلى شرح الأسباب التي حدثت بحكومة الكويت إلى التحيز من سيطرة الوافدين الأجانب على حياة البلاد السياسية ، سيما وأن هؤلاء يزيدون على نصف السكان .

وحسب الدستور يجوز للحاكم حل مجلس الأمة ، وفي هذه الحالة لابد من بيان الأسباب ، ودعوة الناخبين إلى انتخاب مجلس جديد في مدة أقصاها ستون يوماً . ولا يجوز حله مرة ثانية لنفس السبب .

رغم قلة عدد الناخبين فقد قسمت البلاد إلى عشر مناطق انتخابية ، لكل منطقة خمسة مقاعد ، وبدأ صار عدد أعضاء مجلس الأمة خمسين . وفي أول انتخابات جرت سنة ١٩٦٣ تنافس على هذه المقاعد ٣١٠ مرشحين ، فعلى أي برنامج دار التنافس في مجتمع الرفاهية ؟

لم تنشأ بالكويت أحزاب سياسية . وعندما استطاع حزب البعث في سنة ١٩٥٨ أن يتسلل إلى البلاد مقسماً وراء نوايا ثقافية ، بادرت الحكومة إلى إغلاق هذه النوادي ، وتشقيقت أعضائها في أعتاب الخلافات التي أقامتها النوادي بمناسبة الذكري الأولى للوحدة المصرية السورية في فبراير سنة ١٩٥٩ واستمر حظر قيام الأحزاب السياسية بعد الاستقلال . لذا فإن للوضوعات التي

يختلف عليها النواب أو المرشحون تتعلق بقضايا المحافظة على التقاليد ، ومدى الإسراع في التطور . وهناك اتجاهان سائدان : الاتجاه المحافظ ، الذي يميل بالتقاليد الأسرية ، ويريد أن يمحصر المراكز العليا في الأمر العريقة . أما الاتجاه الآخر الذي يقبل التطور فيدرى توزيع المناصب حسب الكمالات دون التقيد بالنسب .

وتحتل مشكلات تحويل المرأة وزيتها والاختلاط في الجامعات وغير ذلك من أمثال هذه الموضوعات اهتماماً كبيراً بين المرشحين ، ولدى الرأي العام الكويتي . وعند مناقشة تأسيس الجامعة اشترط مجلس الأمة عدم الاختلاط بين الجنسين ، غير أن هذه القضية أثار خلافات واصطدامات داخل الجامعة سنة ١٩٧١ ومع ذلك فاللاحظ أن الكويت سارت بخطى أسرع من السعودية مثلاً نحو تحويل المرأة .

وإذا كان قياس الأحزاب محظوراً ، فإن الاندفاع نحو الترشح يتم بوسائل فردية ، الهدف منها في مجتمع الرفاهية هو إضافة وجهة السلطة إلى وجهة المال . وليس من المتوقع في مثل هذا المجتمع أن تتكون تكتلات على أساس طبقى تتخذ صفة أحزاب سياسية لها برامج اجتماعية . على أنه لا يمكن إغفال بعض المواقف الهامة التي اتخذها بعض أعضاء مجلس الأمة الكويتي . وهي تتعلق بقضايا الوحدة العربية أو بتكتلات امتيازات النفط .

ومن أشهر القضايا الشائكة التي أثارها مجلس الأمة في بداية عهده مطالبات اثني عشر عضواً بإلغاء اتفاقية المساعدة المتبادلة مع بريطانيا المقودة عند إعلان الاستقلال ، وذلك تمهيداً للاستزاد في مباحثات الاتحاد الثلاثي التي جرت في أبريل سنة ١٩٦٣ بين مصر وسوريا والعراق . وقد أجابت الحكومة بأنه ليس في الاتفاقية ما يمنع المشاركة في مباحثات الاتحاد ، ولم تعدد موقفها

من مبدأ الاتحاد ذاته ، ولا بد أن تكون حكومة الكويت قد تنفست الصعداء عند رؤية هذه المباحثات تفشل بأسرع مما كان متوقفاً .

وبخصوص النفط أوقف مجلس الأمة اتفاقية سنة ١٩٦٥ مطالباً بمعالجة الدول الأخرى المنتجة التي تجاوزت نظام المناصفة في الأرباح ، وتطلعت إلى المشاركة في بعض أعمال صناعة النفط ، وتسويق جزء منه لحسابها . والخلاصة هو أنه لم يعد هناك من يدعى بأن اتفاقات النفط هي عقد بين الشركات والسيوخ بصفة شخصية .

ومن خلال المدة القصيرة التي عاشها مجلس الأمة حتى الآن ، يمكن القول إن أهم تكتل يشبه الحزب السياسي ، هو ذلك الذي تزعمه أحد الخطيب ، وينتسب إلى حركة القوميين العرب ، وهي حركة ذات فروع ممتدة في بعض أقطار الخليج والجنوب العربي ، وكانت تؤيد عبد الناصر خلال فترة صراعه مع حزب البعث . ولم يزد الأعضاء المؤيدون لهذه الحركة في الدورة التشريعية الأولى عن ثمانية ، إلا أنهم اجتذبوا حولهم اهتماماً محلياً وعربياً كبيراً لتقدمهم في معارضة الحكومة ولا سيما في بداية عهد صباح السالم الذي نولى السلطة في نهاية ١٩٦٥ .

وكان الحاكم الجديد قد بدأ عهده بمحاولة للتوسط بين السعودية ومصر في الصراع حول اليمن ، وذلك طبقاً لتقاليد تسير عليها حكومة الكويت حتى الآن ، وهي تهذيب الخلافات العربية بصرف النظر عن أسبابها وموضوعها . وهدفها من ذلك عدم التورط في تكتلات قد تمس وضمتها ككيان قائم بذاته بمنفط يذو له نفسه . وفي أثناء الوساطة طاف الأمير الصباح بمصر والسعودية وبعض إمارات الخليج ، وعاد مقتنعاً بأنه إذا أجبره القوميون العرب على ضرورة اختيار موقف من المكونين ، فمن مصلحته اختيار جانب السعودية . (١٢٠ - للقرن)

تعداد ٧٧٧٧ أنثى، منهم ٤٦٤٦ أنثى من أصل كويتي، وبهذا يرجح عدد الوافدين قليلا على عدد السكان الأصليين فيصير إلى ٥٣٪ ومن أهم عناصر الوافدين الفلسطينيين الذين يقدرون بسبعين أنثى، وقد استقر عدد كبير منهم في البلاد، وكون ثروات طائلة، واحتل مواكز هامة، ولو أنه توجد عدة وظائف أساسية متعلقة على المتحدرين من أصل كويتي، كما هو الحال بالنسبة للعنق السياسي.

وكان الاتجاه السائد باستمرار هو تخصيص منح الجنسية الكويتية.

قد صدر في يوليو سنة ١٩٦٦ قانون يقصر منح الجنسية على العرب القيمين في الكويت قبل سنة ١٩٤٥ أو الأجانب قبل سنة ١٩٣٠، وإذا كان أحد الأبوين غير كويتي فإن الإبن لا يكتسب الجنسية تلقائياً، بل يجبر عند بلوغ سن الرشد. وفوق هذه القيود جميعاً لا يجوز لوزارة الداخلية منح الجنسية الكويتية لأكثر من خمسين شخصاً سنوياً.

ومن الواضح أنه ليس لهذه القيود أهداف اقتصادية، بل هي قبل كل شيء سياسية، ذلك لأن الاقتصاد الكويتي قادر على امتصاص هذه الزيادة، وقد احتسبت نسبة الزيادة من الواليد والمهجرة فبلغت في السدة من سنة ١٩٥٧-١٩٦٥ (١٢٨) في الألف. غير أن المشكلة هي في النسبة العالية من الواليد التي تجعل أكثر من نصف السكان (٥٢٪) في سن أدنى من ١٥ سنة أي أن الغالبية مستهلكة وليست منتجة. والكويت بصفة عامة مجتمع استهلاكي. وتقدر (١) تكلفة الشخص الواحد بخمسة عشر مثلاً تقريباً في البلاد العربية الأخرى. ونتج عن ذلك أن التعليم والرعاية الصحية وغيرهما من الخدمات تستهلك نسبة عالية من الدخل، وقد تقرر التعليم الإلزامي سنة ١٩٦٦، وبلغ عدد التلاميذ في المدارس الابتدائية والثانوية ١١٠ آلاف ومع أن العائش

(١) Rngai El Maitakd : Economic development and Reginol' Go-operation.

وقد شعر أن النواب المؤيدين للتوطين العرب يحاولون دفع الكويت إلى المسكر الآخر. لذلك اتخذ ضدهم بعض الإجراءات فأغلق صحيفة «الطليعة» التي تنطق بلسانهم وأمر بطرد بعض الفلسطينيين والسوريين من البلاد، وضع خصومهم من المحافظين، وعلى رأسهم عبد العزيز السعيد صاحب مجلة «الرأي العام» ونصير السمودية. ولما حل موعد انتخابات الدورة الثانية، يناير سنة ١٩٦٧ سقط معظم مرشحي التوطين العرب ومن بينهم الخليل، فانهت الحكومة بزييف الانتخابات، واستقال بعض النواب احتجاجاً على ذلك، إلا أن حدة الانقسام زالت أمام النكسة وأصدائها البعيدة في العالم العربي. فقد توقف «الرايكاليون» عن مهاجمة حكومة الكويت، ساء وأنها صارت تسهم في الدعم المالي المخصص للدول التي وقعت ضحية العدوان بالإضافة إلى مساعدات أخرى للفدائيين. ويبدو وكأن الحكومة شرن بتناؤل وزن المعارضة فوجدت من الأفضل امتصاصها في أسرع وقت. وهكذا عجلت بانتخابات الدورة التالية في سنة ١٩٧٠ وأفسحت المجال لأعضاء المعارضة القدامى كي يعودوا إلى المجلس.

ويتغير (١) المجلس الجديد بأمرين: استبعاد بعض العناصر الشكوكية التي استطاعت في الماضي التعاطيل على الترشيح. وثانياً دخول ثلاثة عشر كويتياً من خريجي الجامعات وهي أكبر نسبة من المثقفين ثقافة عالية تدخل المجلس. أشرفنا فيما سبق إلى كثرة الوافدين من الخارج على الكويت فبعد المال ونحت إغراء الأجور العالية والبعالات الواسعة، ولم يكن ذلك هو السبب الوحيد في تزايد السكان بشكل مطرد، فهناك أيضاً نسبة عالية في الواليد. فقد تضاعفوا ثلاث مرات خلال عشرين عاماً. وبلغ عدد السكان حسب آخر

(١) عزيز محمد حبيب : الكويت - ساحة العالم العربي.

التعاون في مشروعات وطنية هامة تتعلق (بتعريب) صناعة البترول كبناء أسطول عربي من ناقلات النفط . ولا يقتصر التعاون الاقتصادي العربي على الدولة ، فتشجع الكويت الرأس مال الخاص على الاكتتاب في شركة استثمار أخرى تركز نشاطها في البلاد العربية ، ويكون اختيارها للمشروعات مبنياً على أسس تجارية محضة . وقد أقبل الرأسماليون الكويتيون على الساهمة في هذه الشركة . وهكذا تعمل الكويت على تدعيم التعاون الاقتصادي العربي على أسس رأسمالية .

وقبل اكتشاف النفط في أبو ظبي خصصت الكويت نسبة كبيرة من مساعداتها لإمارات الخليج الفقيرة بصورة متفرقة أحياناً ، وفي إطار الجامعة العربية وصندوق التنمية التابع لها أحياناً أخرى . وأخذت على عاتقها إنشاء المدارس وتقديم اللوح للطلبة كي يدرسوا في مدارسها الثانوية ثم في جامعاتها ، حتى قيل إن من بين أهداف إنشاء الجامعة تحويل طلبة الخليج عن جامعة البصرة وتوجيههم إلى الارتباط بالكويت .

كيف نشأت الطبقة الرأسمالية التي تملك أموالاً سائلة تستثمر في الداخل والخارج ؟ هل هي امتداد للطبقة التجارية القديمة التي برزت على مسرح السياسة سنة ١٩٣٨ ؟ أم أنها طبقة جديدة كوّنت أموالها نتيجة أعمال القالة وغيرها من الأعمال المتعلقة بصناعة النفط ؟

لا شك أن اعتياد المجتمع الكويتي على الأعمال التجارية قد سهل التحول السريع من برجوازية تجارية إلى برجوازية الأعمال . كما أن الآفاق البعيدة للشعبة في ميدان الأعمال قد وسعت من قاعدة هذه الطبقة عدداً وزادت من ثرائها . بل يمكن القول إن كنهياً من وظائف الدولة تحول أصحابها إلى طبقة برجوازية متوسطة أو عليا . لذلك دار جدل حول إمكانية

بعد ذلك يبقى هائلاً ويمكن استثماره في مشروعات إنتاجية ، إلا أن ذلك يتعذر لأكثر من سبب . فالصناعة لا تحتاج إلى رأس المال قط إلى نجب لكي تنمو وتزدهر أن تجد سوقاً كبيرة ، وسوق الكويت محدودة من جهة أخرى فإن الخبرات الفنية ليست متوفرة . ولا تعدو للشروعات الإنتاجية بعض الصناعات الخفيفة كتنقيب الأغذية وصناعة حفظ الأسماك . وتسل الخطة الحسية لسنة ١٩٦٧ — ١٩٧٢ مشروعات لتنمية مصادر الدخل ، ومن بينها الصناعات البتروكيميائية .

وكثيراً ما أخذ على حكومة الكويت إبداع فائض دخلها في المشاريع الأوربية . وتجنباً لهذا النقد ، وربما لأسباب وطنية فعلية ، خصصت الحكومة جزءاً من إيراداتها لمشروعات التنمية في البلاد العربية حتى من قبل الاستقلال وعلى أثر قيام الدولة تأسس صندوق الكويت للعمونة العربية^(١) برأس مال قدره خمسون مليون دينار ، ضوفاً فيما بعد ، وللصندوق شخصية مستقلة ومجلس إدارة من ثمانية أعضاء . ويمكنه إصدار سندات يكتب فيها الرأسمال الخاص ، ذلك لأنه يستثمر الأموال بربح ربما يبدو قليلاً ، إذ يتراوح بين ٣ ٪ ولكن محل أزمة تراكم المال الذي يجد صعوبة في مجالات الاستثمار . وكان السودان أول من لجأ إلى صندوق التنمية العربي ، حيث اقترض مبلغ ٧٥ مليون دينار لتطوير السكك الحديدية ، بفائدة قدرها ٤ ٪ ثم استغاث به الأردن في مشروعات إنتاج القوسفات ، ومشروعات التوسع في الري من سهر البوموك . وقد خفضت فائدة القرض لهذا المشروع إلى ٣ ٪ لارتباطه بأهداف وطنية .

كذلك تسهم الحكومة الكويتية بنصيب كبير في البنك العربي الأفريقي الذي يمول مشروعات في أفريقيا ، كما دعت إلى إقامة شركات عربية مساهمة

(١) Kowait to day a Welfare state

التكوير الاجتماعي والاقتصادي

تضافرت عوامل مختلفة جعلت البحرين أقرب الإمارات العربية إلى نظام المجتمع الحضري، تعيش على أرضها طبقات هذا المجتمع من زراع وتجار، وطبقة عاملة تشغل في الزراعة أو في النوص على التؤلؤ. وقد أمكن زراعة قسم كبير من أراضي البحرين التي امتلك معظمها الشيوخ، مما جعل العلاقات الإنتاجية أشبه بالمجتمع الإقطاعي.

وإذا كان النوص قد شغل سكان الخليج من الكويت حتى عمان، فإن البحرين احتلت مكان الصدارة في هذه الصناعة. ويرجع ذلك إلى وضعها كجزيرة، وإلى أن أفضل المناصات تقع قريباً من شواطئها، وبما لوجود بناييع المياه العذبة تحت سطح البحر في تلك المنطقة. ولذا فإن النوص لعب دوراً هاماً في حياة البلاد الاجتماعية والاقتصادية. فكان الحاكم يقرأس احتفالات بدء الموسم في مايو، كما أن الانتهاء من أعمال النوص في نوفمبر كان يقترب باحتفالات شعبية عظيمة. وبما أن النوص مسألة حيوية للبحرين، فقد ظهر رد فعل عنيف هناك حينما فكرت شركة بريطانية في سنة ١٨٧١ أن تنافس العرب في هذه الصناعة وذلك بالحصول على امتياز لاستخراج التؤلؤ، وقد عدلت الشركة عن ذلك إذ أدركت أن مثل هذا الامتياز يتطلب استخدام القوة لصد العرب عن مقاومتها^(١).

(١) انظر مقالاً مفيداً عن هذا الموضوع في .

وجود يسار في الكويت. وفي هذه الحالة ستكون البرجوازية الصغيرة في ممثلة اليسار في وجه البرجوازية العليا. إلا أن نفوذ هذه البرجوازية الصغيرة ما يزال ضئيلاً إذا ما قورن بالبلاد العربية الأخرى. والقراء في الكويت لا ينتمون إلى أصحاب الحرف الصغيرة، بل إلى هؤلاء البدو الذين يعيشون بعيداً عن المدينة، ويرفضون التخلي عن لون حياتهم القديم، ويعبرون على الاشتغال بالرعي. لذلك فإن التقسيم الاجتماعي الذي اتبته بعض الدارسين يأخذ الطبقة بالنفهوم الاقتصادي معياراً له، بل اعتبروا نمط الحياة أساساً للتقسيم الطبقي وعلى هذا الأساس يقسم سكان الكويت إلى مجتمع بحري، أي يعيش على البحر، وآخر بدوي. ثم مجتمع المدينة الذي تتبايش فيه طبقات برجوازية متفاوتة في ثروتها بين عامل النفط الذي يتقاضى أجراً عالياً، وأصحاب المزاولة والتوكيلات الذين كونوا رهوس أموال ضخمة، وهذا الطائفة الأخيرة من الحياة الاجتماعية هو الذي يجتذب بقية أقسام المجتمع، وتنشع الحكومة هذا التحول فتتفق أموالها طائفة في بناء المنازل لإسكان البدو وتوطيهم وبدا يصبح لون حياة المدينة على النظام المعصري هو أداة الانسجام الاجتماعي في دولة الرفاهية، وإزالة القوارق التي تبدو عظيمة في بعض الحالات.

كذلك فإنه بحكم الثقافة المصرية؛ أخذت تتلاشى هذه الفترة الناجمة عن التحيز للأصول القبلية. فقد كان المجتمع الكويتي يتميز بين قبائل كريمة الأصل وأخرى وضعية، ويسمى أبناءها بالبياسر. وإذا كانت بعض مظاهر التمييز ما زالت تؤخذ في الاعتبار عند عقد الزواج أو العلاقات الأسرية، فإن الوظائف وغيرها من مظاهر العلاقات العامة لا تتأثر بهذا التمييز.

والعامل الذى كان يجذب غالباً الدول المحيطة بالخليج إلى القتل عليها كان إما الطمع فى ثروتها بعيدة الشهرة ، أو المنافسات الشخصية التى تميز بها حكم آل خليفة . فقد استعان بعضهم على بعض بالدولة السعودية أحياناً ، وباران أو الدولة العثمانية ، أحياناً أخرى . وعرض هؤلاء المتنافسون التبعية لهذه الدولة أو تلك . فإذا أخذنا فى الاعتبار أن مفهوم التبعية فى ذلك الوقت كان قائماً على أساس شخصى ، فإنه يمكن استبعاد هذه الأحداث من الحجج التاريخية التى استخدمها كل من العرب والإيرانيين لإثبات أودحض مبدأ السيادة الإيرانية فى البحرين .

فالسادة — كما نفهمها الآن — هى اتفاق عن رغبة الشعب . والساحة العربية لكان البحرين كانت وماتزال غالبية بشكل واضح ، كما أن الجزر تقع قريباً جداً من الساحل العربى للخليج . حقيقة حكم القوس البحرينى قوة من الوقت ؛ كما وجدت جالية إيرانية اختلفت فى حجمها من حين إلى آخر ، إلا أن عدد قليل من أبناء الجالية كانوا يقتدون بمرور الزمن لنهم الفارسية . وينطبق ذلك بصفة خاصة على الذين استقروا كيد عاملة زراعية . أما الهجرات التى أتت متأخرة بعد عقد الاتفاقيات مع بريطانيا فكانت تمثل غالباً فئة التجار النشطة التى كونت ثروات كبيرة ، وتعالى على الاندماج فى المجتمع العربى . أما الذين احتفظوا بلتهم فلم يزيدوا عن ثمانية آلاف عندما اتخذت الادعاءات الإيرانية شكلاً جدياً فى أواخر الخمسينات من هذا القرن . وهؤلاء لا يمثلون سوى ٤٪ من مجموع السكان .

ومن جهة أخرى فإن الصراع السياسى حول البحرين لم يدر بين إيران وحكم الجزر ، بل انحصر منذ سنة ١٨٢٠ بين حكومة طهران وبريطانيا ولم تكن هذه قد اكتسبت صفة قانونية بعد فى البحرين ، فهى لم ترتبط

وكان معظم ربح القوص يعود إما إلى الشيوخ أو أصحاب السفن . ومع ذلك فإنهم لم يزيدوا عن دور منتج المادة الخام ، إذ كان القوئ ينقل إلى بومباى حيث ينظف وينقى ، ومنها يصدر إلى أسواق الاستهلاك فى العالم . وقد ظلت صناعة القوص تنمو مع سهولة المواصلات العالمية وازدهار الظار الرأسمالى فى أوروبا ، حتى كانت نهاية العشرينات فعمرت الصناعة لأربعين فى نفس الوقت : الأزمة الأولى تتمثل فى الكساد الاقتصادى الذى حل بالعالم بين عامى ١٩٢٩ — ١٩٣٢ . والأمور الثانى تتمثل اليابانيين من إنتاج القوئ بنافس الطبيعى لخص ثمنه ، ولكن ما كادت هذه الأزمة تحل بصناعة القوئ حتى عومت البلاد باكتشاف النفط ، وبدء تصديره قبل الإمارات الأخرى وذلك منذ سنة ١٩٣٢ ، لذا لم تنعوض البحرين لتلك الطفرة التى شهدتها بلدان الخليج الأخرى بسبب النفط ، سيما وأن كميته فى البحرين ظلت محدودة . حقيقة لقد تضاعف دخل البلاد عدة مرات ، ولكن الثروة ليست طارئة . ذلك أن مصادر الثروة لم تكن مقصورة على القوئ ، بل إن البحرين بحكم موقعها الجغرافى أصبحت مستودعاً لتجارة الخليج . وعن طريق الرسوم الجمركية حصل الشيوخ على مورد دخل هام ، مما كان يضابق للتشغيل بالتجارة أحياناً ، وسيرفع هؤلاء علم المعارضة على شكل حركة وطنية فى أوائل العشرينات احتجاجاً على تلك الرسوم .

ورغم أن أهل البحرين ينتمون إلى نفس الأصول القبلية المنتشرة فى شبه جزيرة العرب ، إلا أن الروح القبلية ذابت فى ظل هذا المجتمع التجارى الصناعى . بل إن الانقسامات الطائفية ربما كانت أقل حدة منها فى بعض أقطار أخرى كالعراق . ويقلد عدد الشيعة بنحو ٤٠٪ ، ويبدو أن آل خليفة لم يظهروا شكلاً^(١) من أشكال التعصب ضد الشيعة ، لذلك لم يجمع هؤلاء على التطلع نحو إيران .

(١) Foreign Office : Handbook of the persian Gulf , 1920 .

أما من الناحية الواقعية فإن بريطانيا هي التي تصدت للمطالب الإيرانية منذ أن اكتملت سيطرتها على البحرين ، حتى أصبحت هذه الأخيرة نقطة ارتكاز لوجودها في الخليج . ومع أن البحرين لم تعلن مستعمرة بصفة رسمية إلا أنه طبقت عليها قوانين الهند قبيل الحرب العالمية الأولى وصارت أشبه بالإمارات الهندية الحامية و شبه القارة ، والتي يديرها وكلاء سياسيون تعيينهم حكومة الهند البريطانية . ولهذا الحكومة أساليبها السلطانية في معاملة الشعوب الآسيوية . وقد عولمت البحرين بنفس الطريقة ، واستسلم الشيخ عيسى لجميع مظاهر النفوذ البريطاني . كما أن البحرين اتخذت قاعدة للاسطول البريطاني أثناء تأهبه للحملة في جنوب العراق . لذلك سقبدأ الحركة الوطنية في البحرين كرد فعل على السيطرة السياسية والإدارية البريطانية . وعلى الشيخ عيسى الذي لم يجم مصالح شعبه ولا سيما التجار من هذه السيطرة .

٣

تطور الحركة الوطنية

قد يكون من الأدق وصف المرحلة الأولى من الحركة الوطنية بأنها كانت مجرد معارضة لبعض الأنظمة الداخلية ، كما أنها اقتصرت على فئة من الوجهاء واتخذت طابعا دينيا ، ولم تطرح للمناقشة موضوع المعاهدات التي تربط البحرين بجملة النفوذ البريطاني . ففي سنة ١٩٢٠ توجه الشيخ عبد الوهاب الزباني على رأس وفد يضم اثني عشر وجيها إلى الشيخ عيسى آل خليفة وطلبوه بالسعي لإستقاط القوانين المدنية والجنائية المطبقة على أهل البحرين بناء على قرار حكومة الهند سنة ١٩١٤ بحيث لم يعد الشرع يطبق إلا في الأحوال الشخصية ، فطالبوا بتطبيقه في جميع أنواع القضايا . وتضمنت

معها الإجماعات لتنظيم الملاحة . لذلك فإن الاتفاقية التي لم توقع قط والتي كان قد عقدت سنة ١٨٢٢ بين ممثل شركة الهند الشرقية وإيران تعتبر سابقة من الأصل . كما أن اللذكورات الرسمية التي تبودلت للمرة الأولى بين لندن وطهران في هذا الشأن قد تمت سنة ١٨٤٥ ، بينما أن أول معاهدة تعطي لبريطانيا بعض الامتيازات في البحرين تعود إلى سنة ١٨٦٩ ولعل هدف المعاهدة كان رغبة بريطانيا في المحافظة على مصالح رعاياها من الهنود . ومن المعروف أن هؤلاء انشروا في جميع إمارات الخليج إلا أن معظم هجراتهم في القرن التاسع عشر انجذبت إلى البحرين أغنى تلك الإمارات .

وقد انقطع تطلع إيران إلى البحرين بعد عقد للمعاهدات الانفرادية بين (١٨٨٠ ، ١٨٩٠) ولم تتجدد إلا حينما اعتلى آل بهلوى السلطة وأرادوا أن يحيموا مجد إيران مقلدين في ذلك أساليب مصطفى كمال في تركيا . فبنسبة عقد معاهدة بين بريطانيا والسعودية سنة ١٩٢٧ وورد اسم البحرين كإحدى الإمارات العربية التي لايجوز للسعودية التدخل في شأنها ، قدمت إيران مذكرة إلى عصبة الأمم تذكر بحقها في السيادة على البحرين وروت بريطانيا في ذلك الحين على تلك المذكرة مفصلة الحجج الإيرانية .

ومنذ أن اقشورت الثقافة العصرية بين العرب في الخليج أو العراق خاصة ، تولى كتاب^(١) عرب عن طريق الكتابات التاريخية والقانونية إدارة الجدل مع الكتاب الإيرانيين .

(١) ان أشهر المؤلفات الإيرانية التي اعتمدت التاريخ لإثبات حق السيادة على البحرين هو كتاب :

Admyatte : Rebrain Islands 1954.

ومن أشهر المؤلفات التي أثبتت الصفة العربية لبحرين كتاب حسين البحارة بالإنجليزية .

The Legal Status of the Ara Bian Gulf States.

مطالبهم أيضاً إقامة مجلس شورى وإخراج الجمارك من دائرة اختصاص السلطات البريطانية التي أضرت بمصلحة التجار الوطنيين ، وراعت مصالح التجار الهنود والأجانب .

إذن فقد أخذت المشاعر الدينية والمصالح الاقتصادية لدفع العمارة إلى البروز في هذا الوقت المبكر بالنسبة لإمارات الخليج . وبين آدميات^(١) المدافع عن حق السيادة الإيرانية^(٢) في البحرين أن الثامن بالحركة هم ممثلو الشيعة الذين استهدفوا ضم البلاد إلى إيران . وهذا غير صحيح ، لأن أسرة الزياني من الأمر السنية المعروفة التي كان لها فضل في إقامة المدارس البلية ونشر التعليم الحديث بين أهالي البلاد منذ أوائل العشرينات . ولم يكن يوسع الشيخ عيسى أن يحساحل في مطالب تطبيق التورع الإسلامي ، فوعد يبحث هذه المسألة مع المستشار البريطاني . ومع أنه أنقل الموضوعات الأخرى من الطالب الوطنية ، إلا أن الإنجليز اعتبروه^(٣) متزائماً لإزاء المعارضة ، وطلبوا إليه التنحي عن الحكم لابنه حمد سنة ١٩٢٣ ، متناسين عهداً طويلاً من التعاون الوثيق .

لم تختلف هذه المرحلة الأولى من المعارضة دون أن تترك أثراً ، فشر التعليم المصري ، ومحاولة الحكومة اللحاق بالأهالي في هذا المجال ، وإنشاء مدارس على النمط الحديث في سنة ١٩٢٦ ، كل ذلك أدى إلى ظهور طبقة من الشبان المتعلمين تعليماً عصبياً أواليا ، كانوا على كل حال أكثر تنوراً بالنسبة لمحيط العام في بيئة الخليج . ويمكن القول إن هذه الطبقة من

(١) Adamyale, p. 193

(٢) وقد تابعه جمال زكريا قاسم في وصف الحركة بأنها عصبية . انظر الإمارات العربية في الخليج العربي ص ٤٦ .

(٣) أمين الريحاني : ملوك العرب ج ٢ ص ٨٢ .

المتعلمين تنتمي أيضاً إلى التجار الذين تأثروا بعهد السكاد . وقد حاول تجار البحرين أن يخرجوا عن نطاق أعمالهم التقليدية وانتشروا في الإمارات الأخرى ، ووصل نشاطهم إلى شرق أفريقيا . إلا أنهم كانوا غير راضين عن تسلط الرأسمال البريطاني وتقوق شركة النفط التي لم يستفد من وجودها سوى الشيوخ . ويعبر عبد الرحمن الباكر عن مشاعر وآمال هذه الطبقة البوغازية الصغيرة — إن صح التعبير — التي حملت لواء المعارضة في الثلاثينات ضد السيطرة الاقتصادية والسياسية البريطانية المؤيدة من الشيوخ . لذلك كان هؤلاء التجار أسبق العناصر إلى المطالبة بالحكم النيابي ، بل وتأسيس نقابات العمال التابعين لشركات النفط . وقد كان للباكر صلة بحركة وقعت في دبي سنة ١٩٣٨ واستهدفت إقامة مجلس شورى يساهم في الحكم مع شيوخ البلاد من آل مكنوم . ويروي الباكر كيف أنه اضطر إلى إصدار نشرة في دبي كانت تكتب بخط اليد على هيئة مجلة عرفت بصوت المصافير . غير أن الإنجليز تقبوا هذا اللون من النشاط الطاريء في الشيوخ ، فاخطروا الباكر إلى مناصرة البلاد ، كما قضاوا على مجلس الشورى في نشأته . وتكونت في الصرة جمعية مناصرة الخليج التي ضمت أنصار التقدم في الكويت والبحرين والشيخات .

عرفت البحرين الصحافة السياسية قبل غيرها من الإمارات الأخرى . وفي أثناء الحرب الثانية نشجع الإنجليز إصدار مجلة لنقل أنباء المارك إلى البحرين وبلدان الخليج الأخرى . إلا أن هذه الصحافة الحكومية تحورت بعد الحرب إلى متبر يعبر عن الاتجاهات الجديدة^(١) في البحرين . وقد أسس الباكر

(١) انظر مقالاً عن التطور الثقافي بالبحرين مجلة المجتمع الجديد ، البحرانية .

التقدمية بالقياس إلى منطقة الخليج — كما يشير إلى ذلك فيما بعد — إلا أنها لم تكن في الأساس بأوضاع الأمر الحاكمة. ويعمل قادة الهيئة ذلك بأن الخطأ هو عدم التورط في نزاع مع الإنجليز والأسر الحاكمة في نفس الوقت. وأن الأولوية أعطيت لمكافحة السيطرة البريطانية، مع التشديد على ضرورة إدخال النظام النيابي وتأسيس النقابات العمالية.

ويشعر برنامج الهيئة بنقاط عامة عديدة^(١) تستلقت النظر. فهي تهرب عن أمنية إقامة اتحاد لإمارات الخليج. بل ترى أن هذا الاتحاد جزء من حركة الوحدة العربية الكبرى. ويضم الاتحاد الكويت والبحرين وقطر والشيخات السبع. أما سلطة مستط وعمان فلا بد من أن تنتظر فترة من الوقت إلى أن تنضج، ويجب أولاً الاتحاد بين الإمامة والسلطنة. وتقوم الكويت بتمثيل الاتحاد في الخارج. أما القوة العسكرية التي يستند إليها الاتحاد للفرح فيجب أن تتضافر في تكوينها الدول العربية المختلفة. ويتألف مجلس الاتحاد من الأمراء الحاليين بشرط أن يعتمدوا على مجلس تشريعي منتخب يراعى في تكوينه عدد السكان. ويقوم المجلس التشريعي بسن القوانين المدنية والجنائية كما اقترح البرنامج إقامة محكمة عليا للاتحاد، وشدد على ضرورة السلاح المال العرب في شركات النفط وغيرها بتكوين قطاعات.

يتضح من هذا البرنامج أن حركة البحرين لسنة ١٩٥٤ سبقت إلى فكرة الاتحاد التي طرحت للمناقشة في أواخر الستينات. ولم تذهب إلى حد إلغاء الكيانات السياسية المتعددة، كما تستغل للنفقات الوطنية التي ظهرت في وقت متأخر، وكانت أكثر نزوعاً إلى روح الثورة، مثل الجبهة الشعبية لتحرير

(١) الباكر: من البحرين إلى الشرق، ص ٧٧ وما بعدها.

سنة ١٩٤٩ مجلة « صوت البحرين » التي تتميز عن غيرها من الصحف بأغلب مزبد من الاهتمام للقضايا الاجتماعية. فهي تثنى حملة عن نظام الرق، وتطالب كلا من السعودية وقطر بإلغائه لأنه يتناقض مع المبادئ الإسلامية. ثم انتقل إلى مهاجمة شركات النفط، وبيّنت استغلالها لليد العاملة العربية حتى أثار زغر أصحاب شركة أرامكو. ويستخلص من ذلك كيف أن صوت البحرين خرجت عن النطاق المحلي البحراني إلى التعبير عن منطقة الخليج العربية بصفة عامة.

وتلت صوت البحرين صحيفة أخرى هي « الثقافة » لصاحبها علي سيار. كما تأسست بعض النوادي التي كانت ملتقى للشبان المثقفين الذين قادوا الحركة الوطنية في قمة مجدها من سنة (١٩٥٤ — ١٩٥٦).

كان الانقسام الطائفي بين السنة والشيعة من أهم العقبات التي حلت دون تبلور الحركة الوطنية في البحرين. ويمكن القول إن التغلب على هذا الانقسام هو الذي مهد لولادة المرحلة الهامة من تاريخ الحركة سنة ١٩٥٤ فقد شهد مجلس بلدى النامة صداماً طائفياً بين أعضائه في سنة ١٩٥٢، فأخذ الشبان المثقون يكافحون هذا التيار باسم الجبهة الوطنية. وكانوا يصعدون باسم الجبهة منشورات مريبة تحمل توقيع الكنف الأحمر، تنتقل بين البحرين وقطر والسعودية. ورغم تتبع السلطات لنشاط هؤلاء الشبان، فإنهم تمكنوا من تكوين هيئة وطنية رسمية في ١٦ أكتوبر سنة ١٩٥٤ اشترك فيها السنوالية جنباً إلى جنب. وحاولت الهيئة أن تتخذ شكل حزب سياسي يتكلمون جبهة عامة تضم مائة وعشرين عضواً. ولجنة تنفيذية تتكون من ثمانية أعضاء. واختارت عبد الرحمن الباكر أميناً عاماً لها.

ومع أن الهيئة الوطنية في البحرين تعتبر من أكثر الحركات نزوعاً إلى

الخليج . كذلك تبني البرنامج وجهة نظر البحرين في كيفية تشكيل الاتحاد ،
الأمم المتحدة عدد السكان في الاعتبار عند تكوين هيئة منتخبة .

بلغ اهتمام قادة الحركة بالنسالة النيابية لدرجة أنهم جعلوها محور المناقشة
مع الشيخ سليمان آل خليفة حينما اقترحوا عليه أخذ رسوم على الأنايب التي
تحصل بتحويل السعودية إلى معامل التكرير في البحرين . وقد وعد الشيخ بأنه
إذا حصل على هذه الرسوم ، وعلى تطبيق مبدأ المناصفة في الأرباح فسوف
يسمح بتكوين النقابات . وقد ظفر الشيخ سرّاً برسوم على الأنايب فحولها
إلى جيبه الخاص وتراجع فيها وعد به الوطنيين .

سمت الهيئة إلى إقناع الحاكم عن طريق المذكرات الرسمية ، أو
الإقناع الشفوي ، بل إنها وسّطت الملك سعود ، فما كان منه إلا أن نصح
الوطنيين بإطاعة الحاكم الشرعي . وإزاء تصلب الشيخ سلمان وخائه في
لقائه مع قادة الحركة ، اضطر هؤلاء إلى الخروج على الأساليب الشرعية ويرى
الباكر أن دعيها شقيق الحاكم فاتحه في تدبير محاولة نخلع أخيه على أن
ينفذ مطالب الوطنيين إذا أبدوه في محاولته . وحينئذ استقهم الباكرين الشد
البريطاني عن موقف حكومته من هذه الحركة ، وعلم منه أن بريطانيا لن تؤيدها
فتراجع عن فكرة التأمير .

لم يقتصر تأثير الحركة على منطقة الخليج ، بل إن من أهم مميزات هذه
الرحلة من الحركة الوطنية في البحرين ، هي تفاعلها التام مع أحداث العالم
العربي بأسره . فقد عاصرت الحركة مساعي بريطانيا لجزر بعض إمارات الخليج
إلى حلف بغداد ، وكان للوطنيين أعظم الأثر في إحباط تلك المحاولات . ثم
الذين دبروا المظاهرات العادية لويلد وزير خارجية بريطانيا التي قام
بزيارة للبلاد في أوائل سنة ١٩٥٦ ، وعلى العكس من ذلك فظلموا إلى الحكومة

العربية وممثليها فاستقبلوا أنور السادات بأقوى مظاهر الحفاوة والترحيب .
وردت أعداد المدون الثلاثي في البحرين بشكل ليس له نظير في الإمارات
الأخرى ، ثم يقتصر الأمر على المظاهرات العادية للإنجليز ، بل تجاوزت الحد الذي
دمروا أنابيب البترول على نخط ما فعله عمال سوريا . وبثبت لنا هذا الحادث أهمية
النصر الهائل في هذه الرحلة من الحركة الوطنية . ولا غرو فاطمة^(١) المامة في
البحرين تمثل اجتماعياً كبيراً من حيث حجمها ، ذلك لأن استئصال النفط لم
يقتصر على أعمال الاستخراج ، بل أنشئت في البحرين أهم معامل التكرير التي
أعدت لاستيعاب جزء من إنتاج البلاد المجاورة . فضلاً عن ذلك فإن كثافة
السكان في البحرين سمحت باستخدام اليد العاملة المحلية بكس الإمارات الأخرى
التي احتاجت إلى استيراد اليد العاملة من الخارج . وليس معنى ذلك أن قيادة
الحركة في تلك الحقبة انتقلت إلى الطبقة العاملة ، فقد ظلت مستندة إلى البرجوازية
الصغيرة أو المتوسطة من المثقفين .

وفي اعتابورد العمل العنيف على أحداث السويس ، قررت السلطات البريطانية
استخدام القوة ضد الهيئة الوطنية وقادتها . واعتبرتهم خارجين على السلطة
الشرعية . وبناء على ذلك نفى بعض قادة الهيئة إلى سفت هيلانة وبعضهم الآخر أبعد
عن البلاد . وصدر حكم بالاعتقال لمدة خمسة عشر عاماً ضد عبد الرحمن الباكر وعبد العزيز
السلطان وغيرهما ممن كانوا منفيين في المستعمرات البريطانية النائية . وسيصدر عفو
عن هؤلاء جميعاً عند انتهاء عهد الشيخ سلمان .

وقد أثار هذا الأسلوب في معاملة الوطنيين المعارضة العمالية البريطانية
واستفكرت أن تسخر الحكومة البريطانية لخدمة بعض الحكام الإقطاعيين الذين
يخربون شعبيهم من التمتع بثروة النفط . ولكن سئى كيف أن حزب العمال لم
يدخل تغييرات هامة على السياسة البريطانية في البحرين عند عودته إلى السلطة في

(1) Middle East Journal, Summer, 1955

سنة ١٩٦٤ ففى العام التالى وقعت حركة عمالية محضة استهدفت الدفاع عن الال الذين استغنت عنهم شركة نفط البحرين (باسكو) وتضامن الطلبة مع الال إضرابات واسعة النطاق . وتصادف ذلك مع رسم خطط بريطانية لتوسيع الال العسكرية فى البحرين . لذلك صممت حكومة الال على رفض مطالب هذه الالاف الأخيرة واكتفت بدفع تعويضات للعمال للسرحين .

لقدت هذه الحركات الوطنية على اختلاف مراحلها نظر الإنجليز بل اللين إلى ضرورة إحداث تغيير فى النظام الإدارى العتيق ، وإفساح المجال لالمر التقلدية ، وعلى رأسها الأسرة الحاكمة ، كى تحمل بالتدريج حمل بريطانيا فى إداراة شئون البلاد ، وذلك حتى لاتنمو الحركة الوطنية وتتخذ طابعاً أكثر يسارية . ففى سنة ١٩٥٦ شرع فى إنشاء الدوائر الوطنية المختلفة . وفى أعقاب انتفاضة سنة ١٩٦٥ رفن الرقابة عن الصحف . فظهرت صحف جديدة عربية وإنجليزية ، كما انتشرت الدوائر الثقافية والرياضية ، وعلى رأسها نادى خريجي الجامعات . على أنه لم يثبت مسد الوزن الكبير لهذه الفئة من المثقفين ، ذلك أن بريطانيا أعدت بذكاء ، تفل الدالة بالتدريج إلى الفئات التقليدية ، فلما حان موعد الاستقلال كانت اليارات التقليدية التى برزت سنة ١٩٥٦ ، ١٩٦٥ قد احتوتها هذه الفئات التقليدية .

خطوات الاستقلال

كان الطريق نحو الاستقلال يبدو أمام البحارة مائتاً بالعقبات أكثر من الشيفشات الأخرى . فالوضع القانونى والإستراتيجى للبحرين يجعل بريطانيا اللد أمراً على التدخل فى شئونها الخاصة . وقد عبر السكسشار تشارلس بلجريف صبيراً عملياً عن هذا الاتجاه ، وذلك برفض سيطرته على شئون البلاد اللالخبية .

والخارجية بشكل أثار أعنف المشاعر الوطنية ، ولذا جاء إبعاده عن البحرين بعد ثلاثين عاماً من الخدمة فيها ، أى فى سنة ١٩٥٧ بمثابة نهاية لمهد بيفرض من الحكم اللالشر . وكان القصد من إبعاده هو امتصاص الغضب الذى تجسدت سنة ١٩٥٦ بالظواهر الدينية التى دلت على أن سياسة بلجريف لم تعد ملائمة لروح العصر .

أما العقبة الثانية التى كانت توحى بصعوبة نيل الاستقلال فهى تشدد إيران فى دواها بخصوص البحرين وفى اللامضى كانت إيران تكثف بتقديم المذكرات التى تضمن الأدلة على وجود حق لها فى السيادة على الجزر ، ومنذ الحرب الثانية عدلت عن هذا الأسلوب الدبلوماسى وراحت تدخض بعض الإجراءات الرمزية لإثبات سيادتها . فبمناسبة تعرض البحرين لنارة من السلاح الجوى الإيطالى سنة ١٩٤٠ ، أقصمت إيران نفسها بالاحتجاج لدى حكومة روما ، كذلك أعتزضت على تمثيل البحرين فى بعض الهيئات الفنية التى ألقت بهيئة الأمم المتحدة كأحد البريد الدولى . أو فى المؤتمرات كاللتمر الاقتصادى الآسيوى . كما اعترفت على ورود اسم البحرين كإحدى دول الخليج العربى فى بعض وثائق الأمم المتحدة .

وعندما قام محمد مصدق رئيس الوزراء الإيرانية بتأميم النفط سنة ١٩٥١ تذكر « حقوق إيران فى البحرين » وكيف أن تلك « الحقوق » تقتضى أن يسرى التأميم على الشركة العاملة هناك . وبهذه المناسبة أثاروت حكومة (١) مصدق اللسألة أمام هيئة الأمم المتحدة ، ولم تأخذ النظمة الدولية الجديدة هذا الموضوع مأخذ الجدل فلما حدث فى عهد المعصية من قبل . هذا مع ملاحظة أن الاتحاد السوفيتى مال إلى تأييد إيران فى هذه الحقبة التى استعدمت خلالها بالصلالح الرأسمالية البريطانية . وكان حزب توده الشيوعى مايزال يحتفظ بنفوذ قوى ، ويسمى أحياناً بالثقل فى البحرين .

واتزوت الادعاءات الإيرانية فترة من الزمن وراء الشكوك اللعقدة التى نورضت لها إيران منذ تأميم النفط ، ولم تعد إلى إثارة اللوضوع إلا بعد أن ارتبطت

ماهى العوامل التى دعت الشاه إلى إحداث هذا التغيير الجذرى بعد عهد طويل من العناية لحق إيران فى السيادة على البحرين ؟ يمكن تقديم التفسيرات الآتية :

أولاً : قبل عقد الشاه للمؤتمر المحلى بقليل ثم فى أكتوبر سنة ١٩٦٨ اجتمع بينه وبين الملك فيصل فى السعودية . وأعلن فى نهاية الاجتماع عن اتفاق المولى على تنسيق سياستهما فى الخليج بعد انسحاب بريطانيا . فليس يستبعد أن يكون فيصل قد أقنع الشاه بأن استمرار المطالبة بالبحرين قد يؤدى إلى بروز عناصر وطنية تقدمية فى الإمارة ، وأن من الأفضل ترك السلطة بيد آل خليفة تدعى الأنظمة الحاكمة المحافظة الأخرى .

ثانياً : أدرك الشاه نمور المباحثات بين الإمارات التسع ومن بينها البحرين لإنشاء دولة اتحادية عربية كبيرة ، وهو ما رفضه إيران بصفة عامة ، وكانت إيران قد احتجّت فى بداية الدعوة لإنشاء الاتحاد فى فبراير سنة ١٩٦٨ ، فلم تلبث أن رأت تقلب النزعة الدائمة لدى لحكام العرب وتضاؤل أحوال انضمام البحرين إلى الاتحاد المقترح ، على نحو ما ستفصله فيما بعد .

ثالثاً : زوال المخاوف الإيرانية من وجود صلات بين التيارات الوطنية فى البحرين ، وبين الجمهورية العربية المتحدة ، تلك الصلات التى لمسناها بوضوح خلال الفترة ما بين ١٩٥٤ إلى ١٩٥٦ ، وبعد حرب يونيو سنة ١٩٦٧ ضعف تأثير الحركة الحدودية العربية النابعة من القاهرة .

رابعاً : من المحتمل أن تكون بريطانيا قد اتفقت مع إيران على أن تترك لها فرصة احتلال الجزر الثلاثة التابعة لمشيخات ساحل عمان فى مقابل التخلّى عن المطالبة بالبحرين .

وأخيراً فإن حجة الشاه التى ذكرها ، وهى عدم الرغبة فى احتلال أراض بالقوة رفض أهلها التسمية لإيران ، تشكل عاملاً هاماً من عوامل تغيير السياسة الإيرانية .

بحلف ببناد سنة ١٩٥٥ ، وأصبحت تأمل فى توقف معارضة بريطانيا لميركاى الحلف ، واتخذت منذ ذلك الوقت مزيداً من الإجراءات الشديدة ، فصارن تطالب الطائرات التى تهبط فى البحرين بالمسول على تصريح من السلطان الإيرانية . ولم تعد تعترف بمجازرات السفو البحرانية وكانت الجاسمة العربية قد أخذت تحمل على بريطانيا منذ سنة ١٩٥٤ فى تبنى الدفاع عن عروبة البحرين أم المطالبات الدولية ، وتكلمات بصيغة الذكورات والحجج لمواجهة كل إدعاء إراني كاشدوت بعض الإذاعات العربية لهجتها ضد إيران وحكومة الشاه بصفة خاصة . فإذا بتلك الأخيرة تقابل حملة الدعاية بأخاذ مواقف متطرفة لاستتند إلى الواقع . فأصدرت فى سنة ١٩٥٧ قراراً باعتبار البحرين المدربة الرابعة عشرة ، وخمسن لها مقدين فى مجلس النواب .

لم تستند إيران من عضويتها فى الحلف المركزى لتحقيق أطماعها التوسعية فى الخليج . وسوف تثبت الأحداث بعد ذلك كيف أن الأحلاف لم تعد أعضاءها الآسيويين فى منازلهم المحلية . فقد تعرضت باكستان فى نهاية سنة ١٩٧١ لهجوم شامل من الهند أدى إلى انفصال قسمها الشرقى ، ولم يتحرك الحلف لإتخاذها . ومن باب أولى لم تكن بريطانيا لتقبل التخلّى عن سياستها التقليدية التى تعود إلى القرن التاسع عشر وهى المحافظة على الوضع الراهن فى الخليج . هذا بالإضافة إلى إدراكها لأهمية رأى الشعب فى وقتنا الحاضر ، وكيف أن شعب البحرين يعتبر نفسه جزءاً من الأمة العربية .

ويبدو أن الشاه نفسه اقتنع بهذه الحجة ، وإذا به يماجى العالم فى مؤتمر محلى عقده فى دلهى فى يناير سنة ١٩٦٩ بأنه يقبل حق تقرير المصير فى البحرين . ولم يتنازل الشاه فى هذا التصريح عن الحقوق النظرية للبلاد فى البحرين ، بل قال (رغم أن البحرين كانت تابعة لإيران ، فإنى لا أريد أن أقيم حكماً على غير رغبة السكان ، وإلا صار احتلالاً بالقوة) .

تقرير المصير وإعلان الاستقلال

رغم أن دعوى إيران في السيادة على البحرين لم تكن قائمة على أساس واقعي، فقد رأى قطع الطريق نهائياً عن كل دعوى بمقتضى أن تجدد في المستقبل. كما أن إجراء تحقيق في تقرير المصير من شأنه أن يستقط دعاوى الشاء دون إرافة ماء الوجه. وبالإضافة لم يكن هناك سبب قوي لطرح مستقبل البحرين أمام الأمم المتحدة، ولم تفرأ وفاة المنظمة الدولية عن أي طريق تدخل إلى معالجة موضوع البحرين: هل يجري استفتاء رسمي للسكان تحت رقابة الأمم المتحدة؟ لقد رفض العرب هذه الفكرة لأن عروبة البحرين ليست موضع شك، والاستثناء سابقة خطيرة قد تطالب بها إيران وأية دولة أخرى في الإمارات الصغيرة بإساحل عمان، والتي تعد إليها هجرات أجنبية على نطاق واسع.

لذلك طرحت حلول أخرى من بينها رفع المسألة إلى لجنة تصفية الاستعمار. فأثير اعتراض بأن البحرين ليست من الناحية القانونية مستعمرة، كما اقترح نظر القضية أمام محكمة العدل الدولية، فاحتج بعض موظفي الأمم المتحدة بأن المسألة ليست ذات طابع قانوني.

وأخيراً استقر الرأي على تكوين لجنة لتقصي الحقائق. وأمر أوثانت السكرتير العام للأمم المتحدة آنذاك على ضرورة تدخل مجلس الأمن لتشكيل اللجنة. وقد لوحظ أن اختيار الأعضاء سيثير مشكلات سياسية، لذا رأى تجنب هذا الأسلوب فيكلف الأمين العام باختيار مندوب شخصي يتقصي الحقائق في البحرين، ثم يرفع تقريره إلى مجلس الأمن ويحتفظ به كإحدى وثائق الأمم المتحدة.

وقد أثار الاتحاد السوفيتي اعتراضاً إجرائياً، وهو أن إرسال مبعوث شخصي

أزال تنازل إيران عن دعوها عقبة رئيسية كانت تقف في سبيل استقلال البحرين، إلا أن ذلك التنازل تطلب اتخاذ إجراء ما للتعرف على رغبات السكان إذا مستقبل بلادم. وسار أمام البحرين الاختيار بين أمرين: قيام دولة مستقلة، أو الالتحاق بدولة الاتحاد. وقد اضطرت البحرين إلى اختيار السبيل الأول بد أن أبدى وقدما استعداداً لبعض التنازلات من أجل إجماع مشروع الاتحاد. وكانت بريطانيا منذ القضاء على الحركة الوطنية سنة ١٩٥٦ تعمل على تدعيم حكم آل خليفة، وذلك بتسليم بعض السلطات تدريجاً إلى العناصر الوالية لهم.

ففي سنة ١٩٥٦ تأسس مجلس إداري من خمسة أعضاء، يضم أربعة من الأسرة الحاكمة بالإضافة إلى مستشار حكومة البحرين البريطاني. وبشرط هذا المجلس على تطوير مصالح الحكومة المختلفة التي بلغت ٢٢ مصلحة، يعمل بها غالبية من الموظفين البحارنة. وكان هذا الإجراء بعيداً عن أمانى الحركة الوطنية. ولم تتخذ الخطوة التالية تمهيداً للاستقلال إلا سنة ١٩٧٠ بعد تمرر مباحثات الاتحاد ووزارة تمثل الأمم المتحدة لتقصي الحقائق عن تقرير المصير. ففي أبريل سنة ١٩٧٠ تقرر تكوين مجلس دولة من ١٢ عضواً أمثله بوزراء، لأن هذه اللوار سارت نواة للوزارات التي نشأت بعد إعلان الاستقلال. وقد خصصت إحدى هذه اللوار للشئون الخارجية.

ويؤاس مجلس الدولة أحد أعضاء الأسرة الحاكمة. وكان عددهم بالمجلس أربعة، بينما تلاحظ أن أعضاء مجلس وزراء قطر الذين ينتمون إلى الأسرة الحاكمة يبلغون ستة من مجموع التسعة أعضاء. ومع ذلك فقد احتفظ الأعضاء الأربعة من آل خليفة بالوزارات الهامة مثل الشرطة والدفاع والخارجية. وقد دل قيام هذا المجلس على ميل حكومة البحرين إلى اختيار طريق الاستقلال.

سبقت البحرين الإمارات الأخرى إلى إعلان استقلالها في ١٤ أغسطس سنة ١٩٧١ واقترن إعلان الاستقلال بمقد مهادنة صداقة مع بريطانيا تنص على التشاور التبادل في حالة اشتباك أحد الطرفين في حرب . وقد لاحظ المعلقون أن اختيار كلمة « التشاور » أريد به تجنب كلمة « المساعدة » العسكرية ، لأن ذلك يتعارض مع قرار بريطانيا بالانسحاب من الخليج .

ومن المروءات أن البحرين كانت تضم أهم القواعد البريطانية في الخليج ، وعلى رأسها قاعدة « الجبير » البحرية . وقد تم إخلاؤها في شهر ديسمبر التالي . ثم كشفت مناقشات الكونغرس عن أن وزارة الدفاع الأمريكية استأجرت قسماً من هذه القاعدة ابتداء من اليوم الذي تم فيه إخلاء بريطانيا لها .

وكانت حدث بالنسبة للاتفاق السري الذي عقد مع الغرب بشأن تأجير قاعدة جوية ، فقد انصب اعتراض الكونغرس على تحمل الولايات المتحدة هذه الالتزامات الخارجية دون أخذ موافقة السلطة التشريعية مقدماً . وانبئ رد وزارة الدفاع على أن هذا الإيجار يتفق بأعمال الأسطول الأمريكي في المحيط الهندي ، ولا يتربط عليه أي التزام سياسي أو عسكري . كما أن عدداً من المستخدمين في القاعدة لا يزيد عن ٢٦٠ شخصاً . ثم برزت الوزارة موقفها سياسياً بأن تلك ضرورة عليها تقبل الأسطول السوفيتي في المحيط الهندي . فلا بد من إثبات الوجود الأمريكي في بعض المواقع القريبة منه .

وعلى أثر نشر هذه المناقشات نفت حكومة البحرين أن يكون هناك أي اتفاق عسكري مع الولايات المتحدة . وذكرت أن الأمر يتعلق ببعض التسهيلات الاقتصادية لشركات مدينة أمريكية ، حيث يتخذ على حكومة البحرين الناشئة الاستفادة من الباني التسامحة في القاعدة .

ومما كان الأمر فإن مناقشات الكونغرس الأمريكي أثارت بعض التلاعب أمام حكومة البحرين . وبجانب هذه التلاعب الخارجية ، هناك مشكلة داخلية

للتحقق دون أخذ رأي الأعضاء الخمسة الدائمين ، يعتبر نقدياً على اختلاف هؤلاء الأعضاء . وأجيب بأن الأطراف المعنية في القضية قد فزت جميعاً بما الإجماء ، وتهدت باحترام النتائج التي يتوصل إليها البعث البعث النض . ثم إن مهمة هذا البعث هي تقصى الحقائق ، وليست إجراء استفتاء رسمي .

اختار أوثانت مساعدته الإيطالي ونسيير جوشياردى لتقصي الحقائق فقد يزارة البحرين في أبريل سنة ١٩٧٠ واستخدم جميع وسائل الاتصال بالأهل مما لم يكن مألوفاً في البعثات الدولية السابقة كاستخدام الإعلان عن طريق الصحافة والإذاعة . ويرجع ذلك إلى أن حكومة البحرين كانت حريصة على أن يجمعه بأكثر عدد ممكن من السكان لتأكيد كدها من أن مؤيدي الانضمام إلى إيران يشكلون أقلية لا تذكر . كما سرت سبل الاتصال بين البعث الدولي ، وبين المواطنين المنحدرين من أصل إيراني . وقد أكد كثيرون منهم الرضا في الاستقلال .

وحسب تقرير جوشياردى لم يخرج عن الإجماع في المطالبة بالاستقلال سوى فئة ضئيلة طالبت الاتحاد بإيران . ومن بين هذه الأقلية الإيرانية من طالب الاستقلال البحرين ، وحذف متعمداً وصف الدولة بالعربية ومنهم من اقترح إنشاء إعلان خاصة مع بريطانيا أو إيران (لحماية استقلال البلاد) .

أما الدبلوماسية العظمى فقد طالبت بالبحرين دولة مستقلة . أو كعضو في اتحاد للخليج إذا قبلت وجهة نظر البلاد في شغل الاتحاد . ومع أن الصلة العربية للدولة لم تكن موضع سؤال ، فقد أصر الكثيرون على إضافة عبارة « دولة عربية » . ولأحظ التقرير اختفاء الروح الطائفية . فقد زار علماء الشيعة والسنة مسأ البعث الدولي وأعربوا جميعاً عن موافقتهم على الاستقلال ، مما أكد عدم تعلق الشيعة بإيران خلافاً لما كان راسخاً في الأذهان (١) .

(١) أنظر تقرير جوشياردى في وثائق الأمم المتحدة .

أخرى تواجهها تلك الحكومة الناشئة . فالدعوة إلى إنشاء مجلس نيابي ديمقراطي البحرين ترجع إلى الخمسينيات . ومع أن الجناح التقدمي من الحركة الوطنية قمع بشدة إعلان الحكم البريطاني ، فقد وجدت بعض الصحف الدعوة للحكم البرلماني منذ تأسيس مجلس الدولة في سنة ١٩٧٠ . وعند إعلان الاستقلال تباطأت حكومة الإمارة في منح البلاد نظاماً دستورياً على نحو ما طالب به صحف البلاد وعلانيات وأيديتها التنافية ذات التأثير في الرأي العام . وربما مالت إلى إقامة مجلس استشاري غير ملزم لها على نسق ذلك المجلس الذي تأسس في دولة الإمارات المتحدة ، غير أن مجتمع البحرين - كما رأينا - بلغ درجة من التقدم تسمح بنيل نظام دستوري ، وهو غير خاضع للمؤثرات القبلية .

وتحت ضغط الرأي العام أسدوت حكومة البحرين دستوراً في نهاية عام ١٩٧٢ ، يعتبر بمثابة حل وسط بين الحكومة والرأي السائد لدى الشعب . فهو ينص على قيام سلطة تشريعية غير خاضعة للسلطة التنفيذية ، لكن هذه السلطة تتكون من أعضاء معينين وآخرين منتخبين بواسطة الاقتراع العام .

الفصل الخامس عشر

قطر ومشيخات ساحل عمان

استقلال قطر

تشكل قطر شبه جزيرة في مواجهة البحرين . ولذلك ارتبطت تاريخياً بالبحرين . كما أنها تعد حافة اتصال بين البحرين وبقية ساحل عمان الذي تتصل به براً . ومن ثم قد هيئ لها وقتاً ما أن تلعب دوراً رئيسياً في مشروع إقامة دولة اتحادية للإمارات التسع . غير أنها لم تكن تتوفر لديها ، لا مساحة أبوظبي ، أو ثروتها النفطية ، كما لم تصل إلى درجة البحرين من حيث كثافة السكان . وبالتالي فقد أملت النزعة الذاتية على حكومتها التغلغل عن فكرة الاتحاد وإعلان نفسها دولة قائمة بذاتها .

لقد عاشت قطر في عزلة عن العالم الخارجي ، وذلك إبان العهد الطويل الذي حكم خلاله عبد الله بن قاسم آل ثاني (١٩١٣ - ١٩٤٩) ولم تكن الماهدة اللامعة التي عقدها مع بريطانيا سنة ١٩١٦ سوى تأكيد لهذه العزلة ، لأنها ففتت على ما تبقى من احتمالات الاتصال مع البلدان العربية المجاورة ، وركب لبريطانيا شأن الاتصال حتى فيما يتعلق بقسوة خلافات الحدود مع السعودية ، وهي خلافات نشأت عن منح امتيازات النفط ، ورغبة الشركات في أن تعرف حدود امتيازاتها^(١) .

(١) أنظر حول مشكلات الحدود : عرض المملكة السعودية بخصوص الحكم حول واحات البورقي .

وكانت تكلف أضعاف تكلفتها في البلاد الأخرى . فواد البناء واليد العاملة أيضاً مستوردة من الخارج .

كانت شبه جزيرة قطر تعتبر من أشد مناطق شبه الجزيرة من حيث قلة السكان . فلم يزد عددهم قبل اكتشاف النفط عن ٢٥ ألفاً وقد تطلبت صناعة البترول ، وما ترتب عليها من أعمال عمرانية كبناء المساكن وشق الطرق ، وإنشاء الأجهزة الإدارية الحديثة : استخدام الخيل واليد العاملة من الخارج . وقد ورد معظمها من العالم العربي فإيران وباكستان والهند ، بالإضافة إلى عدد قليل من الأوربيين .

وظالما كانت البلاد مرتبطة بمعاملة مع بريطانيا ، لم تنشأ بها مشكلة الجنسية . ذلك نما عدد السكان سواء عن طريق الهجرة لم تزايد نسبة الوالد ، حتى تجاوز عددهم ثمانين ألفاً عند الاستقلال . ومن المؤكد أن قطر المستقلة تواجه مشكلة إيجاد توازن بين السكان الأصليين وبين الوافدين من مختلف العناصر .

تطور المجتمع القطري في الستينيات بدرجة أقل سرعة من تلك التي شهدناها في الكويت مثلاً . وقد سمح الحاكم أحمد بن علي بتيسير الاتصالات مع العالم الخارجي ، لكنه تعرض للنقد بسبب استثماره بربع دخل النفط لحسابه الخاص . كما أنه عاصر إقامة الاتحاد ، ووقف حائراً بين رغبته في تزعم الاتحاد وعدم توفر الإمكانيات لذلك . فبالرغم من أسبقية قطر على أبوظبي في استقلال النفط ، إلا أن إنتاجها تجمد تقريباً عند عشرة ملايين طن منذ سنة ١٩٦٣^(١) ونهيات سبل الزراعة أمام الشيخ زايد بن سلطان بسبب الثروة وفتحه على العالم بصورة أفضل من حاكم قطر . ومنذ سنة ١٩٧٠ أشارت الدلائل إلى نية حاكم قطر في تأسيس دولة مستقلة ، فقد أصدر دستوراً مؤقتاً ، وكون مجلساً للوزراء برئاسة ابن أخيه الشيخ خليفة بن حمد ، وخصص دائرة للخارجية ، مما يؤكد انصرافه عن فكرة الاتحاد .

(1) Middle East and North Africa, Persian Gulf States

وبينا اهتمت بريطانيا بهذه القضية ، فإنها أغفلت تماماً الشؤون الداخلية ، لذلك لم تشهد قطر أى تغيير اجتماعي أو اقتصادي إلى أن شرع في تصدير النفط سنة ١٩٤٩ ، فحتى ذلك الحين لم تنشأ بالبلاد مدينة واحدة ، ولم تعد « الدولة » العاصمة الحالية قرية لسائدى السمك . وازداد أهل قطر فقراً نتيجة كساد صناعة اللؤلؤ . فلما تم اكتشاف النفط ، أراد الحاكم الطاعن في السن اعتبار هذه الثروة ملكاً خاصاً له ، طبعاً للقبيلة القبلية التي ترى في الحاكم أباً يصرن في الأرض والناس كيف شاء . حقيقة إن أسراً حاكمه أخرى في شبه الجزيرة العربية لم تعرف التمييز بين الملك الخاص للحاكم ، وبين ميزانية الدولة . إلا أن الشيخ عبد الله بن قاسم قد بالغ في هذا الخلط إلى حد أنه أثار اعتراضات التجار ، وم الفئة الوحيدة التي بلغت قدراً من الثروة في قطر ولما كانت السن قد تقدمت ، من جهة أخرى ، فقد أتمر التنازل لأحد أبنائه في نفس الوقت الذي بدأ به استغلال النفط .

ولم يكن خلفه على بن عبد الله يفعله كثيراً من حيث رغبته في تطوير البلاد فأساء التصرف في الثروة الطارئة . ولم يقبل إنشاء المدارس العصرية إلا في ثلاثين سنة ابتداء من سنة ١٩٥٦ متعمداً على مدرسين مصريين . أما إنشاء الإدارات الحديثة فلم يتم إلا بضغط من الوكيل السياسي البريطاني في الدوحة الذي رأى تشر شركات النفط في أعمالها بدون وجود إدارة تبنى بالأمن والطرق وغيرها من الشؤون العمرانية .

ويبدو أن الحاكم لم يرق له هذا التحول ، فدخل عن الحسك لآبائه أحمد سنة ١٩٥٩ ، ومنذ ذلك الوقت انطلقت قطر إلى مرحلة جديدة فخرجت عن عزلها السابقة وانضمت إلى عضوية الأوبك ، واشتركت في بعض ألوان النشاط الاقتصادي والثقافي في الجامعة العربية . كما خصص الحاكم الجديد نصيباً كبيراً للمشروعات العمرانية ، بما في ذلك محاولة خلق بيئة ساحلة للزراعة في ظروف صعبة . وبناء مصنع للأسمدة نظراً إلى أن أعمال البناء قد بدأت من العمر ،

احات أبو ظبي مكانها كأكثر مشيخة من حيث المساحة منذ منتصف القرن التاسع عشر ، أي أنها تفوقت على اتحاد القواسم قبل أن تنفقت ، وبلغت أبو ظبي تلك السكينة بفضل حاكمها القوي زايد بن خليفة (١٨٥٥ — ١٩٠٨) وإن كان يجب الاعتراف بأن ملاعبات عصره هي التي ساعدته على ذلك ، فإن أسطول القواسم كان معداً للحروب البحرية ، ومن ثم فقد أهميته بعد فرض نظام الهدنة .

أما بنو ياس فكانوا يتسلكون سفناً صغيرة ، يمكن استخدامها في التجارة وسيد الأملاك أو أعمال النوص . كذلك حاصر زايد الحرب الأهلية بين آل سعود ، والخفاء دولتهم فترة من الوقت في نهاية القرن التاسع عشر ، مما هبها لم أن يحل عليهم في واحات البويعي ، بل إن نفوذه امتد إلى إقليم الظاهرة في عمان ، ووصل إلى مدينة عبرى ، وبلغ نفوذه من القوة إلى حد أن سلطان مسقط أصبح يستعين به لنعم ثورات القبائل في بلاده .

ثم أخذ شأن الإمارة يضمحل بالتدريج بعد نهاية عهد زايد بن خليفة ولو أن حكم بن حمدان بن زايد (١٩١٢ — ١٩٣٢) انتم بحسن الإدارة فسيادة للنازعات القبلية ، ثم تعرضت الشيخة لحزة عنيفة بعد مقتل حمدان على يد أحد إخوته ، وتلك ذلك سلسلة من الاغتيالات أوقدت أسرة البو فلاح هيبتها وانصرفت بعض القبائل التي تسكن الشيخة مثل الناصير ، عن الولا ، لها ، واتجهت إلى آل سعود . تداركت الأسرة منية هذه الخصومات ، فعمد أفرادها عند اختيار شيخبوط بن سلطان سنة ١٩٣٨ شيخاً للإمارة بأن باتروا جميعاً بطاعته والولاء له وبما هيأ له فرصة البناء على عدم تورطه في الخلافات السابقة ، إذ كان متقيماً في الشارقة أثناء وقوع الاغتيالات . ولا كنهه من جهة أخرى أصبح عقبة في سبيل التقدم بعد

(1) Kelly Jone Eastern Arabian Frontiers

وقد اقترن إعلان استقلال قطر في أول سبتمبر سنة ١٩٧١ مثل البحرين بمعاهدة صداقة مع بريطانيا . وحسب الدستور المؤقت كان لابد من تكوين مجلس نيابي يساهم في الحكم ، غير أن الحاكم أجل تنفيذ هذا النص على أساس أن مجتمع قطر لم تنهياً بعد لإجراء انتخابات وكان هذا التأجيل من بين البركان التي ذكرها خليفة بن حمد لاستيلائه على السلطة في ٢٢ فبراير سنة ١٩٧٢ وبعد هذا الاستيلاء حلقة في سلسلة من التغيرات التي شهدتها إمارات الخليج منذ عزل الشيخ شيخبوط من إمارة أبو ظبي سنة ١٩٦٦ ، وتسببت هذه التغيرات إحلال حكم أكثر استقارة من الحكم المحافظين حتى يكونوا أكثر ملائمة لروح العصر . ولا تتجاوز هذه التغيرات نطاق الأمر الحاكم حين ينفذ مجلس الأسرة لسياسة الحاكم الجديد . وفي حالة قطر لم يكن خليفة بن حمد بحاجة إلى اتخاذ أي إجراء لأنه كان يمارس السلطة العملية منذ توليه رئاسة الوزارة سنة ١٩٧٠ كما أن الحاكم المخلوع كان متقيماً عن البلاد في هذه الأثناء .

٣

ساحل عمان قبل إنشاء الاتحاد

لم يتضح تشكيل الإمارات السبع على النحو الذي انتهت إليه إلا في أوائل القرن العشرين . فلم تنقطع المنازعات الأسرية حتى الأربعينات ، وذلك لأن نظام الهدنة الذي فرضته بريطانيا أوقف الحروب البحرية فقط .

ويمكن تقسيم المشيخات إلى ثلاث فئات . الكبيرة ، وهي أبو ظبي ودبي ، والوسطى وهي الشارقة ورأس الخيمة : والصغيرة التي يقل عدد سكانها عن عشرة آلاف وهي أم القيوين والعجمان والفجيرة .

خلق شخبوط وتولية زايد. وتمت العملية في أغسطس سنة ١٩٦٦ دون إرفاق دعاء وكالناد أعلن أن مجلس الأسرة هو الذي قرر هذا التغيير.

شهدت أبوظبي في السنوات الأولى من حكم الشيخ زايد طفرة لم يحدث مثلاً في بلدان الخليج الأخرى نظراً لأنه بدأ من الصغر، لينطلق دفعة واحدة نحو التوسع في الخدمات والتعمير، ولأن الإمكانيات كانت تبدو أعظم من أى مكان آخر إذا قورن الدخل بعدد السكان. ففي سنة ١٩٦٦ قدر سكان الإمارة بـ ١٥٠ ألف نسمة. بينما وصل الدخل إلى ٣٥ مليون جنيه. وفي سنة ١٩٧٠ قدر عدد السكان إلى ٥٥ ألفاً وارتفع الدخل إلى ١١٠ مليون جنيه. مما يجعل دخل الفرد في أبوظبي أعلى مستوى في العالم بأسره.

وقد يبدو غريباً بعد ذلك أن يحدث عجز بسيط في ميزانية الإمارة خلال عام ١٩٦٩. ويرجع ذلك إلى ما تشكلته الشروعات من نفقات باهظة، وإلى وجود عدد كبير من الناموس الذين يريدون الإبراء بسرعة، مع قلة الخبراء المحليين لمرحلة أعمال الشركات وضبط حساباتها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن طموح الشيخ زايد السيامي جعله يتوسع في برامج الخدمات والإنشاءات، لا بالنسبة لإمارته فقط، بل مد هذه الخدمات إلى جيرانه، وقدم القونات لدول عربية أخرى.

وتمت خطة خمسية لأبوظبي (١٩٦٨ - ١٩٧٣) بقدر الإنفاق عليها بـ ٢٥٠ مليوناً من الجنيهات، وبناء عليه يمكن تقدير ما تحققت شركات القاولات، والأعمال الأخرى من أرباح طائلة.

وفي الوقت الذي كانت فيه أبوظبي منزلة عن العالم، بدأت مشيخة دبي بمسكرة، وبدون وجود النفط، تسير في طريق التقدم. ويرجع الفضل في ذلك إلى حاكمها الشيخ سعيد آل مكتوم (١٩١٢ - ١٩٥٨) فقد استطاع أن يجعل من ميناء دبي الميناء الرئيسي لتجارة ساحل عمان. وذلك نتيجة حسن الإدارة،

اكتشاف النفط، إذ كان يرى في تقاليد البدو، وعدم الاختلاط بالعالم الخارجي، أو القاتر بمنجزات الحضارة المعاصرة مثلاً أعلى يجب أن تسير عليه أبوظبي كالإنسان منذ قرنين. ولذا صار ينظر إلى ثروة النفط نظرة يشوبها عدم الاكتراث. والتفكير من الشيخ الذين عرضوا بلامر حركات اجتماعية بسبب ما أدخلوا من تغييرات في نظم الإدارة والاقتصاد والتعليم. ولم يقبل إلا تحت إلحاح شديد فتح مدرسة ابتدائية في سنة ١٩٦٢، ولم يلبث أن أغلقها بعد قليل. وعسند إبان افتتاحها حرص على اختيار المدرسين من أطفال عربية لها ميول غربية.

كذلك رفض الشيخ شخبوط مقترحات بريطانية لتنفيذ خطة خمسية تسهّل إنشاء بعض الشروعات العمرانية، رغم توفر الأموال اللازمة لذلك.

وبينا عارض الإنجليز في مشروعات التعمير، تعاون الشيخ شخبوط معهم إلى أقصى حد في المنازعات الإقليمية مع المملكة العربية السعودية. ومن البرون أن شركات النفط صاحبة الامتياز في أبوظبي يمتلك معظم أسهمها برطاليون فدفعوا الشيخة إلى التمسك بالبورسي وغيرها من المواقع التي كانت شركة أرامكو تخفض السعودية على بسط ساطعها عليها. ولعل هذا هو من الأسباب التي جعلت مركز شخبوط يتصّحج لأن السعودية، وإن كانت قد صمّحت منذ حرب الين سنة ١٩٦٣ إلا أن علاقتها ببريطانيا تحسنت، ولم تعد هذه تحتاج إلى بقاء الشيخ شخبوط الذي يشير وجوده ذكريات الخلاف مع السعودية.

ومن جهة أخرى فإن شركات البيترول تدخل^(١) التعامل مع حاكم مستقراً، على التعامل مع رجل مثل الشيخ شخبوط الذي يرفض التمشي مع روح العصر، مما قد يؤدي إلى إنقجار مضاد. وكان الشيخ زايد بن سلطان شقيق الحاكم قد عرف بميله إلى التطور منذ أن كان حاكماً لبعض مناطق الحدود، فأغرض المين عن نقل بعض الأشخاص الذين يمانون في التطوير وهكذا اتفقت جميع الأطراف على أفضلية

(1) Dailg Telegraph 15 - 9 - 1969.

والعناية بتطوير الميناء . ولهذه الأسباب ولعدم التزمّت في الحياة الاجتماعية اجتزعت دوى إليها الواقدين من الإمارات المجاورة ومن إيران ، وأصبحت أكبر مدينة في ساحل عمان ، إذ تضم ٣٥ ألفاً .

وقد شهدت دوى أولى المدارس المصرية و المنطقة . ولا شك أن الرسوم الحركية هي التي مكنت الشيخ سيد ثم خلفه الشيخ راشد من الضخى في تطوير البلاد

وفي الخمسينات سلمت بريطانيا برحجان كفة دوى ، فنقلت إليها مقر الوكيل السيسى بدلا من الشارقة . وتنتمى أسرة آل مكتوم الحاكمة في دوى إلى فرع من فروع بنى ياس ، هو بوقلاصة ، أى أنها تمت بصلة القرابة إلى أسرة أبوظبى . ومع ذلك فإن العلاقات بينهما كانت سيئة في أغلب الأحوال . وقد شهدنا الشيخان آخر الحروب القبلية في ساحل عمان سنة ١٩٤٨ ، وتلبت مشيئة أبوظبى في تلك الحرب نظراً إلى أن أسلوب الشيخ شخبوط في الحكم كان أكثر إنغراء لقبائل البادية . وقد أرغمت دوى على دفع غرامة حربية ، لأن ذلك لم يوقف تقدمها .

اعتبرت إمارة الشارقة نفسها وريثة لدولة القواسم القديمة ، رغم انفصال الخيمة منذ زمن طويل ، وخلع آل الشارقة ولاهم للقواسم وتأسيس الشيخة البادية وهي الفجيرة في منتصف هذا القرن .

ويمكن القول إن شأن الشارقة أخذ يضمحل منذ وفاة سلطان بن صقر الثالث ١٨٦٦ ، ثم أخذت تسترد بعض شهرتها التاريخية حينما خاضت حروبا مع الإمارة الشقيقة وهي رأس الخيمة ، التي تنتمى أسرتها إلى فرع من فروع القواسم . وقد استطاعت أن تستولى على بعض المواقع التي كانت في الماضي ملكا لدولة القواسم الكبيرة ، وتقع عند سلطنة مسقط مثل خور فكان وكلبة ، وهي لاتصل رأيا بأرض الإمارة .

ثم نالت الشارقة شهرة عند ما أقامت بريطانيا فيها قاعدة جوية سنة ١٩٣٧ وقد سارت فيما بعد من أكبر القواعد في منطقة الخليج . وكانت بريطانيا تدفع إيجارا سنويا اختاف في تقديره ، ولكنه كان على كل حال يكفى لتطوير الشيخة محدودة السكان . وقد شرع حاكمها الشيخ صقر بن سلطان (١٩٥١ - ١٩٦٥) في إنشاء بعض المدارس الحديثة ، ولعل أهمها بالتعليم يرجع إلى كونه أدبيا وشاعرا . ومنذ أن ظهر التنافس بين مشروعات التنمية البريطانية و نشاط الجامعة العربية في هذه المنطقة ، مال الشيخ صقر إلى التطوير عن طريق الجامعة العربية ، مما حدا بالسلطات البريطانية إلى تشجيع انقلاب داخل الأسرة ، وقيل إن مجلسها اختار ابن عمه الشيخ خالد للإمارة (يونيو سنة ١٩٦٥) ومنذ ذلك الوقت حاول الشيخ صقر أن يؤكد على أنه كان ضحية لتعلقه بحركة القومية العربية ، بل يقال إنه فكر في رفع شكوى إلى الأمم المتحدة ، غير أن المنظمة الدولية لم تلتفت إلى اللوائح الثانوية .

وليس لبقية الشيخات تاريخ خاص يحدو تسجيله ، فكل من المجان والفجيرة وأم القيوين ، عبارة عن شريط ساحلى لا يزيد طوله عن عشرة أميال . وتتميز رأس الخيمة بأضيقها التاريخي المشهور ، فقد ثابت في أوائل القرن التاسع عشر القر الرئيسى لاتحاد القواسم . كما أنها عتد في الداخل حيث تقوم بعض الواحات وتجوى فيها التجارب على زراعة النخلة .

ورغم حالة هذه الشيخات فقد كانت تفصل بينها حواجز جوية . وأخذ بعضها يصعد في الخمسينات جوازات سفر مما يعنى الشروع في إكساب جنسية غامضة . ولم يكن من الممكن تحول هذه الشيخات إلى دول قائمة بذاتها . وللاسف أن البادية نحو فكرة الاتحاد من بريطانيا .

في ساحل عمان . ولم تعد هناك شبهة في أن يكون هذا الاتحاد أداة لخدمة مصالح استعمارية .

أخذت كل من دبي وأبو ظبي زمام المبادرة لإعلان اتحاد فيدرالي فيما بينهما في ١٩ فبراير سنة ١٩٦٨ ، ووجهتا في نفس اليوم دعوة إلى بقية الإمارات الانضمام إلى هذا الاتحاد . فامتد اجتمع في دبي يضم حكاه الإمارات التسع ، وأعلن في ٢٧ فبراير عن قبوله لبدأ تشكيل اتحاد ، بيد أنه لم يتم الاتفاق في هذا الاجتماع إلا على الخطوات التمهيدية واتضح فيما بعد أن البحوث كلها انتقلت إلى الرحلة التنفيذية تفتت ولافت معارضة من عدة أطراف . لذلك كان الخروج دائماً هو الاكتفاء بتنظيم الرحلة الانتقالية .

وقد اتفق في اجتماع دبي ^(١) المنعقد في ٢٧ فبراير سنة ١٩٦٨ على الأسس التالية : تشكيل مجلس أعلى من الحكام تكون رئاسته بالتناوب ، وذلك في موعد أقصاه ٣٠ أغسطس سنة ١٩٦٨ ويكون هذا المجلس هو السلطة العليا في الدولة الاتحادية ، على أن تتخذ الخطوات التأسيسية فيما بعد . ولم يقض لهذا المجلس الأعلى الاتحادي أن يتشكل بالنسبة للإمارات التسع ، وإنما اقتضت ثلاث سنوات في مباحثات حول شكل الاتحاد واختصاصات الحكومة الاتحادية والحكومات المحلية وكيفية تكوين المجالس النيابية .

ولما كان قد تعدد الاتفاق على هذه الأمور وغيرها من التفاصيل المختلفة ، فقد تشكل الاتحاد من إمارات ساحل عمان وحدها .

بعد قطر في هذه الرحلة الأولى من مباحثات إنشاء الاتحاد وكما تأخذ زمام المبادرة في شتى الموضوعات ، فتقدمت بمذكرة تدعو إلى اتخاذ الخطوات التأسيسية مباشرة ، وانتخاب رئيس الاتحاد وتعيين العاصمة ، وتشكيل مجلس

(١) انظر مقالاً لهؤلاء في مجلة السياسة الدولية عدد أكتوبر سنة ١٩٧١ تحت عنوان

مباحثات الاتحاد

عبر بعض التقنيين من أبناء الخليج عن ضرورة قيام اتحاد بين الإمارات في الثلاثينيات . غير أن الخطوة الإيجابية تمت عن طريق المستشارين البريطانيين الذين نصحوا في سنة ١٩٥٢ بإنشاء مجلس استشاري للحكام السبعة يجتمع مرتين في السنة للنظر في الأمور المشتركة . وأهم النتائج التي تمخضت عن هذا المجلس هو إنشاء قوة شرطة مختاطة عرفت بالحرس العماني Omani Levies ، وكان للبحر كلاً من مان من مؤسسي هذا الحرس . وكان الهدف الرئيسي من إنشائه هو حماية أعمال التنقيب عن النفط ، كما استخدم في منازعات الحدود مع السعودية . لذلك نظرت كل من مصر والسعودية إلى مشروع اتحاد ساحل عمان على أنه خطة استثمارية ، وانتقدته الدولتان على غرار ما فعلتا إزاء الاتحاد الذي أفضته بريطانيا في الجنوب العربي .

على أن الحكومة البريطانية لم تتحمس لتطويع اتحاد ساحل عمان ، بخلاف اتحاد الجنوب حيث وجد مركز قيادي في مستعمرة عدن . وعند اكتشاف النفط أصبحت الحاجة ملحة إلى إدخال قطاعات إدارية ومشروعات طرق وهو ما يتأتى في ظل أوضاع التفكك القائمة . يتضح ذلك مثلاً عند تقرير اتحاد عمارة موحدة لساحل عمان بعد أن كثرت التداول ، وصار هناك تضارب بين المملكات المعترف بها (الروبية الهندية ودينار البحرين ، بجانب الجنيه الاسترليني) ولما وضعت بريطانيا خطة لإنشاء مكتب مختص بالشئون الاقتصادية ، وتوحيد البريد ، ولم تكن هذه الإجراءات قد تجاوزت المجال الاقتصادي في حدود ضيقة ، جها قررت بريطانيا الانسحاب ، فأصبح الاتحاد ضرورة سياسية لاستمرار الاستقرار

(١) انظر مؤلفه عن أبوطي الخياط بأية سابقاً .

والواقع أنه حدث ليس في هذا الاجتماع ، فإن الموافقة على إصدار دستور ملزم للاتحاد يعني أن الدولة المقترحة ستكون فيدرالية . ولاظن أن الحكام كأوامستمدن للالتزام أمام دستور موحد ، وإعسا تصورا اتحاداً من نوع الاتحادات التعاونية التي تربط الأعضاء بميثاق ، لا بدستور . وكانت كلمة ميثاق هي المستخدمة بيان الاجتماع الأول الذي انعقد في دبي خلال شهر فبراير السابق .

أخذت إمارة أبوظبي تشارك فطرا في تصدر الحركة الاتحادية منذ اجتماع الحكام الثاني ، فقد انمقد الاجتماع في أراضيها ، واختير الشيخ زايد أول رئيس للمجلس الأعلى بصفته المؤقتة ، بينما كلف الشيخ حمد آل ثاني ولي عهد قطر برئاسة المجلس الاتحادي التنفيذي المؤقت . وقد شرع في سن بعض الإجراءات التي تتعلق بالتد والبريد والوسائل ، ولم يحل الأمر حتى بالنسبة لهذه الإجراءات التمهيلية من الاسطلام بأعراضات الامارات التنويع . فعلا اعترفت دبي على أن تشرف هيئة اتحادية على اللوائ ، إذ يقتصر عمل هذه الهيئة على الوسائل التي تربط بين الإمارات . وربما كان دافع دبي هو رغبتها في الاستقلال بإدارة ميثاقها الكبير الذي يمر عليها دخلا لا بأس به .

كذلك صادف المجلس الاتحادي المؤقت مشكلات دستورية ، لأن الطبرج الكلف بوضع الدستور لم يتمكن من التوفيق بين وجهات النظر ، بسبب تقلب الزعة الذاتية ، فندما اقترحت بها المجلس المؤقت ، وغدا من الضرورى بإحلال مجلس وزراء اتحادي محله ، اشترطت بعض الامارات ومنها البحرين أن يكون الورداء الاتحاديون مقترعين . وتجدد الجدل حول كينية تكوين المجلس الاستشاري الذي يمثل الأهالي . وعمل تراعى فيه نسبة السكان ، أم يتم تمثيل الامارات بالتساوى ؟ ورفض اقترح لأوطي على أساس الحل الوسط ، فتمثل البحرين بسنة أعضاء ، وتمثل بقية الإمارات بأربعة لكل منها .

وكانت الإمارات الصغيرة هي الأشد تمسكا بجداً بالتساوى ، والحق أنه كان

وزراء اتحادى ، بينما آثرت معظم الإمارات الأخرى التهميل . وطرحت مذكرة فطر في لجنة تحضيرية اجتمعت في أبوظبي في مايو سنة ١٩٦٨ وتكشفت في هذا الاجتماع الخلافات العديدة التي تباعد بين وجهات النظر ، ووزعت مرسلاً مندوبان ضد فكرة الاتحاد . لذا بادرت حكومة قطر إلى إرسال مبعوث إلى السعودية ، التي تربطها بها وشائج خاصة متينة ، لتطرح أمام حكومة الرياض الأساليب التي تمزق قيم الاتحاد . وإذا برز يرى خارجية السعودية والكوكوت بكتلان جهودهم ويتوسطان في حل بعض تلك الخلافات حتى تمهد السبيل لمقعد حلقة ، حضروا حكام الإمارات التسع في ٦ ، ٧ يوليو سنة ١٩٦٨ ، وقد أسفر هذا الاجتماع عن نتائج لا بأس بها ، غير أن مداها يقتصر على الرحلة الانتقالية ، إذ أن أسباب الخلاف الرئيسية لم تسمو حتى يمكن الاتفاق على الوضع الدائم للاتحاد .

وفي هذا الاجتماع اتفق على صياغة دستور اتحادي في خلال ستة أشهر ، واختير الدكتور عبد الرزاق السهوى لصياغة هذا الدستور ، على أن يستين بمن يشاء من الخبراء ، كما اتفق على أن يقبول اجتماع الأمراء إلى مجلس أعلى ينتخب في كل دورة رئيسه بالتناوب ، وحددت اختصاصات هذا المجلس خلال الفترة الانتقالية بحيث تقتصر على الدعوة للاجتماعات عند طلب أحد الأعضاء ، وإدارة المناقشات وغير ذلك من الأمور الإجرائية الحقة .

كذلك استقر الرأي على أن تعقد دورات المجلس الأعلى في عاصمة إحدى الإمارات ، مع التنويع بقدر الإمكان ، وربما يتم تعيين مقر دائم . والجهاز الاتحادي الوحيد الذي انتفق عن هذا الاجتماع : هو المجلس الاتحادي المؤقت الذي تمثل به الإمارات بالتساوى ، بواقع عضو لكل إمارة . وتصلو قراراته بأغلبية الثلثين ، وكل النزوع إلى قاعدة الإجماع شديداً ، وخاصة من جانب الامارات الصغيرة التي هم أشد تمسكا بكيانها . ولذلك لم توافق هذه الامارات على مبدأ مسدود قرارات المجلس المؤقت بالأغلبية ، إلا بعد عرضها على المجلس الدائم الذي سيتشكل فيما بعد حسب ما يقرره الدستور .

في المناطق المتنازع عليها . ولم يحل ذلك الموقف دون اتخاذ أبوظبي مقراً للاجتماع الثالث لمجلس الحكم (١٤٠١ مايو سنة ١٩٦٩) وكان موعد نهاية المجلس الذي ينتهي ، ولابد من تشكيل الوزارة الاتحادية ، ولكن اخلاف حول توزيع الناس ، فشككت لجنة لدراسة هذا الموضوع ، ولجنة ثمانية لدراسة الدستور الذي قدم حينذاك الدكتور السعدي ، ولجنة ثالثة تتفرع على بحث نتائج تقارير الخبراء العسكريين البريطانيين حول تنظيم الدفاع عن المنطقة . وكما يقال إذا - أردت أن تدفن مشروعا فخره على جان . ولذا اعتبر الرافقون السياسيون أن هذه الدورة انتهت بالفشل الذريع .

وكان الحكم شعروا بسوء تأثير ذلك على الكويت والسعودية اللتين تنحصران للاتحاد ، ولذلك سارع ممثلو كل من البحرين وقطر وأبو ظبي بالسفر إلى الرياض والكويت ، حيث شرح كل وفد أسباب الفشل من وجهة نظره ، كما أعقب هذا المؤتمر زيارات قام بها حكاهم دني وأبو ظبي وقطر إلى لندن ، وكانهم يريدون العفوف على موقف بريطانيا من إماراتهم في حالة فشل الاتحاد .

على أن هناك نتيجة إيجابية وحيدة ترتبت على الدورة الثالثة ، وهي تشكيل لجنة من القضاة العرب بوضع دستور مؤقت خلال شهرين حيث تعذر الاتفاق على دستور دائم ، على أن يوضع هذا الدستور بعد ذلك على خبير للمراجعة ، ويقدم خلال شهر ثالث للدورة الرابعة للحكم . وقد وقع الاختيار على الدكتور وحيد رافق^(١) المستشار لحكومة الكويت بمراجعة الدستور المؤقت . وقد ذكر في البحث الذي نشره عن هذا الموضوع في مجلة القانون الدولي المصرية كيف أنه لم يثنأ أن يقصر دوره على المراجعة ، بل رأى - خدمة لتحقيق الاتحاد - أن يسد جميع الثغرات في الدستور المؤقت ، بحيث صار نصاً متكاملًا ، وأنه حاول بقدر استطاع أن يحدد من شمول قاعدة الاجماع التي تعرفل سير النظم الاتحادية .

(١) أنظر بحثه القيم عن دستور الاتحاد في المجلد الخامس من قانون الدولي عدد ١٩٧١ .

أمام البحرين كثير من مبررات الشكوى ، فسكانها - كما ذكرنا - يزيدون على سكان الإمارات مجتمعة . وفيهم أكبر عدد من المعلمين ، ومع ذلك لا تنزل الإمارات الأخرى تمييز البحرين بزيادة بسيطة في التمثيل . كما لوحظ نجح أن تكون النامة أو غيرها من مدن البحرين مقراً لإحدى الاجتماعات الرئيسية أو الفرعية . ولم يحل البحارنة صراحتا رئيسية في الأجهزة الاتحادية .

ومما يدل على تقلب النزعة الذاتية تمسك الإمارات باختيار منطقة عبادية لإنشاء العاصمة الاتحادية ، واقتراح إنشاء مدينة خضيعاً لهذا الغرض في المنطقة الحامدة الواقعة بين دني وأبو ظبي بعيدة عن الساحل ، واعتبرت البحرين على هذا النصف الذي يكلف ميزانية الاتحاد نفقات باهظة دون مبرر (حوال ٥٠ مليون دينار) .

وربما استطاعت الإمارات الأخرى أن تدبر موقفها إزاء البحرين بالرغبة في تجنب الاستطادام بإيران التي شنت حملة عنيفة على فكرة الاتحاد بسبب إبطال البحرين ضمن أعضائه ، إلا أن موقف الإمارات لم يتقبل حتى بعد أن راجعت إيران في دعواها ملكية البحرين . ولعل فكرة إنشاء اتحاد إمارات ساحل عمان فقط كانت تراود حاكم أبو ظبي منذ أن تكشفت تلك المشكلات الثورية .

ففي ١٠ أكتوبر سنة ١٩٦٨ صرح الشيخ زايد بن سلطان في لندن بأنه إذا لم يتم اتفاق بين الإمارات التسع فمن الممكن إقامة اتحاد من الإمارات السبع أو حتى من بعض تلك الإمارات . كما لوحظ أن أبو ظبي أخذت تفتي نواتها الحلية بما يتجاوز حاجات الإمارة . فأصبحت تمتلك جيشاً برياً من خمسة آلاف رجل ، بالإضافة إلى قوة من الطيران . وقد كان موضوع استخدام القوات العسكرية من بين الخلافات العديدة التي اعترضت سبيل الاتحاد . وكما جرى بالنسبة لحل السائل الخلافة ، اتفق على حل وسط ، وهو إبقاء وجود فوتين ، إحداهما عليه والأخرى اتحادية . ومع هذا اشترطت إمارات أبو ظبي عدم مزاولة القوات الاتحادية

لذلك اتى الدستور المقترح معارضة من عدة جهات ، فثلا لم يوافق البرلمان الفقيرة على حرية تنقل رؤوس الأموال والمثلك داخل أعضاء الاتحاد ، لأن ذلك يقيح للإمارات المنتجة للنفط السيطرة التامة على اقتصاد الإمارات الفقيرة .

وقد انعقدت الدورة الرابعة في أبوظبي (٢٥ أكتوبر سنة ١٩٦٩) ودارس الشيخ زايد بن سلطان الدورة باعتباره حاكم الإمارة الضيفة ، ولم يلبث أن انضم رئيساً لمجلس الاتحاد لمدة سنتين ، فشرع في تشكيل الوزارة الاتحادية وحيداً طالب سقر من حميد القاسمي شيخ رأس الخيمة بوزارة الدفاع أو الداخلية . وبعد جدل عنيف خصصت للإمارة وزارة الأشغال والزراعة .

ومنما لشعب الخلافات حول الناصب الوزارية ، رؤى تشكيل لجنة ثلاثية تمثل قطر وأبوظبي ودبي لاختيار الوزراء ، على أن ترشح كل إمارة ثلاثة من مواطنيها ، ويختار اللجنة الثلاثية الوزراء من بين هؤلاء المرشحين . وتم الاتفاق على تعيين خليفة بن حمدان آل ثاني ، ولي عهد قطر ، رئيساً لأول وزارة اتحادية . وفي هذه الدورة تنازلات البحر من عن رأيها في ضرورة مراعاة عدد السكان عند تكوين المجلس الاستشاري خلال الفترة الانتقالية ، ووافقت على أن يتكون المجلس من ٣٦ عضواً بواقع أربعة لكل إمارة ، كما لم تتر مطالب واسعة في الناصب الوزارية ، كل ذلك في سبيل إنجاح مشروع الاتحاد ، مع ملاحظة أن النفط الإبراني كان قد أخذ يخف في هذه الحقبة .

ويبدو أن بعض المسؤولين في تلك الدورة أحسوا أن الاتحاد يوشك أن يكون أمراً واقعاً ، لذلك تلقوا أول فرصة للفكك منه ، وقد أتيحت هذه الفرصة عندما دخل الوكيل السياسي البريطاني على الحكام أثناء اجتماعهم ، وألقى كل حشهم فيها على تأسيس الاتحاد حتى يتوفر الاستقرار عندما يتم اسحاب بريطانيا في نهاية سنة ١٩٧١ .

خلف غادر حاكم رأس الخيمة الاجتماع توا ، ورفض توقيع أي بيان يشارك

كما خرج حاكم قطر وغادر البلاد بعد قليل ، بينما أكد الشيخ زايد بن سلطان الأعضاء أن بريطانيا ما تزال مسؤولة رسمياً عن الإمارات ، وأن الوكيل السياسي لم يتعمم الاجتماع ، بل دخل بتصريح منه ، غير أن ذلك لم ينعكس خصوم الاتحاد ، فاستد حاكم رأس الخيمة بياناً ندد فيه بموقف بريطانيا الذي كان يتسبب في ضربة لهيبة الحكم . وسيتبين فيما بعد كيف أن هذا الحاكم ظل متورداً في الالتصاق بالاتحاد بعد قيامه بمدة أشهر .

ورغم هذه النهاية المؤسفة ، صدر بيان يعلن عن استئناف دورة اجتماع الحكام خلال أسبوعين ، والمقصود بذلك هو تعطية الفشل الذي منى به الاجتماع ، لأن الخلافات كانت قائمة حول مختلف المسائل منذ بدء الدورة ، لذلك عندما وجه الشيخ زايد الدعوة في الوعد المحدد لم يتلاقى رؤا إلا من خمس إمارات ، ولم يقدم لمجلس الحكم التسمية أن ينعقد بعد ذلك . وكما تحقق في هذا المجال هو اجتماع لواب الحكم في يونيو سنة ١٩٧٠ للدراسة ميزانية الاتحاد ، وحتى هذا الموضوع لم يحظ بتقارب وجهات النظر ، وبات واضحاً منذ بداية عام ١٩٧٠ أن كلا من قطر والبحرين يتجه نحو إعلان استقلاله كدولة قائمة بذاتها ، غير أن أحدا لم يجزؤ بعد على التصريح بترك الاتحاد .

توقفت البحوث نهائياً في أكتوبر سنة ١٩٧٠ فجددت كل من الكويت والسعودية وساطتها للتنبؤ على العقبات الرئيسية ، مثل مسألة الإجماع على القرارات فافتحت أنه في حالة اعتراض أحد الأعضاء في مجلس الحكم الأعلى ، يعاد النظر في القرار بعد شهر ، وفي تلك الحالة تسكن موافقة سبعة من الأعضاء التسمية لصدور القرار . وبمخصوص الماسمة اقترح تأجيل تعيينها إلى ما بعد إنشاء الاتحاد . كذلك أجل موضوع كيفية التمثيل في المجالس الاتحادية إلى أن يجري إحصاء دقيق للسكان ، وحتى يتم ذلك يؤخذ مبدأ التمثيل بالتساوي بين الإمارات واشتمل الاقتراح على التمييز بين قوات محلية للأمن واتحادية للدفاع . ويتضح من ذلك كله أن الوساطة انصبت على تأجيل المشكلات دون حلها .

الاتحاد وقد بلغه بالوقوف أمام إيران التي تنوى الاستيلاء على الجزيرتين . وقيل أن السبب في ذلك يرجع إلى المنازعات الأسرية بين حاكم رأس الخيمة ، والشيخ خالد القاسمي حاكم الشارقة . وقد دلت الأحداث فيما بعد على وجود هذا النزاع ، إذ قدم حاكم رأس الخيمة التسهيلات لمسقرين سلطان القاسمي ، كي يدخل إلى الشارقة في ١٤ يناير سنة ١٩٧٢ محاولا الاستيلاء على السلطة فيها .

أما الشيخ زايد فقد صرح في مؤتمر صحفي في ٢٦ يوليو (١٩٧١) سنة ١٩٧١ بأن امتناع رأس الخيمة يرجع إلى الاختلاف حول النظام الاتحادي ، فهي تريد أن تمتنع بحق التنقيح في المجلس الأعلى ، وتطبق مبدأ المساواة في المجلس الاستشاري .

وهيّا تكن الأسباب ، فقد قرر حاكم رأس الخيمة الاتحاق بالاتحاد بعد إعلان قيام دولة الإمارات المتحدة كدولة مستقلة في ٢ - ١٢ - ١٩٧١ . ولا شك أنه وجد نفسه بعد اختفاء بريطانيا عاجزاً عن مواجهة مسئوليات الدولة . وفي ختام هذا الفصل يجدر بنا أن نقسم : هل أئني قيام الاتحاد الزعزعات الدائمة لدى الأعضاء ؟

هناك منطقة أخرى في شبه جزيرة العرب تشابه في تركيبها الاجتماعي والتل مع ساحل عمان ، وهذه هي منطقة الجنوب الناحية لمدن ، وقد مرت بجزيرة النظام الاتحادي في ظل الامارات ، ولكن لم يفيض له البقاء بعد الاستقلال . وفرضت حكومة اليمن الجنوبية الديمقراطية نظاماً موحداً لا يشترط بالكيانات السابقة . وأئن فإن النزعة القومية القوية في نظام الإمارة نفسه ، والشكل الاتحادي الذي اتفق عليه بين الإمارات السبع مازال في المرحلة المؤقتة ، وهو لم بلغ الكيانات السياسية ، ولا اقتصادياً ، وقوة النفط في دبي وأبو ظبي نحو دخلا خاصاً لكل إمارة ، وهي التي تخصص ما تشاء منها لتنفقات الاتحاد . ولعل النتيجة الإيجابية التي تحست من هذا الاتحاد هي وجود قوات مسلحة

(1) Daily Telegraph, 26 - 1971

وفي نفس الوقت أدلت بريطانيا بدلوها في محاولات التوفيق ، وكان منطها ولیم لوز يتردد على الخليج طوال عام ١٩٧١ بأدلا كل جهده لإقامة دولة اتحادية حتى لا تقع المنطقة للاضطراب بسبب تفككها الشديد . ومن بين الفترات البريطانية أن تمتنع الإمارات الأربع الكبيرة نسبياً بحق الفيتو ، أي أن إجماعا وحدها يكون ضروريا لصدور القرارات . فأصرت الإمارات الصغيرة على مبدأ المساواة . وهكذا نجد عدة أطراف تعمل على عرقلة قيام الاتحاد القاسي . فالإمارات الصغيرة تفضل اتحاداً محدوداً ، لا تضيع فيه شخصيتها . وإمارة قطر فقدت الأمل في زعامة الاتحاد ، فلا هي ذات ثروة أو مساحة تفارع أبوظبي ، ولا هي توازي البحرين في عدد سكانها ووقهم . وصارت إمارة أبوظبي ، تفضل الاتحاد السباعي ، حيث زعامتها له مؤكدة ، وإذا لم تكن هذه الزعامة منفردة ، فلا بأس من أن تدخل دبي كضربك ثان .

وكان الشيخ زايد قد أخذ بطور قواته المسلحة بشكل يتجاوز حجم الإمارة فصارت تقم خمسة آلاف رجل ، علاوة على ثلثة من القوات الجوية . ولا شك أن هذا الاهتمام بالقوات المسلحة إنما كان تمهيداً لتزعم الاتحاد .

وبالفعل قام الشيخ زايد بإعلان الاتفاق على الاتحاد بين ست إمارات في ساحل عمان في ١٨ يوليو سنة ١٩٧١ ، وحسب النظام الملن للاتحاد ، تمتع كل من أبوظبي ودبي بمرکز ممتاز فيه ، فشرط موافقهما على أي قرار يصدره المجلس الأعلى ، ولكل منهما ثمانية مقاعد في المجلس الاستشاري . وقد تقرر إنشاء هذا المجلس خلال المرحلة المؤقتة ومدتها خمس سنوات ، يقر بعدها شكل النظام النهائي . وفي خلال هذه المرحلة المؤقتة تختار كل إمارة ممثلين بالطريقة التي تروقها . ولقد تمتع سنة مقاعد للإمارتين للتوسطتين : الشارقة ورأس الخيمة . وأربعة للإمارات الصغرى : العجمان ، والنجيرة وأم القيوين .

أثار امتناع رأس الخيمة عن الاتحاد عند إعلانه عدة تساؤلات ، فقبل أنها ضلت ذلك لتفككها بجزيرة طوب السفلى والعليا ، وهي لا تريد إبراج

مشتركة ، الهدف الرئيسى منها هو المحافظة على الأنظمة القائمة ، فبينما وُفدت هذه القوات مشتركة على استيلاء إيران على الجزر الثلاث التى كانت تابعة للاتحاد ، نجدها تتحرك بسرعة لقمع محاولة الشيخ صقر بن سلطان الاستيلاء على السلطنة فى الشارقة ، وقد نبضت فى مهمتها . على أن التناوش فى ظل جيش واحد ، قد يكون من جهة أخرى أداة لتعطيم الروح القبلية بين أفراد القوات المسلحة . وبهذا يتحول الجيش إلى أداة فعالة من أدوات الاتحاد الحقيقى .

الفصل السادس عشر

مسقط وعمان

إنما كانت دولة عمان قد أخذت تتمتع بالاستقرار بعد الاستقلال فقد شهد هذا القطر مراعاة شبه مستديم بين قسمه الساحلى والمنطقة الداخلية ، فبينما خضع القسم الأول لحكامه من أسرة البوسعيد ، اعتادت القبائل فى الداخل أن تكون أحلافاً قوية تتيح لها الاستقلال عن تبعية البوسعيد ، مثل حلف المناوية والنفارية ، كما أن قبائل إقليم الظاهرة التجأت أحياناً إلى حكم بعيدين عنها مثل آل سعود فأعلنت ولائهم لعمد أن تفلت من التبعية لأية سلطة منظمة . ويرجع هذا الخلاف بين المنطقة الداخلية والساحلية إلى أسباب اقتصادية أيضاً . فسكان الساحل الذين أروا من أعمال التجارة والنقل البحرى وجدوا من مصلحتهم أن يستقر النظام وينتشر الأمن فى ظل حكومة مسقط ، بينما تعطلت القبائل فى الداخل ، والتى عاشت منفردة عن العالم الخارجى بأسباب دينية . فاحتجيت بأن سلاطين مسقط قد خرجوا عن أسول الإسلام وتحالوا مع الكفار ، وتوارثوا الحكم ، بينما أن الذهب الإياضى يقتضى عدم توارث الإمامة . وهكذا وجدت القبائل فى نظام الإمامة متاراً لتبرير نزعتها الذاتية . ونظراً لوجود هذا الانفصال شبه الدائم بين الداخل والساحل ، اخترنا هذه التسمية فى عنوان الفصل .

إرسال إمدادات عسكرية لسلطان مسقط وزادت المودة المحصنة له . ولم يلبث
بمضي أن تركي أن قضى نحبهم في هذه الظروف المعسفة ، فتألمت بريطانيا تأييدها
الذي والنمى لخانه قيصور بن فيصل .

ولم يجل ذلك دون تقضى النزعة الاستقلالية بين قبائل الداخل . فلما وقعت
الحرب الأولى واشتعلت بريطانيا في مختلف الهياكل رأت أن من الأفضل التوفيق
بين سلطان مسقط والثاقين عليه .

وبرر الوكيل السياسي في مسقط هذه الخطوة القترحة بأن دعوة الإمامة إلى
الجهاد قد تؤثر على مركز بريطانيا السياسي في مباحثها مع الشريف حسين ، أو
على مسلمي الهند ، كما أنه يمكن لبريطانيا عند الضرورة أن تدافع عن السلطان
بنوها البحرية دون الحاجة إلى مرابطة قوات برية تزداد تورطاً في الداخل إذا
اتسع النزاع مع الثاقين .

ولاشك أن ظروف الحرب قد ساعدت الإمامة على أن تحتل مركزاً يتجاوز
قوة الفعل . فالألمان يبحثون عن أى عنصر معاد لبريطانيا في العالم الإسلامي ،
وقبل أن تسقط المستعمرة الألمانية في شرق أفريقيا سنة ١٩١٥ اتصل عملاء الألمان
بالأمم الخرومي ووعدهم بالمساعدة ولم تلبث هذه الاتصالات أن توقفت بعد سقوط
نظامنا في يد الإنجليز .

لم ينقطع نشاط الثاقين بعد انتهاء الحرب ، بل على العكس بلغ قودهم لدرجة
أن بريطانيا نصحت سلطان مسقط بنوع من الاعتراف بوجود الإمامة ، فكان
هنا موضوع اتفاقية السيف . وقد أثمرت هذه الاتفاقية أثناء تجديد الإمامة في
الجنبت جدلاً حول مدى صحتها ومضمونها . فنفي الإنجليز أدبائهم بهذه
الطبعة أصلاً ، وقالوا إنها إن كانت قد عقدت بين سلطان مسقط والإمامة فإنها
كانت تخفى بالمشنن التجارية الخاصة وتنظيم حركة النقل بين الداخل والساحل .
لما نصرت الإمامة فدكروا أنها معاهدة سياسية تخفى الاعتراف من جانب مسقط
(٢٠٠ - عبارات)

انبعاث الإمامة وسقوطها

اعتبر الملقون العرب في وقت ما أن حركة الإمامة في عمان صورة من صور
الحركة القومية العربية المعادية للاستعمار البريطاني . وربما كان ذلك صحيحاً
بمقتضى عصر ما قبل الحرب العالمية الأولى ، أى أيام انبعاث الإمامة سنة ١١١٣ ،
ولكن كان من الخطأ استمرار هذه النظرة في الخمسينات ، لأن الإمامة لم تند
نظاماً مثالياً بلام العصر .

ولقد تعرض البوسعيد لكثير من الانتقادات بسبب توثيق سلاطهم الإنجليز
واستسلامهم للإجراءات التي اقترحتها هؤلاء عليهم مثل تحريم تجارة الرقيق
وحظر تجارة الأسلحة ، ومنع بريطانيا حق الرقابة لتنفيذ هذه الإجراءات .

وقد حاول السيد فيصل بن تركي حاكم مسقط من البوسعيد في نهاية عهده أن
يزيل بعض أسباب النقد ، فقرب إليه زعماء الأباينية ، وحاول أن يظهر منهم بلقي
الإمامة ، ولكن الزعماء الذين اختلفوا معه حول بعض الأمور ، منها تحريم
استيراد الخمر والدخان ، وتحويل الميراث بحرية في البلاد .

وقد تمكن الزعماء الدينيون مثل عبد الله السالى من التوفيق بين قادة القبائل
الكبيرة وعلى رأسهم عيسى بن صالح الحارثي زعيم المناوية ، وعبد الله بن حمير
زعيم التفارية ، وفضل هذا التجمع أمكن انتخاب سالم بن راشد الخرومي ملكاً
لعمان ، على أن ذلك لا يعنى أن دولة مناقسة قد تشكلت في الداخل . فقد استمر
زعماء القبائل الأقوياء أشبه بملطاء للإمام منهم أتباع . ومع ذلك فإن الخلاف هنا
التجمع الكبير حول زعامة روجية قد أزعج السلطات البريطانية بشكل عتف
عن انتقادات القبائل المعادية التي كانت تحدث من حين إلى آخر ، لذلك قورن

لم توافق غالبية الأعضاء في الجامعة العربية على طلب إمامة عمان الانضمام إليها، ويرجع ذلك إلى أن الإمامة لم تستوف شروط الدولة الحديثة. وكذا ذكرنا من قبل أن طبيعة العلاقة بين الزعماء القبليين وبين الإمام - وبوقا عيسى بن صالح المازني زعيم المعادية فقد الإمام قوته على تلك القبائل، كما أن سليمان بن هود الذي عرف أيضاً بزعم الجبل الأخضر والتفارية سار يسار لحسابه الخاص. على أن أنصار الإمامة ذكروا في سنة ١٩٦٤ أمام لجنة التحقيق^(١) التابعة للأمم المتحدة أن سبب رفض الجامعة العربية إغايرجع إلى أن بعض الحكومات أدعت أن تجامل بريطانيا.

تجمع غالب بن علي بعد اختياره سنة ١٩٥٤ بتأييد مصر والسعودية، ولما أن كلاهما أيد له سبب مختلف. فالسعودية رأته فيه ملكاً للمنطقة على سلطان مستقل التي يتلونها في بعض الحالات الورثي، ومصر اعترفت بالإمام حصراً على أساساً لهذه البريطانية في الخليج. وقد طلق أحد الكتاب البريطانيين تلياً غامقاً على هذا الوضع حين قال: لقد تمازجت الشيوعية مع ذهب السعودية للامرة الإمامة.

وبالارتقاء مع بريطانيا أعلن سلطان مستط الغاء اتفاقية السبب، ولم يتصرف بالإمام الجديد، وحاول أن يأخذ لنفسه البيعة من بعض زعماء الإباضية ولكنه لم يوفق، فقرر أن يستخدم القوة، مستعيناً أولاً بشركة نفط عمان وقطار، ثم بتأييد من الحكومة البريطانية. وفي أعقاب احتلال واحات البوريمي في أكتوبر سنة ١٩٥٥ قامت القوات البريطانية بالاشتراك مع القوات المحلية بالزحف إلى تزوي مقر الإمامة واحتلتها. ومنفذ حرص سعيد بن تيمور على أن يسمي الدولة بمسقط وعمان.

التجأ الإمام غالب لفترة من الوقت إلى السعودية، واستطاع بواسطة تأييدها

(١) انظر منشورات مكتب إمامة عمان في القاهرة.

والحكومة البريطانية بسيادة الإمام على الداخل. وقد تضمنت علاقة على ذلك حسب النص الذي نشرته تعهد الإمام محمد بن عبد الله الخليفي باحترام سلطنة^(٢) مسقط في الحدود التي رسمت لها.

كفلت اتفاقية السبب فترة من الهدوء طوال عهد الإمام الخليفي الطويل الذي استمر حتى عام ١٩٥٤، ولم يقطع ذلك الهدوء سوى حادث واحد وقع في سنة ١٩٣٧ وذلك بمناسبة منفع السلطان سعيد بن تيمور اختياراً لشركة بترول عمان وظفار، وهي شركة متفرعة عن شركة نفط العراق، وقد شمل الاتفاق سائر أراضي عمان الداخلية والساحلية علاوة على الجزر، لذلك احتج الإمام على هذا الامتياز الذي لم يؤخذ رأي فيه. غير أن توقف الشركة عن التقيب عند قيام الحرب ترك هذه القضية محتفى دون أن يحس بها أحد.

والثابت من الرسائل المصورة هو أن الخليفي لم يثر موضوع علاقة الإمامة بالسلطنة إلا في سنة ١٩٥٣ حينما بعث إلى روبرت هاي القيم العام في البحرين يسأل عما إذا كان من الممكن تجديد نصيب لعمان من مدفوعات شركة البترول صاحبة الامتياز في عمان نظير التقيب. وقد أجاب القيم العام حينذاك بالرفض، وقال إن اتفاقية السبب لا تتضمن تلك الحقوق، وأنه ليس مستعداً للنظر في هذا الموضوع.

من المؤكد أن هذا الحادث هو الذي أخرج الخليفي عن عزلته التي التزمها طوال الحقبة السابقة. ففي ٢٥ يناير سنة ١٩٥٤ طلب الانضمام إلى الجلسة العربية. ومنذ ذلك الوقت وأنصار الإمامة يتطسون الأدلة التي تثبت أن الإمامة كانت دولة بالفهم الحديث لهذه الكلمة. فقد كروا أن الخليفي أصدر جوازات سفر، وأن عيسى بن صالح المازني عمل كوزير لخارجية الإمامة، وبسبب من ذلك كله أن الصراع بين الإمامة والسلطنة لاح في الأفق قبل أن يتولى غالب ابن علي منصب الإمامة سنة ١٩٥٤.

(١) عمان والساحل الجنوبي للخليج الفارسي من ٨٢، ٨٣.

ومساندة معبر من جميع بعض الأنصار واسترداد نزوى ، غير أن بريطانيا باشرت إلى التدخل وانتزعت المدينة من الإمام . وقد حاولت الدول العربية أن تغير القضية على الصعيد الدولي ، في مجلس الأمن ، إلا أن معظم الدول لم تنفع بأن الإمام دولة اعتدى عليها ، بل اعتبرت التدخل البريطاني نتيجة لاستناد الحاكم الشرعي للبلاد ، وهو سلطان مسقط . ولم يحدث بعد ذلك فقال على نطاق واسع إلا في نهاية ١٩٥٨ وأوائل سنة ١٩٥٩ بمنطقة الجبل الأخضر ، مما جعل سعيد بن تيمور يطلب من الانجليز مساعدته لإقامة حاميات ثابتة في الداخل ، وبذا استطاع أن يسطر نفوذه على معظم أنحاء البلاد . ومنذ ذلك الوقت صار وجود الإمامة ملموساً في إذاعة « صوت العرب » دون أرض عمان .

حاول غالب بن علي تشكيل قوة وطنية في المنفى ، وأقام مكاتب تحت رعاية الجامعة العربية في القاهرة ودمشق وبغداد ، وشرع في إصدار جوازات سفر لهم باسمه عمان ، غير أنه لم يفلح في قيام حكومة منفى . ولم تكن الدول العربية مسندة لهذه الخطوة إلا إذا أميتت القيادة الجديدة وجوداً فعلياً في الداخل .

لم يخفف ذلك الوضع من إصرار الدول العربية على المطالبة بمنح تقرير في عمان . وفي الدورة التالية انتقلت المناقشات من اللجنة السياسية إلى الجمعية العامة ، واشتملت المذكرة العربية على توصيات واضحة تضمنت الأسس الآتية : تطبيق مبدأ حق تقرير المصير ، سحب القوات الأجنبية من عمان لضمان حرية الاستفتاء ، إجراء المفاوضات بين الفرقاء المشيئين بالطرق السلمية^(١) . وقد ظفرت هذه التوصيات بموافقة ٣٨ صوتاً ضد ٢٩ وامتناع ٢٩ عن التصويت ، أي أن القضية لم تحصل على الأغلبية اللازمة لإصدار التوصيات في الجمعية العامة ، وهي أغلبية الثلثين .

وقصد جاءت التوصية بإجراء المفاوضات بين الفرقاء المشيئين على أثر عزالة

(١) « مطر حبري » عمان ، « فضاءات » في الأمم المتحدة ، ص ٤٦٩ — ٤٧٠ .

وفت في بيروت للتفاوض بين السلطات البريطانية وممثل الإمامة عمان خلال عامي ١٩٦٠ ، ١٩٦١ ولم تسفر هذه المحاولات عن نتيجة ما . وحسب قول العمانيين كان مطالبهم في هذه المحادثات معتدلة إذ انحصرت فيما يلي :

لا بد أن تقوم العلاقات بين عمان وسلطان مسقط على أساس معاهدة السبب التي نصت على استقلال عمان الداخلية استقلالاً تاماً . تمكين الإمام من استعادة سلطانه الدينية والزمينية . حرية تنقل العمانيين الذين اضطرتهم ظروف الحرب إلى مناصرة البلاد لكي يتمكنوا من العودة إلى بلادهم . التمييز بين خيار التيارات الجوية حتى تتمكن عمان من استخدام هذا التمييز في إصلاح أحوالها الداخلية .

وبلغى كل من الفريقين نتيجة فعل تلك المحادثات القصيرة على الآخر ، فبذ كر البريطانيون أن مندوبي الإمام طالبوا بالاعتراف بعنان كدولة مستقلة ذات سيادة ، بينما ذكر العمانيون أن بريطانيا اشترطت منذ البداية سحب قضية عمان من الأمم المتحدة .

وتقدم موقف الإمامة خطوة جديدة في العودة السابعة عشرة لسنة ١٩٦٢ ، إلى سنة ١٩٦٣ ، إذ وافقت ٥١ دولة على طرح القضية ضد ٩ دول وامتناع ٣٦ عن التصويت . ومع أن هذا التصويت لا يوفر أغلبية الثلثين ، لكنه دل على إحالات طموح بالأغلبية المطلوبة في دورة تالية . وبالإضافة إلى ذلك فقد سمح لتسوية عمان بالشك في الحجة السياسية ، وهو ما لم يستطع تحقيقه في الدورة السابعة .

وعلى أثر انتهاء المناقشات في هذه الدورة ، جاءت رسالة من سلطان مسقط بأنه مقتنع بأن يتسح لأخذ مندوبي الأمم المتحدة بتقمي الحقائق في مسقط وعمان ، وأعلنت بريطانيا موافقتها على الاقتراح ، وهي التي قامت بتقديمه نيابة عن السلطان إلى الجمعية العامة وترك للأمين العام حرية التصرف في اختيار ذلك

أن البولش الذين يستخدمهم السلطان هم غير هؤلاء الهاجرين الدعائي الذين أتوا من بلوخستان واستقروا في إقليم الظاهرة واندمجوا في العرب منذ مدة طويلة .
والهم في الأمر أن هؤلاء الجنود يقودهم ضباط بريطانيون ، أما القوات الجوية التي شنت الغارات على عمان فكانت بريطانية صرفه . وقد رأى دى رينج بنفسه بعض آثار التخريب إلا أنه لاحظ عدم وجود قتال أثناء زيارته .

وبما أن تقويم دى رينج لم يعتبر كافياً لتبصير الجمعية العامة عن حقيقة الوضع في عمان ، فقد رأت أن تتبع أسلوباً جديداً لتقصي الحقائق . فكونت لجنة خماسية في ١١ ديسمبر سنة ١٩٦٣ واختار الأمين العام أعضاءها من ممثلي الأقطار الآتية : أفغانستان ، نيبال ، نيجيريا ، السنغال ، وكوستاريكا . وكان عليها أن تقضي الحقائق في إطار أعمال لجنة تصفية الاستعمار التابعة للأمم المتحدة . ومن المعروف أن بريطانيا عرفت نشاط مثل هذه اللجنة في عدن وعمياتها الأخرى بالجنوب العربي ، أثناء وجودها هناك وحرضت سلطان مسقط على منع اللجنة من دخول بلاده . ولذلك لم يكن يوسع اللجنة إلا أن تقوم بدراسات قانونية وتاريخية ، فعلا عن زيارة بعض الأقطار العربية وبريطانيا . ومع ذلك فإن التقرير الذي رفعه إلى المنظمة الدولية في يناير سنة ١٩٦٥ جاء واقفياً وأكثر موضوعية في نظره إلى الاتجاهات الوطنية .

ورى اللجنة (١) أن للإمامة قاعدة تاريخية متينة ، غير أنها لا تمتنع بتأييد إجمالي من الشعب العماني ، إذ توجد هيئات وطنية أخرى في الخارج تشكل عادة من الطلاب ، ومنها هيئة في القاهرة ، وأخرى في باكستان وثالثة في لندن ، ورابعة في الأقطار الشيوعية . كما أن أحد التدوين المائتين ذكر أنه يمثل ٦٠ ألفاً من عرب شرق إفريقيا . وتختلف هذه الهيئات في نزعاتها حسب البيئة التي تعيش فيها .

(١) انظر ملخص هذا التقرير في مقال ستور المؤلف بمجلة السياسة الدولية عدد يونيو سنة ١٩٦٥ .

الندوب . فوقع اختياره على دى رينج ، وهو دبلوماسي سويدي يعمل سفيراً لبلاده في مدريد . وكان عليه أن يحقق في الأسئلة التي أثيرت أثناء مناقشة القضية في الدورات السابقة . فهل هناك قتال مستمر في عمان ؟ وأين يوجد الثوار ؟ وهل يأتون عبر الحدود السعودية حسب شكوى سلطان مسقط ؟ وهل ثمة ثوار أجنبية في عمان ، وما مدى سيطرة سلطان مسقط على عمان الداخلية ؟ وما هو مركز الإمام غالب بن علي ، وسليمان بن حمير أمير الجبل الأخضر وحليف الإقليم في معارضة حكم سلطان مسقط ومقاومة الإنجليز ؟ كذلك كان على الندوب أن يتحقق من قانونية اتفاقية السبب التي تنصت منها بريطانيا وأعلن سلطان مسقط عدم تقيده بها . وأن يبين للأمم المتحدة طبيعة العلاقات بين السلطة والحكومة البريطانية ، إذ أن بريطانيا كانت تردد القول بأن سلطان مسقط حاكم مستقل ، وفي الوقت نفسه كانت تنوب عنه في الأمم المتحدة ، مما جعل كثيراً من الدول تتساءل : إذا كان مستقلاً ، فلماذا لا يطلب عضوية المنظمة الدولية ؟ وأخيراً طلب إلى الندوب أن يبحث مدى تقدم مشروعات التنمية في مسقط وعمان ، ثم عن الجهود المبذولة لمعالجة القضية عن طريق المفاوضات .

زار دى رينج بعض البلدان في مسقط وعمان ، كما طاف بعدة أقطار مغاربه ، واتصل بالشخصيات الرئيسية المعنية بالموضوع . ثم رفع تقريره إلى الجمعية العامة في الدورة التالية . ويلاحظ أنه كان سايباً بالنسبة لبعض الأسئلة العامة مثل موقف الشعب من السلطان أو الإمامة . وهل تميل الدالية إلى إحدى الجهتين ، أم أنه من الأفضل تقرير المسير على الإطلاق (١) .

ومع ذلك فقد كشف التقرير عن حقائق تدفن سلطان مسقط . نرى يعتمد على جنود مرتزقة معظمهم من الأجانب وخاصة من البلوش . ويلاحظنا

(١) انظر ملخص هذا التقرير في كتاب محمود علي الداود ، تاريخ عمان الحديث ، ص ٧٥ وما بعدها .

علاقات بريطانيا بسقط وتطورها حتى الاستقلال

ابتدت علاقة سلاطين مسقط مع بريطانيا على أساس المصالح التجارية ، ذلك ان السلاطين كانوا بحاجة إلى المساعدات البريطانية من عدة وجوه : الاختاء من الزبائن الاقتصادية في الداخل ، تأميم اللامحة التجارية ضد الجماعات العربية الأخرى المنافسة بالقرصة . المحافظة على استمرار التبادل التجاري مع الهند حيث يتورد الأرز ، وهو المادة الغذائية الرئيسية ، كما يصدر التمر ، وهو سلعة التصدير الوحيدة إلى المستعمرات البريطانية المختلفة . وكثيراً ما تدخلت بريطانيا لحماية سلاطين مسقط من حركات التوسع السعودية .

مكثنا اختلفت صياغة الماهدات التي ربطت مسقط ببريطانيا عن الماهدات القوية مع الإدارات الأخرى . فلم تتضمن معاهدة ١٨٩١ مبدأ الحماية كما أن ممثل بريطانيا كان يسمى بالتفصل وليس بالوكيل أو المتمد . ثم إنها عدلت فيما بعد وخفضت بعض القيود المفروضة على مسقط .

هنا من الناحية الشكلية . وأما من الناحية الواقعية ، فقد زابد النفوذ البريطاني منذ الحرب العالمية الأولى .

فانخفضت مسقط لجميع القيود التي مرت على الشيوخات كعدم منح امتيازات اقتصادية بدون استشارة بريطانيا ، كما أن التمييز القنصلي للدول الأجنبية في مسقط اخفى بعد انتقال قنصلية فرنسا في سنة ١٩١٤ . كذلك كثر المستشارون البريطانيون لدى حكومة السلطان تيمور بن فيصل (١٩١٣ — ١٩٣٢) وقد ساروا بتأية وزراء دون أن يجمعوا الاسم ، واشتهر من هؤلاء الرحالة برتراند توماس الذي أصبح المستشار الأول للسلطان بين عامي ١٩٢٥ ، ١٩٣٠ .

وفي رأى اللجنة أن القضية ليست قائمة فقط بين سلطان مسقط وبين بلاد عمان ، بل أنها جزء من المشكلات الاستعمارية ، وتعد بريطانيا مسئولة عن الأوضاع القائمة في ذلك الجزء من شبه جزيرة العرب ، ولذلك فهي أهلت بألم اللجنة أن تولي مزيداً من عنايتها لهذه القضية .

ومع انتشار الوعي بين العمانيين في الخارج أخذت الإمامة تنفذ بالدرج زعامها لحركة معارضة السلطان ، وازداد غالب بن علي اعتماداً على السعودية ونحو صلاته بمصر . وفي ذلك الوقت الذي قسمت فيه حرب اليمن ما بين العنبر المحافظة والتقدمية في شبه الجزيرة رأت السعودية ألا توسع الحوة مع سلطان مسقط . والواقع أن الإمام غالب نفسه لم تكن تتوفر لديه صفة اللبارة ونحو المشولية . وكان شقيقه طالب والزعيم القبلي (١) سليمان بن جبر عا اللذان بدعاه إلى الاستمرار في معارضة السلطان . وفي ظل تلك الظروف جرت عارلات في بيروت سنة ١٩٢٦ للتوفيق بين الإمامة والسلطنة . إلا أن المحاولة باءت بالفشل لأن سلطان مسقط تمسك بالاعتراف بسلطته كاملة في جميع أجزاء بلاده الداخلية . وخلاصة القول إن الصراع مع الامامة أدى إلى تثبيت سيطرة سلطان مسقط للمرة الأولى على المناطق الداخلية ، وذلك اعتماداً على المساعدات العسكرية البريطانية ، سواء أكانت تلك المساعدات مباشرة أم بتنظيم القوات المحلية وتدريبها ووضعها تحت قيادة ضباط بريطانيين .

ومن جهة أخرى ما كاد نفوذ الإمامة يخف حتى ظهر طراز جديد من المعارضة بتشكيل من عناصر تقدمية ، وتتمثل في جهة تحرير طراز التي تعتنق مبادئ ماركسية .

(١) روبرت لاندن : عمان منذ سنة ١٨٥٦ ، ترجمة محمد أمين عبد الله من ٢١٥

تنازل تيمور عن الحكم سنة ١٩٣٢ لابنه سعيد ، وفي عهده عدت طيبة العلاقات مع بريطانيا أكثر من مرة ، ففي سنة ١٩٣٩ عقدت معاهدة صداقة وتجارة وملاحة بين البلدين ، وهي تلتى معاهدة سنة ١٨٩١ الخاصة بعدم التنازل عن الأقاليم التابعة للسلطنة بدون إذن بريطانيا ، لكنها تبقى عدة قيود تقف انتقاصاً واضحاً من سيادة الإمارة كالاقتيازات القنصلية التي تمنح القناصل البريطانيين سلطات قضائية بالنسبة للأجانب ، وحق الدولة الأولى بالرعاية في المسائل التجارية ، وتعهد السلطان بعدم اتخاذ إجراء يضر بمصالح الرعايا البريطانيين التجاري ، وتحديد الرسوم الجركية (١) .

وبينما تخفيف تلك القيود بعض الشيء منذ عقد اتفاقية سنة ١٩٥١ ، لم تمنح مسقط من الناحية النظرية حق إقامة القناصل . وتجعل مبدأ الدولة الأولى بالرعاية متبادلاً بين الطرفين . وقد عقدت المعاهدة لمدة عشر سنوات . وعند تجديداتها في سنة ١٩٦١ طلب السلطان تحديد السلطات القضائية للفصل البريطاني بحيث تقتصر فقط على موظفي القنصلية والجنود المرابطين في القاعدة بين الجريتين . ومنذ زيارة اللجنة الخامسة التابعة للأمم المتحدة لعمان سنة ١٩٦٤ أبدى السلطان نيته في إلغاء نظام الامتيازات القنصلية أصلاً . وهكذا أخذ وضع عمان القانوني يتطور بالتدريج حتى لم يعد يفصله عن الاستقلال سوى أن تطلب حكومة مسقط الاعتراف بها ، أي أنها لم تكن بحاجة مثل الإمارات الأخرى إلى إلغاء اتفاقيات ما تضمنها في حالة التبعية لبريطانيا .

وكان الوجود البريطاني في عمان خلال السنوات السابقة على الاستقلال يشهد على اتفاقية تأجير قواعد ، لا على مفاوضات إقليمية . فقد نصت اتفاقية عقدت بين بريطانيا وحكومة مسقط على تأجير قاعدة بين جريتين ، تقع إحداهما في سلالة إقليم ظفار ، والثانية في مصيرة ، إحدى الجزر الواجبة للساحل الجنوبي . وفي مقال

(١) انظر تقرير الأمم المتحدة عن عمان ص ١٨٨ و١٨٩ و١٩٠ وجهة النظر البريطانية ، وبقدر عدم استقلال حكومة مسقط في تصرفاتها

هذه التسهيلات وعدت بريطانيا بأن تقوم بتدريب جيش حديث في مسقط ، بما في ذلك إنشاء قوة جوية ، وتقديم المساعدات المالية والفنية ، والخدمات الصحية (١) والتعليمية .

ومنذ أن دخلت قضية عمان إلى المجال الدولي ، حاول سعيد بن تيمور جاهداً أن يقوى مركزه من الناحية الدولية ليثبت صفتة كرئيس دولة مستقلة ، فبين فصلاً في لندن ، وأنشأ دائرة لإصدار تأشيرات الدخول وصرف جوازات السفر ، ووضعها تحت إدارته المباشرة . كما عقد معاهدات مع بعض الدول الأخرى ، وخاصة الهند والولايات المتحدة .

وفي سنة ١٩٥٣ وجدت الهند أنه ، نظراً لكثرة عدد رعاياها في السلطنة ، من الأفضل تولى شؤونهم دون الاعتماد على القنصل البريطاني . وهكذا تم عقد معاهدة صداقة وتجارة بين البلدين . وأنشأت مسقط قنصلية في بومباي .

أما باكستان فتزبد من روايتها مع مسقط كونها دولة إسلامية ، غير أن مشكلة ميناء « قواحر » قد أثرت على العلاقة بين البلدين . فقد كانت عمان تمتلك هذا الميناء الواقع على ساحل مكران . ومنذ أن تم التنازل عنه في سنة ١٩٥٨ أخذت العلاقات تتوتر بين البلدين . وفي نفس العام عقدت الولايات المتحدة اتفاق تعاون فني مع مسقط وأودع نص الاتفاق لدى هيئة الأمم المتحدة ، شأنه في ذلك شأن الاتفاقات الموقعة بين دول مستقلة .

أخذت الدول العربية موقفاً مختلفاً إزاء حكومة مسقط أثناء الصراع بينها وبين الإمارة . فاعتبرتها على غرار الحميات الأخرى ، وعارضت تحالفها مغلاً بهيئة الصحة العالمية . وفي نفس الوقت كان سعيد بن تيمور يصرح بأنه يتمتع عن

(١) انظر الرسائل المتبادلة حول هذا الموضوع في المصدر السابق ص ١٦٦

ظل عليه كما كان في العصور الوسطى . ورغم ازدياد موارد النفط باضطراب (بانت ٨٠ مليون دولار سنة ١٩٧٠) فقد كرس معظمها للقوات المسلحة، ولم ينفق شيء منها في الخدمات .

وقد رأينا من قبل كيف أن هذا الطراز من الحكم لا يرضى بريطانيا أو شركات النفط، فهي تقفل حاكاً يقتبل التغيير في حدود الأنظمة التقليدية . وفي عمان على وجه الخصوص لوحظت ظاهرة متقابلة للسلطات البريطانية، وهي تكون جهة يسارية عرفت بحرية تخريب ظفار وأصبح من المعروف أنها تتلقى ثأيد الصين الشعبية .

حقبة إن مجتمع عمان ليس مهيباً لثورة ماركسية، إذ من غير المتوقع تنجح نظام ماركسي بتأييد مجتمع محافظ . إلا أن سابقة اليمن الجنوبية كانت قد تذرر بالخطر . وقد غدت جمهورية اليمن الشعبية تعلن صراحة عن مساندتها لجهة تخريب ظفار، بل إنها خشيت على توسيع مدى نشاطها لكي تمتد إلى إمارات الساحل الأخرى . وتصبح الجهة الشعبية لتحرير الخليج بدلاً من جهة تخريب ظفار .

انجذبت الأنظار بطبيعة الحال إلى قابوس ابن السلطان سعيد . ولا غرو فهو من خريجي كلية ساند هيرست الحربية، وقد توجس أبوه منه خيفة لجرده أنه درس في بريطانيا . ولذلك قرر اعتقاله في إحدى القلاع القريبة من سلالة . ولا شك أن لثورة نفط عمان والضباط البريطانيين يداً في تخريب القوات العمانية التي أطاحت بالسلطان سعيد في ٢٤ يوليو سنة ١٩٧٠ ودعت قابوساً لتولي السلطة . ومن الواضح أن ذلك كان من بين الترتيبات البريطانية السابقة على الانسحاب من الخليج . ولعل الأنجليز صاروا مقتنعين بأن حاكاً مثقوراً مثل قابوس أقدر على معالجة المارسة اليسارية . ولعله يزبل بعض مبرراتها، فقد افتتح حكمه بدعوة البلاد العربية لمساعدته في تطوير بلاده، ومدها بالدربين والخبراء الفنيين، ولأنه في مجال الشؤون العسكرية ظل يعتمد على الضباط البريطانيين والإيرانيين .

طلب الانضمام إلى الأمم المتحدة تجنباً للتشكيل الدبلوماسي الذي يشكل أخطاءه، لا يتحملها بلد فقير مثل عمان .

والحق إن موارد عمان كانت مقصورة على تصدير التم، وعلى ما تقدمه بريطانيا من أموال مقابل إيجار القاعدة، بين الحزبين، وكانت تقدر بليون جنيه سنوياً . أما التنقيب عن النفط فرغم أنه بدأ منذ سنة ١٩٥٦، إلا أن العمل سار ببطء، ويروج ذلك إلى أكثر من سبب . أولاً : انتشار الاضطرابات في المنطقة الداخلية . وثانياً : وقوع آبار النفط في منطقة التهود القريبة من حدود السعودية، ويحتاج استغلالها إلى مد خطوط طويلة من الأنابيب تكلف ثقات باهظة وتحتاج إلى حراسة وصيانة، مالم يقض على الاضطرابات الداخلية . وقد أشرنا إلى انتشار اتباع الإمامة في أوائل الستينات . ورغم توصية اللجنة الثابتة للأمم المتحدة باستشارة الأهالي عن نوع الحكومة التي يرغبون فيها، إلا أن بريطانيا مضت في تدعيم السلطان سعيد عسكرياً حتى صار يسيطر بالمل على عمان .

وتمتلك شركة شل البريطانية الهولندية ٨٥٪ من أسهم شركة نفط عمان وظفار، ولذا لم تدخر بريطانيا وسعاً في تقديم المساعدات اللازمة لغيان الاستقرار تمهيداً لاستغلال النفط الذي بدأ بالفعل سنة ١٩٦٧ .

في مثل هذه الظروف لا بد وأن يشعر السلطان سعيد بن تيمور بالقلق عندما يذاع نياً انسحاب بريطانيا من منطقة الخليج . وقد فكر لحظة ما في أن يتقارب من أبو ظبي ويحث إمكان الارتباط مع الاتحاد المقترح في بعض الشؤون . غير أن الخوف من العالم الخارجي سرعان ما تغلب عليه . فقد لاحظ مدى افتتاح الشيخ زايد حاكم أبو ظبي على الحاضرة الحديثة، وكان سعيد يعد من أكثر حكام شبه الجزيرة رغبة في المحافظة على المجتمع العماني دون قبول أي تغيير يحس وضعه الذي

لقد استطاع قابوس أن يحسن علاقات عمان بمختلف الدول العربية لم
قد أبدى استعداداً لمصالحة أخصار الإمامة اللاجئين إلى السعودية ، فسمح لهم
بالمودة أثناء زيارته للملك فيصل ، غير أنهم اشترطوا المشاركة في بعض المناصب ،
وبذلك قددوا عطف السعودية عليهم . ومن جهة أخرى زال الخلاف القديم على
الحدود ، كما أن كثيراً من الدول العربية أيدت قابوساً في محاربهته لجهة تحرير
قطار ، لا يستغنى من ذلك سوى جمهورية اليمن الشعبية التي حاولت أن تعزل
انضمام عمان إلى الجامعة العربية .

ولا شك أن سياسة الانفتاح التي بدأها قابوس تحتاج إلى وقت طويل كي
تقتل عمان من عهد العزلة إلى الانفتاح بركب الدول المتحضرة .

الفصل السابع عشر

نظم استغلال النفط

تخصص الصليبين التاليين لتطوير صناعة النفط في إمارات الخليج ، فتصالح في
النص الأول تناقص الشركات على عقود الامتياز الأولى ، وطبيعة هذه العقود ،
وكيف تطورت نظم استغلال النفط حتى تمكنت دول الخليج من التحكم في
هذه الصناعة الحيوية بدون اللجوء إلى تأميم الشركات الأجنبية ، اللهم إلا إذا
اعتبرنا نظام المشاركة سيراً تدريجياً نحو التأميم .

أما الفصل التالي فيتناول نتائج النفط على حياة البلاد السياسية والاجتماعية
والاقتصادية . ومن المعروف أن نتائج النفط في مجال السياسة على وجه الخصوص
لم تقتصر على حياة دول الخليج ، بل أثر تأثيراً بعيداً في العالم العربي بأسره ، كما
انفتح ذلك من استخدام النفط في الصراع ضد إسرائيل منذ حرب
أكتوبر ١٩٧٣

عقود الامتياز الأولى

تميزت هذه العقود بصفة الإجحاف عملياً مع روح العصر الاستعماري حيث
لم تكن جنوب آسيا وأفريقيا واعية بقيمة الثروة الطبيعية التي تملكها ، وغير
قادرة من الناحية الفنية على استغلالها .

ونظراً للنمو الذي تمتص به بريطانيا في منطقة الخليج ، فقد كانت أسبق من
غيرها إلى استغلال نفطه . وأول آبار استنتلت في المنطقة هي تلك الواقعة جنوب

غرب إيران في « مسجد سليمان » وقد حصلت شركة دارمي على امتياز استغلالها في مطلع القرن العشرين .

ولم يلبث النفط الإيراني أن اكتسب أهمية عظيمة عندما نشبت الحرب العالمية الأولى ، وأدى إلى تفكير بريطانيا جديدا في إقامة قواعد ثابتة لها في الخليج وفي جزر البحرين مثلا ، كما أن المحافظة على آبار النفط كانت من الأسباب التي دفعت بريطانيا إلى إرسال حملة إلى جنوب العراق في نوفمبر ١٩١٤ ومن ثم يتضح لنا كيف أن هدف بريطانيا من استغلال نفط الخليج ، لم يكن مقصورا على الناحية الاقتصادية ، وأعني بذلك استئثار رأس المال في مشروع موز ، وإنما صار ينطوي أيضا على أهداف حيوية تتضمن إدارة آلة الحرب من جهة ، ثم استخدام الوقود في الأغراض الدنية الاستهلاكية من جهة أخرى .

أما الولايات المتحدة فحينما دخلت كمنافس على التنقيب واستغلال النفط في الخليج ، فقد كان رائدها الأول هو استئثار رأس المال بقصد الربح ، ولم تكن في ذلك الوقت بحاجة إلى نفط الخليج للاستهلاك المحلي نظراً إلى أنها كانت حينئذ من أكبر الدول المصدرة للنفط ، ولكنها كانت تتعافى من تكديس رؤوس الأموال وضيق مجالات العمل ، فزادت في مشروعات استغلال النفط ميداناً خصباً لاستئثار رؤوس الأموال والخروج من أزمتها .

وبينما ارتكزت الاستثمارات الأمريكية على القطاع الخاص ، دخلت الحكومة البريطانية كساحم في شركة النفط الإنجليزية الفارسية التي امتدت نشاطها إلى بعض الإمارات العربية ، كما أسهمت في شركة نفط العراق وأصبحت الشركات تنهتان بالحصول على امتيازات التنقيب في الشاطئ العربي .

وحينما كانت بريطانيا تنفرد بالسيطرة السياسية على الخليج ، أخذت تهبط على الحكم العرب بالآمنحوا امتياز التنقيب عن البترول لشركة أو لأشخاص دون مشورة الحكومة البريطانية . وبدأت تعتمد من جانب الشيخ مبارك حاكم

الكويت سنة ١٩١٣ ، تلاه حاكم البحرين في سنة ١٩١٥ ، ثم تضمنت المعاهدة الانفرادية مع قطر ١٩١٦ بنداً خاصاً مماثلاً . وأخيراً تم في سنة ١٩٢٣ تمديد حكم ساحل عمان بعدم منح امتيازات التنقيب قبل الحصول على موافقة عملي بريطانيا .

تعارضت هذه السياسة مع مبدأ الباب المفتوح الذي تبنته الولايات المتحدة منذ نهاية القرن التاسع عشر ، وتحمست له بعد الحرب العالمية الأولى واعتبرت نقيضه في الشرق العربي ثمرة من ثمرات مساهمتها في الحرب إلى جانب الحلفاء . وقد استطاعت أن تفرض رأيها أولاً فيما يخص الأقطار الموضوعة تحت الانتداب . لحكت شركة أمريكية على جزء من الامتياز الذي كان ممنوحاً فيما مضى لشركة اللابنة لاستغلال نفط العراق ، وهكذا جاء تكوين شركة نفط العراق عبارة عن الغالب عدة مصالح رأسمالية دولية هي شركة البترول البريطانية الحكومية (٢٣٧٥ ٪) وشركة شل البريطانية الهولندية (٢٣٧٥ ٪) وشركة البترول الفرنسية (٢٣٧٥ ٪) وشركة الخليج الأمريكية (٢٣٧٥ ٪) وحصل الرأسمال الأرمي جوبليكمان على الـ ٥ ٪ البقية . وتعهدت الشركات السكونية لهذه المجموعة بالأسمى واحدة مقتردة للحصول على امتياز في شبه جزيرة العرب أو أراضي الدولة الثمانية السابقة باستثناء الكويت ومصر . وكذا سلت بريطانيا مبدأ المساواة في المجال الاقتصادي بينها وبين الدول الأخرى حتى في المناطق التي كانت تعتبرها احتكاراتاً مشروعا لها مثل إمارات الخليج .

والرابع أن الولايات المتحدة رغم عودتها إلى سياسة العزلة بعد انتهاء الحرب ، إلا أنها تشيئت مبدأ الباب المفتوح فيما يتعلق بالحصول على امتيازات النفط . فظهرت بعض النظر عن جنسياتها حتى التنافس في هذا المجال . وكانت الولايات المتحدة مدفوعة في ذلك بماملين : الأول ما ذكرناه من وجود فائض كبير في رأس المال . والثاني هو المحافظة على الاحتياطي الخزون في أراضيها ، (٢١٢ - الخليج)

أمريكية. وهذا ما سيحدث بالفعل بالنسبة للبحرين. أما في الأحساء فقد انتهت مدة الترخيص بالنسبة للشركة الشرقية سنة ١٩٢٧ دون الوصول إلى نتيجة.

حصل هولمز على ترخيص في البحرين سنة ١٩٢٥ ولم يلبث أن عمره على شركة الخليج الأمريكية *Gulf corporation* وكانت هذه الشركة قد أرسلت الجيولوجيين الذين أنشروا وجود النفط في الجزر، إلا أن الشركة واجهت مشكلة اتفاق الخط الأحمر، فهي إحدى الشركات الأربع المكونة لشركة نفط العراق، وكانت قد تاهدت فيما بينها على ألا تسمى إحداها منفردة للحصول على امتياز في شبه جزيرة العرب أو أراضى الدولة العثمانية السابقة ما عدا الكويت ومصر. لما استغفلت شركة الخليج إلى التنازل عن هذا الامتياز لشركة أمريكية أخرى غير مقيدة بهذا الاتفاق وهي شركة كاليفورنيا.

ومن جهة أخرى أثارّت وزارة المستعمرات البريطانية مسألة الاتفاقات الفريدة بين شيوخ البحرين والحكومة البريطانية التي تشترط موافقتها على أي امتياز نفطي. ويبدو أن وزارة الخارجية كانت أكثر إحراجاً لاهتمام الولايات المتحدة بهذا الموضوع، وأحرص على عدم إثارة الخلافات معها بسبب التنقيب عن البترول. ومن ثم أصدرت الوزارة في سنة ١٩٢٩ تصريحاً أعلنت فيه عدم مخالفتها لمبدأ الباب (١) الفتح، إلا أنها اشترطت علم بريطانيا مسبقاً بما يتم من اتفاقات حول البترول.

والواقع أن الولايات المتحدة كانت تقدر التركيز التتويقي لبريطانيا سياسياً وعسكرياً في الخليج، ونشرت أن تأمين أعمال التنقيب والاستئصال إنما يتوقف على وجود بريطانيا في المنطقة. ولذا رأت أن تحمل هذا التناقض حلاً وسطاً. فأفسح فرجاً مستقلاً من شركة كاليفورنيا سجل في كندا، وحمل جنسية إحدى دول الكومنولث، وصار يعرف باسم شركة نفط البحرين أو بابكو. وتنهت الشركة الجديدة بإختيار معظم موظفيها من بين الرعايا البريطانيين.

(١) أنظر: محمود جواد البيومي، بترول البلاد العربية.

وعدم استهلاكه في وقت قصير. وقد بحث مجلس (١) الشيوخ في سنة ١٩١٩ هذا الموضوع وطلب من الحكومة الأمريكية أن تمنح لدى بريطانيا لبعض الشركات الأمريكية من الحصول على امتيازات تنقيب في العراق وفلسطين. وكان روح نظام العصبة ضد الاحتكار أيضاً، ومع ذلك فقد كان بريطانيا تقاوم الساعي الأمريكي بحجة أن الولايات المتحدة ليست عدواً في المنظمة ولم توقع على ميثاقها. غير أن الحكومة الأمريكية استطاعت أن تفرز وجهة نظرها وأن تحوز قصد السبق في امتيازات منطقة الخليج العربية مستندة إلى خبرتها الطويلة في عالم استغلال البترول وإلى امكانياتها الهائلة في اتفاق الأموال التي كثيراً ما تضيق عنها أثناء مرحلة التنقيب.

تأخر استغلال النفط على الشاطئ الغربي للخليج بسبب هذا التنافس بين الشركات، بالإضافة إلى عدم استقرار الأوضاع السياسية، إلى أن توسعت بريطانيا في تخطيط الحدود بين السعودية والكويت والعراق. ومما ساعد على هذا التأخر دخول أحد النصارى بين النيوزيلنديين ويدعى فرانك هولمز في مجال التنافس على الحصول على الامتيازات من الحكام والشيوخ العرب. وكان هولمز يمثل شركة صغيرة تعرف باسم «الشركة الشرقية العامة المتحدة». *Eastern General Syndicate* وقد سعى أولاً أثناء انعقاد مؤتمر العقير لدى ابن سعود سنة ١٩٢٢ للحصول على ترخيص بالتنقيب في الأحساء وفي المنطقة المحيطة بها وبين الكويت مقابل مبلغ بسيط من المال.

وقد احتجت بريطانيا لتصرف ابن سعود في المنطقة المحيطة، على أساس أن لحاكم الكويت نصيباً فيها، وبالتالي فلا بد من استشارتها بخصوص أي ابتداء يتعلق بهذه المنطقة. وفضلاً عن ذلك كانت السلطات البريطانية في الخليج تدارك عدم جدية هذه الشركة وتخشى أن تنجر في تراخيص التنقيب وتبنيها لشركان

(١) راشد البروي - حرب البترول في الشرق الأوسط ص ١٧٩

دعته الأمر أن سود كان و حجة ملحة إلى اللال خلال تلك الحقبة .
 نازة الاقتصادية العالية آتت في طة المصالح . ورسوم المصالح آنذاك هي مورد
 رئيس من موارد الدولة كما أن إحباط ثورة الإخوان ضد حكمه وما قرب على ذلك
 من الأهم قضية الجيش وأجهزة الدولة الإدارية تطلب مزيداً من النفقات . ولذلك
 ليس أن سود فرمة وجود أحد الميولتين الأمريكيين ، وهو توتشال ،
 الذي أرسل في مهمة خيرية اقترض منها استعطاء الياء من بعض القاطنين السعوديين ،
 وفي إله الاتصال بشركات البترول الأمريكية وإقناعها بالمضول على امتياز
 نفيد بلاده . وفضل أن تم اكتشاف النفط في البحرين في تلك الوقت ،
 فإن سود يولاه بر من شركتين كبيرتين في آل واحد . وجم شركة
 كبيرة الأمريكية ، وشركة النفط العراقي التي يملك عليها المصالح البريطاني .

سأنا نعلم أن سود تعرض لشركة الأمريكية مع أنه لا يمكنه التخلص من
 فوس شركة النفط العراقي أنه صر هو موافقة للمصالح الاقتصادية البحتة ، وهو
 لشركة الأمريكية نيهت مع توقعه على أساس سحر الامتياز .
 فتمت شركة النفط العراقي المصالح على أساس لادنية القضية التفتت في سعة
 صبح ، ولكن تركها كسمة ملية قبل من مركزه الخلية الامتياز .

ولا ينبغي أن يأخذ أن تكون تمهات سياسية رجحت جانب الشركة
 الأمريكية . قد كل أن سود بطر إلى الامتياز على أنهم حلفاء البيت الملكي
 بدسوا مشكلات الحدود بين السعودية وجزيراتها الماخيين في الأردن والعراق
 شمالاً واليونان ، ولعل أراد من جهة أخرى أن يستعيد الدولة ماحية القطنات
 الامتياز في الشرق العربي ، بينما كانت أمريكا في ذلك الوقت مدأ من مثل
 هذه المصالح . وقد كل للأمريكيين نشاط واسع في السعودية خلال السنوات
 الخلية في سبت عند الامتياز . وعلى العكس كل الصغير البريطاني في حصة
 مع البحرين الإمبري يعم الدائرة بأموالهم في شبه جزيرة العرب لسم استمرار

ثم عقد الامتياز بين شركة بايكو وشبح البحرين في سنة ١٩٣٢ ، وبما
 يكون أقدم امتياز جاد في الإمارات العربية . ونص عقد الامتياز على من
 الشركة في استغلال النفط في جميع أراضي البحرين وبماها الإقليمية مثل
 عائدات قدرت بثلاث روديات عن الطل . مع تأمين حد أدنى للعائدات قدره ١٠
 و خمسون ألف روبية . وسوف تتخذ هذه العائدات أساساً لتقدير نسب البنين
 المنتجة مثل الكويت وقطر ، وهي تقل عن العائدات التي كانت تذهبها للبحرين
 للدولة الكبيرة نسبياً في ذلك الوقت مثل إيران أو العراق . والإشارة إلى ذلك
 أعطيت شركة نفط البحرين من كافة الرسوم على ما تشهده من أدوار
 أو حاجات .

جاء اكتشاف النفط في البحرين في الوقت المناسب ، فقد كان اللاد نال
 من أزمة اقتصادية بسبب كساد صناعة النؤل ، كما تهرمت لمرزا انجاليا إقام
 النواصون بحركة إضراب هي الأولى من نوعها في تاريخ البلاد . وهكذا أريد
 النفط مجالات جديدة للعمل ، ولاشك أن وجود البترول بكيمات تجارية في البحرين
 كان نقطة تحول بالنسبة لنية الشاطيء العربي من الخليج . فقد أقبل البحرين
 الكبرى من جديد تتسابق في الحصول على امتيازات التنقيب . وكان السودة
 هي الدولة التالية للبحرين و منعت الامتياز لإحدى الشركات الأمريكية .

ومن المروف أن ابن سود لم يمكن مقبلاً بتعهد إزاه بريطانيا بمضول
 النفط بخلاف أمارات الخليج . وكان يجمع حوله بعض الشخصيات التي عرفت
 بعد أنها عالت لحساب المصالح الاقتصادية الأمريكية . من هؤلاء أمين الزها
 وسام جون طلي . ويستقص أثر ذلك من محاولات ابن سود التأثير على ما
 فطر سنة ١٩٣٥ بأن يجمع امتياز التنقيب في بلاده لشركة أمريكية . أدام
 بطر حقيقة نواياه ، بل أعلن أنه سيمنح الامتياز للشركة التي تقدم أفضل
 الشرروط دون التقيد باختيارات سياسية .

(1) Lagrign : Oil in the middle East.

لم تكن عقود الامتياز الأولى تنشر في ذلك الحين على نطاق واسع ، وكانت المفاوضات تجري مع الحكام العرب ومستشاريهم دون أن يكون للأهالي رأي في ذلك . وعلى هذا النسق جرت المفاوضات مباشرة بين حاكم الكويت وممثل الشركات المنافسة ، وكان فرانك هولنز قد سبق أيضاً إلى محاولة الحصول على رخص من الشيخ أحمد الجابر . غير أن هذا الأخير لم يفسح صدره للمغامرات البرزلية ، وكان يخشى كما قال من تكرار الأجانب في بلاده ، وما يترتب على ذلك من اتساع الامتيازات القنصلية ، الأمر الذي يدل على عدم إدراك الشيخ لما يجنيه المستقبل للكويت من وراء اكتشاف البترول .

ومن جهة أخرى تجاذب الشيخ أحمد علان : الرغبة في إرضاء الإنجليز نظر لأنهم يجمعون الكويت من جيرانه الأقوياء . والعامل الثاني هو الرغبة في الاستفادة من السامومات التي يفتتحها هولنز أمامه ، وذلك باجتذاب الشركات الأمريكية .

وقد أبدى الشيخ استمداة لقبول عروض هولنز إذا وافقت عليها الحكومة البريطانية ولم تشترط أن تكون الشركة العاملة في بلاده بريطانية الجنسية . وشعر الوكيل السياسي في الكويت أن الأهالي يضغطون على الشيخ لكي ينهي الاتفاق كخرج من الأزمة الاقتصادية التي أخذت تعاني منها البلاد بسبب كساد النوص على التؤلؤ . لذلك حث الوكيل الشركات البريطانية على التقدم ، وكان أفورها إلى الحكومة البريطانية من حيث التهمة ورأس المال ، هي الشركة الإنجليزية الفارسية ونصاف أن هذه الشركة كانت تواجه بعض المشكلات في إيران بسبب مطالبة حكومة الشاه بتعديل نظام الامتياز ، ورات أن مصلحتها تقتضي الحصول على معاهد جديدة للنقط . كما أن شركة أمريكية أخرى تتمتع بمركز أفضل من شركة هولنز الشرقية ظهرت في الميدان ، وأعنى بها شركة « الخليج المتحدة » ورات الشركان أن تسرعاً بقسوة خلافتهم حتى لا تتعرضا لمنافس جديد ، سيما وأن شركة كاليفورنيا قد وطدت مركزها في المنطقة ، وذلك بالحصول على امتياز في

الأوضاع^(١) هناك . ولعل هذا ما يفسر قول لونيوج الفاضل باسم شركة نفط العراق « لقد كنا متباطئين في عاداتنا ، بينما كان الأمريكيون قد حددوا أهدافهم وساروا نحوها بثبات » .

وأخيراً فقد رجحت الكلمة الأمريكية لأن الشركة وافقت على تقديم فروض خارج عقد الامتياز .

وافقت شركة استاندرد أويل أوف كاليفورنيا على أن تقدم لابن سعود فوذا قدره نصف مليون جنيه ، وتدفع له عشرة آلاف جنيه كل سنة أشهر مثال امتياز التنقيب الذي يجب أن يسدا في بحر ثلاثة أشهر من التصديق على عقد الامتياز .

وقد شمل العقد جميع المناطق الشرقية الواقعة شرق صحراء الدهناء ، والباد الإقليمية التابعة لها . وصار للشركة حق الأولوية في الامتيازات التي قد تنبع مستقبلا في المنطقة المجاورة بين السعودية والكويت أو في مناطق أخرى تابعة للمملكة . وقدرت العوائد المستحقة للدولة المنتجة بأربعة شللات عن الطل ، على أن تعفى حاجيات الشركة من الرسوم .

وقد أمضت الشركة عدة سنوات قبل أن تكتشف النفط بكميات تجارية . ولم تتوصل إلى النتيجة الإيجابية إلا قبيل قيام الحرب مما حرم السعودية فوذا أخرى من الوقت من استئصال نفطها . وبمناسبة الاكتشاف استعانت الشركة أن تقنع ابن سعود بتعديل عقد الامتياز الأول في سنة ١٩٣٩ بحيث صار أكبر إحصافاً به . فقد منحت احتكار التنقيب في مساحة قدرها ٨٥ ألف ميل مربع ، موزعة بين المناطق الشمالية والشرقية وتشمل المنطقة المجاورة مع الكويت والعراق . كما زيدت مدة امتياز عشر سنوات أخرى أي صارت سبعين سنة بدلاً من ستين ، تنتهي عند سنة ٢٠٠٣ كل ذلك في مقابل ١٤٠ ألف جنيه^(٢) إلى جانب عشرين ألف جنيه سنوياً وذلك إلى أن يتم كشف البترول بكميات تجارية .

(١) حافظ وهبة : جزيرة العرب في القرن العشرين ص ١٣٩ .
(٢) Marlowe: Persian Gulf in the 20 Century, p. III.

السابقة . من ذلك أولوية بريطانيا في الحصول على البترول في حالة اشتداد الحاجة إليه . ومنها تعهد الشركة بألا تقيم مشروعات فرعية يزيد فيها الرأسمال الأجنبي عن ٥٠٪ . والتزمت الشركة بعدم الاتصال بالشيخ إلا عن طريق الوكيل السياسي . وأن يؤخذ رأي الوكيل في تعيين الموظفين . وألا تتنازل عن منشآتها لمصلحة أجنبية .

تعرضت الحكومة البريطانية لبعض النقد في مجلس العموم بسبب تساهلها مع الشركات الأمريكية في الخليج . ومعنى هؤلاء المتعرضون أن يتحس امتياز الكويت لشركة بريطانية خالصة . وكان ذلك من العوامل التي دفعت شركة بترول الكويت الأهلية الأمريكية لكي تسرع بتوقيع عقد الامتياز مع الشيخ أحد المابر في سنة ١٩٣٤^(١) ولا يختلف عقد الامتياز مع الكويت في خطوطه العريضة عن عقود الامتياز الأخرى التي تمت في الثلاثينات مع حكام الخليج . فيشمل الامتياز جميع أراضي الكويت ، ومدته خمس وسبعون سنة . ويدفع لحاكم الكويت مبلغ (٤٧٥٠٠٠ روية) كمنحة في خلال ثلاثين يوماً من المصادقة على العقد . وعندما يتم اكتشاف البترول بكميات تجارية تدفع الشركة ثلاث رويات عن الطن كمواليد ، وتبقى من بقية الرسوم .

لم تنشأ مشكلات سياسية حول امتيازات قطر ومشيجات ساحل عمان ، لأن سيطرة بريطانيا هنا كانت أقوى ، وليس لحكام هذه المناطق اتصالات دولية تذكر . وهكذا لم تجد الشركات البريطانية منافسة قوية . فحصلت الفارسية الإنجليزية على امتياز قطر سنة ١٩٣٥ بينما حصل فرع من شركة نفط العراق على امتياز مسقط وعمان سنة ١٩٣٧ ، ولم تدخل المنافسة الدولية إلى تلك المناطق إلا بعد الحرب العالمية الثانية .

يتضح مما سبق أن عقود الامتياز الأولى قد تمت باسم الحكام ، وكان البترول

(١) محمد إبيب شخير وصاحب ذهب : امتيازات وعقود البترول في البلاد العربية .

مساحة تفوق كثيراً إمارة الكويت وهي السعودية ، وهكذا تم الاتفاق في ديسمبر سنة ١٩٣٣ على أن تكون الشركات « الإنجليزية الفارسية » وهي بريطانية و « الخليج المتحدة » وهي أمريكية ، شركة بالنسبة تعرف بشركة بترول الكويت . واتفقت الشركات على تفسيق أعمالها في مجال الإنتاج والتوزيع .

لقد حرصت الشركة^(٢) الإنجليزية الفارسية على تفسيق أعمالها مع الحكومة البريطانية فدخلت في مباحثات مع المستولين البريطانيين في يناير من عام ١٩٣٤ لتتجهم الخطة التي يجب أن تسير عليها طبقاً لمصالح بريطانيا في إنهاء منافستها القادمة مع شركة بترول الخليج حول عدة أمور . وتم الاتفاق على الأسس التالية : تضمن بريطانيا سيطرتها على الشركة من تسجيلها في داخل أراضها وبالنسبة على أن يكون الموظفون بريطانيين . وأن تمر جميع المراسلات بين الشركة والشيخ بالوكيل السياسي ، الذي يحضر المناقشات بين الشيخ وممثل الشركة . كما اعتد بأن يتم التكوير في الكويت لا لذلك من أهمية خاصة للبحرية . كذلك افترت أن يكون لها الحق في شراء البترول المتج بسعر معقول في وقت الحرب .

ضمنت هذه المقترحات في اتفاقية خاصة عقدت بين شركة بترول الكويت وبين الحكومة البريطانية في يناير سنة ١٩٣٤ ، وقد اعتبرت هذه الاتفاقية شرطاً مسبقاً على البحوث التي سوف تجري بين الشركة والشيخ ، وكان بريطانيا أرادت أن تأخذ ضمانات لعدم تسال الأمر كي يمين إلى الكويت والسيطرة عليه اقتصاداً أو سياسياً . فالبشرين كانت تخضع خضوعاً مباشراً للإدارة البريطانية . أما الكويت فيجتمع شيخها باستقلال في إدارة شؤنه المحلية . ولذلك بحثى من أن يكون الأمر يكمون أكثر قدرة على التسلسل .

وقد فصلت الاتفاقية السياسية عدداً من الضمانات التي لم ترد في المقترحات

(٢) نجاة عبدالقادر الجاسم : التطور السياسي والاقتصادي للكويت بن المربعين ، القاهرة ١٩٧٢

التخفيضات للشترين مما جعل الدول المنتجة تنشكرك في حقيقة هذه الخصومات،
ذلك سدى لإلزام الشركات بالحساب على أساس الأسعار المألوفة ، وستضع
الشركات لهذا الغالب ، خاصة عندما انخفض السعر العالمي للبترول في أوائل
السنين . وأخيراً استغلت بعض الشركات تطبيق مبدأ المنافسة ، وحصلت في
مقابل ذلك على عديد لأجل الامتياز ، وثلاً استطاعت شركة ققط الكويت أن
تضيف (١) نسبة عشر عاماً إلى مدة امتيازها الأصلية أى أن امتياز الكويت
سوف ينتهى سنة ٢٠٣٦ ، ولو استمر بالعمل إلى هذا الأجل فربما نصب معين
البترول قبل انتهاء أجل الامتياز .

أصبح مبدأ المنافسة عاماً إذن في منتصف العقد السادس ولكن ما كاد يعمم
حتى شرعت بعض الشركات الصغيرة تعرض شروطاً أفضل. تعرضت شركة ليانية
مخصص ٥٦٪ للدولة المنتجة ، وحصلت بالعمل على امتياز من السعودية للتنقيب
في مياها الإقليمية بناء على هذه النسبة ولم تلبث شركة « إيني » الإيطالية أن
أخذت مبدأ جديداً في سنة ١٩٥٧ يشب إلى أحد مديريها للدع « ماني » .
ويقضى نظام ماني بأن تسهم الدولة المنتجة بـ ٥٠٪ من رأس المال ، فإذا
طبقت بعد ذلك مبدأ المنافسة فإنها تحصل على ٧٥٪ من الأرباح باعتبار أن لها
من الأصل ٥٠٪ ولها بالإضافة إلى ذلك نصف ربح رأس المال الأجنبي المستثمر
في بترولها . وما كان من الممكن تطبيق هذا النظام لو لا أن تكون لدى الأنظار
النتيجة فائض من رأس المال .

والحق إن وجود هذا الفائض ساعد أيضاً على اختيار مرحلة جديدة في تاريخ
العلاقات بين الأنظار المنتجة والشركات . ونفى بذلك تأسيس الشركات الوطنية
العاملة في حقل صناعة البترول . فقد أسست السعودية شركة « بترولين » سنة
١٩٥٦ ، كما أفلت الكويت شركة وطنية في سنة ١٩٦٠ ، أسهمت فيها
الحكومة بـ ٦٠٪ من رأس المال ، بينما اشترى المواطنون بقية الأسهم .

(١) عزيز محمد جيب : الكويت ، سلسلة العالم العربي .

أقترحت شركة أمريكية لا تنتمي إلى المجموعات الاحتكارية السابقة وهي شركة
جيتي ، تخصيص نسبة من الأرباح قدرها ٢٠٪ علاوة على أربعة دولارات نزية
على الطن ، وذلك فيما يخص المنطقة الحارة الواقعة بين السعودية والكويت .
وبكاد هذا النظام أن يصل بنصيب الدولة المنتجة إلى ٥٠٪ غير أن مبدأ اللامنه
في الأرباح لم يتقور بصورة رسمية إلا في ديسمبر سنة ١٩٥٠ ، وذلك عندما عدل
شركة أرامكو اتفاقها مع السعودية على هذا الأساس الذي كان قد طين لأول
مرة في فنزويلا ، وصار بعد ذلك القاعدة الشائعة في امتيازات البترول في الشرق
الغربي ، فطبقت في العراق والكويت . ولم يكن قد أخذ بمبدأ المنافسة بعد في إيران
حينما قام مصدق بناميم شركة البترول الإنجليزية الإيرانية في سنة ١٩٥١ ، لذلك
صارعت الشركات بتطبيق المبدأ على إمارات الخليج الصغيرة : قطر والبحرين ،
والتي كانت تأتي متأخرة في تحسين شروطها عن الدول الكبيرة نسبياً .

تضاعف دخل الكويت والسعودية في الخمسينات أضعافاً عديدة ، ورجع ذلك
إلى الأخذ بمبدأ المنافسة من جهة وازدياد الإنتاج من جهة أخرى كتمويض عن
نقط إيران الذي توقف إنتاجه ما يزيد عن ستين . لذا يمكن القول أن العصر
الذهبي للكويت والسعودية إنما يعود إلى الخمسينات حيث كانت هناك
إمكانات شاسعة لزيادة الإنتاج . ومع ذلك فإن نظام المنافسة لم يجل من عدة
مترات وتعرض بعد وقت للاقتتاد . فما أخذ عليه أن الشركات ساذجة الانبياز
كانت تحقق أرباحاً من أعمال فورية كالسكرير ، والنقل والتسويق . ولا تدخل
أرباح هذه الأعمال ضمن الأرباح العامة التي تدفع عنها ٥٠٪ للدولة المنتجة .
كذلك لوحظ أن بعض الأنظار التخاذلة لا تستطيع أن تخضع حسابات
الشركات لرقابتها . وستسبق السعودية بالطالبة بضمين عضوين من رعاياها في مجلس
إدارة أرامكو للمشاركة في الإشراف على أعمال الشركة .

ومن الآخذ التي وجهت لنظام المنافسة أن الشركات كانت تحسب أرباحها
بعد خصم الضرائب التي تقدمها للدول المسجلة فيها . كما لوحظ أنها تنال في منق

وقد بدأت هذه الشركات الوطنية أعمالها في أضيق نطاق ، فلم تتجاوز أسط
عمليات صناعة البترول ، ألا وهي توزيع البترول ومشتقاته داخل أراضي الدولة
صاحبة الشركة. وبعضى الوقت أخذت هذه الشركات الوطنية تتوسع رويداً رويداً ،
فشملت أعمالها بناء المرافق ومد خطوط الأنابيب الداخلية الصغيرة . وقد أسست
الشركة الوطنية الكويتية في سنة ١٩٦٨ مصفاة الشعيبة الكبيرة ، وأسيعن
تكرر داخل البلاد كميات تتجاوز كثيراً استهلاكها المحلي ، وبالتالي سارت
بحاجة إلى شراء جزء من الإنتاج وتسويقه في الخارج ولم يكن بوسع أصحاب
الامتياز أن يمارضوا في دخول هذا المنافس الجديد على الأسواق العالمية .

ومع تطور الوعي لدى شعوب دول البترول ، وقيام النظام الجمهوري في
العراق ، وحصول الكويت على الاستقلال ، نهبا الجو السياسي في أوائل الستينات
لإدخال تعديلات هامة جديدة على علاقة الشركات بالدول المنتجة . وقد رأينا
كيف كانت الشركات الكبرى تنسق أعمالها وتكون الاتحادات الاحتكارية ،
بينما انتقدت الدول المنتجة كل وسائل التنسيق فيما بينها . ولا أدل على ذلك من نشر
إيران في محاولة التأميم سنة ١٩٥٩ فقد استطاعت الشركات أن تموض النفص
وغم حاجتها إلى مزيد من الإنتاج بسبب حرب كوريا . ووجدت في إمارات
الخليج مقسماً سهلاً لسد النقص . لذلك فإن إنشاء منظمة « أوبك » يعد خطرة
هامة في تاريخ علاقة الشركات بالدول المنتجة . وقد بنيت الفكرة أصلاً في مؤتمرات
البترول العربية إلى أن تكونت هذه المنظمة سنة ١٩٦٠ من الدول العربية ذات
الإنتاج الكبير الذي يسمح بالتصدير ، بالإضافة إلى الدول الأخرى الموفرة في
مجال تصدير النفط مثل إيران وفنزويلا . وبفضل هذه المنظمة صار في الإمكان
إخضاع الشركات لمطالب الدول المنتجة .

ولقد اتخذ العراق إجراء هاماً في عهد عبد الكريم قاسم ، وذلك حينما سحب
جميع الأراضي غير المستغلة من شركة نفط العراق ، واعتبر الشركة الوطنية
العراقية هي صاحبة الحق في استغلال بترول البلاد . ولها أن تتفق مع الشركات

الأخرى على أسس جديدة للاستغلال . والذي يعطينا ههنا هو تطور نظم الاستغلال
في إمارات الخليج . وكانت الكويت هي أسبق الإمارات إلى تعديل نظمها .
فقد انفتحت مع الشركة الأصلية على أن تتنازل عن نصف مساحة القطر الذي كان
داخلها كله في عقد الامتياز ، وبالتدريج أخذت الشركة تتخلى من ثلثها نفسها
عن مساحات أخرى ، ثم شرع مجلس الأمة الكويتي منذ سنة ١٩٦٤ يطالب بتعديل
نظام التامسة . واستطاع أن يفرض على الشركة إعطاء الكويت جزءاً من الإنتاج
بتدريج ١٢٦٪ لتسويقه لحسابها . وبقي الخلاف حول كيفية سعر هذا الجزء ،
هل يقدر على أساس سعر الشكفة ، أم على أساس السعر الذي تستري به شركات
التوزيع الأجنبية . ولا شك أن وجود مجلس نيابي كان من شأنه تحسين شروط
الامتياز . ويختلف الأمر في ذلك عن بعض الإمارات المتخلفة حيث مازال النفط
يعتبر ملكاً للحاكم ، ويتم الاتفاق بينه وبين الشركات مباشرة .

على أن الإمارات الصغيرة لم تقدم هي الأخرى المنازعات مع الشركات صاحبة
الامتياز . ومن أشهر هذه المنازعات وأقدمها ما نشأ بين قطر والشركة صاحبة
الامتياز فيها ، فقد اعتبرت نفسها مالكة لجميع مساحة البر وما حول شبه الجزيرة
من مياه إقليمية . ولم يكن منصوباً على المياه الإقليمية في عقد الامتياز الأول .
ولكنها اعتبرت دخوله أمراً ضمناً علماً أنها منعت الامتياز في جميع أراضي
الشيخة . ورفضت حكومة قطر الخلاف إلى التحكيم حسباً بمجده نظام الامتياز .
وفضت هيئة التحكيم لصالح قطر ، ولشركة سوويريور الأمريكية التي حصلت على
امتياز التنقيب في المياه الإقليمية .

لقد أشرنا فيما سبق إلى العوامل السياسية التي أدت إلى تطوير نظم الاستغلال
وهناك عامل اقتصادي لا بد من التنبيه إليه ، وقد ساعد على السري في نفس الاتجاه .
ونعني بذلك دخول شركات جديدة صغيرة إلى مجال المنافسة . وبعض هذه الشركات
أمريكية مثل « جيتي » في المنطقة الحامدة في السعودية ، « أمن أويل » في المنطقة
الحامدة الكويتية . غير أن معظم الشركات الجديدة تحمل جفسيات يمانية وأسيانية

تت اتفاقية طهران الآجال الأصلية المنصوص عليها في العقود، ولعل ذلك أهم
كسب حقته الشركات . أما الدول فقد حققت أيضاً زيادة في نصيبها من
الأرباح .

تعرضت اتفاقية طهران التي وقعت في ١٤ فبراير سنة ١٩٧١ لانتقادات
عديدة من بعض الأنظار الأخرى المنتجة ، والتي قطعت شوطاً أبعد في
سبل السيطرة على نظامها مثل الجزائر وليبيا . ومع ذلك فللاتفاقية منزى هام
بإقرارها أول اتفاق جماعي تدخل فيه دول الخليج المنتجة للبتترول على اختلاف
جنسيتها ودولها كطرف واحد في اتفاقية مع الشركات صاحبة الامتياز . وفي
التي كانت اتصالات الشركات هي التي تدخل بصفة جماعية مع كل دولة
على حدة .

انصبت اتفاقية طهران على نقطتين : زيادة نصيب الدول المنتجة من الأرباح ،
والنزاع في تحديد السعر ، ولكنها لم تمس نظم الامتياز ذاتها وحتى فيما يتعلق
بمسألة السعر فإنها لم تزل الخلافات ، إذ ما كاد الاتفاق يتم حتى تعرض الدولار
لمؤثرات إلى تخفيض سعره ، فاضطرت دول البترول إلى المطالبة بالتعويض عن
هذا التخفيض ورفضت سعر البترول ٨ ٪ أى بنفس نسبة التخفيض ، وأخذت
تفكر في التخلي عن الدولار كأساس للتعامل في تجارة النفط ، نظراً لكثرة
ما تعرض له من تقلبات خلال عام ١٩٧٢ ، ١٩٧٣ واشتدت الدعوة إلى التخلي
عن الدولار بعد حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ ، وذلك كنوع من الحرب الاقتصادية
ضد الولايات المتحدة ، كما أن هذه الحرب بورت للدول العربية المنتجة للبتترول
رفع السعر مرة أخرى بنسب عالية ، وذلك حتى تموض عن التخفيض في الإنتاج
الذي قررته كسلاح من أسلحة الصراع ضد إسرائيل .

وبينا كانت دول البترول تخوض معركة الأسهم مع الشركات أجهت إلى
السيطرة على صناعة النفط بوسيلة أخرى ، ألا وهي تطبيق نظام المشاركة .
(م ٩٢ — التيارات)

واللانية ويقال أن الرأسمال الأمريكي يستتر وراء بعض هذه الشركات ولا سيما
اليابانية منها . وتعمل هذه الشركات في مناطق يصعب التفتيش فيها ، ولذلك فإنها
لم تحتل مكاناً يذكر في مجال الإنتاج . ففي الكويت مثلاً مازالت الشركة
الأصلية تنتج ٩٢ ٪ من مجموع البترول المستخرج . وتقوم شركة اللانية بالتفتيش
عن البترول في أرض دبي ، بينما يمكنت مجموعة الشركات الإنجليزية الفرنسية
من الإنتاج في المياه الإقليمية لدبي منذ سنة ١٩٦٩ ، ورغم ذلك فإن الشروط التي
تعمل بمقتضاها هذه الشركات الصغيرة أكثر مراعاة لمصالح الدول المنتجة . ففي
السعودية ذهبت شركة إسبانية إلى قبول نظام القافلة ، أى العمل بالساعة
مع الشركة الوطنية .

وفي الكويت تماقت على أساس امتلاك الوطنيين لـ ٥١ ٪ من الأسهم ،
مما يضمن سيطرتهم على الشركة .

لقد تطلب تدبيل نظام الاستغلال مع الشركات الكبرى قدراً أكبر من
التضامن بين دول الخليج . وللمرة الأولى في تاريخ المنطقة تقوم هذه الدول
بالتفاوض جماعياً مع الشركات في مؤتمر عقد في طهران أوائل سنة ١٩٧١ ، وقد
انتهى هذا المؤتمر بوضع مبادئ جديدة لنظم الاستغلال . ففي الحالات التي ظل
فيها نصيب الدولة المنتجة عن ٥٥ ٪ من الأرباح فإنه يرفع فوراً إلى تلك النسبة.
وعلى الشركات أن تزيد من أسرار البترول الملن بنسب متفاوتة تصل إلى ٣٣ سناً
للبرميل . وتطبق هذه النسبة بالتدريج حسب نوع النفط وسهولة نقله . وتلتزم
الدول المنتجة بقبول الأسهم الجديدة مدة خمس سنوات . وتصدت دول الخليج
الموقعة على اتفاقية طهران بالأدعم المطالب الأخرى التي قد تقدم بها أعضاء
آخرون في منظمة « الأوبك » للحصول على تديلات جديدة . ولكن إذا
حصلت ليبيا أو غيرها على زياده في السعر ، من نفس الشركات العاملة في الخليج
فلدول المنطقة أن تطلب زياده السعر ، مع ملاحظة فرق النقل والتكلفة . وأخيراً

٦ - والمشاركة: ليس مبدأ المشاركة بمجديد في حد ذاته فهو يعود إلى سنة ١٩٥٧ حينما وقعت شركة إيني بعض اتفاقيات على أساس هذا البند ، وقد مال إليه مصر في اتفاقاتها مع الشركات الأجنبية .

ولما تشكلت رموس أموال وطنية وشركات وطنية في دول البترول زرع هي الأخرى إلى تطبيق هذا النظام مع الشركات الصغرى التي تقلعت بهروض للتنقيب مثل شركة هسبانيولا التي وقعت اتفاقاً على هذا الأساس مع حكومة الكويت سنة ١٩٦٨ .

الجديد إذن في الأمر هو إلزام الشركات الكبرى صاحبة الامتيازات التقليدية في أن تتنازل عن جزء من رأس المال لصالح الشركات الوطنية نسبة ٥١٪ مما يسمح للشركات الوطنية بالسيطرة على إدارة أعمال الشركات العاملة لديها . وقد جاء التفكير في هذا الاتجاه نتيجة توصية منظمة أوبك في ديسمبر ١٩٧٠ .

والفرق بين المشاركة والتأميم الجزئي ، هو أن النظام الأول يتم نتيجة اتفاق بين الحافزين ، أما التأميم فيتحقق بقرار مفرد تتخذه حكومة الدولة المنتجة . وقد تم المشاركة نتيجة تنازل اختياري من الشركة الأجنبية . حدث ذلك مثلاً في الجزائر حينما تنازلت شركة جيبي الأمريكية سنة ١٩٦٨ عن ٥١٪ من أسهمها لصالح سوناراك .

أما الشركات الكبرى فقد قاومت في بداية الأمر فكرة المشاركة ، ولما حجت بأن مؤتمر طهران يلزم دول الخليج ألا تسمى لمدة خمس سنوات لتغيير البائد ، التفت عليها . ولم تكن هذه حجة مقبولة نظراً إلى أن اتفاقية طهران كانت تخص الالتزام بالأسمار ، وليس نظام الامتياز في حد ذاته . لذلك لم يجد الشرك العملقة بدا من الموافقة مبدئياً على نظام المشاركة ، وكانت دول الخليج قد اقترحت أن تبدأ بتحويل ملكية ٢٠٪ من الأسهم للشركات الوطنية . على أن تزيد هذه

الناركة بالتدريج حتى تصل إلى ٥١٪ بحلول عام ١٩٨٥ ، غير أنها استطاعت أن تعمل إلى تغيير اللدة ، والبند بـ ٢٥٪ بدلاً من ٢٠٪ وكانت دول الخليج قد وكن إلى أحمد زكي الحاي وزي اللفظ السورى مهمة الصياحت باسمها مع الشركات . وتم التوصل إلى الاتفاق في أكتوبر سنة ١٩٧٢ على النحو التالي :

نسهم الدول العربية الوقمة على الاتفاق وهي السعودية والكويت وقطر وأبوظبي تدريجياً في رأس مال الشركات حتى تصل نسبة الساهمة إلى ٢٥٪ سنة ١٩٧٨ ثم ترفع هذه النسبة بمعدل ٥٪ سنوياً حتى عام ١٩٨٢ لتصل إلى ٤٥٪ ثم ترفع القيمة الأخيرة بمعدل ٦٪/١٩٨٣ لتصبح ٥١٪ .

وزك لكل دولة أن تعتمد على انفراد كيفية التمويل عن نقل ملكية رأس المال . ولا شك أن مسألة التمويل تثير خلافات شديدة ، فهل يتم ذلك بناء على الأصول القديمة ، أم على القيمة التزايدية التي يضيفها الربح الرأسمالي على قيم الأسهم ؟ . فتقدر الأصول القديمة لتمويل شركة أرامكو بـ ٢٠٠٠ مليون دولار ، بينما لو أخذ الربح الرأسمالي في الاعتبار بالإضافة إلى التناكث ، لكان على السعودية مثلاً أن تدفع تمويلاً يقدر بـ ٥٠٠٠ مليون دولار .

وبالإضافة إلى إزراء مبدأ التمويل فقد تمهدت الدول المنتجة بتوفير حاجات الولايات المتحدة من البترول باعتبار أن الشركات الأساسية التي دخلت طرقاً في هذا الاتفاق هي شركات أمريكية .

وعند مقارنة هذا التمهيد باتفاقات المشاركة السابقة يلاحظ أن الدول المنتجة في الماضي من التي كانت تأخذ على الشرك الأجنبي تمهيداً بأن يسوق نصيب الشرك الوطني . كما حدث في الاتفاق بين الكويت وهسبانيولا سنة ١٩٦٨ ، أما الاتفاق الجماعي الذي وقع في نيويورك سنة ١٩٧٢ فقد عكس الآية وتمهدت الدول المنتجة بتزويد الولايات المتحدة بمخارجها من البترول و يرجع ذلك إلى

ومن هذه الآخذ أن الجانب الوطنى قد يضطر إلى منح تخفيضات تزيد على تلك التى تمنحها الشركات الكبرى التحكيم فى الأسواق . ومنها أيضاً أن نظام المشاركة يكلف الجانب الوطنى بنصيبه من نفقات التقيب ، وهى تستنزى أولاً قبل دفع الضرائب والرسوم . ولا ينطبق هذا الاعراض الأخير بطبيعة الحال إلا على العقود الجديدة . أما بالنسبة للشركات الكبرى صاحبة الامتيازات القديمة فإنها قد انتهت من مرحلة التقيب .

والواقع أن هذه الآخذ حتى لو سلمنا بصحتها فهى لا تقلل من أهمية المشاركة ، سيما وأن مشكلة تسويق البترول تتلشى بالتدرج . بل إن أزمة الطاقة العالية التى ظهرت بوضوح بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ تلتقى كثيراً من الفاهيم التى كانت شائعة حول تجارة البترول .

ازدياد استهلاك النفط على المستوى العالمى ، وعدم تمكن الولايات المتحدة من كفاية حاجاتها . ولعل ذلك الموقف هو الذى جعل الشركات الكبرى تلجئ لنظام المشاركة .

وثمة ظاهرة جديدة أخرى ، وهى أن الحكومة الأمريكية اشتكت من مباحثات المشاركة الجماعية بعد أن كانت تترك مثل هذه الأمور لشركات القطاع الخاص .

ولنظام المشاركة ميزات هامة ، كما أنه وجهت إليه بعض المآخذ . فمن مميزات هذا النظام أنه يفتح للشريك الوطنى فرصة المشاركة فى جميع مراحل صناعة البترول من الإنتاج إلى النقل والتسويق وقيل فى هذا الصدد إن روس الأموال العربية ستفتح آفاقاً جديدة للاستثمار فى أوربا وأمريكا . ويقضى نظام المشاركة بإخضاع الشركات الأجنبية للشرع المحلى فى حالة نزاع بينها وبين حكومة الدولة المنتجة . أما إذا كان النزاع بين المؤسسة الوطنية وبين الشركة الأجنبية فإنه يخضع للتحكيم . ومن ميزات المشاركة أنها تتيح الفرصة أمام الدولة المنتجة لتكوين جيل من خبراء فى شتى مراحل صناعة البترول . وفوق ذلك كله فإن المشاركة خطوة إيجابية نحو التأمين ، بل هو تأمين جزئى يتحقق بدون إثارة المشكلات التى قد يحدثها التأمين الشامل دفعة واحدة نظراً لعدم تجارة البترول العالمية .

على أنه قد وجهت بعض المآخذ على نظام المشاركة . من ذلك ما قبل من أنه قد يؤدى إلى تقليل نسبة الأرباح وخاصة بعد أن رفعت اتفاقية طهران هذه النسبة إلى ٥٥٪ ويرجع ذلك إلى أن عقود الامتياز المادية تنص على عاسبة الشركات على أساس الأعمار الملمنة ، وبذا لا تتأثر بالخصومات النالمة فى تجارة البترول . أما نظام المشاركة فتتم فيه الحاسبة على أساس الأساس الفعلية .

المهدد . وقد استعانت المهدد في سنة ١٩٤٧ ، فالماذا تسبب الإنجليز بمطالبة الخليج ودعموا فيها قوا عدم العسكرية ؟

والحق إن هناك من الشواهد ما يبرر هذا الاتجاه في التفكير . فابجحة المصحف البريطانية منذ سنة ١٩٥٥ هو أنه يبين الدفاع عن المصالح البريطانية في الخليج ضد التهديد للوجه لها من حركة القومية العربية النشطة من مصر ، أو ضد رغبة الدولة السعودية في أن تبسط نفوذها على الإمارات الصغيرة المجاورة .

وحينما قررت بريطانيا الانسحاب من الجنوب العربي في سنة ١٩٦٦ أعلنت أنها ستترك وجودها العسكري على بضع قواعد موزعة بين إمارات الخليج ، بل قيل إن بريطانيا دفعت عبد الكريم قاسم بطريق غير مباشر إلى المطالبة بضم الكويت حتى تشعر هذه الإمارة بالحاجة إلى حمايتها .

وهذه الشواهد كلها تنطبق على الفترة التي كانت إمارات الخليج تمر خلالها في حالة بدائية وخاصة في القسم الجنوبي ما بين قطر وعمان . وكان لابد من مضي بعض الوقت حتى تتوفر فيه مدخرات لدى هذه الإمارات لتستطيع إقامة أجهزة عسكرية من جيش وشرطة وإدارة منظمة حتى إذا تم لها ذلك سسارت بريطانيا تفصل رفع يدها عن التدخل المباشر بشرط أن تكون الأنظمة الحاكمة من نوع الأنظمة المحافظة التي تعمل إلى صداقة بريطانيا من جهة ، ومسايرة أهوال المجتمع القبلي في مرحلة تطوره الأولى نحو المجتمع الحديث .

وذلك لأن الأنظمة الثورية قد تحدث نوعاً من التوضى والاضطراب لأن المجتمع غير مهيب . لهذه الطائفة ، مما يضر في نهاية الأمر بمصالح الشركات البريطانية . إذن فقد كانت بريطانيا تشجع التطور ولكن في إطار محدود وهناك مشالان شهيران على تدخل بريطانيا بطريق غير مباشر لتبديل أوضاع

المفصل الثامن عشر

نتائج استقلال النفط

النتائج السياسية

ترك النفط آثاراً بعيدة في حياة الإمارات وتمكينها من إقامة أجهزة دولة عصرية ، ولكن نتائج البترول السياسية لم تقتصر على إمارات الخليج ، بل امتدت إلى الوطن العربي بأكمله ، كما نأكد ذلك بإسراع دول الخليج إلى الساعمة في معركة النفط في أكتوبر ١٩٧٣ ، ولكن كيف تحقق لهذه الدول الصغيرة أن تلعب هذا الدور الفعال الذي شملت آثاره جميع أنحاء العالم ؟

من المؤكد أنها لم تصل إلى هذه المرحلة إلا بعد المرور بخطوات متوالية من التطور . ومن أبرز هذه الخطوات المعول على الاستقلال السياسي ، ثم تكون المدخرات التي جمعت هذه الدول قادرة على التعامل مع الدول الصناعية الكبرى على قدم المساواة ، بحيث استطاعت أن تمتنع عنها البترول في الوقت المناسب ، وستتناول فيما يلي أهم ظاهرتين سياسيتين نشأتا عن استقلال النفط في الخليج ، وهما الاستقلال وتدعيم الكيانات المحلية .

١ - البترول كعامل لمؤسفة دول :

تردد الكتابات العربية القول بأن الوجود العسكري البريطاني استهدف حاجة المصالح البترولية ، ولذلك فإنه اتسع حجمه في الخمسينات وأوائل الستينات ، رغم أن أصل هذا الوجود إنما يرجع إلى أن الخليج كان يعتبر خط دفاع أممي عن

عن إبداء الضم الذي كانت تفادى به من قبل ، كما توقفت المطالب السعودية الإقليمية في سلطنة مسقط أو إمارة أبو ظبي من الناحية العملية على الأقل .

وبقي بعد ذلك السؤال التالي مطروحا ، وهو : هل كان البترول عاملا مساعدا على بلوغ الاستقلال أم . مرفلا له . وإذا استقرنا تاريخ بعض دول البترول لانصح أنا أنه كان عاملا رئيسيا في تمكين دول عربية فقيرة من تحقيق استقلالها . وأوضح مثل على ذلك هو إمارات الخليج التي كانت تتلقى مونة مالية بريطانية في مقابل خضوعها لنظام الحماية

٢

تدعيم السكيات المحلية

إذا كان من الصعب علينا استخلاص رأى حاسم فيما يتعلق بدور البترول في تدعيم الاستقلال أو عدمه ، فإننا على العكس لا نتردد في القول بأن البترول قد دعم النزء الإقليمية لدى الدول المنتجة وشموها أيضا . واستمرار وضع التجزئة جمل الشركات تطمئن على أوضاعها وخاصة فيما يتعلق بإجراءات التأميم . فالإمارات الصغيرة أقل قدرة على اتخاذ مثل هذا الإجراء وتزداد هذه النزعة الإقليمية قوة لدى الدول الصغيرة قليلة السكان ، محدودة المساحة حتى أنه يمكن استخدام مصطلح « إقليمية النفط » وهي تلامح طابع الأنانية التي هي غريزة إنسانية ، والفراتز أقوى من الأفكار القالية مثل فكرة القومية العربية . ويمكن ضرب بعض الأمثلة على أثر البترول في تدعيم النزعة الإقليمية . (أولا) عندما تكون اتحاد الإمارات العربية استغنى الثروة النفطية من الخضوع لأجهزة الاتحاد ، فاحتفظ الإمارات المنتجة وهي أبو ظبي ودبي ، والشارقة في المستقبل الذريب ، بحرية التصرف في دخلها من النفط وهي تنفذ الأجهزة الاتحادية بجزء من ثروتها دون التقيد بنظام محدد . حقيقة إن الفاض يسكن لإحداث تغييرات

إمارات النفط كبا تصبح أكثر مسارة للتجديد ، وحتى تمنع ثورة ملائكة النفط المديقة لها .

النال الأول ما حدث في أغسطس سنة ١٩٦٦ من عزل الشيخ شخبوط (أبو ظبي الذي كان يريد أن يضرب سياجا من العزلة الكثيفة على إمارته حتى أنه يخوف من افتتاح مدارس ابتدائية . فشجعت السلطات البريطانية الأسرة الحاكمة على اختيار الشيخ زايد بن سلطان المعروف بافتتاحه على العالم الخارجي لحكم الإمارة .

أما النال الثاني فقد وقع في سلطنة مسقط وعمان ، إذ كان سعيد بن بدير يسير على نفس سياسة شخبوط . فشجعت بريطانيا انقلابا أسريا أطاح بهذا السلطان في يوليو سنة ١٩٧٠ وحل به السلطة ابنه قابوس خريج كلية ساند هيرست .

ومنذ أن اتخذت بريطانيا قرار الانسحاب العسكري من منطقة الخليج سنة ١٩٦٨ وهي تعد الترتيبات التي تضمن بقاء النظم المديقة لها . ففي منطقة الإمارات المتحدة كان من الصعب ترك البلاد وهي مجزأة إلى وحدات متباعدة لا يتجاوز سكان بعضها خمسة آلاف نسمة دون ترتيب نظام اتحادى يضمها كيان سياسى واحد .

ولهذا فقد توسمت بريطانيا في البحوث الطويلة الشاقة بين الإمارات التسع ثم السبع حتى تم الاتفاق على قيام النظام الاتحادى المعمول به في دولة الإمارات المتحدة .

و من بين الترتيبات التي اتخذتها بريطانيا قبل الانسحاب تأمين وضع الإمارات وعدم تعرضها لمطالب إقليمية من الدول الكبيرة المجاورة . فأعلنت الحكومة الإيرانية عن قبولها مبدأ تقرير المصير في البحرين ، و ترتيب

بمسماحة الحماية على إمارات الخليج والجنوب العربي، وبين الدولة العثمانية مسماحة السيادة الاسمية داخل شبه جزيرة العرب. ورغم أن الاتفاقية لم تتم المصادقة عليها فإنها ظلت فترة طويلة مرجعاً للمنازعات الحدود، ويبدو ذلك بطبيعة الحال إلى أن لها ميزة السبق.

وقد تناوت هذه الاتفاقية تخطيط الحدود بين نجد والأحساء من جهة، وبين إمارات الخليج من جهة أخرى. ثم بين الكويت وولاية بغداد العثمانية.

أما حدود الحميات في الجنوب العربي فقد خضعت لها اتفاقية ثانية في سنة ١٩١٤، ولم يصادق عليها بدورها. ومع ذلك فهي لم تتر خلافاً حادة، لأن البترول لم يتم اكتشافه في هذه المناطق، بل إن السعودية التي تشهدت في حدودها الشرقية، أبدت تساهلاً غير متوقع في حدودها الشمالية الحاذية لإمارة شرق الأردن. فقد تخطت عن إدارة مدينتي العقبة ومعان اللتين كانتا تتبعان الحجاز. وبعد استيلاء آل سعود على هذا القطر تخلوا مؤقتاً عن إدارة الديتين لصالح الأمير عبد الله وكسبا لصدقة بريطانيا. ثم تنازلت بصورة نهائية عن الديتين في سنة ١٩٤٦، ويجمع ذلك الوقف إلى عدم توقع ظهور البترول في هذه المناطق.

لقد كانت الحدود الشرقية مشار خلافاً بين الشيوخ العرب من جهة، وبين آل سعود من جهة أخرى منذ القرن التاسع عشر، ولكنها لم تتخذ شكلاً حاداً إلا في أعقاب منع شركة البترول الأمريكية امتياز التنقيب في شرق المملكة. وازداد الخلاف حدة بعد أن منحت شركة نفط العراق امتياز التنقيب في قطر سنة ١٩٣٥، وفي مسقط وعمان سنة ١٩٣٧، والإمارات السبع بين عامي ١٩٣٧، ١٩٣٩.

ومما يستدعي الانتباه أن الولايات المتحدة انجبت إلى بريطانيا للتعرف على

هائلة في معيشة عشرين أو ثلاثين ألفاً من مجموع سكان الإمارات الأربع غير المنتجة، ولكن استثناء النفط من الخضور للنظام الاتحادي هو دال على عظم الأهمية الاستراتيجية. (ثانياً) كان بعض الشباب المستعير في الكويت يتطلع في الثلاثينيات إلى الاتحاد مع الجار الشمالي الأكثر تطوراً، وهو العراق، مما رافق ثروة النفط أخذت هذه الفكرة اقتراجاً بالتدريج إلى أن اندثرت تماماً مع إعلان استقلال الكويت سنة ١٩٦١، وكرس كثير من التقنيين جهودهم للاستقلال على أن الكويت كان دائماً منفصلاً عن ولاية بغداد حتى في العصر العثماني، ولم يرددون بذلك وجهة النظر الرسمية. (ثالثاً) أخفقت جميع الجهود لإقامة هيئة اقتصادية مشتركة أو صندوق عربي للتنمية تساهم في تمويل الدول الناجمة للبترول حسب دخلها وظروفها المحلية. وآثرت دول البترول أن تقدم المساعدات لمشتقاتها العربية عن طريق الاتفاقات الثنائية. وكانت شديدة الحساسية إزاء كل اقتراح يستهدف إنشاء جهاز منبثق عن الجامعة العربية مثلاً، تكون له سلطة إلزامية فوق سلطات الحكومات لجمع الأموال وإتقانها في الشروعات العمرانية حسب خطة عربية ملسقة. وسنعود إلى تناول هذه النقطة عند الحديث عن أثر البترول في المجال الاقتصادي. (رابعاً) أثار البترول منازعات بشأن الحدود لم تكن معروفة من قبل في شبه جزيرة العرب، خرجت به إحدى الدول عن قاعدة الإقليمية للبترول.

احتدمت منازعات الحدود بين الدول الواقعة في شبه جزيرة العرب، لأن أحداً لم يهتم في الماضي بتخطيط الحدود في تلك المناطق غير المطروقة. وكان أنظمة الحكم التقليدية في شبه الجزيرة تكتفي بالحصول على ولائ شيوخ القبائل بصورة شخصية وليست رسمية. ولما لم يكن للقبائل دائماً موطن محدد فإن فكرة الحدود الجغرافية المبنية على خطوط محددة لم توضع في الاعتبار. ولعل أول محاولة لتخطيط مثل هذه الحدود إزاء ترجع إلى مشروع اتفاقية بين بريطانيا

عن التوصل إلى تسوية لأية نقطة من نقاط الخلاف . فهل تنفصل أعمال التنقيب ؟

لقد وسطت الولايات المتحدة في هذا النزاع فاقترحت ما سمي باتفاقية التوقف بشأن مستقبل واحات البورمي ، فلا تتدخل في إدارتها أي من الأطراف المتنازعة ، وبما تترك الحرية لشركات البترول في التنقيب حسب الخرائط الممنوعة لديها ، ولكن السعودية اعتبرت مسألة البورمي حكماً لها فيها في شبه الجزيرة ، وطالبت بإجراء استفتاء حر ، وقالت إن الذي يعينها هو إثبات حق السيادة ، وليس تحقيق مكاسب إضافية من دخل البترول . والواقع أن كل فريق أخذ بهم الشركات البترولية بتحرير الأهل ضد الطرف الآخر . فعندما استقر الرأي على رفع الخلاف إلى محكم دولي وحسب وجهة النظر البريطانية وانقضت هيئة التحكيم بالفعل في مدينة ديس تحت رئاسة بلجيكي خلال شهر سبتمبر سنة ١٩٥٥ ، فوجئت هيئة التحكيم بالندوب البريطانيين بهم السعودية بأنها تدفع الرشاوى لوعاء القبائل وتستخدم قرونها البترولية بتأييد من شركة أرامكو لإغراء السكان بمبالغ طائلة ، كما أنها توزع عليهم الأسلحة . ولذلك أعلن ممثل بريطانيا انسحابه من الهيئة ، وبهذا أمسد خطة التحكيم ، كما عطل من قبل مشروع استفتاء السكان .

وعلى أثر ذلك نشرت السعودية بياناً أكدت فيه أن شركة نفط العراق تحول الشرطة التابعة لسقط ومشيجات ساحل عمان كما تثير القبائل القاطنة في مناطق النزاع .

ويبدو أن اتقوى إبدن اعتبر هذه القضية الثانوية ماسة بهيبة بريطانيا في الخليج ، لذا قرر استخدام القوة لحل هذا النزاع ، فأرسل قوات بريطانية في أكتوبر ١٩٥٥ استولت على واحات البورمي باسم حاكمي أبوظبي وسقط ، ولكن ذلك لم يكن وحده كافياً لتأمين أعمال التنقيب التي تقوم بها شركة نفط

الحدود الشرقية للمملكة العربية السعودية ، وذلك اعترافاً بمركز بريطانيا البارز في الشرق الأوسط ، وربما توقعت أن يجد لدى بريطانيا أيضاً الوثائق والخرائط التي تساعد على توضيح الحدود . غير أن السعودية لم تنسأ أن تنف موقف التفرج على هذا الجدل الذي يعينها بالدرجة الأولى ، فتقدم مندوبها فؤاد حمزة بشرع حدود يفتح للسعودية أن تمتلك منفذاً على البحر جنوب قطر . ولتحقيق هذا الهدف ادعت السعودية خطها في ملكية سدس شبه الجزيرة وهو الجزء الواقع بين قطر وأبوظبي . كما أنها رسمت خطاً يضيّق من مساحة الشيوخات الأخرى في داخل شبه الجزيرة .

وردت بريطانيا في مذكرة سنة ١٩٣٥ تضمنت أساسيات مختلفة على غلبة شبه جزيرة قطر ، وامتداد مشيخة أبوظبي في الداخل . ولكنها سلمت بأن اتفاقية سنة ١٩١٣ لم تعد جائزة . وبالتالي فيمكن ترك معظم الربع الخالي ضمن الحدود السعودية . والواقع أن بريطانيا أخذت في الاعتبار أوضاع المجتمع العربي في شبه الجزيرة ، فبنت هي الأخرى حقوق أبوظبي وغيرها من الإمارات على أساس الولاء القبلي والتراث التاريخي .

توقف الجدل حول الحدود أثناء الحرب ، فلما جددت الشركات نشاطها في التنقيب وظهر مهندسو شركة أرامكو فوق المناطق المتنازع عليها في سنة ١٩٤٩ ، استؤنف النزاع بصورة أكثر حدة ، واتخذ الفريقان المتخاصمان مواقف متطرفة بالقياس إلى مطالب سنة ١٩٣٥ ، فباسم قطر وإمارات الخليج الأخرى طالبت بريطانيا بإحياء خط الحدود المتفق عليه مبدئياً في مشاهدة سنة ١٩١٣ مع الدولة العثمانية ، بينما قدمت السعودية مطالب إقليمية جديدة في شبه جزيرة قطر ، وعلى امتداد الحدود المشتركة مع الشيوخات ، وتصل هذه المطالب إلى مسافة ١٧٥٠ كم . بحيث تشمل معظم أراضي أبوظبي ، لذلك رأى عقد مؤتمر في الدمام سنة ١٩٥٠ ، اشترك فيه الأمير فيصل وزير خارجية السعودية ، وممثلون عن حكومات الإمارات تحت إشراف القيم البريطاني في الخليج ، ولم يسنو التمر

العراق في منطقة القهود شمال غرب عمان . ففي الوقت الذي كان فيه النزاع عتدا حول واحات البويري ظهرت حركة مضادة لسلطان مسقط زعمها الإمام غال بن علي ، إذ صار ينادى باستقلال عمان الداخلية استقلالاً تاماً ، وليس مجرد اليتم بالحكم الذاتي حسباً جرى عليه العرف منذ توقيع معاهدة السيب بين سلطان مسقط والإمام الخروصي . وقد كانت السياسة التقليدية البريطانية حتى ذلك الوقت ، هي عدم التورط في المنازعات داخل شبه الجزيرة أما وأن القضية سارت تنمق الآن بمصالح بريطانية ، فقد خرجت بريطانيا عن سياستها تلك ، وأرسلت حملة عسكرية لتثبيت سلطة حاكم مسقط في الداخل ، واضطرت إلى الاخطاء ببعض الضاميات ، لأن أنصار الإمامة لم يستسلموا رغم سقوط المدن الحامة في يد البريطانيين وفي سنة ١٩٥٧ أعادوا الكرة واستولوا على مدينة نزوى وعبري ، وكان على بريطانيا أن تجرد حملة ثانية حتى تؤمن أعمال شركة مسقط وعمان المتفرعة من شركة نفط العراق . وبفضل الاكتشافات البترولية استطاع حاكم مسقط أن يحمل بالتفويض عمل بريطانيا لتثبيت سلطته في الدولة المستقلة الجديدة التي صارت تعرف باسم « عمان » .

ومن أبرز نزاعات الحدود الناجمة بطريق غير مباشر عن استقلال النفط ذلك النزاع الذي نشأ بين الكويت والعراق ، فقد كان يدور في الأصل حول قريتين صغيرتين هما أم قصر وصفوان . واستطاع العراق أن يحصل أثناء استقلاله على المركزين ولكن منطقة تحيط بأم قصر الواقعة على ساحل الخليج تحمل نفس الاسم ، وتدخل ضمن الأراضي الكويتية . وفي السنوات الأخيرة أولى العراق عناية باستقلال نفط الجنوب ورأى أن أفضل سبيل للتحكم في نقل بترول هو إيجاد مصب في الأراضي العراقية نفسها ، ولذلك أخذ يطور ميناء أم قصر ويمته ، كما مد خط أنابيب ينقل النفط المستخرج من حقول البصرة وحقول شمال الرملة إلى هذا الميناء . هذا من جهة ومن جهة أخرى يعتبر العراق نفسه أكثر الدول العربية المطالة على الخليج تطوراً من الناحيتين السياسية والمسكرية . . . وأنه أقدر من غيره

على مواجهة الأنواع الإيرانية والدفاع عن عروبة الخليج . ومن أجل هذين السببين : الاقتصادي والعسكري ، طالب العراق بجزيرتين غير مسكونتين تحدها شاطئ الكويت مما ورية وبوبيان . ومن المحتمل وجود النفط حول الجزيرتين ولكن الهدف المعلن هو الحصول على موقع استراتيجي تتمكن البحرية العراقية العالمية من استخدامه لمواجهة التفوق البحري الإيراني في الخليج . ورغم تطالع العراق أيضاً إلى إجراء تعديل في الحدود بفتح عمقا جغرافيا وراء ميناء أم قصر ، ويؤمن خط الأنابيب الذي يسير على مقربة من الحدود الكويتية .

تلك هي وجهة النظر العراقية التي طرحت أمام الجامعة العربية في أعقاب احتلال بعض مراكز الحدود الكويتية (٢٠ - ٣ - ١٩٧٣) وفي بيان التوتو الذي نجم عن هذا الاحتلال تمسك الكويت باتفاقية سنة ١٩٦٣ التي اعترف العراق بمقتضاها باستقلال الكويت وسلامة أراضيها . غسبر أن هذه الاتفاقية لم تكن تتضمن نصاً تفصيلياً عن تخطيط الحدود ، ولكن بوسع حكومة الكويت أن تجيب بأن الاعتراف بسلامة الأراضي يعني ضمناً القبول بخط الحدود المتفق عليه من قبل .

* * *

لم تقتصر المنازعات على البر ، بل أثار البترول مشاكل جديدة من نوعها تنمق بالياه الإقليمية ، وإمكان امتدادها إلى مسافات بعيدة . ففي الماضي كانت مسألة المياه الإقليمية تتوقف على اعتبارات عسكرية بحيث تمكن الدولة صاحبة السيادة من الدفاع عن نفسها ، وحينما كان مدى الدافع لا يتجاوز ثلاثة أميال ، صارت هذه المسافة هي القاعدة ، ثم مدت مع تقدم أسلحة الحرب إلى ١٢ ميلاً في بعض الحالات .

ولما تقدمت وسائل البحث العلمي في مجال استخراج الثروة الطبيعية من تحت سطح البحر ، وعلى رأسها البترول ، لم نعد هناك حدود تطامح الدول في

٣ - البترول والصراع ضد إسرائيل :

ليس استخدام البترول في الصراع ضد إسرائيل قضية خاصة بدول الخليج ، إذ أسهمت فيه جميع الدول العربية المنتجة للنفط ولكن نظراً لأن دول الخليج هي التي تنتج القسم الأكبر من البترول العربي لذلك رأينا أن نتتبع هذه القضية منذ بدايتها إلى أن أخذت تتوثق عمارها في حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ .

فند أن عقد أول مؤتمر للملوك والرؤساء العرب في سنة ١٩٤٦ للنظر في قضية فلسطين ، أشير إلى النفط كوسيلة من وسائل التأثير في هذا الصراع للرقب ، غير أنه لم يحدد خطة لاستخدام هذه الوسيلة . قبل الطلوع هو منع الشركات الأمريكية من مواصلة نشاطها إذا مضت حكومة واشنطن في تأييد الصهيونية ؟ أم أنه يكتفى بمنع إيصال النفط العربي إلى إسرائيل ؟

إن نظرة إلى ظروف العالم العربي وأوضاعه بين عامي ١٩٤٧ ، ١٩٤٨ تبين لنا أن الدخول في معركة ضد الشركات الغربية كان مستحيلاً . فالدول العربية كانت ما تزال في حاجة ملحة إلى زيادة دخلها الضئيل من النفط ، كما أن أزمة الوقود لم تكن ملومة بعد على المستوى العالمي . ومن العرب أن الدعاية الصهيونية قلبت الأوضاع فرفع هذا المعجز الواضح عن استخدام البترول في الصراع راحت الصهيونية تهتم الشركات الأمريكية العاملة في العالم العربي بأنها أداة ضغط على وزارة الخارجية الأمريكية مما جعل هذه الوزارة تتخذ مواقف مختلفة عن البيت الأبيض ، وبعبارة أخرى فإن زعماء الصهيونية كانوا يحسون أحياناً بتوتر وزارة الخارجية قليلاً في تأييدهم ، فيعززون ذلك إلى ضغط الشركات وأصحاب رؤوس الأموال الذين يتجاهلون قضايا العدل في ظنهم بخدمة مصالح خاصة لا وقبل في هذا الصدد إن البيت الأبيض كان دائماً أقرب إلى الصهيونية من وزارة الخارجية لأن الرؤساء لم يتأثروا بهذه العوامل الاقتصادية .

على أنه عندما نشب الصراع بالفعل في سنة ١٩٤٨ لم ينفلج العرب اتحاد (البيارات)

الاتحاد بهذه التروية ، تخرجت الولايات المتحدة في سنة ١٩٤٥ بنظرية « الحرف القاري » وهي تنبئ على أساس أن المناطق الضحلة تعتبر امتداداً جيولوجياً للقارة وبناء عليه فإن أية منطقة من المحيط التي تطل عليه شواطئ الولايات المتحدة تظل عمقها عن مائة قامة أو ٣٠٠ متر ، تعتبر جرفاً قارياً ، ويكون للولايات المتحدة وحدها حق استغلاله . أما المكسيك فقد قدرت امتداد جرفها القاري حسب السلسلة وجعلتها مائتي ميل من الشاطئ .

وإذا طبقت نظرية الحرف القاري على منطقة الخليج ، فإن البحر يكون بأكمله جرفاً للبلدان المحيطة به نظراً لكونه ضحلاً ومن ثم فإن رسم خط وهمي في منتصف الخليج هو أقرب الحلول إلى المنطق لتحديد امتداد الحرف القاري لدول الخليج المختلفة . وقد اعترفت الدول ضمياً بهذا الخط منذ ١٩٤٩ ، ولكنه لم يضع حداً للمشكلات فنلما كيف تطبق هذه النظرية حيث توجد جزر تابعة لإحدى إمارات الساحل كما أن دولة كالمحجرين تقع ما بين السعودية وإيران ، تثير مشكلات حول رسم الخط القومي للمنطقة الحاذية لها ، لذا تطلب الأمر إخضاع المياه الإقليمية لمعظم دول الخليج لدراسة قانونية انتهت بإصدار تحكيم في كوبنهاغن سنة ١٩٦٦ .

ونمت قضية أخرى تفرعت عن استخراج البترول من تحت سطح البحر ، وهي مدى انطباق عقود الامتياز التي تشمل أراضي دولة بأكملها على مياهها الإقليمية . والذي حدث هو أن الشركات صاحبة الامتياز في كل من قطر وأبو ظبي طالبت بشمول الامتياز لتافانها المياه الإقليمية ، حسب نظرية الحرف القاري . غير أن حكومتى الإمارات رفضتا الإدعاء ، ومنحفا امتياز المياه الإقليمية لشركات أخرى جديدة بشروط أفضل . وفي مثل حالات الخلاف تلك ، فإن عقد الامتياز ينص على التحكيم وهذا ما اتبع في كلتا الحالتين ، وقد صدر تحكيم في الدوحة بشأن مياه قطر ، وتحكيم آخر في باريس سنة ١٩٥١ بشأن المياه الإقليمية لأبو ظبي وكلا التحكيمين يؤيد وجهة نظر الإماراتين وحلها منع امتياز المياه الإقليمية لشركات أخرى .

بعض الإجراءات التي نتم عن الرغبة في استخدام البترول في المعركة ، فقد بادرت حكومة العراق إلى إيقاف ضخ النفط في خط الأنابيب الواصل إلى حيفا كما هددت الدول العربية مجتمعة بعض الشركات التي تتروم بالنقيب عن النفط في الأرض المحتلة مثل شل وشركة البترول البريطانية ، بأنها ستقتصد الإجراءات النافذة عندما إذا لم توقف نشاطها في إسرائيل . وتقديراً لمخاطمة مصالح هذه الشركات في العالم العربي ، فقد آثرت أن تستجيب لهذا الإنذار . ويلاحظ أن هذه الإجراءات كانت موجهة ضد إسرائيل بصورة مباشرة . وإن الحكومات العربية لم تتجاوز ذلك إلى عمارة الضغط على الولايات المتحدة عن طريق البترول ولعل المحاولة الوحيدة في هذا المجال ، والتي هي محل جدل تشتمل في تباطؤ سوريا في المصادقة على مشروع التالين ومروء بالأراضي السورية . ولم تستمر هذه المحاولة طويلاً .

أما السعودية فكان رأيها حتى عهد قريب هو أن النفط مشروع تجاري ولا ينبغي استخدامه في أغراض سياسية ، وظلت متمسكة بهذا الرأي ففكره الملك فيصل في تفجير مجاته للصورة المصرية في أغسطس ١٩٧٢ وأمل أبرز مثل على تأثير النفط العربي في مجريات الأحداث ، هو ما وقع في سنة ١٩٥٦ إثر العدوان الثلاثي على مصر . وربما تحقق هذا التأثير دون تخطيط مسبق ومتفق عليه من الدول العربية . فمن المعروف أن أوروبا الغربية عانت أزمة خطيرة من نقص البترول مما جعل رجل الشارع العادي يحس بوطاة الأزمة . وقد نجحت هذه الأزمة عن توقف وسائل العبور وليست نتيجة إجراءات اتخذتها الدول المنتجة ، ولو أن ذلك لا ينفق ونفوع محاولات سرية قام بها عمال البترول في كل من السعودية والبحرين وقطر والكويت ، لتدمير منشآت الشركات وأنايب النقل ، مما كشف للشركات عن حقيقة عامة ، وهي أن الحكومات ليست وحدها هي العامل المؤثر الذي يمكن الاعتماد عليه . وإذا لم تكن هذه الأعمال التافهة التي قام بها العمال قد أسفرت عن نتائج عامة ، فذلك راجع - كما أشارت المصادر الغربية - إلى عدم وجود كمادات نفية تعرف كيميائية إشعال الحرائق في الآبار . أما حكومات

هذه الدول فلا بد أن تكون قد شعرت بالاستياء لأنخفاض الإنتاج الذي قدر بنحو الثلث في دول الخليج وأكثر من النصف في أكبر شمال العراق بعد أن تمردت نقل البترول عبر الأنابيب السورية .

وللاشكف لم يكن لهذه الأزمة أي تأثير مباشر على إسرائيل ، وإنما انحصر تأثيرها على الدول المهلكة في غرب أوروبا ، وكان ذلك متشعباً مع الأهداف العربية نظراً لاشتراك دولتين من هذه المنطقة هما : بريطانيا وفرنسا اشتراكاً مباشراً في العدوان . وهي حالة لم تكن موجودة في سنة ١٩٦٧ ، وإذا مضينا في التارئة بين الحالتين فلا بد وأن نلاحظ أن استعداد العرب لاستخدام البترول في المعركة سنة ١٩٥٦ كان أقوى منه شعبياً وديماً عما أصبح عليه في سنة ١٩٦٧ ، وربما يرجع ذلك إلى أنه لم يكن لديهم إمكانية لاستخدام البترول ضد العدو المباشر وهو إسرائيل التي خرجت من حرب الأيام الستة وقد استولت على آبار سيناء ، وسار بوسعها تصدير بعض كميات النفط . ومع أن تأييد الولايات المتحدة التام لإسرائيل أمر معروف ولا يحتاج إلى دليل ، فإن إيماناً للضخ في ذلك الوقت كان سيصيب قبل كل شيء ، مصالح غرب أوروبا . وتأيد بريطانيا للدول الإسرائيلية رغم ما ذكر كان على جدل كما أن دولاً في غرب أوروبا كان يرحى تحييدها أو كسب صداقتها مثل فرنسا .

ومهما يكن فإن إغلاق قناة السويس سنة ١٩٦٧ لم يؤد إلى نفس النتائج الحاسمة التي أفضى إليها في سنة ١٩٥٦ ، الأمر الذي ربما لم يلفت إليه بعض المستورلين في مصر .

كانت حرب الأيام الستة من القصر بحيث لم تترك فرصة لاختبار معركة النفط عند توقف الضخ من الكويت والسعودية والعراق بعض الوقت ، وعندما انتهت الحرب أخذ الزعماء العرب يمدون النظر في سياساتهم . وفي مؤتمر القمة الذي انعقد في الخرطوم ساد التفات القائل بأنه خير للدول العربية أن تواصل تصدير

الأمريكي ، واضطراب الولايات المتحدة إلى استيراد البترول بعد أن كانت تصدره .
والذين يؤيدون فكرة دول البترول على التأثير في العملة الأمريكية يرون أنه من الخطأ الأخذ بالنظرية المذكورة آنفاً ، وهي زيادة الاستثمارات العربية في الولايات المتحدة ، ولنفس السبب اعترض هؤلاء على اتفاقيات المشاركة إذ أنها تتطلب دفع تعويضات هائلة للشركات الأمريكية مما يحد من مشكلة تسرب الدولار ، ويقيم نوعاً من الموازنة بين الأموال التي تذهب لشراء البترول ، وتلك التي تدفع كتعويض عن الأسهم التي سوف تؤول إلى الدول المنتجة بالتدريج .

وبينا كان الجدل يندمج حول فاعلية سلاح النفط ويتشكل البعض في سلاحية استخدام هذا السلاح ، إذ نشب القتال في ١٦ أكتوبر سنة ١٩٧٣ ، وأحرزت القوات العربية بعض الانتصارات الأولية فأذا بدول النفط تقرر بالإجماع وضع تمهلها في المعركة ، واقتلبت كثير من الفاهيم السابقة ، فالسعودية التي كانت تتبنى مبدأ أن البترول مشروع تجارى لا ينبغي استخدامه في السياسة سارت على رأس الدول التي استخدمت سلاح النفط إلى أبعد مدى ، وأصبح الغرب ينظر إلى الهك فيصل على أنه من فريق النصابين الذين يصرون على قطع البترول عن الدول الويدة لإسرائيل إلى أن تنسحب من جميع الأراضي العربية المحتلة .

وعند المقارنة بين موقف دول البترول في سنة ١٩٦٧ بما حققته في سنة ١٩٧٣ نستطيع أن نبين الأسباب التي جعلت سلاح النفط فعلاً بحيث يمكن القول بأنه كان عنصراً أساسياً في الحركة ضد إسرائيل .

أولاً : في سنة ١٩٦٧ بدا وكأن الصراع مع إسرائيل قد دخل في مرحلة من الجور قد تطول أمداً بعيداً ، وبالتالي فإن إبطاف الصخ قد يعني انقطاع الدخل لفترة غير محدودة . أما في سنة ١٩٧٣ فإنه رغم وقف إطلاق النار بأمر من مجلس الأمن ، فإن القضية قد تحوكت من جودها ، ولاحت أمام العرب فرصة يمكن الاستفادة منها .

البترول لجميع الدول ، وذلك حتى تزيد من دخلها وتتمكن من تمويل الدول التي تعرضت للعدوان ومساعدتها في شراء الأسلحة استعداداً لجولة قادمة .

لم يكن موقف الدول والرؤساء في مؤتمر الخرطوم انثناء الدعوى لاستخدام البترول كسلاح في المعركة ، وإنما حاول العرب بمس ذلك أن يحفظوا لوسائل مدروسة لهذا الغرض في نفس الشهر (أغسطس ١٩٦٧) انعقد مجلس وزراء المالية والاقتصاد العربي ، واتخذ توصية بسحب الدخرات العربية من الولايات المتحدة والدول المتحالفة مع إسرائيل ونبه إلى أن مثل هذه الخطة لا يمكن تنفيذها فوراً ، ذلك لأن سحب الدخرات بصورة جماعية من شأنه أن يؤدي إلى انخفاض قيمة الدولار ، وبالتالي فسيقتبض العرب نقوداً مخفضة . كما أن تحويل هذه الأموال دفعة واحدة إلى أوربا سيقتال من أهمية الاستثمارات الوافدة للشككسة ، مما قد يترتب عليه تخفيض سعر الفائدة . وإذن فقد أوصى المؤتمر بوضع معدلات مدروسة لتحويل الدخرات .

ذهبت هذه التوصيات مثل غيرها في طي النسيان وسط ملفات الجامعة العربية بل طلع بعض ساسة العرب بفكرة مضادة مؤداها الدعوى إلى زيادة الاستثمارات العربية في الولايات المتحدة ، وعن طريق هذه الاستثمارات يمتلك العرب قوة تأثير جديدة في الاقتصاد الأمريكي تشبه تلك القوة التي يمتلكها الرأسماليون اليهود ، والتي كثيراً ما أشار إليها الكتاب العرب على أنها وسيلة استخدمتها الصهيونية للضغط على حكومة الولايات المتحدة .

واضلاً فمن الجدل حول هذا الموضوع تطرق الحديث إلى مدى قدرة الدول المنتجة للبترول على التأثير في الوضع المالي للدولار . فع زيادة دخل الدول المنتجة ومداخيلها من الدولار زيادة هائلة، سوف يصبح بوسع هذه الدول أن تؤثر على مركز الدولار بين العملات العالمية، وقد لاحظت في الأفق بوادر تلك الحركات المتواليات التي تعرض لها الدولار منذ سنة ١٩٧٢ ، ومن بين الأسباب التي ذكرت هو اختلال ميزان المدفوعات

وقد أشرنا إلى أن نظام المشاركة الذي وافقت عليه دول الخليج كان يقضى بانتظار عشر سنوات حتى يمتلك الدول المنتجة ٥١٪ من أسهم الشركات العاملة فيها. والواقع أن مجلس الأمة الكويتي كان قد اعترض منذ البداية على هذا التدرج البطيء نحو السيطرة على الشركات. وما أن نشبت معركة النفط حتى ضمت السعودية صونها إلى الكويت مطالباً بتطبيق المشاركة على أساس امتلاك ٥١٪ من أسهم الشركات فوراً.

وأخيراً فإن التصرف في معركة النفط ، هو من يكون أمول نقساً ، الدول المنتجة التي قررت أن تخفض إنتاجها بالتدرج إلى أن تقسح إسرائيل مهما طال الزمن . أو الدول المستهلكة التي تساند إسرائيل رغم ما أصاب اقتصادها من ضرر ، بل إن مصالح الولايات المتحدة الاستراتيجية قد أسيبت بالشلل ، إذ عجّزت قواعدها في البحر المتوسط والشرق الأقصى عن تشغيل آلاتها .

وخلاصة القول إن معركة النفط كانت اختباراً لمبدأ التضامن العربي في منطقة الخليج . وقد ثبت كيف أن أسباب الانقسام التي كانت موجودة قبيل حرب ١٩٦٧ قد تلاشت بالخطوات الحكيمة التي اتخذها الرئيس أنور السادات ، وذلك بإشاعة جو من الثقة بين مختلف الدول العربية ، حيث أنه لا يسعى للساس بكياءات الدول لإثبات حقيقة القومية العربية . وهذا ما تلائم مع وجهة نظر إمارات الخليج ومفهومها للأعاد العربي .

ثانياً : في سنة ١٩٦٧ لم تحتج إسرائيل إلى مساعدة مباشرة من الدول الأجنبية . أما في سنة ١٩٧٣ فإن المساعدة الأمريكية سارت مكشوفة للبيان ، وأصبح من المنطقي استخدام النفط ضد الولايات المتحدة وغيرها من الدول التي أنقذت إسرائيل من ورطتها .

ثالثاً : في سنة ١٩٦٧ لم تكن الولايات المتحدة تستورد سوى كميات ضئيلة من البترول العربي ، ومن ثم فإن قطعه عنها ما كان ليؤثر تأثيراً كبيراً ، أما في سنة ١٩٧٣ فقد قدر ما تستهلكه الولايات المتحدة من النفط العربي بـ ٥٠٪ ، ولكن عند تطبيق المقاطعة انكشفت حقيقة جديدة ، وهي أن الولايات المتحدة اضطرت إلى تخفيض استهلاكها بنسبة ١٠٪ ، كما أن أزمة عالمية في الطاقة كانت على الأبواب وبالتالي لم يمكن بوسع أحد تعويض الإنتاج العربي بمصادر أخرى .

رابعاً : في السنة ما بين ١٩٦٧ ، ١٩٧٣ تحسنت شروط الاستغلال لصالح الدول المنتجة كما تزايد إنتاجها بسرعة هائلة وخاصة السعودية ، مما مكن دولاً عربية كثيرة ، ولاسيما دول الخليج من تكوين مدخرات كبيرة تجعلها قادرة على الاستثناء عن تصدير البترول مدة من الزمن . كما أن الدول العربية استطاعت خلال هذه الفترة أن تسيطر على شركات النفط ذاتها ، وأن تتحكم في تسعير النفط ، لذلك قررت قرار تخفيض الإنتاج بزيادة الأسعار ، مما يقلل من التأثير على دخلها أثناء معركة النفط .

خامساً : في سنة ١٩٦٧ كانت أربع من دول الخليج مازال خاضعة للحماية البريطانية ، وهي قطر والبحرين والإمارات السبع وعمان . وبالتالي لم تكن حرة التصرف في معركة النفط . وقد نالت هذه الدول جميعها استقلالها سنة ١٩٧١ .

لم تقتصر إجراءات دول البترول على تخفيض الإنتاج وقطع البترول عن الدول المؤيدة لإسرائيل ، بل انتهزت هذه الفرصة لتسيطر أأكبر على الشركات الأجنبية .

فقط فسيح الأرجاء، مثل السعودية، كانت الدولة بحاجة إلى عتقات إدارية وعسكرية كبيرة لتأسيس دولة حديثة قوية تعتمد على شبكة من الطرق وجيش نظامي يقضي على النزعات الانفصالية سواء كانت قبلية أم عليية، ولذلك لم تحصل حكومة السعودية مظاهر البذخ التي سار عليها الملك سعود، وعند تخفيض الإنتاج لجأة على أثر إغلاق قناة السويس في سنة ١٩٥٦ تعرض اقتصاد السعودية لحزمة عنيفة وانخفض سعر الرمال إلى أن كلف سعود أخاه فيصل بإدارة شؤون الدولة وإعادة بناء اقتصادها.

وفي الدول الأصغر حجماً مثل: قطر، وأبو ظبي فإن فائض الدخل كان كبيراً بحيث تكونت مخرات هائلة من العملات الصعبة، وصارت تؤثر في سعر العملات العالمية، وأودع معظمها في مصارف أوروبية وأمريكية مما جعل المسؤولين في إمارات الخليج يتعرضون للنقد بسبب موقف بعض هذه الدول من إسرائيل.

ولاشك أن الوعي الذي تجل أثناء حرب أكتوبر في هذه المنطقة من شأنه أن يشي أصحاب رؤوس الأموال عن استغناء مديراتهم في هذه المصارف.

ولكن إلى أين يوجهون هذه المدخرات؟

لاشك أن الإمارات كانت في حاجة إلى البدء من نقطة الصفر في جميع مظاهر

التعمير:

بناء المساكن وفتح الطرق وتحلية مياه البحر فصلاً عن التوسع في الخدمات وخاصة التسليم. بل إن بعض الإمارات تجاوزت ذلك إلى إقامة صناعات خفيفة كصناعة الملابس وحفظ الأسماك. كما أجهت هذه الدول إلى الصناعات البتروكيمياوية وبناء أسطول للناقلات لحسابها الخاص.

ولما كانت هذه الشروعات الرئيسية تتطلب إشراف الدولة، فقد سلّطت حكومات البترول على الاقتصاد الوجه ووضعت خططاً خفية أو سببية لتسيء معظم

٢ - النتائج الاقتصادية والاجتماعية

أحدث البترول طفرة في حياة دول الخليج وخاصة تلك التي كانت تعيش بمرته عن العالم الخارجي، ولذلك فإن مراحل التطور سارت في طريق غير طبيعي. فمن مرحلة البداية انتقلت دول البترول إلى وضع جديد يضم مختلف طبقات المجتمع الرأسمالي المعصرى من عمال وطبقة برجوازية تشغل بالأعمال والتجارة دون القضاء تماماً على النزاعات القبلية التي أخذت تنحف بالتدريج.

ورغم تكديس زروات هائلة فإن اقتصاد دول الخليج المنتجة للبترول مازال يعتمد على تصدير المادة الخام الوحيدة واستيراد الحاجيات الاستهلاكية المصنوعة، وهذا من سمات الاقتصاد اللزخلف، غير أن قوانين العرض والطلب بالنسبة لمادة البترول بالذات مكنت هذه الدول النامية من أن تتحكم في سعر ثروتها الطبيعية خلافاً لما هو معروف تقليدياً من أن الدول الصناعية تستغل الدول النامية وذلك ببيع مصنوعاتها بسعر لا يتناسب مع سعر المواد الخام التي تصدرها.

ولاشك أن بعض الظروف السياسية قد ساعدت دول البترول على بلوغ هذه المرحلة من التطور فإن تحديد كمية الإنتاج وهي سياسة اتبعتها في الأصل الدول الغنية مثل الولايات المتحدة، هي التي مكنت من رفع سعر البترول دون التأثير في سوق توزيعه.

وكان الحديث يجري منذ زمن طويل عن تحديد كمية الإنتاج لأسباب عديدة، منها المحافظة على الخزون والحصول على سعر مناسب حتى كانت حرب أكتوبر وما أدت إليه من قطع النفط عن بعض الدول الثرية لإسرائيل وتخفيض الإنتاج بنسب مطردة، فأناح ذلك فرصة مواتية لتتحكم دول الخليج في ثروتها الطبيعية بصورة أفضل.

ويختلف تأثير البترول من دولة إلى أخرى حسب حجمها وعدد سكانها، ففي

القرض لإنشاء سكك حديدية . وفي سنة ١٩٧٣ منحت الصندوق قرضاً آخر للسودان قيمته ٣٣ مليون دينار للمساهمة في بعض مشروعات الري . كما استعانت الأردن بصندوق التنمية الكويتي لتنفيذ مشروعات إنتاج الفوسفات ومشروعات التوسع^(١) في الري من اليرموك . وقد خفضت قائمة القرض لهذا المشروع إلى ٣٪ لإرباطه بأهداف وطنية . وتسهم حكومة الكويت بمبالغ أخرى في المسارف التي تأسست لمساعدة الأنظار العربية والإفريقية غير أنها تبتدى حاسماً أكبر للمشروعات المتعلقة بصناعة البترول مباشرة مثل بناء أسطول عربي للناقلات ، أو الاشتراك في تمويل خط الأنابيب المقترح لنقل البترول من السوس إلى الإسكندرية . كذلك تشجع الحكومة الكويتية الرأسمال الخاص على الاستثمار في البلاد العربية .

وعندما توفرت لإمارة أبوظبي مدخرات هائلة سارت على نهج الكويت من إنشاء صندوق للتنمية العربي ، ومع قيام دولة الإمارات المتحدة امتد نشاط الصندوق إلى أنظار عربية مختلفة .

على أنه في سنة ١٩٦٩ أمكن تأسيس صندوق عربي ساهم فيه جميع أعضاء الجامعة العربية ولو بصورة رمزية . ودول البترول هي الممول عليها لتمويل هذا الصندوق ، وكوسيلة لاجتذابها رؤى أن يكون مقروء في الكويت ، وانتخب وزير مالية الكويت محافظاً للصندوق .

وقد صرح في سنة ١٩٧٣ بما ينم عن اتجاه جديد في السياسة المالية لدول البترول ، فقد شك الوزير الكويتي أمام اجتماع لإدارة الصندوق من انتقاد الدول الأوروبية والولايات المتحدة التي حلت دول البترول مسئولية الاضطراب النقدي ، وقال ليس من الحلول البترول أن توجه مدخراتها إلى الاستثمار في العالم

(1) Ragai : Economic development of Qwait

الإمارات كما قطعت السعودية شوطاً كبيراً في هذا المضمار . أما البحرين فزعم أن إنتاجها يجمد عند نسبة محدودة ، فقد قامت بمشروع ضخم لإنشاء مصنع الألومنيوم الذي يمد أكبر مصنع من نوعه في الشرق الأوسط . وقد انظر البحرين لإشراك رؤوس أموال أجنبية ربما لحاجتها إلى الخبرة والمساعدة في التسويق .

ذلك أن مشكلة التنمية في هذه الأنظار الخليجية تصطبغ بالتجزئة ، فمن المعروف أن الصناعات الثقيلة والمتوسطة تحتاج لسوق استهلاكية كبيرة ولا سارت غير اقتصادية . لذلك جرى التفكير منذ زمن بعيد في أن تستثمر مدخرات دول البترول على المستوى العربي ، وقدمت اقتراحات من دول عربية مثل رجل الأعمال اللبناني أميل البستاني الذي دعا إلى تخصيص ٥٪ من دخل النفط لصندوق تنمية عربي . وتردت هذه الفكرة في دول الأمم المتحدة ، كما قدم الرئيس الأمريكي اقتراحاً بهذا المعنى في سنة ١٩٥٨ غير أن دول البترول كانت تردد في الالتزام بنسبة محددة من دخلها . وتفضل نظام المساعدات الثنائية ، بحيث تقدم كل دولة منفردة المساعدات بالطريقة التي تراها وللمشروعات التي يختارها . ويمكن أخذ صندوق التنمية العربي الذي أنشأته الكويت كنمط على هذا الأسلوب في التعاون الاقتصادي . فلي أتر إعلان استقلال الكويت تأسيس صندوق كويتي للتعاون الاقتصادي العربي برأسمال قدره خمسون مليون دينار شوعفت فيما بعد ، والصندوق شخصية معنوية مستقلة ، ومجلس إدارة محلي من ثمانية أعضاء . وعكسه إصدار سندات يكتب فيها الرأسمال الخاص ، وسككاد أعمال هذا الصندوق تتركز في تقديم القروض لبعض مشروعات التنمية بفائدة تراوح بين ٤-٣٪ .

وقد تمت هذه العمليات وفقاً لاتفاقات ثنائية بين الكويت وبين الدول العربية التي اقترحت من الصندوق . ومن أمثلة هذه الاتفاقيات تلك التي عقدت مع السودان بشأن قرض قيمته ٧٥ مليون دينار بفائدة قدرها ٤٪ وقد خصص

عمال البحرين المأمنين لدى شركة بابسكو كانوا أسبق من غيرهم إلى تنظيم أنفسهم في نقابات قوية وواعية ، هذا بالإضافة إلى أن البحرين كانت أكثر انفتاحاً على العالم الخارجى ، واشتغل أهلها بالتجارة والزراعة . كذلك لم تكن الكويت منافقة عن العالم الخارجى ، قبل اكتشاف النفط ، واشتغل كثير من سكانها بالتجارة وامتدت أعمالهم حتى وصلت إلى الهند وسار لهم نفوذ بحيث طالبوا بالشاركة في السلطنة منذ سنة ١٩٢١ ، أى قبل ظهور النفط بوقت طويل ، واستطاعوا في سنة ١٩٣٨ أن يفرضوا النظام النيابى خلال فترة قصيرة على حاكم الكويت .

لذا فقد كان من المتوقع أن يحدث اتساع الطبقة البرجوازية تطورات سياسية هامة على أنظمة الحكم في دول البترول ، غير أنه يلاحظ أن هذا التطور كان أبطأ في الدول حديثة العهد بهذه الطبقة مثل قطر والشيخات ، وعلى العكس فبعد حصول كل من الكويت والبحرين على استقلالها نزلت الأسرة الحاكمة على رغبة السكان ووافقت على نظام حكم دستورى نيابى ، تتولى السلطة التشريعية فيه هيئة منتخبة . وقبل أن نعرض لهذه النتائج السياسية ، لابد أن نعالق للاقعة البترول بدمو الطبقة البرجوازية في الأفطار المتجعة . فهناك أولاً أعمال فرعية تربيت على صناعة النفط ، وتزويد الوافدين بمأجراتهم الاستهلاكية ، واتساع أعمال التصدير والاستيراد . وقد تمكنت الرأسمالية الحامية غالباً من القيام بهذه الأعمال بل توصل بعض أفرادها إلى تأسيس المصارف الخاصة . كذلك مكنت ثروة النفط الحكومات من دفع مهربات عالية لكبار الموظفين مما يجعلهم بلا مراء - ضمن الطبقة البرجوازية .

لقد صارت صورة الديموقراطية في دول البترول هي أن تشارك الأسر الثنية في الحكم فلا تنفرد به الأسرة الحاكمة . وحتى هذه الصورة لم تأخذ بها بعض الدول الثرمة ، أو التي لا يسمح تركيبتها الاجتماعى بأجراء انتخابات نيابية ، كما حدث عند قيام دولة الإمارات المتحدة ، فقد رؤى الاكتفاء بمجلس استشارى يعينه الحكام لدة خمس سنوات ريثما تنهى البلاد لتقبل قوانين الانتخاب .

الغربي وأن تسحبها من المصارف الأوربية والأمريكية . وجاءت هذه الدعوة قبيل اندلاع حرب أكتوبر التي دعمت هذا الاتجاه الجديد .

* * *

وفي مجال الحياة الاجتماعية انقلبت معايير العلاقات بين الناس ، فبعد أن كانت تبقى أساساً على الانشاء القبلى ، فإذا بالنفط يفكك هذه العلاقات الاجتماعية القديمة ، ويحل محلها قىما جديدة تقوم على أساس طبقي ، فقد نشأت طبقة رجال الأعمال واتسعت التجارة ، وتكون ما نسميه بالبرجوازية المحلية .

ظهرت الطبقة العاملة وتحول البدوى فجأة من حياة التنقل والرعى إلى الانضباط التام في سلك العمل النظم ، وليس لهذا التحول نظير في المجتمعات الأخرى حيث كان البدو ينتقلون أولاً إلى الاستقرار في الزراعة ، إلى أن تأتى مرحلة الصناعة فيشغلوا بها .

كذلك جلبت أعمال النفط هجرة واسعة من الخارج حتى صار الوافدون يشككون في بعض الأحيان نسبة أعلى من السكان الأصليين . ويتضح ذلك بصورة خاصة في قطر ودبي وأبوظبي . وخلق هذه الهجرة السريعة مشكلات سياسية واجتماعية أثرت تأثيراً بعيداً في حياة البلاد .

وهناك إمارات خليجية أخرى عرفت التركيب الحديث للجمع قبل ظهور النفط ، ولاسيا البحرين حيث أوجدت صفاعة صيد اللؤلؤ كلتا الطبقتين المروفتين في المجتمعات المتقدمة وها : الطبقة البرجوازية متمثلة في أصحاب المراكب . والطبقة العاملة ممثلة في النواصين الذين تعرضوا لاستغلال أصحاب السفن في آثار أزمات اجتماعية تشبه أزمات الطبقات العاملة في الدول الرأسمالية . وسيتأشأ عن ذلك أن

ومع أن عهد السعودية بالذات تجاوز الآن خمسة وثلاثين عاماً فلم يتطوّر إلى تعديل على نظام الحكم في حين استغلت ثورة النفط في تطوّر أجهزة الدولة من حيث التركيب الميكانيكي للإدارات المدنية والمكبرية. ويمكن تعديل ذلك على سبيل الاجتهاد بالأمور الآتية: الهيئة الدينية التي تستند إليها الأسرة السعودية. وحينما طالب بعض الأهالي بالنظام النيابي أجب الملك فيصل بأن النظام الثوري لم ينجح في البلاد العربية الأخرى (ولماذا تسمى إلى وضع دستور، والقرآن هو دستورنا؟) ثانياً: أن عدداً محدوداً يسيطر على الأعمال ويملك الصارف الخاصة، وترى هذه الأسر أن مصالحها تكون مكفولة بصورة أفضل في ظل النظام الحالي.

وهكذا اكتفت السعودية بإنشاء المجالس البلدية المذهبية التي تختص بالشؤون الحلية البحتة ولا علاقة لها بسياسة البلاد العليا.

وكما أوجدت صناعة النفط الطبقة البرجوازية فإنها خلقت الطبقة العاملة التي لم يكن لها وجود في دول الخليج، اللهم إلا إذا استغنيوا بالعمال. وقد كان غريباً على بعض دول الخليج إدخال تشريعات عمالية، ولو أن الحركة العمالية لم تتخذ شكلاً ثورياً نظراً إلى الأجور العالية التي تدفعها الشركات.

ويرجع أول قانون للعمل في السعودية إلى سنة ١٩٤٦، وبلا حظ أن الحكومة هنا كانت أشد حرصاً من الشركة على حظر الإضرابات أو تكوين النقابات

وفي سنة ١٩٥٣ بدأ عمل النفط في الظهران يبرون عن أنفسهم في صحف البحرين، وقدموا مطالب تتعلق بزيادة الأجر وتحسين الخدمات وحتى تكوين النقابات التي كانت مازال مخطورة. ولما أغفلت حكومة الرياض هذه المطالب استجده العمال بولي العهد، وبعد إجراء تحقيق في الموضوع أمر باعتقال مائة من العمال الذين تزعموا حركة الاحتجاج، في حين أن الشركة استجابت لبعض المطالب المتعلقة بالأجور والمساكن.

وبينا كانت مطالب العمال في سنة ١٩٥٣ تدور حول قضايا معيشية، إذا بها تتحول في يونيو سنة ١٩٥٦ إلى مظاهرة سياسية بمناسبة زيارة سعود للظهران، واستمداده لاستقبال رئيس مصر وسوريا في الدمام. وقد رفع العمال شعارات وطنية لا تتفق مع الاتجاه العام لسياسة الدولة واستبعد الخوف بالملك لحدوث هذه الظاهرة غير المألوفة في البلاد، فعادت الحكومة وأكدت حظر الاضرابات ومنع تكوين النقابات، وأمرت شركات البترول بطرد العمال المخالفين، ذلك لأن هذه الأحداث عاصرت تكوين اتحاد العمال العرب الذي اتخذ القاهرة مقراً له، وكان يخشى من أن يمارس نشاطاً خاصاً بين عمال البترول في الأنظار العربية المحافظة وترددت الشائعات بأن أحد ممثلي عمال السعودية حضر مسراً الاجتماع الذي عقد في دمشق سنة ١٩٥٦ لتأسيس هذا الاتحاد.

وعندما وضع فيصل في سنة ١٩٦٢ خطة شاملة للإصلاح نجد الحديث عن الحقوق العمالية، فبعد بإنشاء مكتب للعمل، غير أنه أمر على مبدأ حظر تكوين النقابات. وحتى هذا المكتب تحول إلى أداة للرقابة على العمال، وليس الطريق الذي يبرون بواسطة عن مطالبهم الاجتماعية. على أنه يجب أن نأخذ في الاعتبار أن المستوى العام لعمال البترول في مثل هذه المجتمعات يعتبر عالياً إذا ما قورن بالمستوى العام للسكان، بل بالصناعات الأخرى. فشركة أرامكو مثلاً بأسلوب التفكير الأمريكي وهو الأسلوب الذي يرى أن خير وسيلة لسكافة الشيوعية هي رفع مستوى المعيشة للسكان. لذلك ربما كانت أسرع استجابة من غيرها لمطالب العمال الاجتماعية.

وعلى العكس نلاحظ أن عمال البحرين الذين كانوا من نفس المناقشات، وجدوا متفهمين للتعبير عن رأيهم، سواء عن طريق الصحف أو قيادة المظاهرات، ولذلك فإن الروح الثورية تبدو في حالة البحرين أكثر منها في أقطار البترول الأخرى. وقد نجحت هذه الروح في الناسبات السياسية، وعلى سبيل المثال فقد كان رد فعل عمال البحرين على العدوان مباشراً، فقاموا بتقديم مذكرات النفط. كما

لعب العمال دوراً في التمهيد بالحكم الذاتي ، ونقل السلطات من يد البريطانيين إلى أهل البلاد . وكانوا على رأس حركة الاحتجاج الشعبية التي عمت البلاد سنة ١٩٦٥ .

وقد كان موقف حكومة الكويت إزاء قضية الحريات الثقافية مختلفاً عنه في البحرين أو السعودية . ويبدو أن الحكومة لم تواجه هذه القضية إلا بعد أن استقرت أحوال العمال ، وصاروا يحصلون على أجور عالية مما أزال مخاوف الحكومة من أن تكون الثقات عناصر ثورية . ومع ذلك اتخذ اتحاد نقابات عمال الكويت بعض مواقف الاحتجاج على الحكومة ، فمناصفة تطبيق نظام المشاركة أدى الاتحاد اغترابه عليه وطلب بالتأميم ولو بصورة تدريجية .

ومن القضايا الاجتماعية التي أثارها استقلال الكويت في دول الخليج مسألة العمال الوافدين الذين احتاجت الشركات إلى استخدامهم في مختلف أعمالها ، فقد نظر إلى هؤلاء الوافدين وخاصة من البلاد العربية التي تطورت في إطلاق الشعارات على أنهم يشكلون خطراً على استقرار العمال . وفي ١٩٥٦ حلت السعودية مسئوليته الاشترايات للمصريين والسوريين والفلسطينيين المستخدمين في أعمال النفط وغيرها في البلاد ، ثم تبين فيما بعد أن الوافدين بقصد الكسب والعودة إلى بلادهم غالباً ما يكونون أطوع في يد الشركات والحكومات على السواء . فليكنانية طرد العمال أو سحب حق الإقامة منهم يجعلهم دائماً تحت رحمة صاحب العمل . وهذه الإجراءات لا تيسر بسهولة بالنسبة للعامل المحلي . ومع ذلك يبرز البعض تفصيل بعض حكومات الخليج للهجرة الإيرانية إلى الكويت من التهام العناصر الرئيسية الوافدة مع السكان الأصليين .

وفي الحقيقة توجد أسباب أخرى تقصر الهجرة الإيرانية التزايد إلى إمارات الخليج . من ذلك الوضع القريب ، وربما تخطيط الحكومة الإيرانية لتشجيع الهجرة عموماً لأطباع سياسة في المستقبل . وعلى كل حال فإن مسألة السكان في بعض

الإمارات جعل من الضروري استخدام الفئتين والعمال على نطاق واسع ، ليس فقط من أجل استغلال النفط ، بل أيضاً من أجل تنفيذ المشروعات العمرانية القريبة على الدخل الكبير ، حتى أن الوافدين صاروا في بعض الأقطار يشكلون نسبة أعلى من السكان الأصليين . ويحتل ذلك بصفة خاصة في قطر ودبي . بل إن الكويت التي تعتبر أكبر نسبياً ، بلغ فيها الوافدون نسبة ٥٣٪ من مجموع السكان طبقاً لآخر إحصاء . وتزيد النسبة عن ذلك كثيراً في قطر ودبي وأبو ظبي .

وينتمى المهاجرون إلى عناصر متعددة ، ولكن النابلية العظمى تنحصر في ثلاثة عناصر : الهنود ، والإيرانيون ، والمغرب على اختلاف مواطنهم . وليست هجرة الهنود بمجددة على مجتمع الخليج ، بل تردد التجار والعمال على هذه القطعة منذ القرن التاسع عشر . وتكاثروا بعد ظهور النفط . وتنبع الحكومة الهندية سياسة خاصة إزاء المهاجرين من رعاياها ، فلا تسمح لهم بالإقامة أكثر من سنتين . وعلى العكس تسعى الحكومة الإيرانية إلى تثبيت المهاجرين من رعاياها وحصولهم على جنسية الإمارات التي استقروا بها . ومما يؤكد وجود تطلعات سياسية لدى الحكومة الإيرانية سعيها لتوظيف رعاياها في مراكز قيادية بالإمارات ، وقد حصلت بالفعل على امتياز تدريب جيش عمان بواسطة بعثة عسكرية . ويدور جدل صاحب في الكويت حول حجم الهجرة الإيرانية وأهدافها ونوعية المهاجرين ، غير أن حكومة الكويت تنفي وجود خطر حقيقي يهدد كيان البلاد بسبب وجود الجالية الإيرانية .

والحق إن حكومات الخليج تواجه مسألة الهجرة بمواقف مختلفة ، ومعظمها يتخذ من تصنيف دائرة الحصول على الجنسية وسيلة للتنبل على هذه المشكلة . فحكومة الكويت أصدرت على سبيل المثال قانوناً للجنسية في سنة ١٩٦٦ ، يقصر منح الجنسية على من كان يقيم في الكويت قبل سنة ١٩٤٥ ، أي قبل استقلالها للنفط ، وإذا كان أحد الأبوين غير كويتي فلا بد من طلب خاص (٢٤٣ - التيارات)

وتنفرد حكومة الثورة الليبية على لسان رئيسها القذافي بانتقاد هذه النتائج الاجتماعية التي ترتبت على ثروة النفط ، فهو يشكو من أن أحداً من التعليميين لا يقبل العمل في المناطق النائية بينما تضطر الحكومة إلى استخدام الوافدين من المصريين أو الفلسطينيين للعمل في واحات قران . كذلك عندما طلبت حكومة الثورة الليبية من رعاياها التطوع في الجيش ، لم يستجب سوى شخص واحد ، وقد ذكرت هذه الحقائق بمناسبة الثورة الثقافية التي طالب القذافي بإحسانها لتدمير المجتمع في إبريل سنة ١٩٧٣ ، مع العلم بأن ظروف المجتمع الليبي تشبه إلى حد كبير مجتمع دول البترول في الخليج .

ولا نستطيع في نهاية المطاف سوى أن نكرر ما ذكرناه بصدد أثر البترول على السياسة العربية حيث لاحظنا أنه لم يمكن حتى الآن الانتفاع منه كأداة لاكتساب قوة دولية لها وزنها ، كذلك في المجال الاجتماعي لا ينبغي أن يقاس التقدم بتشييد أنخم المبانى ، أو اقتناء أغلى السيارات ، أو ارتداء أحدث الأزياء ، وإنما يمكن معيار التقدم في القدرة على مكافحة التخلف الاقتصادي والعسكري ، والانتفاع بقيمة العمل ، وتبذ الأنانية الفردية والنزعات الإقليمية حتى يتسنى استخدام ثروة النفط في تنظيم استغلال موارد البلاد الطبيعية الأخرى ، وإقامة الصناعات التي تفتح مجالات العمل للمجتمع العربي بمناه الواسع .

الحصول على الجنسية عند بلوغ سن الرشد ، وفي جميع الأحوال لا يحصل منح الجنسية لأكثر من جسيمن شخصاً سنوياً .

على أن حسن الرعاية الصحية ، وتوفير حبة الرعاية يتيح فرصاً للريادة الطويلة في نسبة الزائد . مما قد يخفف من حدة مشكلة الفراغ السكان في إمارات الخليج الو في ليبيا . إلا أن ذلك يخلق مشكلات اجتماعية من نوع آخر . وهي وجود نسبة عالية من السكان ممن هم أدنى من سن العشرين ، أي الفئة التي تحتاج إلى خدمات ، ولا تستطيع أن تساهم في مجال الإنتاج . وتدل آخر الإحصاءات في الكويت على أن ٥٢٪ من السكان هم أدنى من سن ١٥ سنة .

لم توجد صناعة البترول إذن مشكلات الصراع الاجتماعي في معظم الدول العربية . وذلك لأسباب محلية ترجع أساساً إلى قلة عدد السكان . وأغرت هذه الصناعة البدو بالمجرة إلى المدينة حيث يسكن البعوض بالمدينة على هامش الحياة الحضرية ، ولذا نشهد حول الأبنية الفاخرة الأكوخ المنتشرة على جوانب المدينة . ومن السهل أمام الوافدين العمل بمرتبات في الخدمات الثانوية كالسعاة والخدم الذين يشكلون نسبة عالية بين موظفي الحكومة . وقد يرجع وضعهم ذلك إلى عدم الرغبة في اقتحام الأعمال التي تتطلب بذل جهد كبير . أما من يحصل على كدواة ما فإنه يتطلع إلى المرتبات المالية دون استعداد لأداء عمل شاق .

وتشجع الحكومات البدو على ترك نمط الحياة الذي اعتادوه ، وذلك بالتوسع في مشروعات الإسكان وتستطيع دولة مثل الكويت أو أبوظبي أن تستخدم فائض دخلها لإسكان جميع رعاياها من البدو ، دون أن تطلب منهم مقابل . أما في دولة مترامية الأطراف مثل السعودية فإن ربع السكان فقط يعيشون في المدن ، وهذه النسبة أعلى مما كانت عليه قبل ظهور النفط . وفي ليبيا يعيش حوالي ٦٠٪ من السكان في المدن أو في القرى الزراعية ، بينما انخفضت نسبة البدو إلى ٤٠٪ .

الاعتبار العلاقات التاريخية الطويلة التي ربطت بين هذه الشيخات وبين بريطانيا .

اتسمت طبيعة^(١) العلاقات بين بريطانيا وبين الإمارات العربية بالروية . فالامارات الاتقراطية لم تتخذ شكل الحماية الحامدة باستعمار . وإنما استمدت بريطانيا قوتها من هيبتها حينذاك وانفرادها بالوجود العسكري في منطقة الخليج . وكانت تدبر سياستها عن طريق موظف كبير يلقي بالقيم العام ، اعتاد أن يتخذ مقره في بوشهر على الساحل الإيراني إلى أن انتقل سنة ١٩٤٦ للامانة في البحرين ، واشتركت وزارتا المستعمرات والخارجية بعد اختفاء حكومة الهند البريطانية في نهاية الثلاثينات في رسم السياسة البريطانية بالخليج . فكانت القيم العام يتراسل مع كلنا الوزارتين ولو أن تبعيته الرسمية ظلت مرتبطة بوزارة المستعمرات حتى سنة ١٩٤٩ حين أعلن أن شئون الخليج صارت من اختصاص وزارة الخارجية .

وطالما كانت المعاهدات الاتقراطية قائمة ، تحملت بريطانيا مسؤولية رعاية مصالح الإمارات في الخارج . فكان مواطنوها يتبعون القناصل البريطانيين . كما أن بريطانيا ترمي مصالح الاجانب في الإمارات . غير أنها لم تشيخ بهذه الشكاية دأما . فحينما توفرت الأسباب لنمو الادارة الحديثة فكنت بريطانيا بعض هذه القيود فترك الولايات المتحدة تنشئ قنصلية لها في الكويت منذ سنة ١٩٥٨ كما سمحت للهند بإنشاء قنصلية في مسقط سنة ١٩٥٣ ، وذلك قبل أن تنبادل الرسائل مع السلطان بشأن الاعتراف باستقلاله سنة ١٩٥٨ .

ولعل أبرز مظاهر التدخل البريطاني في الشؤون المحلية للإمارات تتمثل في الدعايات القضاية التي تتمتع بها القيم العام ووكلائه السياسيون الذين أوامدوا

الفصل التاسع عشر

المؤثرات الدولية في الخليج

- ١ -

ظلت بريطانيا حتى انسحابها في سنة ١٩٧١ ، هي أقوى العوامل الدولية المؤثرة في أوضاع الخليج العربي من الناحيتين السياسية والعسكرية . وذلك رغم ظهور الولايات المتحدة كمنافس في المجالين الاقتصادي والسياسي . وقد اتخذت السياسة البريطانية أهدافا متباينة حسب الظروف ، فإبان استثمارها للهند انصبت أهدافها أساساً على الجانب الاستراتيجي ، وكون الخليج خط دفاع أمامي عن الهند . فلما استعانت هذه البلاد في سنة ١٩٤٧ ، كانت أهمية الثروة النفطية قد تزايدت . ولذا استمر الوجود العسكري البريطاني بقصد حماية المصالح البريطانية خلال هذه الحقبة . كما أن دور بريطانيا السياسي ظل مفتوقاً في منطقة الشرق الأوسط بصفة عامة حتى سنة ١٩٥٦ ، وركت لها الولايات المتحدة تدبير الخطط لإقامة حلف بندا الذي كان يحيط بمنطقة الخليج ، ويفصل بينها وبين الاتحاد السوفيتي .

ويلاحظ أن النفط الذي دفع بريطانيا إلى التمسك بالسيطرة العسكرية وقها في منطقة الخليج ، هو الذي ممكن في نفس الوقت لإمارات الخليج العربية أن تتطور وتقيم أجهزة الدولة الحديثة ، و ، وتصبح قادرة على ممارسة نوع من الاستقلال رغم سيطرة حجمها ، فكان النفط بطريق غير مباشر هو الذي جعل بريطانيا تقرر في سنة ١٩٦٨ أن تلتحق ، وذلك بعد أن اقتضت بأنه من الممكن استمرار استقلال النفط في ظل دول مستقرة نسود فيها أنظمة محافظة تأخذ في

١٩٤١ لتصبح حركة وطنية قامت هناك وهي الشهيرة باسم حركة رشيد عالي الكيلاني .

ويتعرض الاتحاد السوفيتي للغزو الألماني في يونيو سنة ١٩٤١ ، اكتسب الخليج أهمية استراتيجية لم تكن له من قبل ، فإن الاتصال بين الحلفاء والاتحاد السوفيتي كان شبه متعذر من جهة بحر الشمال ، نظراً لنشاط التماسات الألمانية من ناحية ، وتجهد اللواتي السوفيتية النهائية بعض الوقت من ناحية أخرى . وبهذا سار الاتصال عبر الأراضي الإيرانية هوأيسر السبل لتقديم المؤن والعتاد العسكرية والدنية التي انتهزت على الاتحاد السوفيتي من الولايات المتحدة .

وتعلت بريطانيا بتشككها في موقف الشاه رضا بهلوي ، واشتركت مع الاتحاد السوفيتي في حملة لاحتلال إيران وإخضاع أراضيها لطلبات الحلفاء العسكرية . ومن أهم المشروعات التي أقيمت لهذا الغرض مد خط حديدي مزدوج من الخليج حتى الأراضي السوفيتية ، استخدمت في مده إمكانات الولايات المتحدة الفخمة . ويمكن القول إن الحرب العالمية الثانية قد خلقت وضعاً سياسياً جديداً في منطقة الخليج ، بحيث لم تعد بريطانيا هي العامل المؤثر الوحيد في الجانبين السياسي والعسكري ، وبدأت الولايات المتحدة تشاركها على استحياء في هذا الدور .

للمعمل في الامارات الهامة . وكان الانجليز هم الذين نقلوا إلى الإمارات والمشيخات العربية نظام الامتيازات لأن تلك الإمارات لم تخضع للدولة العثمانية خضوعاً مباشراً ، وبالتالي فإن النظام لم ينتقل إليها نتيجة لتطبيقه في هذه الدولة . واختلف مسدى الامتيازات من إمارة إلى أخرى حسب نصوص المعاهدات المتعقبة منها ، ففي مسقط وعمان اقتضرت السلطة القضائية البريطانية على الرعايا البريطانيين . وفي قطر شملت رعايا دول الكومنولث . أما بقية الامارات فقد انسحبت فيها السلطات القضائية البريطانية على جميع الأجانب النازلين . وكان القيم العام يرأس محكمة عليا في البحرين ، بينما يتولى الوكلاء السياسيون أو القناصل سلطات قضائية في الامارات للنظر في القضايا الصغيرة ، وكانوا يفسلون في هذه القضايا حسب القوانين البريطانية ، كما سن القيم العام اللوائح الداخلية للقضاء القضاة ومحاكمه المحلية .

شرعت بريطانيا في تقطيع قواعدها العسكرية في الخليج منذ توتر الموقف الدولي في أواخر الثلاثينات . فأنشأت قاعدة بحرية في البحرين سنة ١٩٣٥ ، ومطاراً حريبياً في الشارقة سنة ١٩٣٧ تحول فيما بعد إلى قاعدة كبيرة . كما أقامت قاعدتين جويتين أخريين ، إحداهما في سلالة بسلطة مسقط ، والأخرى في جزيرة معبرة بمخاضة الساحل الجنوبي الشرقي لعمان .

ولم تمس الحرب العالمية الثانية منطقة الخليج بطريق مباشر ، ولو أن الوثائق الألمانية كشفت عن تلك المحاولة الشهيرة التي جرت في نهاية سنة ١٩٤٠ لتقسيم العالم إلى مناطق تقود بين دول المحور والاتحاد السوفيتي . وطالب الأخير صراحة بأن تمتد منطقة نفوذه عبر إيران حتى الخليج ، ولكن من المعروف أن هذه المحاولة لم تنجح دور تبادل الرأي بين مولوتوف وزير خارجية الاتحاد السوفيتي وروبرتروب زميله في الرايخ الثالث . وهكذا لم ترد القضية بالنسبة لبريطانيا أثناء الحرب عن تأمين أنظمة الحكم المحيطة بمنطقة الخليج ، فتدخلت في العراق سنة

بمناسبة الاستعداد للحرب في الشرق الأقصى ، وليس من أجل مصالح بتولية . وقد برزت حاجة الولايات المتحدة لقواعد عسكرية في منطقة الخليج عند اقتراب نهاية الحرب في أوروبا . ففي ذلك الوقت أخذ الحلفاء يعدون لدقل قواتهم إلى الشرق الأقصى لتجابه الحرب مع اليابان . واحتاجوا إلى قاعدة كبيرة في منتصف الطريق فوقع اختيار الأمريكيين على الظهران قرب آبار النفط السعودية .

وعند البدء في إنشاء القاعدة انتهت حرب اليابان فجأة ، لذلك لم تهتم الولايات المتحدة بتطويرها ، وكانت تجدد إيجارها كل ستة أشهر ، حتى إذا احتدمت الحرب الباردة ، ووقع الصراع السالح بالفعل في كوريا ، صارت الحاجة ملحة إلى قاعدة الظهران .

وبناء عليه عقد اتفاق رسمي متكامل بين الحكومة السعودية والولايات المتحدة في يونيو سنة ١٩٥١ ينظم استخدام القاعدة مقابل مونة أمريكية لتسليح الجيش السعودي وتدريبه ، ويوضح الامتيازات التي يتمتع بها الجنود الأمريكيون الرابطون داخل القاعدة . ويحدد الاتفاق مسدة الإيجار بخمس سنوات قابلة للتجديد . وقد لا يكون من قبيل المصادمة أن يوقع هذا الاتفاق بعد مضي خمسة أشهر من موافقة شركة أرامكو على مبدأ النافسة في أرباح النفط .

ومن الشائع أن الاتفاقية جددت في سنة ١٩٥٧ أثناء زيارة الملك سعود للولايات المتحدة ، مقابل مبلغ كبير من المال . وكان ذلك في أعقاب إصدار مبادئ إيزنهاور ، وقبول السعودية بذلك البادئ . وتعتبر هذه البادئ نقطة تحول في السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط ، فقد رأت أن بريطانيا لم تعد قادرة على مواجهة السوفيت ، وأنها هي المسئول الأول عن الدفاع عن المنطقة

٣

الاهتمامات الجديدة للولايات المتحدة

بدأت اهتمامات الأمريكيين بإمارات الخليج العربية على شكل بعثات تجارية وقدت إليها في أوائل القرن العشرين . وفي حسابها أن الفقر المسفري في هذه البلاد سيساعد البشرين عن طريق الأعمال الخيرية على جذب بعض السكان إلى المسيحية . ولم تلك أن تكشف للأمريكيين أخطاء هذه النظرة ، ولكن بينا أخطئ الأمريكيون في مجال التبشير ، إذا لم ند أحوزوا نجاحا هائلا في اليادين الاقتصادية ، ورأينا كيف أنهم تفوقوا على الانجليز في امتيازات استغلال البترول .

استمرت حكومة الولايات المتحدة فترة من الوقت تسلم رغم ذلك لبريطانيا بأولويتها في الناحيتين السياسية والعسكرية . وهذا يقتضى مع السياسة العامة الأمريكية في تلك الحقبة ، وهي للعروة بسياسة العزلة .

يدل على ذلك أن الولايات المتحدة لم تفكر في إنشاء أى تمثيل سياسى لها في منطقة الخليج ، حتى في السعودية التي تستغل نفطها . والتي لم تكن مقيدة بماهدة انفرادية مع بريطانيا . وحينما احتاجت شركة البترول الأمريكية في سنة ١٩٣٤ إلى التعرف على حدود المملكة العربية السعودية استفسرت عن ذلك من السفارة البريطانية في جدة . كذلك أتابت الولايات المتحدة بريطانيا لتقديم التروض إلى ابن سعود عندما توقفت شركة أرامكو عن الإنتاج بسبب الحرب ، واستطاعت السعودية إلى المال ، فأعالتها الولايات المتحدة على بريطانيا ، باعتبار أن هذه الأخيرة تتلقى موفات أساسية منها .

ويرجع إنشاء السفارة الأمريكية في السعودية إلى سنة ١٩٤١ ، وذلك

شدا ما أمتته بخاطر الشيوعية الدولية على الشرق الأوسط . على أنه عند نهاية السنوات الخمس في سنة ١٩٦٢ كانت المفاهيم الاستراتيجية قد تغيرت ولم تعد الدول الكبرى تعتمد على القواعد العسكرية خاصة إذا كانت محصل تقدم من الرأي العام المحلي . فساترت الولايات المتحدة تصفية قاعدة الظهران في نهاية الـدة .

ولاحظ أنه عندما شرعت الولايات المتحدة في إقامة هذه القاعدة سنة ١٩٤٥ استأذنت أولاً من السلطات البريطانية في الخليج ، احتراماً لمركز بريطانيا التقليدي ولكن بغضى الوقت أخذت الخلافات تبرز من حين إلى آخر وإن حرصت الدولتان على عدم إيصال هذه الخلافات إلى حد يسيء إلى علاقات التحالف فيما بينهما .

وعلى سبيل المثال أبدت الولايات المتحدة عطفها على السعودية في منازعات الحدود مع أبو ظبي ومسقط حول واحات البويري . وقيل في ذلك الحين إن المسألة تتعلق بتنافس شركات البترول . فشركة أرامكو هي التي تدفع السعودية إلى هذه المطالب الإقليمية ، بينما تساند بريطانيا ومسقط والشيخات ، لأنها صاحبة مصلحة كبيرة في شركة نفط العراق التي تنفتح بامتنياز التقيب في تلك الإمارات .

أما السعودية فقد أنكرت بشدة العلاقة بين مطالبها وبين المصالح النفطية ، وأكدت أنها تنبني على حقوق شرعية في السيادة مستمدة من التاريخ ومن رغبات سكان المنطقة المتنازع عليها . بينما يورت الولايات المتحدة موقفها بأن السعودية دولة كبيرة يساعد وجودها على استقرار أفضل من الشيخات ، وخاصة في حالة مواجهة مسع تسلل سوفيتي محتمل إلى المنطقة .

في حين أن بريطانيا عالجت القضية استناداً إلى تفصيلات تتعلق

بالتاريخ المحلي والصراعات الإقليمية التي لعبت هي فيها دوراً ملموساً منذ وجودها في المنطقة .

وعلى كل فإن الإجراء العسكري الذي اتخذته بريطانيا سنة ١٩٥٥ وفرضت بواسطته حل نزاع الحدود لصالح الشيخات التابعة لها ، لم يترك أثراً يذكر على علاقاتها بالولايات المتحدة ، بهليل أن الأخيرة نوتت لها في نفس العام سنة ١٩٥٥ مهمة تزعم حاف بغداد . ذلك أن القضية بالنسبة للولايات المتحدة في الخمسينات هي استراتيجية قبل أن تكون اقتصادية ، ويتضح ذلك من مسألة خلافة أخرى ، نشأت بينها وبين بريطانيا في نفس الوقت ، وهي تتعلق بنفط إيران .

ومن المعروف أن حكومة مصدق قد عمدت إلى تأميم شركة البترول الإنجليزية الإيرانية سنة ١٩٥١ ، وكانت بريطانيا تود لأن الولايات المتحدة اشتركت معها في عمل عنيف ضد حكومة مصدق ، غير أن نظرة الأمريكيين أيدت على اعتبارات بعيدة المدى . ففي رأيهم أن وجود حكومة وطنية في إيران يشكل حاجزاً قوياً ضد الشيوعية . ولا بأس من تقديم التنازلات الاقتصادية لتدعيم هذا النظام ، حتى إن بعض المعلقين البريطانيين رأى في موقف الولايات المتحدة منازرة قصد بها إسهام الرأسمال الأمريكي في استغلال نفط إيران ، وهذا ماتم بالفعل في سنة ١٩٥٤ أي بعد سقوط مصدق ، وتشكوين الكونوسوم الدولي الذي أسهمت فيه الولايات المتحدة بالنصيب الأكبر ، بالتعاون مع شركة البترول الوطنية الإيرانية لاستغلال النفط .

وفي رأينا أن هذه المكرة لا تستند إلى حجة قوية . فالاستنارات الأمريكية لا تعمل بالنسبة للولايات المتحدة عاملاً مؤثراً في اقتصادياتها الوطنية على عكس الحال بالنسبة لبريطانيا ، حيث تعتبر استنارات البترول في منطقة الخليج من مصادر الحصول على العملات الأجنبية . كذلك أثبتت الأرقام أن الولايات المتحدة

ومن جهة أخرى يلاحظ أن بريطانيا سرعان ما تراجعت عن هذه الخطة الزامية إلى إدخال بعض الإمارات العربية في الحلف ، ربما لاقتناعها هي والولايات المتحدة بأفضلية إيران . فهي من حيث الموقع والإمكانات البشرية والقدرات العسكرية الناحية أعظم تقما للحلف . وهكذا توقفت المحاولات لدى الحكام العرب بمجرد التحقاق إيران بالحلف في سبتمبر سنة ١٩٥٥ .

وقد أوجد التحقاق إيران بالحلف بعض الارتياك للسياسة البريطانية من حيث التفاصيل . فتقاليدها القديمة إزاء إمارات الخليج هي المحافظة على وضعها الراهن . وإيران الشريكة معها في الحلف لها حينذاك مطالب إقليمية في البحرين وغيرها من جزر الخليج ، بل وبعض أماراته الساحلية . وقد رجحت بريطانيا طوال فترة وجودها العسكري في الخليج سياسها التقليدية ولو أن الحلف كان يبحث من حين إلى آخر أوضاع الخليج كلها وقت فترات عملية ، كما حدث في البحرين سنة ١٩٦٥ .

ويمكن تفسير ذلك بأن الدول الكبرى المشتركة في أحلاف آسيوية تنظر إليها كجزء من الاستراتيجية العالمية ، وترفض أن تكون هذه الأحلاف أداة لتحقيق أهداف محلية باسم الحلف . ولا أدل على ذلك من تخلي الولايات المتحدة وبريطانيا عن باكستان في صراعها مع الهند حول باكستان الشرقية في سنة ١٩٧١ كما لم تستند تركيا من الحلف في نزاعها مع اليونان بشأن قبرص .

قدمت لإيران في الفترة ما بين ١٩٥٤ ، ١٩٦٤ مساعدات عسكرية بلغت ألف مليون دولار ، بالإضافة إلى قروض قدرت بسبتمائة مليون . وهذا المبلغ يزيد على دخل إيران نفسها من النفط .

ولا شك أن الولايات المتحدة كانت تدرك أهمية موقع إيران بالنسبة للحرب الباردة ، وضرورة ارتباطها بالأحلاف ، وتبذل من أجل ذلك بسخاء . فاعتبارات السياسة الأمريكية كما ذكرنا ترتبط بالوقف الدولي وحتى هذا الموقف الدولي قد أخذ يتبدل مع انحسار موجة الحرب الباردة .

لم تمنع هذه الخلافات الأمريكية الإنجليزية في المسائل التفصيلية من اتفاق الدولتين في السياسة العليا ، ولا أدل على ذلك من تخلي الولايات المتحدة عن زعامة حلف بغداد لبريطانيا ، احتراماً لمكانتها التقليدية في المنطقة . والذي يعيننا ههنا هي تلك السامعي الطارئة التي أرادت بريطانيا من ورائها أن تجتذب بعض إمارات الخليج إلى الحلف ، ربما مقابل منحها الاستقلال . ولم توفق في أي من هذه المحاولات ، ويرجع الإخفاق إلى أسباب تختلف باختلاف وضع الإمارات .

قد تراجع حاكم الكويت رغم إغراء العرب الكبير في بغداد . وذلك تجنباً للتورط في الانقسامات العربية ، وهو تقليد قديم في سياسة الكويت ما زال متبعاً حتى الآن . وفي سبيل الضغط على البحرين رتب بريطانيا زيارة للجزر قام بها رئيس جمهورية تركيا مع رئيس وزرائها في ربيع سنة ١٩٥٥ ونظراً إلى أن تيار المعارضة للحلف كان قوياً في البحرين ، ويستند إلى قواعد شعبية أكثر تضجاً ، فقد أخفقت هذه المحاولة بدورها . بل إن تلك المحاولات لم تتجنب سلطان مسقط الذي قام بزيارة للمراق في نفس السنة ، ولم يكن حاكم مسقط يواجه معارضة يخشى بأسها ، ومع ذلك فلم تسفر زيارته عن شيء . وقد يعود ذلك إلى تقلب نزعة العزلة لدى سعيد بن تيمور ، وخوفه من أن يكون الحلف أداة اتصال بالعالم الخارجي .

الاولى في سنة ١٩٦٦ ذكرت أن المسألة ليست اقتصادية مخنة ، وأن هناك اعتبارات سياسية تحتم على بريطانيا بقاءها شرق السويس . ومن بين هذه الاعتبارات التزامها نحو الحلف المركزي والارتباط بمصالحات مع بعض الحكام الوطنيين . وكانت الدلائل حتى سنة ١٩٦٧ تشير الى إزدياد التقبيل لوجود العسكري في الخليج بعد أن صفت قاعدة عدن بالعمل في توفير من نفس السام وقتت هناك حكومة يسارية ، هي حكومة اليمن الجنوبية الشعبية التي قسدت تطلعي تسهيلات للسوفييت لاستخدام اليمن . لذلك كانت مفاجأة أن تنال بريطانيا في يناير سنة ١٩٦٨ عن نيتها في الانسحاب التام من الخليج بحلول نهاية عام ١٩٧١ .

فا هي أسباب هذا التحول المفاجي ؟

هناك عاملان رئيسيان لهذا التغيير . ويتمثل العامل الأول في السياسة العامة لحزب العمال . وهي التخفيف من النفقات العسكرية لكي يتسنى لبريطانيا التوسع في الخدمات . والعامل الثاني هو تغير المفاهيم الاستراتيجية . ذلك أن وجود بريطانيا في الخليج صار منذ سنة ١٩٥٧ جزءاً من خطة عسكرية واسعة تعرف باستراتيجية شرق السويس والهدف منها الاحتفاظ بالنفوذ البريطاني عن طريق قواعد عسكرية فعالة يمكن الانطلاق منها في أي وقت لمساعدة الحكومات المحلية الصديقة ، ومن أهم هذه القواعد : عدن ، وسنغافورة ، والبحرين .

وقد استخدمت قاعدة عدن في عملية من هذا النوع بمنطقة الخليج ، وذلك عندما استنجد حاكم الكويت في سنة ١٩٦١ بالقوات البريطانية لمواجهة تهديدات عبد الكريم قاسم .

كذلك اعتبر وجود القواعد نوعاً من تأمين المصالح الاقتصادية البريطانية دون الحاجة إلى احتلال شامل كما كان الحال في عهد الاستعمار التقليدي . وعلى كل فلا ننقد أن استراتيجية شرق السويس كانت تلعب دوراً رئيسياً في الراحبة العامة

٣

الانسحاب البريطاني

ظل الوجود العسكري البريطاني ينمو باطراد في منطقة الخليج منذ سنة ١٩٥٦ ، فقد اعتبر التوسع في القواعد البحرية والجوية في عدن والبحرين والشارقة بمثابة تعويض عن تصفية قاعدة قناة السويس . وزدادت أهمية الخليج في خطط « الدفاع البريطانية » بعد أن تقرر إخلاء عدن مبدئياً سنة ١٩٦٦ ، وقيل في ذلك الحين إن البحرين ستكون هي البديل الذي تركّز عليه استراتيجية شرق السويس .

وكانت مسألة القواعد تشير اختلافاً داخل حزب العمال نفسه ألباء . ووجوده في الحكم . ففي سنة ١٩٦٦ قدم ٥٤ نائباً عما ليا اقتراحاً إلى هارولد ولسون رئيس الوزراء ، ينص على تصفية القواعد البريطانية شرق السويس في موعد أقصاه سنة ١٩٧٠ ، وذلك بحجة أن هذه القواعد تكلف ٣١٧ مليون جنيه سنوياً ، بينما تبلغ أرباح بريطانيا من استثماراتها في آسيا ٦٠٠ مليون .

ويبدو أن الربط بين الوجود العسكري وبين تأمين المصالح الاقتصادية كان قائماً في ذهن الرأي العام البريطاني ، لأن الجميع اقترحوا لأول وهلة أن الانسحاب يؤدي إلى ضياع هذه المصالح وعلى رأسها بتحول الخليج العربي . ولكن لم يلبث الرأي العام أن اكتشف أن دولاً أخرى مثل اليابان وإسبانيا تستثمر أموالها في بتحول الخليج دون أن تكون لها جيوش . كما أن دول المنطقة ليست بعد قادرة بنفسها على إدارة صناعة البترول ولذا أخذ هذا الطراز من التفكير يتلاشى . ولكن عندما جويت حكومة المال بهذا الاقتراح المرة

البريطاني بأن قبول هذا الطلب معناه تحويل للمواطنين الانجليز إلى جنود مرتزقة .

لم يكن قرار الانسحاب أن بريطانيا تفضت بعدها من منطقة الخليج ، ولم تعدتهم بشئونه ، بل على العكس حرصت على اتخاذ بعض الترتيبات التي اعتبرتها ضرورية لضمان استقرار الأوضاع بعد الانسحاب ، إذ كان من الفهم أن الماهدات الانفرادية تنتهي مع انتهاء الوجود العسكري البريطاني . ومن أم الترتيبات التي اتخذت تشجيع إقامة اتحاد الإمارات التسع الذي لم يفتح إلا جزئياً . وقد وعدت بريطانيا بتدعيم حرمين ساحل عمان في حالة إقامة دولة الاتحاد . ومن الممكن تقديم المساعدة الفنية لجيش الاتحاد . ومن هذه الترتيبات أيضاً حل الشكايات الكثيرة التي تترسّ أمن المنطقة مثل إدعاء إيران في البحرين . وغداً وانحاً أن بريطانيا تعتبر كلا من السعودية وإيران القوتين اللتين يمكن الاعتماد عليهما لتأمين هذا الاستقرار . لذلك لا يستبعد أن تكون قد شجعت على التفارب بين الشاه والملك فيصل ، وأن تكون قد ساعدت على إيجاد حلول وسط بين وجهات النظر الإيرانية والعربية بشأن جزر الخليج . وقد أشرنا كيف أن تصريح الشاه بشأن حق تقرير المصير في البحرين ، قد صدر بعد اجتماع جده مع الملك فيصل بوقت قصير .

ومن الجائز أن يكون قد تم منذ ذلك الحين الاتفاق بين بريطانيا وإيران على الأقل بأنها ستترك الجزر الثلاثة الأخرى تقع في حوزة إيران عندما تنتهي مسئوليتها عن إمارات ساحل عمان مالكة هذه الجزر .

أبدى حزب المحافظين عدم رضائه عن قرار الانسحاب في جميع الأحوال في نهاية سنة ١٩٧١ ، وقام إدوارد هيث بزيارة لمنطقة الخليج العربي في نهاية سنة ١٩٦٩ حيث أكد أن حزبه لا ينوي التخلي عن أصدقاء بريطانيا في المنطقة . وفي أثناء الحملة الانتخابية كرر حزب المحافظين تصريحاته السابقة من أن (٢٠ م — ٢٠ م)

مع الكتلة الشيوعية ، لأن الولايات المتحدة صارت تتكامل بالمع الأبرهذه المواجهة ، والدليل على ذلك أن بعض دول السكومتوت مثل استراليا ونيوزيلانده صارت تعول على الولايات المتحدة أكثر من بريطانيا في المحافظة على مراكزها كدول انجلو سكسونية تعيش على قرب من القسارة الآسيوية الزدهمة بالسكان .

ودليل آخر هو أن قرار الانسحاب من الخليج صدر في وقت تردد فيه الحديث عن ازدياد قوة الأسطول السوفيتي في المحيط الهندي ، وإمكان حصول السوفيت على تسهيلات للتموين في عدن حيث تسود العلاقات الطيبة بين موسكو وجمهورية اليمن الشعبية . وقد أثير اعتراض حول هذا الموضوع ، وكان رد الحكومة المالية هو أن غواصات يو لارس الحاملة للرموس النووية وحملات الطائرات الكبيرة يمكن أن تحمل عمل القواعد . هذا فضلاً عن أن لها ميزة سياسية ، فهي لا تثير اعتراضاً من الأنظار الآسيوية .

وقد يكون من بين العوامل الثانوية في قرار الانسحاب إغلاق قناة السويس وما ترتب على حرب سنة ١٩٦٧ من تضائل احتمالات التيار القومي المبعث من مصر ، والذي كانت تنظر إليه بريطانيا بعين الاستياء . وأخيراً فالمهمة الجديدة لبريطانيا في الخليج هي إيجاد أنظمة مديقة ومتدلة وعدم ترك الفرصة لحركات ثورية متطرفة ، وهذا قد يتأق بعدم الظهور عسكرياً في المنطقة لتجنب إثارة الشارع المادية .

ولأول وهلة شمر بعض المحكم العرب في الشيوخات وفي مسقط بأن الانسحاب قد يخرج مركزهم وعرضهم إما للثورات داخلية ، أو لتعدى دول كبيرة مجاورة مثل إيران أو السعودية ، حتى إن حاكم أبوظبي طلب إبقاء جنود بريطانيين على أن يتكامل بنفقتهم ، وبهذه المناسبة صرح وزير الدفاع

الوجود على علاقات طيبة وتعتمد في تطوير أجهزتها على بريطانيا أو غيرها من دول العرب ، ولعل التغير اللوس الذي حدث نتيجة الانسحاب هو استيلاء إيران على ثلاث جزر كانت تابعة لإمارات ساحل عمان .

إيران وإمارات الخليج

يمر بعض الكتاب العرب الضباط الإيراني في القسم العربي من الخليج إلى نصحج بريطانيا أيام سيطرتها على هذا القسم . وشككوا في أن يكون هناك تواطؤ بين بريطانيا وإيران في ادعاءات الأخيرة في البحرين وربعتها في التوسع في الساطي العربي ، وذلك على أساس أن الدولتين شريكستان في الحلف المركزي وقد تكون إيران قد استفادت بالفعل من التحالف بالخلف بتدعيم قواتها العسكرية من حيث التسليح والتدريب . غير أننا ذكرنا من قبل كيف أن الحلف لم يستخدم لتحقيق أغراض عملية في المنازعات التي نشأ بين الدول الآسيوية المتجاورة . بل إن تاريخ بريطانيا في الخليج يثبت عكس الشائعات التي روجتها الدعاية العربية أحياناً ، فقد كان من مصلحتها الحد من التناقل الإيراني ، لأن الإمارات العربية تخضع لسيطرتها ، بينما أن إيران مهددة بالوقوع في قبضة روسيا القيصرية . ولمستمرت هذه النظرة بعد الحرب العالمية الثانية وإن اختلفت صورة الخطر ، فلم ندمي روسيا القيصرية ، بل وجود حزب شيوعي له وزنه في إيران ، هو حزب توده .

وقد حالت بريطانيا في أكثر من مرة دون غزو البحرين وغيرها من الجزر خلال القرن التاسع عشر . وإذا كان عايناً أن يبحث في أسباب الأطماع التوسعية الإيرانية في الخليج فيجب أن نستند إلى الحقائق الموضوعية والتي تبرزها إمارة

الانسحاب يجب أن يحاط ببعض التحفظات ، ومن بينها عدم الالتزام بموعده دقيق كما حدده حزب العمال .

ذلك ما كاد الحزب يهود إلى السطوة في يونيو سنة ١٩٧٠ حتى طرح موضوع الانسحاب من جديد للمناقشة . وأعلنت حكومات عربية عديدة من بينها العراق والكويت والسعودية ومصر احتجاجها على تردد حزب المحافظين في تنفيذ خطة الانسحاب التي كان حزب العمال قد شرع في تنفيذها بالفعل .

لم تفصح سياسة المحافظين إزاء موضوع الانسحاب إلا في أول مارس سنة ١٩٧١ ، وذلك حينما ألقي هيمون وزير الخارجية خطاباً في مجلس العموم ، صرح فيه بأن حكومته تلتزم بقرار الحكومة السابقة . وللموعد الذي حدده للانسحاب . وأما إن الحكومة البريطانية لا تستطيع أن تتحمل مسؤولية بالنسبة لإمارات ساحل عمان الصغيرة إلا إذا تكونت دولتها اتحادية . وفي هذه الحالة ستقدم بريطانيا المساعدات لإقامة جيش للاتحاد . وتحويل الحرس الملكي إلى نواة لهذه القوة الناشئة ، تتولى الاتفاق عليها دولة الاتحاد . ويبدو أن المحافظين انتظروا حتى اتضح أملمهم أن الأوضاع الراهنة ستظل قائمة بعد الانسحاب . وقد تم الاتفاق على ذلك مع جميع الأطراف المعنية سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة . ذلك أن الحكومة البريطانية كانت ولهم لوس باعتباره ممثلاً شخصياً لوزير الخارجية بالاتصال بمدة حكومات ، وقام بحولات متوالية في السعودية وإيران والعراق ومصر والكويت . ونا كدت بريطانيا من أن أحداً لا ينوي الساس بالوضع الراهن . وهكذا يمكن القول بأن خطتها قد نجحت إلى حد كبير . فسياستها التقليدية من زمن طويل هي المحافظة على الوضع الراهن . وقد كان يخشى مثلاً في حالة الانسحاب أن تجسّد السعودية مطالبها الإقليمية في حدود الإمارات الساحلية ، أو يتجدد النزاع على الحدود بين قطر وأبو ظبي ، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث نتيجة الترتيبات التي اتخذت قبل الانسحاب . وبقيت الدول الأربع الجديدة التي ظهرت إلى

بين حالة إيران، وحالة القسم العربي. فإيران دولة موحدة، لها وزنها السكاني والحضاري والسياسي. ويقابلها على الشاطئ الآخر ثلاث عشرة وحدة سياسية، بعضها من الضالة بحيث لا يتجاوز سكانها بضعة آلاف. وفي مثل هذه الظروف لا ينتظر أن يكون القسم العربي وزنه السياسي أو العسكري. هذا فضلاً عن الفراغ والتخلف الذي غطته ثروة النفط في السنوات الأخيرة.

ويمكن تفسير السياسة الإيرانية في الخليج بعد الحرب العالمية الثانية بأنها الصراع القوي الذي نشأ عادة بين القوميات المتجاورة. ففي الماضي كانت المسألة تتعلق بأمر حاكمية تسعى إلى كسب هيبة بإخضاع البلدان المجاورة. وقد قاومت الأمر الحاكم العربية في الخليج عمالات إيران للحفاظ على وثافتها، لا باسم الفكرة العربية التي لم تكن قد تبلورت بعد، بل لأن هذه الأسر اعتبرت الماهدات التي عقدتها مع بريطانيا الأساس (لا استقلالها) وبعد انتشار الفكرة القومية عند العرب وظهور آثارها في منطقة الخليج، أصبح الإيرانيون يتخذون موقفاً عدائياً من أية دعوة إلى توحيد الساحل العربي وخاصة إذا كانت هذه الدعوة ستؤدي إلى ارتباطه بدولة عربية من خارج المنطقة. ولعل هذا من الأسباب التي تفسر لنا إحياء الزاعم الإيرانية في البحرين خلال الخمسينات. وقد رأينا في فصل سابق كيف سويت هذه المسألة، ولكن تسويتها لم تمن نهاية الخلاف بين إيران والدول العربية الواقعة على الشاطئ الواحد. فالشكوى من التسلل الإيراني أخذت تتردد منذ ظهور البترول، ولم تقطع بعد حصول الإمارات على الاستقلال. واتهمت السلطات في بعض الإمارات العربية المستقلة بالتناغم عن هذا التسلل.

وفي رأينا أن هذا التسلل ظاهرة طبيعية تعود إلى التفكك السياسي والفراغ السكاني في القسم العربي، مع وجود ثروة النفط التي فتحت مجالاً واسعاً للعمل وللشغل الاقتصادي. ومعالجة هذه القضية لا تنافي بإلقاء اللوم على إيران، بقدر ما تنوق على إعادة النظر في أوضاع الإمارات. ويتمثل التسلل الإيراني في هجرة

بقصد العمل أو مزاوله التجارة وإنشاء المصارف الخاصة. والسؤال هو: إلى أي مدى يظل هؤلاء الوافدون متمتعين بأوطانهم الأصلية، وهل هم قابلون للاندماج في العنصر العربي، وإلى أي مدى اندمجت بالعمل العناصر الإيرانية القديمة. وهل يشكل الإيرانيون تجمعا له أغراض سياسية، وبمعنى وضع المنطقة التي يتكاثرون فيها تحت سيادة إيرانية.

ليست هناك أرقام صحيحة عن عدد الإيرانيين في مختلف الإمارات ومن المؤكد أن بعض الوافدين إنما يقصد البحث عن العمل، فإذا جمع قديراً من المال، عاد إلى بلاده. وتعرف منطقة الخليج هذا النوع من الوافدين منذ القرن التاسع عشر، إذ كان وما يزال يتردد عليها كثيرون من الهند والباكستانيين. والفرق أن الإيرانيين يقيمون إلى دولة قريبة عبرت في أكثر من مناسبة عن أطماع سياسية لها في القسم العربي، لافي البحرين فحسب، بل في ساحل عمان وبعض الجزر التابعة لها.

ومن جهة أخرى هناك التجار الأثرياء الذين يكونون مراکز قوّة اقتصادية وسياسية، لا يستطيع السكان العرب في مثل ظروفهم المالية أن يتالمسوم. أما عن مدى الاندماج في العنصر العربي فمن الممكن أن يتحقق فقط حيث لا توجد تجمعات كبيرة. ففي هذه الحالة يضطر الإيرانيون إلى تعليم أولادهم في المدارس العربية، أما حيث توجد التجمعات الكبيرة فإن الجاليات الإيرانية تنشئ مدارس خاصة وتظل تحتفظ بطابعها القومي. وأكبر هذه المدارس هي تلك التي أنشأها الجالية الإيرانية في دبي، وتوجد مدرسة أخرى في الكويت حيث يقدر عدد أفراد الجالية الإيرانية بحوالي ٣٥ ألفاً، وإذا صح هذا الرقم فإنه يكون أكبر تجمع في إمارات الخليج.

وتختلف أساليب مواجهة التسلل الإيراني من دولة إلى أخرى. وتضع قطر أشد القيود على الهجرة الإيرانية، بينما تضع الكويت القيود على التجسس وبعض

ولاشك أن قرار بريطانيا بالانسحاب قد أحيى الآمال الإيرانية في الاستيلاء على هذه الجزر، وأخذت تمد لها، وخاصة بعد أن تنازلت عن البحرين، كنوع من أنواع الحفاظ على الهيبة للحكومة الشاه. هذا هو الهدف الرئيسي من وراء التحرك الإيراني. وهناك أهداف أخرى تتمثل في مصالح اقتصادية واستراتيجية باعتبار أن الجزر تقع قريباً من مضيق هرمز ولا شك أن إيران قد استفادت من مركزها السياسي والمسكري لتحقيق أهدافها دون عناء. فهي على علاقات طيبة بالدول الكبرى على اختلاف نزعاتها. فإن التحالف بالحلف المركزي لم يمنع من تحسين علاقاتها بالاتحاد السوفيتي، وخاصة بعد زيارة كوسيجين لها في سنة ١٩٦٦، وما ترتب على ذلك من تنشيط العلاقات الاقتصادية مع حكومة موسكو.

كيف واجه العرب الإجراء الإيراني؟ لقد حملت بعض الحكومات العربية ولاسيما ليبيا والعراق بريطانيا مسئولية هذا الإجراء. ففعلت حكومة العراق العلاقات الدبلوماسية مع كل من بريطانيا وإيران. وعمدت ليبيا إلى تأميم المصالح البترولية البريطانية فيها.

أما الطرف المعنى بالدرجة الأولى، فهو دولة الاتحاد الناشئة، ولم يكن بوسعها أن تجابه بالقوة الإجراء الإيراني. وليس لأي من الدول العربية المتاخمة للخليج قوة بحرية تضارع الأسطول الإيراني. وعلا على ذلك وجد وراء الحق قوة لتحديه، فإنه يصبح بوسع بعض الناس أن يبرروا موقفهم بالخضوع للأمر الواقع. هكذا برر حاكم الشارقة اتفاهه مع إيران بشأن جزيرة أبو موسى، وقال إنه بدون هذا الاتفاق ما كان يستطيع الحصول على شيء. نغیر له أن يحصل على بعض المكاسب الاقتصادية من أن يفقد كل شيء.

ولما على خلاصة الاتفاق.

١ - احتفاظ الشارقة بالسيادة النظرية على الجزيرة، وبقاء سكانها رعاباً لحاكم الإمارة ويرفع علم الشارقة على الجزيرة.

حكم ساحل عمان علاقات طيبة بحكومة طهران. وقد توافقوا على زيارتها بعد إعلان بريطانيا قرارها بالانسحاب. وتعتبر دبي هي أكثر المدن^(١) التي يلجس فيها الوجود الإيراني.

على أن قضية الجزر الثلاث التي استولت عليها إيران في ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٧١ قد جاءت لتثير الخلاف العربي الإيراني على نطاق أوسع. وتتورد أسدءا هذا النزاع إلى ما وراء دول الخليج. وهذه الجزر هي أبو موسى، وطلب السلي والعليا. وأبو موسى هي أكبر تلك الجزر وأكثرها أهمية من الناحية الاقتصادية، إذ تبلغ مساحتها ثلاثين كيلو متراً مربعاً، ويستخرج منها أكسيد الحديد، كما ينتظر تفجير البترول في مياهها الإقليمية. وتقع الجزيرة على مسافة ٤٥ كيلو متراً من الشارقة صاحبة السيادة عليها، أي داخل الجرف القاري العربي.

أما الجزيرتان الأخريان فتقعان في الجرف القاري الإيراني، ولكنهما من الناحية التاريخية كانتا تقيمان لفترة طويلة حاكم رأس الخيمة. وتكاد الجزيرتان تخلوان من السكنى الدائمة، إذ يتردد عليها الصيادون، ولا يستقر فيها سوى عدد بسيط لا يتجاوز الاثنين.

وقد سبق لإيران أن حاولت ضم تلك الجزر سنة ١٩٥٤ وأثارت بالعمل بعض قوات الحراسة فيها، وعينت بها موظفاً للجمرك، ولم تلبث بريطانيا أن تدخلت باسم حاكمي الشارقة ورأس الخيمة، وأجبرت إيران على الانسحاب. ثم تكررت المحاولة في سنة ١٩٦٤ على أثر بدء التنقيب عن البترول الذي حصلت على امتيازته شركة أمريكية، ولم تتجاوز المحاولة في هذه المرة وضع علامات ترمز إلى السيادة الإيرانية قرب الجزيرة وقد أزيلت تلك العلامات في الحال. ولغقت هذه المحاولة نظر الجامعة العربية إلى ضرورة الاهتمام بإمارات ساحل عمان.

(١) انظر لمؤلف بحث في سياسة دولية بسون: إيران، الخليج، عدد أبريل سنة ١٩٦٦.

٢ - تستقر الشركة الأمريكية ساحة الامتياز في التقيب عن البترول في أبو موسى ومياها الإقليمية .

٣ - ترابط قوات إيرانية في منطقة الجزيرة بتفق عليها بين الطرفين .

٤ - تقدم إيران مساعدة مالية للشارقة تقدر بمليون جنيه ونصف سنوياً لمدة تسع سنوات . وتتوقف هذه المساعدات متى وحصل دخل الشارقة من النفط ثلاثة ملايين جنيه استرليني .

ويسود شك في الشارقة بأن الاتفاق المعلن لا يمثل الحقيقة .

أما حاكم رأس الخيمة فقد اتبع أسلوباً مختلفاً ، إذ رفض التنازل عن حقوقه في جزيرة ططب السفلى والعليا . وظل يصدر الاحتجاج تلو الآخر وذكّر أن سلبيّة حكومة الاتحاد في مسألة الجزر هي التي جعلته يتردد في الالتحاق به . ولم ترق طريقة حاكم الشارقة لعدد من السكان : فقامت المظاهرات ضده ، ولم هذا من الأسباب التي شجعت سفير بن سلطان على محاولة استرداد حكمه . تلك المحاولة التي انتهت بمقتل خالد القاسمي الشول عن الاتفاق مع إيران . إلا أن المحاولة أجهطت في الحال إذ أن جيش الاتحاد الذي وقف متفوجاً على ضياع الجزر ، تحرك بسرعة لحماية الاتحاد من فتنة ثورة في صفوفه ، وذلك بتعيين سفير بن محمد شقيق الحاكم السابق حاكماً على الشارقة باعتباره موالياً لنظام الاتحاد .

خاتمة

بعد عام ١٩٧١ تقطعت نحول في تاريخ الخليج العاصر . ففيه انتهى ذلك العهد الطويل من السيطرة البريطانية في المجالين العسكري والسياسي وبرزت إلى الوجود أربع دول خليجية انضمت إلى الجامعة العربية ، وإلى الأمم المتحدة .

وممارسة الاستقلال هي في رأينا أشد صعوبة من مكافئة السيطرة الأجنبية التي تستند في عصرنا على التفاوت بين الدول المتقدمة و متخلفة وقد تنطلي ثروة النفط المشكلات المواجهة التي تواجهها الدول المستقلة ، ولا تترك فرصاً لحركات ثورية راديكالية سيما وأن المثل الثوري الوحيد في شبه جزيرة العرب هو القائم في اليمن الجنوبية الشعبية ذات الموارد المحدودة وهي ليست من الأقطار المتقدمة للبترول بينما أن الأقطار النفطية تعيش في ظل النظم التقليدية .

والقضية المطروحة في هذه الأقطار هي مدى الأخذ بالنظام الدستوري المعاصر . ويتفاوت موقف كل حكومة حسب ظروف بنشأها فمما التي خرجت بالكاد من عزلتها النامة عن العالم الخارجي للمحتاج إلى مرحلة تطوّر قبل أن تطرح مسألة الحكم النيابي وعلى العكس توجد حركة قوية في البحرين فنادى بالنظام الدستوري .

وفي نفس الوقت شهدت البحرين تجدد الاحتجاجات العمالية في بداية عهد الاستقلال .

وقد استجاب الشيخ عيسى بن سلمان جزئياً للمطالب الشعبية فكلف لجنة بوضع دستور ، ولم يثنأ أن يترك هذه المهمة لجمعية تأسيسية منتخبة على غرار ما حدث في الكويت ، وكما كان رجو الأعمالي ، كما أن المجلس النيابي الذي يتكون من ثلاثين مقعداً بالاقتخاب ، أضيف إلى عضويته وزراء كأعضاء معينين .

وقد أعقب الانسحاب البريطاني بعض محاولات التثبير السياسى ، وهى فى الواقع لانتدو أن تكون مراعاة على السلطة بين أفراد الأسر الحاكمة . ففى الشارقة اعتال سفير سلطان ابن عمه حاكم الإمارة فى يناير سنة ١٩٧٢ إلا أن محاولته باءت بالفشل نتيجة وقوف جيش الاتحاد فى وجهه وعلى العكس تمكن رئيس وزراء قطر حمد بن خليفة آل ثانى من الاستيلاء على السلطة دون اتخاذ إجراما نظراً إلى أنه كان يتولى الساعات الفعلية من قبل . وكان حاكم قطر متعيباً فى إيران . ومع ذلك فقد أراد الحاكم الجديد أن يعطى لحركته مظهر التثبير الإصلاحي .

وبخصوص الاتحاد فالتمصير بحات نكسر رغبة المشيوليين فى توسيع الاتحاد بحيث يشمل قطر والبحرين على الأقل ، ولكن تجارب تاريخ العرب المعاصر توضح بجلالة كيف أنه ما أن تخرج دولة إلى الوجود وتتخذ مظاهر الدولة العصرية من علم وتمثيل دبلوماسى ، ونشيد خاص بها ، حتى يقصد بعد ذلك التنازل عن هذه المظاهر . وما كان فى الماضى مجرد جنسية قانونية يتحول بالتدريج إلى وطنية مهما كان حجم هذا الوطن صغيراً .

ولم تدم بريطانيا تحتل وحدها السكان الرئيسى فى العلاقات الخارجية لدول الخليج بعد استقلالها كما توقع البعض ، فإن انتشار أزمة الطاقة جعل أنظار دول كثيرة تنصب إلى الخليج . فبعد أن كانت فرنسا مثلاً تقتصر على سفارة واحدة لها بالكويت ؛ رأت ، بعد استفحال أزمة النفط فى أعقاب حرب أكتوبر ، أن تنشئ أربع سفارات جديدة فى دول الخليج الأخرى . كذلك عملت اليابان على زيادة دوا بطها مع هذه الدول بعد أن كان اهتمامها يكاد يقتصر على التقيب عن النفط .

على أن أهم تغيير شهدته منطقة الخليج فى علاقاتها الدولية هو ذلك التحول الذى نجم عن حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، ففى ذلك الحين كان مركز الولايات المتحدة يبدو وكأنه يحمل بالتدريج محل بريطانيا . فالولايات المتحدة هى التى تزود الكويت والسعودية بكميات كبيرة من الأسلحة حتى قيل إنها تريد أن تفسد

الاتحاد السوفيتى الذى يؤدى نفس الدور فى العراق . كما أن الولايات المتحدة حصلت على تسهيلات لأسطولها فى إحدى موانئ البحرين ، وذلك بمجرد انسحاب بريطانيا من الخليج . فلما وقعت حرب أكتوبر ، وردد صداها فى الدول واست بريرة كيف تمخزت الولايات المتحدة لإسرائيل تحيزاً كائياً ، وحرمت العرب من فرصة الاتصاف المسكوى الحاسم ، اجتاحت هذه الأقطار شعور معاد الولايات المتحدة تتمثل فى قطع النفط عنها كائياً ، وبادرت حكومة البحرين بالإضافة إلى ذلك إلى إنشاء ااتفاق الخاص بالتسهيلات البحرية للأسطول الأمريكى وإن لم تخرج عن نفس الاتفاقية التى تشترط ألا يعمد أحد الطرفين إلى إنشاء ااتفاق إلا بعد مضي سنة من التبليغ عن رغبته .

وفى نفس الوقت خفتت إلى حد كبير حدة المخاوف التى كانت تشعربها دول الخليج إزاء الاتحاد السوفيتى فأعلنت السعودية عن استعدادها لاستئناف العلاقات الدبلوماسية مع السوفيت ، وهى العلاقات التى فطمت منذ زمن طويل . وكان لبرقية التهينة التى بعث بها الملك فيصل إلى الكرمايين بمناسبة عيد الثورة السوفيتية فى ٧ نوفمبر ١٩٧٣ دلالة ذات منزى كبير . يضاف إلى ذلك أن الاتحاد السوفيتى وهو من الدول المصدرة للنفط ، أخذ يبدى اهتماماً باستئلال بعض آبار النفط فى جنوب العراق على أسس جديدة من العلاقات بين الدول المتقدمة والدول النامية . وحضر كوسيجين بنفسه تدشين أول ناقلة سوفيتية تنقل النفط عبر مياه الخليج وتحت وعاة أزمة الطاقة لن يعفى زمن طويل حتى يحتاج الاتحاد السوفيتى بدوره إلى استيراد النفط العربى . وفى هذه الحالة فإن تحس العلاقات بين الاتحاد السوفيتى ودول الخليج سيكون كسباً كبيراً بالنسبة له .

أما من حيث استيراد الأدوات الاستهلاكية لحاجيات المنطقة فستظل أوروبا الغربية واليابان هى أهم الدول المصدرة لهذه السلع ومن الأرجح أن تحمل بالتدريج عمل الولايات المتحدة .

المراجع العربية

- : قاسم والكويت - بيروت سنة ١٩٦١ .
 : ملوك العرب ، جزآن ، بيروت ١٩٢٩
 : الإمارات العربية في الخليج العربي ، القاهرة سنة ١٩٦٦ .
 : (الخليج العربي - دراسة لتاريخ الإمارات العربية ١٩١٤ - ١٩٤٥ القاهرة ١٩٧٣)
 : دولة البوصعيد في عمان وشرق أفريقيا ، القاهرة ١٩٦٣ .
 : جزيرة العرب في القرن العشرين ، القاهرة سنة ١٩٣٥ .
 حسين خلف الشيخ خزعل : تاريخ الكويت السياسي ، بيروت من سنة ١٩٦٢ - ١٩٧٠ .
 حقيقة الأزمة بين الكويت والIraq (مجموعة وثائق نشرتها حكومة الكويت) بيروت سنة ١٩٦١ .
 حمد يوسف العيسى : الكويت والمستقبل .
 خالد العدساني : نصف عام من الحكم النيابي في الكويت ، بيروت سنة ١٩٤٧ .
 خيرى حماد : قضايانا في الأمم المتحدة القاهرة سنة ١٩٦٥ .
 راشد البراوى : حرب البترول في الشرق الأوسط ، القاهرة .
 دوبرت لاندن : عمان منذ ١٨٥٦ ، ترجمة محمد أمين عبدالله ، بيروت سنة ١٩٧٠ .

أحمد فوزى
 أمين الريحاني
 جمال زكريا قاسم

دار الوثائق التاريخية القومية بمبدين : عافظ المجاز

ابن بشر (عمان)

: عنوان المسند تاريخ نجد ، جزاء
القاهرة ١٣٤٩ هـ

جمال زكريا قاسم

: الإمارات العربية في الخليج العربي
: جزيرة العرب في القرن العشرين ،

القاهرة ١٩٥٥

ساطع الحصري

: البلاد العربية والولة الثمانية ،

بيروت ١٩٦٦

السيد نوفل

: الأوضاع السياسية لإمارات الخليج
العربي ، القاهرة ١٩٦٠

صلاح العقاد وجمال زكريا قاسم

: زنجبار ، القاهرة ١٩٦٠

عبد الرازق الحسني

: تاريخ العراق السياسي ، بيروت ١٩٤٨

عبد العزيز الرشيد

: تاريخ الكويت ، الطبعة الثانية ، بيروت
عرض حكومة المملكة العربية السعودية ، أمام هيئة التحكيم الدولية ثلاثة أجزاء ،

القاهرة ١٩٥٥

عمان والساحل الجنوبي للخليج العربي : من منشورات شعبة البحث التابعة

لشركة أرامكو القاهرة ١٩٥٢

محمد بن خليفة النهدي

: التحفة النهديّة في إمارات الجزيرة
العربية — بغداد ١٣٢٢ هـ .

محمد لبيب شقير

: امتيازات وعقود البترول في البلاد
العربية ، القاهرة ١٩٦٠

: شبه جزيرة العرب في العصر الحديث سنة ١٩٦٩ .

: الشرق العربي المعاصر القاهرة سنة ١٩٩٠

عبد الرحمن الباكو : من البحرين إلى النقي ، بيروت سنة ١٩٦٥ .

عبد العزيز الرشيد : تاريخ الكويت ، بيروت بدون تاريخ .

عرض المملكة العربية السعودية ، أمام هيئة التحكيم الدولية ، ثلاثة
أجزاء ، القاهرة سنة ١٩٥٥ .

عزيز محمد حبيب : الكويت ، من سلسلة العالم العربي ، ١ ،

القاهرة سنة ١٩٧١

عمان والساحل الجنوبي للخليج الفارسي : نشر مركز الأبحاث التابع
لشركة أرامكو ، القاهرة سنة ١٩٥٢ .

لنزوسكي جورج : الدولة والبترول في الشرق الأوسط ،
بيروت سنة ١٩٥٧ .

محمد جواد العيوسي : بترول البلاد العربية ، القاهرة سنة ١٩٥٤ .

محمد لبيب شقير وصاحب ذهب : امتيازات وعقود البترول

في البلاد العربية ، القاهرة سنة ١٩٦٠ .

محمد يهجت سنان : الكويت زهرة الخليج العربي ، بغداد
سنة ١٩٥٥ .

محمود الداود : تاريخ عمان الحديث ، القاهرة سنة ١٩٦٤ .

نجم عبد القادر : تطور الكويت السياسي والاقتصادي بين
الحربين ، القاهرة ١٩٧٣ .

محمود على اسود

(١) الخليج العربي والملاقات الدولية

١٨٩٠/١٩١٤ القاهرة

(ب) التطور السياسي الحديث لقضية

عمان — القاهرة، ١٩٦٤

(ج) العلاقات البرتغالية مع الخليج

العربي ١٥٠٧/١٦٥٠ بحث منشور

في حوعية كلية الآداب ببنداد ١٩٦٠

: تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان القاهرة

١٣٥٠ هـ — جزآن .

نور الدين بن عبد الجيد السالى
نور الدين عبد الملك بن محمد السالى

المراجع الأجنبية

وثائق لم تنشر

«١» وثائق بريطانية :

(١) مكتب الهند Indian Office المعروف الآن بمكتب علاقات
الكمونولث Common Wealth Reglation Office

- Bombay Political Consultation.
- Secret Letters from Bombay.
- Factory Records, Persia and the Persian Gulf.
- Home Miscellaneous.

(ب) وثائق وزارة الخارجية

- F.O. 54 (Muscat)
- F.O. 60 (Persia)
- F.O. 84 (Slave Trade)
- F.O. 406 (Kuwait)

«٢» وثائق فرنسية :

(١) وثائق وزارة الخارجية

- Correspondances de Perse Comprenant la Correspondance Politique, les Memoires et Documents.
- Correspondance Consulaire (Muscat).

(ب) وثائق وزارة المستعمرات

C. 4. Ile de France, tome 112 a tome 132. Conservés aux
Archives Nationales.

الدراسات والبحوث :

- 1 - Adamiyat, F. "Bahrein Islands" New York, 1964.
- 2 - Auzoux, A. "La France et Muscat au 18^e et au 19^e Siècle," Extrait de la Revue d'histoire Diplomatique, Paris, 1910.
- 3 - Badger, History of the Sayeds and Imams of Oman. London, 1871.
- 4 - Brunet-Millon. "Les Boutriers de la mer des Indes". Affaire de Zanzibar et de Muscat, Paris, 1910.
- 5 - Brydges, Sir Harford Johns "an Account of His Majesty's Mission to the Court of Persia in the year 1807 to 1811" London, 1834.
- 9 - Charles-Roux, François, "L'Angleterre et l'Expédition Française en Egypte, Le Caire, 1925.
- 7 - Cherley, "A True Report of Sir Antony Cherley's Journey over land to Venisia and thence by sea to Antioch, Aleppo and so to Persia", London, 1600.
- 8 - Compland, R. East Africa and its invaders, London 1938.
- 6 - Carzon, Lord, "Persia and the Persian Question", Lon, 1891.
- 10- Dickson, A. "Koweit and her Neighbours", Lon. 1956.
- 11- Driault, "La Politique Orientale de Napoléon et Paris.
- 12- El Baharna Husein : The Legal Status of Arabian Gulf States, London, 1968.
- 13- El Mallakh, Ragai : Economic Development and Regional Co-operation Koweit, Chicago, 1967.
- 14- Faria Ysouse "The Portuguese Asia", the History and discovery of India English translation, 3 vols., London, 1695.

وثائق منشورة

- Aitchison (C.V.) "A Collection of Treaties, Engagements and Sanads Relating to India and Neighbouring Countries". توجد منه طبعت مختلفة وقد اعتمدنا على الطبعين القديين : الأولى صادرة في كلكتا سنة ١٨٧٦ والثانية سنة ١٨٩٢ .
- Documents Diplomatiques Français. Affaire de Mascate-Commerce des armes 1912-1914, Paris 1914.
- Foreign and British State Papers.
- Gardanne Alfred, la Mission du Général Gardanne en Perse sous le 1^{er} Empire, Paris, 1865.
- Gooch & Temperley, British Documents on the Origins of the War, 1898-1914. London, 1938. Vol. 6-10.
- Hurewitz, Diplomacy in the Near and Middle East. 11 Vols. New York, 1956.
- Kaye, John William. "The Life and Correspondence of Major General Sir John Malcolm". London, 1856.
- "Report from the Select Committee for the Slave Trade". London, 1871.
- Saldanha, J. A. "Selection from State Papers Connected with the Persian Gulf, with Summary of events 1680-1800. Bombay, 1905.
- "Selection from the Records of the Government of Bombay No. 24. Bombay, 1856.
- United Nation's Report of the Ad hoc Committee on Oman" New York, January 1965.

- 28- Mann, Major Clarence, "Abu Dhaby, Birth of an Oil Sheikhdom", London, 1964.
- 29- Marlowe, John, "The Persian Gulf in the Twentieth Century", London, 1962.
- 30- Maurizi, Vinanzo, "History of Sayed Said, Sultan of Muscat", London, 1819.
- 31- Mezerik Avraham : The Koweit-Irak Dispute, N.Y., 1961.
- 32- The Middle East and North Africa, Europa-Publications, 1971.
- 33- Milles, Samuel B., "The Countries and tribes of the Persian Gulf", London, 1919.
- 34- Outram, Sir James, "The Persian Campaign", London., 1860.
- 35- Philby, St. John : Arabia, London, 1930.
- 36- Printout, Henri, "L'île de France sous Decacen, 1803-1810", Paris, 1901.
- 37- Rolland, J.F., "Les Portugais à La Conquête de l'Asie".
- 38- Rouir, "La rivalité Anglo-russe au 19e siècle en Asie : Golfe persique et frontière de l'Inde", Paris, 1908.
- 39- Rowlinson (Major general Sir Henry), "England and Russia in East", London, 1875.
- 40- Ruete (Rudolf Said-Said bin Sultan 1791-1856) Ruler of Oman and Zauzibar. His place in the history of Arabia and Africa", London, 1929.
- 41- Sadlier (captain George), "A diary of a journey in inner Arabia" publié dans "Transactions of the literary of Bombay", en 1823.
- 42- Soulié Jean Louis : Le Royaume d'Arabie Séoudite, Paris, 1966.
- 43- Sykes-Percy, History of Persia, London, 1915.

- 15- Farroughy, Abbas, "The Bahrein Islands", 1750-1951. New York, 1951.
- 16- Firouz, Kajar, "Le Sultanat d'Oman et la question de Muscat" Paris, 1914.
- 17- Fontanier, V. "Voyage de la Côte de Malabar of Constantinople par le Golfe Persique, l'Arabie et la Mésopotamie etc." Paris 1844.
- 18- Graves, Philip, "The Life of Sir Percy Cox", London., 1941.
- 19- The Gulf, Implication of British Withdrawal, New-Series, No. 8, Washington, 1969.
- 20- Hay, Sir Rupert, "The Persian Gulf States", Washington, 1959.
- 21- Heude, (William), Voyage de la côte de la Malabar à Constantinople par le Golfe persique, l'Arabie, Mésopotamie etc. Persia, 1820.
- 22- Hurewitz : Diplomacy in the Near and Middle East, 2 Vols, New York, 1956.
- 23- Kelly, John : Eastern Arabian Frontiers, London, 1964.
Britain and the Persian Gulf (1795-1880), London, 1968.
- 24- Koweit, A Welfare State, Ministry of Information., 1961.
- 25- Longrigg, H. Stephen
 - 1- "Four Centuries of Modern Iraq" Oxford 1925.
 - 2- "Oil in the Middle East", London, 1954.
- 26- Lorimar, G.J., Gazetteer of the Persian Gulf, Calcutta 1915.
- 27- Low, Charles, "History of the Indian Navy", 1612-1863, London, 1877.

قائمة باختراعات الراجع الواردة في الموائم

- A.A.E. = Archives des affaires étrangères
- A.C. = Archives des Colonies
- B.D.W. = British Documents on the origin of the war
- B.P.C. = Bombay Political consultations
- G.P.G. = Gazetteer of the Persian Gulf
- S.L.B. = Secret letter from Bombay
- S.P. = British and foreign state papers
- S.R.B. = Selection from the records of the government of Bombay

مستند
البحرين
الاسم

- 44- United Nations Documents : Report of the Ad hoc Committee on Oman, New York, January, 1965.
Report of the personal representative of Secretary General in charge of the good Offices Mission to Bahrein. Security Council, 30-4-1970.
- 45- Vernier : L'Irak d'aujourd'hui, Paris, 1962.
- 46- Wellsted (J.Q.), Travels in Arabia, London, 1838.
- 47- Wilson (Lt. Colonel sir Arnold T.), The Persian Gulf, A Historical sketch from the beginning to the 20th century". Gxford, 1959.